

**التيجان المكلة**

**في شرح النصائح المرسلة**

**تأليف**

**العلامة عثمان بن الشيخ عمر بن الشيخ داود**

مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ  
رواه البخاري ومسلم

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.  
أما بعد (١): فيقول خويدم طلبة العلم عثمان بن الشيخ عمر بن الشيخ داود: إن منظومتي "النصائح المرسله، إلى طلاب العلم لله والآخرة" لَقِيَتْ -والحمد لله- قبولا وترحيبا كبيرا عند طلبة العلم، فالتَمَسَ مِنِّي بعضُ من لا تسعني مخالفته أن أضع عليها شرحا يستفيد منه الطالب، ويقضي به نَهْمَتَهُ الراغبُ، وينال به مناه والمآرب، فأجبتَه والله أعلم بما لدى من العوارض والمتاعب، وتوالي الهموم والنوائب، لكنني أرجو من الله التيسير بفضله ولطفه، كما يسّر لي هذه المنظومة المشروحة.

وألترم غالبا إن شاء الله تعالى أن أعزو الفوائد إلى قائلها، اقتداء بأهل العلم والفضل من العلماء، وقد قال الحافظ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم): يقال: إن من بركة العلم أن تضيف الشيء إلى قائله، وقال الإمام النووي رحمه الله في (بستان العارفين): إن من النصيحة أن تضاف الفائدة التي تستغرب إلى قائلها، فمن فعل ذلك بورك له في علمه وحاله، ومن أوهم ذلك فيما يأخذه من كلام غيره أنه له فهو جدير أن لا ينتفع بعلمه، ولا يبارك له في حاله، ولم يزل أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائلها، نسأل الله التوفيق لذلك دائما (٢) اهـ.

<sup>١</sup> بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وكرّم بني آدم وفضّلهم تفضيلا، ورفع درجات الذين أوتوا العلم في الدنيا وفي الآخرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وسيد الكونين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.  
وبعد: فهذه تقريرات لطيفة وإشارات منيفة وضعتها على كتابي "التيحان المكلفة في شرح النصائح المرسله" تين ما خفي معناه أو استغلق مبناه، وأذكر فيها تخريج بعض الأحاديث، والفوائد المهمة، والزوائد المثمة التي لا يستغني عنها رواد المعرفة وراغبو الحكمة، والله سبحانه وتعالى الموفق، وهو المستعان، وإليه تفويض واستنادي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

قال شيخنا الشيخ عبد الله الشيخ داود: اختلف في أول من تكلم بأما بعد فقيل: داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهو الأصح، وقيل: يعرب بن قحطان، وقيل: قس بن ساعدة، وقيل: سحبان بن وائل، وقيل: كعب بن لؤي.

<sup>٢</sup> بستان العارفين، ص ١٧-١٨.

وهذا مع أننا في زمان الاتهام والشكوك، فينبغي التصريح بالمرجع الذي نُقِلَتْ منه الفائدة، والباب الذي ذُكِرت فيه، وربما أزيد ذكر رقم الصفحة، وهذا كله ليكون القارئ والمطالع على ثقة واطمئنان، وليسهل له البحث والرجوع إلى ذلك الكتاب إذا دعت الحاجة إليه أو عند إرادة التحقيق، وسميته: "التيجان المكلّله، في شرح النصائح المرسله".

وأذكر إن شاء الله تعالى في بعض المواضع حكايات العلماء والصالحين ومحاسنهم المتنوعة، مثل همهم العالية وأخلاقهم المرضية، وصبرهم على شدائد تعلّم العلم وتعليمه وغير ذلك، فإن ذلك من أقوى الأسباب لرفع الهمة، ودفع العجز والكسل وبذل الجهد، إذ الإنسان مجبول على اقتداء من يثق به، والتأسي بمن يحبه، قال الله تعالى: **{ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون }**، وفي ذلك أيضا التعرض لبركاتهم ونزول الرحمة التي تنزل عند ذكرهم، وقد ذكرتُ في كتابي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أن الإمام سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رحمهما الله قال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، وأن محمد بن يونس قال: ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين، وأن بشر بن الحرث الحافي قال: إن أقواما موتى تحيا القلوب بذكرهم، وإن أقوما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم (١) اهـ.

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه (صفحات من صبر العلماء): قال بعض العلماء من السلف: الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت الله بها قلوب أوليائه، وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: **{ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك }**. وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلى من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم، وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: **{ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده }** وقوله سبحانه: **{ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب }** نقله الحافظ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله)، والقاضي عياض في (ترتيب المدارك)، والحافظ السخاوي في (الإعلان بالتوبيخ)، والمؤرخ المقرئ في (أزهار الرياض).

وجاء في مقدمة كتاب (اللقط في حكايات الصالحين) للإمام ابن الجوزي: عن مالك بن دينار قال: الحكايات تُحَفُّ الجنة، وقال الجنيد: الحكايات جند من جنود الله عز وجل،

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين في باب التبرك بذكر الصالحين واستئزال الغيث بهم .

يقوّى بها إيمان المريدين، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: قوله تعالى: {وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِ فُؤَادَكَ}. وقال آخر: استكثروا من الحكايات فإنها درر، وربما كانت فيها الدرة اليتيمة اهـ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لرجل من بكر بن وائل-قد كبر وذهبت منه لذة المأكّل والمشرب والنكاح-: أتحب أن تموت؟ قال: لا، قيل: فما بقي من لذتك في الدنيا؟ قال: أستمع العجائب .

ثم قال أبو غدة: إن خير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثابة، وإذكاء الهمم، وتقويم الأخلاق بصمت وهدوء، ودون أمر أو نهى، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفع عن سفاسفها، والانتساء<sup>(١)</sup> بالأسلاف الأجلاء هو قراءة سير نبغاء<sup>(٢)</sup> العلماء الصلحاء، والوقوف على أخبار الرجال العظماء، والتّملّي<sup>(٣)</sup> من مناقب الصالحين الربانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين، فذلك خير مهمّاز<sup>(٤)</sup> لرفع الهمم، وشد العزائم، وسُمّو المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيات، وتفجير الطاقات المدفونة، والصبر على اجتياز العقبات والصعوبات، واحتلال ذرى المجد الرفيع، وكسب الذكر الحسن، واغتنام الباقيات الصالحات<sup>(٥)</sup> اهـ باختصار.

وأرجو أن يكون سالما عن الإطناب الممل، والإيجاز المخلّ، بل يكون متوسطا موفيا للمقصود، بعون الملك المعبود، ذي الفضل والجود، وأسأله تعالى الإعانة والإمداد، والحفظ من كل ما يؤدّي إلى الندم والعتاب، في هذه الدنيا ويوم المآب، فإنه قريب يجب بفضله دعوة الداعي إذا دعاه، ولا يخيب لكرمه من رجاءه، وهو المحسن الكريم، ذو الفضل العظيم، والجود

<sup>١</sup> الانتساء: القدوة، وفي القاموس: اتّسّى به جعله قدوة .

<sup>٢</sup> النابغة: قال في القاموس: الرجل العظيم الشأن، والهاء للمبالغة .

<sup>٣</sup> وفي القاموس: تملّى عمره أي استمتع منه، وفي الأساس للزخشي: ملاك الله حبيبك طوّل لك الإمتاع به.

<sup>٤</sup> المهمّاز حديدة في مؤخر خف الرائض اهـ من الصحاح للجوهري، وفي القاموس: المهمزة المقرعة والعصا أو عصا في رأسها حديدة ينخس بها الحمار .

<sup>٥</sup> عبد الفتاح أبو غدة، في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل،

العميم، وإنه يمن على من يشاء بما يشاء، فكم أسدى إلى ضعيف مثلي ما لم تبلغه أمانى الكبراء، ومطامح الفضلاء.

وأطلب من الله تعالى بجاه حبيبه الأعظم، وصفيه الأفخم، أن يرزقني الإخلاص فيه والتوفيق، وأن يتقبله مني، فإنه نعم المولى ونعم النصير، وهو على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

## مقدمة في فضائل العلم وأهله

### تعريف العلم

قال إمام الحرمين: لا يجد العلم لتعذره، وقال أيضا: إن حده عَسِرٌ، فالرأي الإمساك عن تعريفه .

وقال الإمام الرازي: لا يجد لكونه ضروريا.

وقال الحافظ العسقلاني في فتح الباري: قد أنكر ابن العربي في شرح الترمذي على من تصدى لتعريف العلم فقال: هو أَيْبُنُ من أن يُبَيَّن، ثم قال الحافظ العسقلاني: هذه طريقة الغزالي وشيخه الإمام أن العلم لا يجد لوضوحه أو لعسره (١).

وعرفه بعضهم ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو اعتقاد الشيء على ما هو به، وقال آخرون: هو الذي يوجب كونَ من قام به عالما، وقال آخرون: هو إدراك المعلوم على ما هو به، وقد ذكر من تعاريفه المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) خمسة عشر تعريفا، وقال: يطلق لفظ العلم على أسماء العلوم المدونة كالنحو والفقه، ثم قال: والتحقيق أن المعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك.

### فضل العلم

قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار، وتواترت وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم والحث عليه، فأذكر منها نبذا قليلة.

منها: قوله تعالى: {ولقد جنّاهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة}

وقوله تعالى: {فلنقصن عليهم بعلم}

وقوله تعالى: {خلق الإنسان علمه البيان} قال الغزالي: إنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وقوله تعالى: {وقل رب زدني علما} .

قال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري): إن الله تعالى لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة

<sup>١</sup> فتح الباري: ج١ ص١٤١ .

ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه اهـ.

(١) روينا إجازة عن السيد العلامة الإمام القدوة الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد الشاطري باعلوي الحسيني (١) قال: أخبرني بكتاب الجامع الصحيح تأليف الإمام الحجة أمير المؤمنين في حديث سيد المرسلين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه بسند عال شيخي العلامة الجليل والفهامة النبيل الحبيب عبد الله بن صالح بن هاشم الحبشي قراءة عليه كله أو أكثره في قبة السيد الإمام أبي بكر العدني بن عبد الله العيدروس بـ "عدن" عن الحبيب محمد بن هادي بن حسن السقاف عن سيدنا الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي عن السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل عن شيخه ابن السنة صالح الفلاني عن سيدنا أحمد بن محمد بن العجل اليميني المعمر ١٤٧ سنة عن شيخه المعمر مفتي مكة قطب الدين محمد بن أحمد الهروي عن شيخه أبي الفتوح الطاووسي عن شيخه المعمر بابا يوسف الهروي قال: أخبرنا شيخنا عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الفاسي الفرغاني المعمر ١٣٠ سنة قال: أخبرنا شيخنا أبولقمان يحيى بن عمار بن مقبل بن شاهان الختلافي المعمر ١٤٣ سنة قال: أخبرنا شيخنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري قال: أخبرنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال: حدثنا سعيد بن عُفَيْر حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال: قال حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيبا يقول: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله

---

<sup>١</sup> هو السيد العلامة الفقيه الشافعي المسند المربي الداعي إلى الله الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن علي بن حسين بن محمد بن أحمد بن عمر بن علوي الشاطري الحسيني الحضرمي التريمي، ولد بمدينة تريم سنة ١٣٥٧هـ بحضرموت. وكانت هذه الإجازة بالمكاتبة والمراسلة أرسلها إلى الشيخ العلامة الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري من مدينة تريم بواسطة أختينا وحبينا الشيخ أبي بكر بن حسن بن مالم، بتاريخ ١٤٣٠/٩/٤هـ .

(١). ورويناه أيضا عن شيخنا الشاطري بطرق أخرى، وروى الحديث أيضا الإمام مسلم وغيره.

(٢) وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به، رواه البخاري ومسلم.

(٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، رواه البخاري ومسلم.

قال النووي: المراد بالحسد الغبطة، وهي أن يتمنى مثله، ومعناه ينبغي أن لا يغبط أحداً إلا في هاتين الموصلتين إلى رضا الله تعالى.

(٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، رواه مسلم (٢).

وقال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في (الترغيب والترهيب): وناسخ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به لهذا الحديث وأمثاله، وناسخ غير النافع مما يوجب الإثم عليه وزره ووزر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به، لما تقدم من حديث مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٣).

<sup>١</sup> رواه البخاري في كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع، ص ٥١-٥٢.

<sup>٣</sup> الترغيب والترهيب في باب الترغيب في سماع الحديث وتبليغه ونسخه والترهيب من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتاب العلم.



(٥) وفي (مجمع الزوائد): عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العلم خير من فضل العباد، وخير دينكم الورع، رواه الطبراني في الأوسط، والبزار، وفيه عبد الله بن عبد القدوس، وثقه البخاري وابن حبان وضعفه ابن معين .

(٦) وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل العبادات الفقه، وأفضل الدين الورع، رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن أبي ليلى، وضعفه لسوء حفظه .

(٧) وروى ابن عبد البر عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر (١).

(٨) وروى الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل (٢).

(٩) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب، رواه ابن ماجه وغيره (٣).

وفي رواية عن أنس أيضا: اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم (٤).

---

<sup>١</sup> قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، ورمز له بالصحة .

<sup>٢</sup> وفي الجامع الصغير: رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس، ورمز له السيوطي بالضعف .

<sup>٣</sup> قال المناوي في شرح الجامع الصغير: قال المنذري: سنده ضعيف، وقال البيهقي: طريقه كلها ضعيفة، وقال ابن عبد البر: روي من وجوه كلها معلولة لكن معناه صحيح، وقال الزركشي: روي من طرق تبلغ رتبة الحسن. وقال المصنف: حديث حسن اهـ. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث (ومسلمة) وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحا.

<sup>٤</sup> حديث اطلبوا العلم ولو بالصين إلخ ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال: فيه أبو عاتكة منكر الحديث، وقال السيوطي في التعقبات: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريقه، وقال: متن مشهور وإسناد ضعيف، وأبو عاتكة من رجال الترمذي لم يجرح بكذب ولا تهمة، وقد وجدت له متابعا عن أنس، أخرجه أبو يعلى وابن عبد البر من طريق كثير بن شنظير عن ابن سيرين عن أنس، وله طرق كثيرة يصل مجموعها إلى مرتبة الحسن قاله الحافظ المزي انتهى ما في التعقبات باختصار .

وقال ابن عبد البر عن عكرمة قال: قال عيسى عليه السلام: لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً، ولا تعطي الحكمة لمن لا يريد لها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ، ومن لا يريد لها شر من الخنزير. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قام أخي عيسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم (١).

### الآثار الواردة في فضائل العلم

ومن الآثار ما ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) عن ابن مسعود قال: ياءىها الناس عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُفْتَقَرُ إلى ما عنده، وعليكم بالعلم، وإياكم والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق، فإنه سيجيء قوم يتلون كتاب الله ينبذونه وراء ظهورهم، رواه الطبراني في الكبير، وأبو قلابة لم يسمع من ابن مسعود.

وعن رجل من عبس قال: كنت أمشي مع سليمان على شط دجلة فقال: يا أبا بني عبس، انزل فاشرب، فشربت ثم قال: اشرب، فشربت، فقال: ما نقص شربك من دجلة؟ قال: قلت: ما نقص، قال: العلم كذلك، يؤخذ منه ولا ينقص، فذكر الحديث، وهو بطوله في الزهد في عيش السلف، رواه الطبراني في الكبير، وفيه رجل لم يسم . وقال النووي في المجموع: عن أبي هريرة رضي الله عنه: لأن أعلم بابا من العلم في أمر ونهي أحب إليّ من سبعين غزوة في سبيل الله .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

وقال أيضاً: من لا يحب العلم فلا خير فيه فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وعن سفيان الثوري والشافعي رحمهما الله: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله باب آفة العلم وغائلته وإضاعته، وكراهية وضعه عند من ليس بأهله، ج ١ ص ١٣٢ -

وعن أحمد بن حنبل: قيل له: أي شيء أحب إليك؟ أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعاً، قال: فنسخك (١) تعلم بها أمر دينك هو أحب .

وعن الزهري ومكحول: ما عبد الله بأفضل من الفقه .

وعن سعيد بن المسيب قال: ليس عبادة الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في دينه يعني ليس أعظمها وأفضلها الصوم بل الفقه (٢) اهـ .

وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه .

وقال وهب بن منبه: يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيئاً، والعز وإن كان مهيناً، والقرب وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقيراً، والنبيل وإن كان حقيراً، والمهابة وإن كان وضيعاً، والسلامة وإن كان سفيهاً .

وعن معاذ رضي الله عنه: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة (٣) .

وقال سفيان بن عيينة: لم يعط أحد في الدنيا شيئاً أفضل من النبوة، وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه .

وعن ابن عمر رضي الله عنه: مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة (٤) .

وقال بعض السلف: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل .

وقيل: العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح البصائر في الظلم، به تبلغ منازل الأبرار، ودرجات الأخيار، والتفكر فيه ومدارسته ترجح على الصلاة، وصاحبه مبجل مكرم (٥) .

<sup>١</sup> وفي تعليق على المجموع لمحمد نجيب المطيعي: هكذا في الأصل، ولعل المعنى: نسخك مسألة إلخ.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع للنووي، ص ٥٤-٥٦ .

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٣، وتذكرة السامع والمتكلم، ص ٦٩-٧٠ .

<sup>٤</sup> تذكرة السامع والمتكلم، ص ٧١ .

<sup>٥</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٣ .

وروى أبو الفضل السليماني في كتابه (الحث على طلب الحديث) من طريق عبد الله بن عبد الوهاب الخوارزمي قال: سألت أحمد قلت: إنا نطلب الحديث ولسنا نعمل به، قال: وأي عمل أفضل من طلب العلم؟ (١).

وقال إمام الحرمين رحمه الله في كتابه (الغياثي): فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسدّ مسدّ الأمة، ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر عليه، وبالله التوفيق اهـ—(٢).

ومن شرف العلم وفضله أن أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) في قوله تعالى: {يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} دليل على فضل العلم وأهله، وفي الحديث: إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم. أي تخضع وتتواضع، وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عباد الله لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب، فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذلت إعظاما للعلم وأهله، ورضا منهم بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأخبار فيهم والربانيين منهم!! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم اهـ.

وذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره الشهير بالتفسير الكبير أنه عليه الصلاة والسلام كان يحدث إنسانا فأوحى الله إليه أنه لم يبق من عمر هذا الرجل الذي تحدّثه إلا ساعة وكان هذا وقت العصر، فأخبر الرسول بذلك، فاضطرب الرجل وقال: يا رسول الله دلني على أوفق عمل لي في هذه الساعة، قال: اشتغل بالتعلم، فاشتغل بالتعلم، وقبض قبل المغرب. قال الرواي: فلو كان شيء أفضل من العلم لأمره النبي صلى الله عليه وسلم به في ذلك الوقت .

وأراد واحد خدمة ملك، فقال الملك: اذهب وتعلم حتى تصلح لخدمتي، فلما شرع في التعلم وذاق لذة العلم بعث الملك إليه وقال: اترك التعلم فقد صرت أهلا لخدمتي، فقال:

<sup>١</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج ٢ ص ٣٢٤.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ٥٧ .

كنت أهلاً لخدمتك حين لم تربي أهلاً لخدمتك، وحين رأيتني أهلاً لخدمتك رأيت نفسي أهلاً لخدمة الله تعالى، وذلك أي كنت أظن أن الباب بابك لجهلي، والآن علمت أن الباب باب الرب .

وقال القرطبي: المعصية عند الجهل لا يرجى زوالها، وعند الشهوة يرجى زوالها .  
وقال قتادة: لو اكتفى أحد من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام، ولم يقل: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً.

وكان لسليمان عليه السلام من ملك الدنيا ما كان حتى إنه قال: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ثم إنه لم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حيث قال: {يا أيها الناس علمنا منطق الطير} فافتخر بكونه عالماً بمنطق الطير، فإذا حسن من سليمان عليه السلام أن يفتخر بذلك العلم فلأن يحسن بالمؤمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين كان أحسن .  
وكان علم آدم سبباً له في حصول السجدة والتحية، ثم نقول: من علم أسماء المخلوقات وجد التحية من الملائكة، فمن علم ذات الخالق وصفاته أما يجد تحية الملائكة بل يجد تحية الرب، قال: {سلام قولاً من رب رحيم}، وعلم الخضر كان سبباً لأن وجد تلميذاً مثل موسى ويوشع عليهما السلام، وعلم يوسف كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة.

وقال أيضاً في تفسيره: الكلب إذا تعلم وأرسله المالك على اسم الله تعالى صار صيده النجس طاهراً (١)، والنكتة أن العلم هناك انضم إلى الكلب فصار النجس ببركة العلم طاهراً، فهنا النفس والروح طاهرتان في أصل الفطرة إلا أنهما تلوثتا بأقذار المعصية ثم انضم إليهما العلم بالله وبصفاته فترجو من عميم لطفه أن يقلب النجس طاهراً ههنا والمردود مقبولا.

وقال أيضاً: القلب رئيس الأعضاء، ثم إن تلك الرياسة ليست للقوة فإن العظم أقوى منه، ولا للعظم فإن الفخذ أعظم منه، ولا للحدة فإن الظفر أحدٌ منه، وإنما تلك الرياسة بسبب العلم، فدل على أن العلم أشرف الصفات (٢).

<sup>١</sup> يعني أن الصيد لو قتله الكلب غير المعلم لكان حراماً نجساً، لكنه لما قتله ذلك الكلب المعلم كان حلالاً طاهراً غير معصية.

<sup>٢</sup> تفسير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها}.

وقال النووي وبدر الدين بن جماعة: إن العلماء متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به؛ ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه ولا ينعكس؛ ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك؛ ولأن العابد تابع للعالم مقتد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس؛ ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة لله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية أعني العلم الذي كلامنا فيه فكان أفضل من النافلة (١).

### أنواع العلم

وفي (الترغيب والترهيب) روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، علم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم، رواه الحافظ أبوبكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح (٢).

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، علم ثابت في القلب فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على عباده، رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس والأصبهاني في كتابه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل، رواه أبو منصور الديلمي في المسند وأبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين التي له في التصوف (٣) اهـ .

<sup>١</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٦، وتذكرة السامع والمتكلم، ص ٧٢.

<sup>٢</sup> ذكره ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم في باب ذم الفاجر من العلماء وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا، وذكر الإمام التبريزي في مشكاة المصابيح هذا الحديث عن الحسن موقوفا. وحسنه أيضا زين الدين العراقي كما في قوله العلامة أبو الفضل الشيخ عبد الله الصديق الغماري في كتابه: الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام.

<sup>٣</sup> الترغيب والترهيب، كتاب العلم، وذكره أيضا الهندي في كنز العمال ج ١٠ ص ٧٩، رقم الحديث ٢٨٩٣٨.

وعن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطّلع عليه الناس، رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله وسلم فقال: جئتَ تسأل عن البر؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك، قال النووي في الأربعين: رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن .

وحكي أن العارف بالله تعالى أبا الحسين النوري سئل عن مسائل، فالتفت يمينا وشمالا، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأجاب بجواب صحيح، فسئل عن التفاته، فقال: سألت ملك اليمين فلم يجيني، ثم ملك الشمال فلم يجيني، فسألت قلبي فأخبرني بما أجبت به (١).

وروى الحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم الباطن، قال: سألت جبريل عن علم الباطن، قال سألت الله تبارك وتعالى عن علم الباطن، قال: يا جبريل هو سر بيني وبين أوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم، لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل (٢). وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأما أحدهما فَبَثَّتُهُ، وأما الآخر فلو بَثَّتُهُ قُطِعَ هذا البلعوم اهـ.

وقال الطيبي في شرحه على المشكاة في شرحه لهذا الحديث: قوله: وعائين شَبَّهَ نوعي العلم بالظرفين لاحتواء كل منهما ما لم يحتوه الآخر، ولعل المراد بالأول علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار، المختص بالعلماء بالله من أهل العرفان، وأنشد الشيخ أبو حامد الغزالي لزين العابدين في المنهاج:

يا رب جوهر علم لو أبوح به      لقل لي أنت ممن يعبد الوثنا  
ولاستحل رجال مسلمون دمي      يرون أقبح ما يأتونه حسنا  
إني لأكتم من علمي جواهره      كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا  
وقد تقدم في هذا أبو حسن      إلى الحسين وأوصى قبله الحسن

١ الجواهر اللؤلؤية ص ٢٤٦.

٢ إتخاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٤٤، وسيأتي إن شاء الله في الإخلاص .

وقال بعض العارفين: العلم المكنون والسر المصون علم هذه الطائفة، وهو نتيجة الخدمة وثمره الحكمة، لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات، ولا يَسْعَد به إلا المصطفون بأنوار المشاهدات، إذ هو أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة، وأهل الغرة بالله لها منكرون، وعنهم مدبرون.

وقال شيخنا شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي قدس الله سره: قد اندرس كثير من دقيق علومهم.

وقال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه. وروى الشيخ أبو طالب المكي عنه أنه قال: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني وانقطع، ولكنه من حق بدا وإلى حق يعود (١) اهـ .

وفي (الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام) روى أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن. رجال الحديث ثقات كما قال الحافظ الهيثمي، قال ابن النقيب في تفسيره: ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق اهـ .

وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن.

وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلى عليّ سبعين عهدا لم يعهده إلى غيره . فهذا تصريح بأن الصحابة كانوا يعترفون لعليّ بتفوقه في علوم الحقائق والأسرار، وهذا مما لا نزاع فيه، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابها، وهو حديث صحيح كما بينه شقيقي الحافظ أبو الفيض في كتاب فتح الملك العلي.

وقال ابن عباس: سلم الصحابة لعليّ تسعة أعشار العلم وشاركهم في العشر العاشر.

<sup>١</sup> شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكشاف عن حقائق السنن للإمام العلامة المحدث شرف الدين

الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ج ٢ ص ٧١٥ .



ثم قال الغماري بعد كلام: لهذا كان عليّ أستاذ الصوفية ورئيسهم كما قال الجنيد وابن العربي الحاتمي وغيرهما، وسلسلة الطريق لا تتصل إلا به، ولا تنتهي إلا إليه بالتلقين والافتداء والصحة كما فصله أخي في البرهان الجلي (١) اهـ .

وفي الباهر للحافظ السيوطي: أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد: هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أنه ابنه، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة: هذا أخي يارسول الله، ولد على فراش أبي، ولده من وليدته، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شبهه، فرأى شبها بينا بعتبة، فقال: هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحجر (٢)، واحتجني منه يا سودة بنت زمعة، قالت: فلم تره سودة قط، وفي لفظ عند البخاري وأبي داود هو أخوك يا عبد. وفي لفظ: فما رآها حتى لقي الله، وفي لفظ مسلم قالت عائشة: فو الله ما رآها حتى مات، قال الشيخ سراج الدين بن الملتن والحافظ ابن حجر: استدِل بهذا الحديث على أن حكم الحاكم بالظاهر لا يحل الأمر في الباطن؛ فإنه حكم بأنه أخو عبد بن زمعة لقوله في الطرق الصحيحة هو أخوك يا عبد، وإذا ثبت أنه أخو عبد لأبيه فهو أخو سودة لأبيها، ثم أمرها بعد ذلك بالاحتجاب منه، فلو كان الحكم يُحلُّ الأمر بالباطن لما أمرها بالاحتجاب منه، قال ابن الملتن: وقد قال بعض الحنفية: لا يجوز أن يجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنا لزمعة ثم يأمر أخته أن تحتجب منه، فهذا محال، قال ابن الملتن: ليس بمحال بل له وجه، قال: وقد وقع في رواية البخاري في المغازي: هو أخوك يا عبد بن زمعة، ووقع في مسند أحمد وسنن النسائي: واحتجني منه يا سودة، فليس لك بأخ، واختلف في تصحيحها فأعلها البيهقي، وقال المنذري: إنها زيادة غير ثابتة، ورواها الحاكم في مستدركه وصحح إسناده اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر: رجال إسناده هذه الرواية رجال الصحيح، إلا شيخ مجاهد، وهو يوسف مولى آل الزبير، قال: وقد طعن البيهقي في سنده فقال: فيه جرير وقد نسب إلى

<sup>١</sup> الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام، للشيخ عبد الله الصديق الغماري، ط الثالثة ص ١٩-٢٠.

<sup>٢</sup> الحجر الخبيبة والحرمان، كذا فسره ابن الأثير في النهاية .

سوء الحفظ، وفيه يوسف وهو غير معروف، قال: وتعقب بأن جريرا هذا لم ينسب إلى سوء الحفظ، وكأنه اشتبه عليه بجرير بن حازم، وبأن يوسف معروف من موالي آل الزبير، قال: فإذا ثبتت هذه الزيادة تعين تأويل نفي الأخوة عن سودة، قال: وقد نقل ابن العربي عن الشافعي أنه أوله، وقال: لو كان أحاها بنسب محقق لما منعها كما أمر عائشة أن لا تحتجب من عمها من الرضاعة اهـ

وحاصله: أنه جعله أبا لعبد بظاهر الشرع؛ لأن الولد للفراش ونفى أخوته عن سودة عملا بمقتضى الباطن، وما اطلع عليه من الحقيقة، فهذا حكم في هذه القضية الواحدة بالظاهر والباطن معا.

وقال النسائي: أنبأنا سليمان بن سلم المصاحفي البلخي: حدثنا النضر بن شميل حدثنا حماد أنبأنا يوسف بن سعد عن الحارث بن حاطب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلص فقال: اقتلوه، فقالوا: يارسول الله إنما سرق، فقال: اقتلوه، قالوا: يارسول الله إنما سرق: قال: اقطعوا يده، فقال: ثم سرق فقطعت رجله، ثم سرق على عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى قطعت قوائمه كلها، ثم سرق أيضا الخامسة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بهذا حين قال اقتلوه، ثم دفعه إلى فتية من قريش ليقتلوه، منهم عبد الله بن الزبير، وكان يحب الإمارة، فقال: أمروني عليكم فأمرؤه، فكان إذا ضربه ضربوه حتى قتلوه، أخرجه الحاكم في المستدرک، قال: حدثني أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن حسن بن الحري حدثنا عفان بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن يوسف بن سعد، وقال: صحيح اهـ ورجاله رجال الصحيح سوى يوسف بن سعد الجمحي وهو ثقة كما قاله الذهبي في الكاشف، وقد أخرجه الطبراني من طريق عن حماد بن سلمة به.

وأخرجه من طريق آخر عن خالد الحذاء عن يوسف، وأخرجه أبو يعلى والهيثم بن كليب الشاشي في مسنديهما وصححه أيضا المقدسي فأخرجه في المختارة، وهذا من الحكم بالحقيقة، فقد نقل الخطابي الاتفاق على أن السارق لا يقتل بحال، وهو يدل على أنه كان مخيرا بين الحكم بظاهر الشريعة وباطن الحقيقة، فأمر أولا بقتله على مقتضى الحقيقة، فراجعوه، وأمر ثانيا بقتله أيضا، فراجعوه، فأمر بقطعه على مقتضى الشريعة، فلما سرق

الخامسة نفذ أبو بكر حكم رسول الله فيه كما صرح باستناده إليه، فإن توهم جاهل أنه إنما قتله باجتهاده فهذا من أعظم الجهل، ويرده أمران:

الأول تصريح أبي بكر باستناده إلى رسول الله بقتله، ولا يكون الاجتهاد مع وجود النص. والثاني: أن الخطابي قال: إنه لم يذهب أحد من الفقهاء إلى أن السارق يقتل، فدل على أن أبا بكر لم يفعل ذلك باجتهاده، بل بنص في هذا الرجل بخصوصه (١) اهـ.

وفي الباهر أيضا: قال ابن سعد في الطبقات أنبأنا محمد بن عمر الواقدي عن شيوخه قال: قد قتل مجذر بن زياد سويد بن الصامت في وقعة التقيا فيها في الجاهلية، فظفر المجذر بسويد فقتله وذلك قبل الإسلام، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد ومجذر بن زياد وشهدا بدرا، فجعل الحارث يطلب مجذرا ليقتله بأبيه فلا يقدر عليه، فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حمراء الأسد أتاه جبريل فأخبره أن الحارث بن سويد قتل مجذر بن زياد غيلة، وأمره أن يقتله، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء في ذلك اليوم، في يوم حار، فدخل مسجد قباء فصلى فيه، وسمعت به الأنصار، فجاءت تسلم عليه، وأنكروا إتيانه في تلك الساعة وفي ذلك اليوم، حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفة مorsa (٢)، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عويم بن ساعدة فقال: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد فإنه قتله غيلة، فقال الحارث: قد والله قتلت، وما كان قتلي إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه، ولكن حمية من الشيطان، وأمر وكلت فيه إلى نفسي، وإني أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأخرج ديتيه وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة حتى إذا استوعب كلامه قال صلى الله عليه وسلم: قدّمه يا عويم، فاضرب عنقه، فقدّمه فضرب عنقه.

قال ابن الأثير: اتفق أهل النقل على أن الحارث بن سويد هو الذي قتل المجذر بن زياد فقتله النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الاتفاق الذي نقله ابن الأثير يقتضي الحكم بصحة الحديث وإن لم يكن إسناده على شرط الصحة كما تقرر في علم الحديث، وذكره

<sup>١</sup> الباهر ص ٣٤-٣٧.

<sup>٢</sup> أي مصبوغة بالورس. مختار الصحاح.

ابن عبد البر في (التمهيد) وغيره، وهذا الحكم المذكور فيه من الحكم بمقتضى الحقيقة والاطلاع على الباطن؛ لأنه لم يقع فيه دعوى من الوارث ولا طلب منه للقصاص، ولا قبول الدية ولا تأخير لبلوغ من كان من الورثة صغيراً، وكل هذه الأمور من مقتضيات الشريعة.

فإن قيل: إنما قتله من غير دعوى الوارث ولا طلبه لأنه جاءه الوحي بذلك؟ قلت: نعم، وهو نفس المدعى، فإن معنى الحكم بالحقيقة أن يوحى إليه بحقيقة الحال وباطن الأمر، ويؤمر بتنفيذ ذلك من غير توقف على وجود الشرائط التي تعتبر في الشريعة، وهذا معنى الحكم بالحقيقة ولا معنى له غيره، وما قتل الخضر الغلام إلا بوحي أوحاه الله إليه وأطلعه على أنه طبع كافراً وأمره أن يقتله من قبل أن يوجد الشرطان الاعتبار في الشريعة، وهما البلوغ ومباشرة الكفر؛ ولهذا قال: {وما فعلته عن أمري} أي ما فعلته إلا بوحي من الله وأمره لي بذلك.

قال أبو حيان في تفسيره: الجمهور على أن الخضر نبي، وكان علمه معرفة بواطن أوحيت إليه، وعلم موسى الحكم بالظاهر اهـ .

وروى الإمام بن أحمد بن حنبل عن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم وترك عيالا فأردت أن أنفقها على عياله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أخاك محبوس بدينه فاقض عنه، فقال: يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة، فقال: اعطها فإنها محقة، أخرج ابن ماجه.

قال الحافظ زين الدين العراقي في كتاب (قرة العين بالمسرة بوفاء الدين): هذا حديث حسن.

وهذا من الحكم بالباطن فإن ظاهر الشريعة في مثل هذا أنه لا بد من البينة ومن اليمين أيضاً وجوباً لأنها دعوى على ميت خصوصاً والورثة صغار، ومع ذلك حكم بالأداء بدونهما لاطّلاعه على الباطن (١) .

وفي الباهر أيضاً: أخرج أبوبكر بن شيبه في (مسنده) عن أنس قال: كان فينا شاب ذو عبادة وزهد واجتهاد فسميناه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه، ووصفناه بصفته

<sup>١</sup> الباهر في حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالباطن والظاهر للحافظ السيوطي، ص ٥٦-٦٠.

فلم يعرفه، فبينما نحن كذلك إذ أقبل الرجل فقلنا: يا رسول الله هو هذا، فقال: إني لأرى في وجهه سفعة (١) من الشيطان، فجاء وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجعلت في نفسك أن ليس في القوم أحسن منك؟ فقال: اللهم نعم، ثم ذهب فدخل المسجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل؟ فقال: أبوبكر أنا، فدخل فإذا هو قائم يصلي، فقال: أقتل رجلا يصلي وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل المصلين؟، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل؟ فقال عمر: أنا يا رسول الله، فدخل المسجد فإذا هو ساجد، فقال مثل أبي بكر وزاد لأرجعن فقد رجع من هو خير مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه يا عمر، فذكر له، فقال رسول الله: من يقتل الرجل؟ فقال علي: أنا يا رسول الله، فقال: أنت تقتله إن وجدته، فدخل المسجد فوجده قد خرج، فقال عليه السلام: أما والله لو قتلتهم لكان أولهم وآخرهم ولما اختلف في أمي اثنان.

وأخرجه ابن المديني في مسنده، وأبو يعلى في مسنده، وللحديث طرق متعددة تقتضي ثبوته. ثم ذكر السيوطي طرقا ثمانية لهذا الحديث (٢) اهـ. وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا بعد ما حلف بالخروج من حق صاحبه كأنه صلى الله عليه وسلم علم كذبه، رواه أبو داود والنسائي والحاكم والإمام أحمد (٣).

وينقسم العلم أيضا إلى علم الأبدان وعلم الأديان، فقد قال الشافعي رحمه الله: العلم علمان، علم الفقه للأديان وعلم الطب للأبدان (٤). وفي آداب الشافعي ومناقبه للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي أن الإمام الشافعي قال: إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا، فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الذي للدنيا هو الطب.

<sup>١</sup> أي علامة من الشيطان ومس منه، قال ابن الأثير في النهاية: جعل صلى الله عليه وسلم ما به من العُجْب مسّا من الجنون.

<sup>٢</sup> الباهر ص ٤٤-٤٥.

<sup>٣</sup> مغني المحتاج كتاب الدعوى والبيّنات.

<sup>٤</sup> تعليم المتعلم في فصل ماهية العلم والفقه وفضله.

وعن الشافعي أيضا قال: لا تسكنن بلدا لا يكون فيه عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيب ينبتك عن أمر بدنك (١) اهـ .

### باب فضائل العالم

ورد في فضائل العالم آيات وأحاديث كثيرة وآثار من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فمن الآيات:

قوله تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق}

وقوله تعالى: {فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق}

وقوله تعالى: {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا} الآية

وقوله تعالى: {وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما}.

وقوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها} الآية .

وقوله تعالى: {ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} قال الزبيدي: قال ابن قتيبة: الحكمة إصابة الحق والعمل به.

وقوله تعالى: {فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.

وقوله تعالى: {وما يعقلها إلا العالمون}.

وقوله تعالى: {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم}.

وقوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} (٢) .

وقوله الله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}

وفي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) في تفسير قوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم

والذين أوتوا العلم درجات}: أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل

<sup>١</sup> آداب الشافعي ومناقبه ص ٣٢١

<sup>٢</sup> وفي كتاب النشر في القراءات العشر ج ١ ص ٢٠: ومن القسم الذي نقله غير الثقة كثير كالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره فإنها لا أصل لها. قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتابا في الحروف نسبته إلى أبي حنيفة. قلت: وقد رويت الكتاب المذكور ومنه: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} برفع الهاء ونصب الهمزة وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه، وتكلف توجيهها وإن أبا حنيفة ليرى منها.

عن ابن عباس في قوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا} الآية: قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم اهـ.

وقال الحافظ العسقلاني في الفتح: ورفعة درجات العالم تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة، وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي -وكان عامل عمر على مكة- أنه لقيه بعسفان فقال له: من استخلفت؟ فقال: استخلفت ابن أبرى مولى لنا، فقال عمر: استخلفت مولى؟، قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين(١) .

وقال تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط} الآية. قال بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم: بدأ سبحانه بنفسه وثني بملائكته وثالث بأهل العلم، وكفاهم ذلك شرفا وفضلا وجلالة ونبلا.

وقال الله تعالى: {قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون} .

وقال الله تعالى: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} .

وقال تعالى: {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آيتك به} قال الغزالي: تنبيهها على أنه اقتدر بقوة العلم .

وقال عز وجل: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا} قال الغزالي: بين سبحانه وتعالى أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم.

وقال تعالى: {ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم} رد سبحانه وتعالى حكمه في الوقائع إلى استنباط العلماء وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى .

<sup>١</sup>فتح الباري ج١ ص ١٤١.

(١) ومن الأحاديث ما رواه أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: العلماء ورثة الأنبياء (١).

قال الغزالي في الإحياء: ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة اهـ.

وقال بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة: وحسبك بهذه الدرجة مجدا وفخرا، وبهذه الرتبة شرفا وذكرًا، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة (٢) اهـ.

(٢) وعن أبي الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال: يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء (٣). وقال بعضهم: هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه وأدنى ما للعالم مداده.

(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين، وفقهه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه (٤).

<sup>١</sup> قال الحافظ العراقي في تخریج أحاديث الإحياء: أخرج حديث العلماء ورثة الأنبياء أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه. وقال السخاوي في المقاصد: رواه أحمد وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعا بزيادة إن الأنبياء = لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم. وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما وحسنه حمزة الكناي وضعفه غيرهم لكن له شواهد يتقوى بها اهـ إتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٧١.

<sup>٢</sup> تذكرة السامع والمتكلم في الباب الأول في فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه،

<sup>٣</sup> قال العراقي في تخریج أحاديث الإحياء: أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف .

<sup>٤</sup> قال الحافظ العراقي: أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو بكر الآجري في فضل العلم، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد اهـ. وقال المرتضى الزبيدي في إتحاف السادة المتقين: كل جملة من الثلاثة حديث مستقل، أما الأولى منها: فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رفعه: ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين، وأما الثانية: فقد أخرجه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس كما قاله العراقي، ولفظ ابن ماجه: فقيه واحد، ولفظ الترمذي: فقيه أشد من غير ذكر واحد، وأورد الحديثين معا جماعة، وهم الثلاثة الذين ذكرهم العراقي آنفا، والبيهقي في الشعب، والدارقطني في السنن، والقضاعي في مسند الشهاب، وأحمد بن منيع في مسنده عن أبي هريرة مرفوعا، وفي الفردوس للدليمي بلا سند عن ابن مسعود رفعه: لعالم واحد أشد على إبليس من عشرين عابدا، وروى الخطيب في تاريخه عن أبي هريرة ولفظه: إن لكل شيء دعامة، ودعامة هذا الدين الفقه، وأخرج أحمد بن منيع في مسنده عن أبي هريرة رفعه: لكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه اهـ بحذف.



(٤) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء (١) .

(٥) وقال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد): عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فضّل العالم على العابد سبعين درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض (٢) .

(٦) وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: علماء هذه الأمة رجالان: رجل آتاه الله علماً فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعاً، ولم يشتري به ثمناً، فذلك تستغفر له حيتان البحر، ودواب البر والطير في جو السماء، ويقدم على الله سيداً شريفاً حتى يرافقه المرسلين، ورجل آتاه الله علماً فبخل به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذاك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادى مناد: هذا الذي آتاه الله علماً فبخل به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً، وكذلك حتى يفرغ من الحساب، رواه الطبراني في الأوسط (٣) .

(٧) وعن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحار، رواه الطبراني في الأوسط (٤) .

(٨) وعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير، رواه الطبراني في الكبير (٥) اهـ

(٩) وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

<sup>١</sup> قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف.

<sup>٢</sup>، رواه أبو يعلى وفيه الخليل بن مرة، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: لم أر له حديثاً منكراً، وهو في جملة من يكتب حديثه، وليس بمتروك .

<sup>٣</sup>، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن خراش، ضعفه البخاري، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وابن عدي ووثقه ابن حبان .

<sup>٤</sup>، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل بن عبد الله بن زرارة، وثقه ابن حبان، وقال الأزدي: منكر الحديث، ولا يلتفت إلى قول الأزدي في مثله، وبقيّة رجاله رجال الصحيح .

<sup>٥</sup> مجمع الزوائد في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم.

- إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير، رواه الترمذي وقال: حديث حسن (١).
- (١٠) وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثل العلماء في الأرض كممثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة، رواه أحمد (٢).
- (١١) وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم، رواه الطبراني في الكبير.
- (١٢) وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: قف حتى تشفع للناس، رواه الأصبهاني وغيره .
- (١٣) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث العالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم، رواه البيهقي وغيره.
- (١٤) وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حُضْرُ الفرس (٣) سبعين عاما، وذلك لأن الشيطان يتدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها، رواه الأصبهاني وعجز الحديث يشبه المدرج (٤) اهـ.

<sup>١</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٢.

<sup>٢</sup> قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد عن أبي حفص صاحب أنس عنه ولم أعرفه وفيه رشدين أيضا.

<sup>٣</sup> قال في القاموس وشرحه: الحضر بالضم ارتفاع الفرس في عدوه كالإحضار، وقال الأزهري: الحضر والحضار من عدو الدواب. وفي الحديث: أنه أقطع الزبير حضر فرسه بأرض المدينة، وفي حديث كعب بن عجرة: فانطلقت مسرعا أو محضرا فأخذت بضبعه وقال كراع: أحضر الفرس إحضارا وحضرا، وكذلك الرجل، وعندني أن الحضر الاسم، والإحضار المصدر. والفرس مُحْضِرٌ كَمَنْطِيقٍ، لا محضار كمحارب، وهو من النوادر، كذا في الصحاح وجامع القزاز وشروح الفصيح. والذي في المحكم: جواز محضير ومحضار على حد سواء، ونصه: وفرس محضير، الذكر والأنثى سواء، وفرس محضير ومحضار، بغير هاء لأنثى، إذا كان شديد الحضر، وهو العدو، وفي الجمهرة لابن دريد: فرس محضار: شديد العدو، وفي المعجم الوسيط: الحضر: عدو ذو وثب.

<sup>٤</sup> الترغيب والترهيب، كتاب العلم.

(١٥) وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلماء خلفاء الأنبياء، رواه البزار، ورجاله موثقون (١).

(١٦) وفي تفسير الفخر الرازي: روى ابن عمر مرفوعاً: إن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد يقبل على عبادته لا يتوجه ولا يتعرف لها (٢). ومن الآثار ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن علي رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم شيعه سبعة وسبعون ألفاً من مقربي السماء، وإذا مات العالم انثلم بموته في الإسلام ثلثة لا يسد إلى يوم القيامة (٣). وقال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

وقال الشافعي رضي الله عنه: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي. وقال أبو مسلم الخولاني: العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا. وقال سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء (٤).

<sup>١</sup> مجمع الزوائد باب فضل العلماء ومجالستهم من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> تفسير الفخر الرازي، وهو بعض حديث ذكره .

<sup>٣</sup> ذكره الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٩٩.

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٣-٥٦.

## فضائل طالب العلم

ورد في فضائل طالب العلم أحاديث وآثار كثيرة.

(١) فمن الأحاديث ما ذكره المنذري في (الترغيب والترهيب) فقال: روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، رواه مسلم (١).

(٢) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، رواه أبو داود، وغيره، وهو بعض حديث طويل (٢).

(٣) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة أئمة، تقتص آثارهم ويقتدي بفعالهم، وينتهي إلى رأيهم، ترغب الملائكة

<sup>١</sup> قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرطهما .

<sup>٢</sup> وتامه كما في الترغيب والترهيب: وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، قال المنذري: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس إسناده عندي بمتصل، وإنما يروى عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أصح .

في خلقتهم، وبأجنتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيثان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصاييح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء، رواه ابن عبد البر في كتاب العلم (١).

(٤) وعن سَخْبَرَةَ رضي الله عنه قال: مر رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر فقال: اجلسا فإنكما على خير، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق عنه أصحابه قاما فقالا: يا رسول الله إنك قلت لنا: اجلسا فإنكما على خير، أئنا خاصة أم للناس عامة؟ قال: ما من عبد يطلب العلم إلا كان كفارة ما تقدم، رواه الترمذي مختصرا والطبراني في الكبير واللفظ له (٢).

(٥) وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يردده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عمله، رواه الطبراني في الكبير (٣).

(٦) وروى عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد، رواه البزار والطبراني في الأوسط.

(٧) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة، رواه الطبراني في الأوسط.

---

<sup>١</sup> قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله من رواية موسى بن محمد ابن عطاء القرشي حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفا كذا قال رحمه الله، ورفع غريب جدا والله أعلم اهـ الترغيب والترهيب.

<sup>٢</sup> قال المنذري: (سخيرة) بالسين المهملة المفتوحة والحاء المعجمة الساكنة وباء موحدة وراء بعدها تاء تأنيث في صحبته اختلاف والله أعلم.

<sup>٣</sup> قال المنذري: ورواه في الصغير إلا أنه قال فيه: حتى يستقيم عقله، وإسنادهما متقارب .

٨) وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب، رواه أحمد وغيره (١) انتهى ما في الترغيب والترهيب .

٩) وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون (٢).

١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، رواه الترمذي وقال: حديث حسن (٣) .

١١) وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبا مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقنوهم. قلت للحكم (٤) ما أقنوهم قال: علموهم اهـ.

١٢) وفي تفسير الفخر الرازي: قال عليه السلام: من خرج يطلب بابا من العلم ليرد به باطلا إلى حق أو ضلالا إلى هدى كان علمه كعبادة أربعين عاما.

١٣) وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فليُنظر إلى المتعلمين، فو الذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب عالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبني له بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفورا له، وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء الله من النار (٥).

<sup>١</sup> قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وروى ابن ماجه نحوه باختصار .

<sup>٢</sup> مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي، في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم .

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٢ .

<sup>٤</sup> هو الحكم بن عتبة من سند الحديث .

<sup>٥</sup> تفسير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها} .

ومن الآثار ما روي عن سفيان الثوري والشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم (١) .

وعن أبي هريرة، أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم هاهنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، فقد أتينا المسجد، فلم نر فيه شيئاً يقسم، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قوما يصلون، وقوما يقرأون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم، رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن (٢) .

وفي طبقات الحنابلة أن أبا عمران الصوفي قال: رأى الإمام أحمد بن حنبل أصحاب الحديث، وقد خرجوا من عند محدث، والمحابر بأيديهم، فقال أحمد: إن لم يكن هؤلاء الناس فلا أدري من الناس (٣)

<sup>١</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٦ .

<sup>٢</sup> مجمع الزوائد، في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم.

<sup>٣</sup> طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابن أبي يعلى الحنبلي، المتوفى سنة ٥٢٦هـ .

## فضائل العالم والمتعلم

وقد وردت في فضائلهما معا أحاديث وآثار كثيرة،

(١) فمن الأحاديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وابن ماجه والبيهقي.

(٢) وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من رجل تعلم كلمة أو كلمتين أو ثلاثا أو أربعا أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة، قال أبو هريرة: فما نسيت حديثا بعد إذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه أبو نعيم (١).

(٣) وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم، رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

(٤) وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يرفع، وجمع بين أصبعيه الوسطى والي تلي الإبهام هكذا، ثم قال: العالم والمتعلم شريكان في الخير ولا خير في سائر الناس، رواه ابن ماجه (٢). قال الحافظ المنذري: قوله: ولا خير في سائر الناس: أي بقية الناس بعد العالم والمتعلم وهو قريب المعنى من قوله: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله ومن والاه وعالمًا ومتعلمًا وتقدم اهـ (٣).

(٥) وفي (مجمع الزوائد): عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٦) وعن أبي بكرة، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اغد عالما، أو متعلما، أو مستمعا، أو محبا، ولا تكن الخامسة فتهلك، قال عطاء: قال لي مسعر: زدتنا خامسة

<sup>١</sup> قال المنذري: إسناده حسن لو صح سماع الحسن من أبي هريرة .

<sup>٢</sup> قال المنذري: رواه ابن ماجه من طريق علي بن يزيد عن القاسم عنه.

<sup>٣</sup> الترغيب والترهيب في كتاب العلم في باب الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه وتعليمه.



لم تكن عندنا، قال: والخامسة أن تبغض العلم وأهله، رواه الطبراني في الثلاثة والبخاري، ورجاله موثقون .

(٧) وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أغد علما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامسة فتهلك، قال عطاء: قال لي مسعر بن كدام: يا عطاء زدتنا في هذا الحديث زيادة لم تكن في أيدينا وإنما كان في أيدينا: أغد علما أو متعلما، يا عطاء ويل لمن لم يكن فيه واحدة من هذه، قال أبو عمرو: الخامسة التي فيها الهلاك معادة العلماء وبغضهم، ومن لم يحبهم فقد أبغضهم أو قارب ذلك، وفيه الهلاك والله أعلم(١).

(٨) وعن أبي الرُّدَيْنِ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من قوم يجتمعون على كتاب الله يتعاطونه بينهم إلا كانوا أضيافا لله، وإلا حفتهم الملائكة حتى يقوموا أو يخوضوا في حديث غيره، وما من عالم يخرج في طلب علم مخافة أن يموت، أو انتسأخه مخافة أن يدرس، إلا كان كالغادي الرائح في سبيل الله، ومن يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، رواه الطبراني في الكبير من رواية إسماعيل بن عياش.

(٩) وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون كلهم.

(١٠) وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من دخل مسجدي هذا ليتعلم خيرا أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة الذي يرى ما يعجبه وهو شيء لغيره، رواه الطبراني في الكبير، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب، وثقه البخاري وابن حبان وضعفه النسائي وغيره اهـ.

(١١) وفيه أيضا عن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حُجَرِهِ، فدخل المسجد، فإذا هو بخلقين، إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

<sup>١</sup> بيان جامع العلم وفضله لابن عبد البر في باب قوله صلى الله عليه وسلم: العالم والمتعلم شريكان.

كلّ على خير، هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما فجلس معهم (١).

(١٢) وعنه صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضى الله عنه، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

(١٣) وفي (الإحياء) أيضا أنه عليه الصلاة والسلام قال: إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك (٢) اهـ.

ومن الآثار ما قاله بدر الدين بن جماعة: اعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه لَيَنَافَسُ في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها فقليل: التواضع له، وقيل: النزول عنده والحضور معه، وقيل: التوقير والتعظيم له، وقيل: معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقاصده. وأما إلهام الحيوانات بالاستغفار لهم فقليل: لأنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلماء هم الذين يبينون ما حل منها وما يحرم ويوصون بالإحسان إليها ونفى الضرر عنها (٣) اهـ.

وقال الغزالي في (الإحياء): أي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له اهـ.

وعن صفوان بن عسال المرادي قال: من خرج من بيته ابتغاء العلم فإن الملائكة تضع أجنحتها للمتعلم والعالم، رواه الطبراني في الكبير، وهو عند الترمذي خلا ذكر العالم، وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق، وهو ضعيف.

<sup>١</sup> أخرج هذه الأحاديث الثلاثة ابن ماجه ج ١ ص ٣٩ - ٤١

<sup>٢</sup> قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو نعيم في الحلية، وابن عبد البر في بيان العلم، وعبد الغني الأزدي في أدب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف .

<sup>٣</sup> تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، الباب الأول في فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه.

وعن عبد الله، قال: اغد عالما أو متعلما، ولا تغد بين ذلك، فإن لم تفعل فأحب العلماء ولا تبغضهم، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الملك بن عمير لم يدرك ابن مسعود .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله قال: اغد عالما أو متعلما أو محبا أو متبعا ولا تكن الخامس فتهلك. قال: قلت للحسن: وما الخامس؟ قال: المبتدع.

وعن عون بن عبد الله قال: حدثت عمر بن عبد العزيز أنه كان يقال: إن استطعت فكن عالما، فإن لم تستطع فكن متعلما، وإن لم تستطع فأحبهم، وإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال عمر بن عبد العزيز: لقد جعل الله عز وجل له مخرجا إن قبل<sup>(١)</sup>.

وروى ابن عبد البر بسنده أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: اغد عالما أو متعلما ولا تغد إمعة<sup>(٢)</sup> فيما بين ذلك<sup>(٣)</sup> اهـ.

وعن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالوا: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا، وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا. وعن الحسن البصري قال: لأن أتعلّم بابا من العلم فأعلمه مسلما أحب إلى من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله تعالى<sup>(٤)</sup> .

وقال الفضيل بن عياض: عالم معلم يدعى كبيرا في ملكوت السماء. وفي (الإحياء) للغزالي في كتاب العلم: قال علي بن طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي: يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خيّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والمملك فاختر العلم، فأعطى العلم والمال والمملك معه .

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله، في باب قوله صلى الله عليه وسلم: العالم والمتعلم شريكان.

<sup>٢</sup> الإمّعة: الرجل المتابع كلّ أحد على رأيه لا يثبت على شيء، ومن يقول: أنا مع الناس، وتأمّع واستأمع: صار إمّعة اهـ قاموس.

<sup>٣</sup> جامع بيان العلم وفضله في باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع.

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع ص ٥٥-٥٦ .

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوكة؟ قال: الزهاد، قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يذكرون الدنيا بالدين .

وقال بعض العلماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعته موت رواته، فو الذي نفسي بيده ليودنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحدا لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم .

وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراي مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟، فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرا فلم آذن له .  
وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء، والطير في الهواء، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقال الزهري رحمه الله: العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكران الرجال (١) اهـ .

وفي (إتحاف السادة المتقين): دخل عطاء بن أبي رباح أحد الموالى على هشام بن عبد الملك وكان عليه قميص دنس وجبة دنسة وقلنسوة دنسة على حمار إكافه خشب، فلما رآه هشام قال: مرحبا مرحبا هاهنا هاهنا فرفعه حتى مست ركبته ركبته وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا.

وقال إبراهيم الحري: كان عطاء عبدا أسود كأن أنفه باقلاة، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك إليه هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل عليهم، فما زالوا يسئلونه عن مناسك الحج وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه قوماً فقاما، فقال: يا ابني لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

وعن أبي العالية قال: كنت آتي ابن عباس وقريش حوله، فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزت في قريش ففطن لهم ابن عباس، فقال: هكذا العلم يزيد الشريف شرفا ويجلس المملوك على الأسرة.

١ قال الزبيدي في شرح الإحياء ج ١ ص ٩٤: ونص ما في الحلية: العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال، أي أقوياء الرجال، وأخرجه الخطيب أيضا عن الزهري فساقه وزاد ولا يزهد فيه إلا إنائها اهـ

وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زُجَّان فقالت: أمه يا بني لا تكون في مجلس إلا كنت المضحوك المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فولّى قضاء مكة عشرين سنة، وكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم اهـ . (١)

**فصل:** واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم، والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة في الأتباع والطلاب.

فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار، أخرجه الترمذي. وعنه صلى الله عليه وسلم: من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير وجه الله فليتبوأ مقعده من النار، رواه الترمذي.

وروى (٢): من تعلم علماً مما يتغنى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة يوم القيامة، أخرجه أبو داود. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة وذكر الثلاثة، وفيه: ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرّفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكن تعلمت ليقال: عالم، وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، أخرجه مسلم والنسائي (٣).

وعن حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله تعالى مكر به. وعن بشر: أوحى الله تعالى إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً فيصداك بشك عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي (٤) اهـ.

<sup>١</sup> إتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٧٢.

<sup>٢</sup> كذا في الاصل، وهي من صيغ التمرّض مع أن الحديث غير مطعون فيه. فليحرر....

<sup>٣</sup> تذكرة السامع ص ٨٣.

<sup>٤</sup> تذكرة السامع ص ٨٣.

وقال ابن عبد البر من حديث ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل، وشر الشر أشرار العلماء، وخير الخير خيار العلماء. وروى ابن عبد البر بسنده عن ابن المبارك قال: كان يقال: تعوّد بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون (١) اهـ . وقال بعضهم:

فساد كبير عالم متهتك وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة لمن بهما في دينه يتمسك

وروى ابن عبد البر بسنده عن أيوب السخيتاني قال: قال أبو قلابة: إذا أحدث الله لك علما فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدّث به (٢).

وما ورد في فضائل العلم والعلماء والمتعلمين العاملين به وفي وعيد غير العاملين به كثير جدا لا مطمع في إحصائه واستيعابه، فنقتصر على هذه النكت اليسيرة والأحرف القليلة، والله الموفق .

وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود .

<sup>١</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ٢٣٥ .

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ٢٣٠ .

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه منظومة في آداب طلبية العلم والطالبات، ومشكاة للراغبين والراغبات، نظمتها في بلدة عَيْلٍ طَيْرٍ مِنْ بحر الطويل المقبوض عروضاً وضرباً، وهي مائة وستة وأربعون بيتاً .

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ نَظْمِي أَوَّلًا      وَحَمْدِ وَشُكْرِ اللَّهِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ

ابتدأت بالبسملة تيمناً وتبركاً بها واقتداءً بكتاب الله العزيز فإنه تعالى جل اسمه بدأ بالبسملة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى سورة براءة، وعملاً بحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع ذكره السيوطي في (الدر المنثور). (١).

وأخرج الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب.

وأخرج الخطيب في الجامع عن سعيد بن جبير قال: لا يصلح كتاب إلا أوله بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان شعراً .

<sup>١</sup> وقال: أخرجه الحافظ عن عبد القادر الرهاوي في "الأربعين" بسند صحيح عن أبي هريرة. لكنه رمز له بالضعف في الجامع الصغير. وقال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير: قال النووي في الأذكار بعد سياقه هذا الحديث وما قبله: رويناه هذه الألفاظ في الأربعين للرهاوي، وهو حديث حسن، وقد روي موصولاً ومرسلاً، قال: ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولاً ومرسلاً فالحكم بالاتصال عند الجمهور اهـ وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ج ١ ص ٦.

وقال المناوي: قال النووي: في كتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل استحباب تصدير الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم وإن كان المبعوث إليه كافراً، وقال ابن حجر: الحديث الذي أشار إليه النووي صححه ابن حبان، وفي إسناده مقال، وبتقدير صحته فالرواية المشهورة بلفظ بحمد الله والتي ذكرها النووي وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية. ثم قال المناوي: إن هذا اللفظ وإن كان عاماً لكن أريد به الخصوص وهو الأمور التي تحتاج إلى تقديم الخطبة، وأما المراسلات فلم تجر العادة الشرعية ولا العرفية بابتدائها بذلك، وهو نظير الحديث الذي أخرجه أبو داود بلفظ: كل خطبة ليس فيها شهادة فهي كاليد الجذماء. فالابتداء بالحمد واشتراط التشهد خاصة بالخطبة بخلاف بقية الأمور المهمة، وبعضها يبدأ فيه بالبسملة تامة كالمراسلات، وبعضها ببسم الله فقط كالذبيحة، وبعضها بلفظ من الذكر مخصوص بالكبير، وقد جمعت كتب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم فلم يقع في واحد منها البداءة بالحمد بل بالبسملة وهو يؤيد ما قررته اهـ.

وإنما قلت: بدأت بسم الله نظمي تأسيساً ببعض العلماء الأجلاء كالإمام الشاطبي رحمه الله فإنه قال في أول كتابه "حرز الأمان ووجه التهاني" المعروف بالشاطبية:

بدأت بسم الله نظمي أولاً      تبارك رحمانا رحيماً وموئلاً

وابتداً مؤلف عقيدة العوام بقوله:

أبدأ باسم الله والرحمن وبالرحيم دائماً الإحسان

وقال شيخ مشايخنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المقدشي في أول قصيدة له:

بسم الإله ابتدائي على مرامي لأحظى بنيل جلا

وتكلم كثير من العلماء عمّا يتعلق بالبسملة من حكم ابتدائها بالفاتحة في الصلاة واشتقاقها وعلومها ومعانيها وخواصها وبركاتها وغير ذلك، وكان شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن الشيخ داود يلقي إلينا في الدرس بعض ما يتعلق بها في خمسة محالس، ولا تسأل عن طول كل مجلس منها.

وقد قال بعض العلماء: إنّ معاني الكتب الثلاثة في القرآن، ومعانيه في الفاتحة، ومعانيها في البسملة، ومعانيها في الباء، وزاد بعضهم: ومعاني الباء في نقطتها، أي في أول نقطة منها عند الكتابة .

وقال ابن حجر الهيتمي في كتابه (الإعلام بقواطع الإسلام): روي أن علي بن أبي طالب جلس مع ابن عباس رضي الله عنهما، وأنهما تكلما في الباء من بسم الله من العشاء إلى أن طلع الفجر اهـ . (١)

ومن فضائلها ما قاله ابن كثير في تفسيره: روى الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبدالرحمن ابن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب (٢) .

<sup>١</sup> ص ٢١١، وهو مطبوع على هامش الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي أيضاً.

<sup>٢</sup> قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرک وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان وأبو ذر الهروي في فضائله، والخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عثمان بن عفان، فذكر الحديث.



وروى الحافظ ابن مردويه بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عيسى بن مريم عليه السلام أسلمته أمه إلى الكتاب<sup>(١)</sup> ليعلمه، فقال له المعلم: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما بسم الله؟ قال المعلم: ما أدري، قال له عيسى: الباء بهاء الله والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. وقد رواه ابن جرير عن أبي سعيد أيضا (٢).

وعن جابر بن عبد الله: قال: لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر وأصغت البهائم بأذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ألا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه. وعن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فيجعل الله من كل حرف منها جنة من كل أحد، ذكره ابن عطية والقرطبي.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي تيمية يحدث عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم، قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل: تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب .

قال ابن كثير فهذا من تأثير بركة بسم الله، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة، وعند دخول الخلاء، وفي أول الوضوء، وعند الذبيحة، وغيرها اهـ.

وفي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) أخرج الديلمي في (مسند الفردوس) عن ابن عباس مرفوعا: إن المعلم إذا قال للصبي: قل بسم الله الرحمن الرحيم كتب للمعلم وللصبي ولأبويه براءة من النار .

<sup>١</sup> في لسان العرب: المكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب والجمع الكتائب والمكاتب.

<sup>٢</sup> قال السيوطي في "الدر المنثور": أخرجه ابن جرير وابن عدي في "الكامل"، وابن مردويه وأبونعيم في "الحلية"، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"، والنعلبي بسند ضعيف جدا عن أبي سعيد الخدري .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب بكل حرف أربعة آلاف حسنة ومحى عنه أربعة آلاف سيئة ورفع له أربعة آلاف درجة .

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن عائشة قالت: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها، فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دخانا حتى أظلم على أهل مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقنا سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها اهـ.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: لما ركب نوح عليه السلام السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها، فوجد النجاة بنصف هذه الكلمة، فمن واطب على هذه الكلمة طول عمره كيف يبقى محروما عن النجاة؟، وأيضا إن سليمان عليه السلام نال مملكة الدنيا والآخرة بقوله: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، فالمرجوّ أن العبد إذا قاله فاز بملك الدنيا والآخرة (١).

ثم ثنيت بالحمد اقتداء بكتاب الله العزيز أيضا، فقد بدأ المولى تبارك وتعالى الحمدلة بعد البسملة بخمس سور من القرآن، وعملا بحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع، (٢) ورمز السيوطي في الجامع الصغير لحسنه تبعا لابن الصلاح. وقال النووي في الأذكار: وأحسن العبارات فيه: الحمد لله رب العالمين .

### أَصْلِي عَلَى خَيْرِ الْأَنْامِ مُحَمَّدٍ وَآلٍ وَصَحْبٍ مَعِ سَنِيَّ تَحِيَّةٍ

ثم ثلث بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علىّ فهو أقطع، أوتر، محقوق من كل بركة"، رواه الرُّهاوي عن أبي هريرة كما في "الجامع الصغير"، وفي إسناده مقال (٣).

<sup>١</sup> مفاتيح الغيب ج ١ ص ١٧٥.

<sup>٢</sup> قال ابن السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" ج ١ ص ٣: هذا لفظ ابن ماجه، وفيه روايات أخرى، ففي رواية: بالحمد لله أقطع، وفي رواية: بحمد الله أقطع، وفي رواية: كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم .

<sup>٣</sup> قال المناوي في "فيض القدير شرح الجامع الصغير": قال القسطلاني: في إسناده ضعفاء ومجاهيل. ورواه ابن المديني وابن منده وغيرهم بأسانيد كلها مشحونة بالضعفاء والمجاهيل . انتهى باختصار .

وقال المناوي في (فيض القدير): وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، وقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله وصلوا على نبيه أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة، ذكره كله الزمخشري اهـ .

وَأَتْبَاعِهِمْ وَالْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِمْ ذَوِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ أَنْصَارِ مِلَّةٍ  
وَمَنْ عَلَّمَ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ وَطَالِبٍ بِهِ عَامِلٍ بِالصِّدْقِ مَعَ حُسْنِ نِيَّةٍ  
وَبَعْدُ فَذَا نَظْمٌ بَدِيعٌ لِنَصْحٍ مَنْ يَرُومُ تَعَلَّمَ الْعُلُومَ وَحِكْمَةَ

أي وبعد ما تقدم فهذا نظم لنصح من له رغبة في تعلم العلم الشريف، والنصح دعامة عظيمة من دعائم الدين، به صلاح الدين والدنيا، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، رواه مسلم .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانتة في ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة. (١).

وفي (النهاية) لابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناه غيرها.

وقال الإمام النووي في (التلخيص): قال الإمام أبو سليمان الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له، قال: وهو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، قال: وقيل: إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع شبهوا تخلص القول والعمل من الغش بتخلص العسل من الخلط، قال: ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصيحة، كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة أي عماده ومعظمه (٢) اهـ.

<sup>١</sup> مجمع الزوائد، في باب النصح في العلم من كتاب العلم، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو سعد البقال، قال أبو زرعة: لئن الحديث مدلس، قيل: هو صدوق، قال: نعم، كان لا يكذب، وقال أبو هشام الرفاعي: كان ثقة، وضعفه شعبة لتدليسه، والبخاري ويحيى بن معين وبقيّة رجاله موثقون .

<sup>٢</sup> التلخيص شرح الجامع الصحيح " للبخاري ج ٢ ص ٨٠٤

عَسَى يَنْفَعُ اللَّهَ الْكَرِيمُ بِمَنِّهِ رِجَالًا ذَوِي فَهْمٍ وَفِكْرٍ وَفِطْنَةٍ  
 كَمَا أَنَّهُ وَعَظٌ لِنَفْسِي وَنُصْحَةٌ عَسَى أَنْ يَكُونَ لِي مِرْقَاةَ جَنَّةٍ  
 أي عسى أن ينفع الله بهذا النظم رجالا ذوي فهم وفكر وفطنة كما أرجو أن يكون  
 لنفسي وعظا ونصحا وسببا لدخول جنته الفيحاء.

فَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ نَصِيحَتِي إِلَيْكَ تَقَبَّلْهَا بِأَعْظَمِ رَغْبَةٍ  
 أي تقبل يا طالب العلم نصيحتي هذه بأقوى إرادة وأعظم رغبة.  
 وَكُنْ سَالِكًا نَهْجَ الْأُلَى فِي تَعَلُّمٍ فَهُمْ فِي طَرِيقِ الْإِهْتِدَاءِ خَيْرُ أَسْوَةٍ (١)  
 وَهُمْ سَادَةٌ غُرُّ الْجِبَاهِ أَيْمَةٌ حُمَاةٌ لِهَذَا الدِّينِ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ  
 وَمِنْ وَاجِبِ التَّلْمِيزِ (٢) أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ وَيَقْفُو عَلَى آثَارِهِمْ بِالْمُودَةِ  
 أي كن أيها الطالب مقتديا في تعلم العلم العلماء المتقدمين واسلك طريقهم فإنهم خير  
 أسوة وإنهم سادة غر الجباه... فلهذا يجب على التلميذ أن يقتدي بهم ويقفو آثارهم  
 بالحبّة، فإن الخير في اتباعهم كما قال اللقاني رحمه الله في (الجوهرة):

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداء من خلف.  
 ولما أنهيت الكلام على اتباع السلف الصالح والسلوك في نهجهم شرعت أتكلّم بما لا  
 بدّ للطالب من امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى، واجتناب نواهيه، فقلت:  
 وَلَا بُدَّ لِلتَّلْمِيزِ مِنْ تَرْكِ مَا نَهَى الـ لَالَهُ بَتَاتًا خَائِفًا كُلَّ لَحْظَةٍ  
 مَعَ الْإِمْتِثَالِ لِلْأَوَامِرِ عَامِلًا بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ رَبِّي وَسُنَّةِ  
 أي لا بدّ للطالب من اجتناب المنهيات وامتثال الأوامر، فقد قال الله تعالى: {وَمَا أَتَاكُمْ  
 الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، وهذا معنى التقوى وهي كما قال أمير  
 المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى  
 بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

<sup>١</sup> الأسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة .

<sup>٢</sup> التلميذ بكسر التاء الفوقية وسكون اللام وكسر الميم بعدها تحتيّة فذال معجمة: المشتغل بالعلم اهـ الفتوحات  
 الربانية شرح الأذكار النووية: ج١ ص١٢٧.

وهي الموصى بها في كتابه العزيز للأولين والآخرين قال الله تعالى: {ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله} .

وقال ابن كثير: قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟، قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

حلّ الذنوب صغيرها      وكبيرها      ذاك      التقى  
واصنع كماش فوق أر      ض الشوك      يحذر      ما      يرى  
لا      تحقرن      صغيرة      إن الجبال من الحصى      ( ١ )

وقوله: عاملا بما في كتاب الله إلخ. أي بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، فهذه الأربعة هي الأصول التي اتفقت عليها الأمة، ففي البيت الاكتفاء من باب {سراييل تقيكم الحر} أي والبرد.

وَهَذَا أَسَاسٌ لِلتَّعَلُّمِ يَافَتَى وَأَصْلٌ لِنَيْلِ كُلِّ خَيْرٍ وَبُغْيَةٍ

أي إن هذا المذكور هو أساس تعلم العلم وركنه الأعظم، وهو الأصل للنجاح وبلوغ الآمال. ففي فتح المغيث للسخاوي: عن الحسن البصري قال: كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبهديه ولسانه وبصره ويده.

وعن أبي جعفر أحمد بن حمدان بن علي النيسابوري قال: كنت في مجلس أبي عبد الله المروزي، فلما حضرت الظهر وأذن أبو عبد الله خرجت من المسجد، فقال لي: يا أبا جعفر إلى أين؟ قلت: أتطهر للصلاة، قال: كان ظني بك غير هذا، يدخل عليك وقت الصلاة وأنت على غير طهارة.

وقال الشعبي ووكيعة: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، زاد وكيعة: وكنا نستعين في طلبه بالصوم .

وعن سفيان الثوري قال: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب، وإلا ارتحل، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

<sup>١</sup> ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {هدى للمتقين} في أول سورة البقرة.

وعن أبي الدرداء قال: من عمل بعشر ما يعلم علمه الله ما يجهل .  
وعن ابن مسعود أنه قال: ما عمل أحد بما علمه الله إلا احتاج الناس إلى ما عنده.  
وعن عمرو بن قيس الملائي أنه قال: إذا بلغك شيء من الخبر فاعمل به ولو مرة تكون من أهله (١).

وَلَا شَكَّ أَنَّ الذَّنْبَ دَاءٌ وَظُلْمَةٌ يُغْطِي صَدَاهُ ( ٢ ) ( الْقَلْبَ عَنْ فَهْمِ حِكْمَةِ  
أي لا شك أن الذنب داء معنوي يسود القلوب ويغطيها ويخرس الفطنة، فقد روى أبو  
هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكِّتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ  
سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الران  
الذي ذكر الله في القرآن: { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (٣).

وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا  
ذنب أحدثته! وكان يستغفر، وربما قام وصلى، فتنكشف له المسألة، ويقول: رجوت أني  
تیب على، فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فبكى بكاء شديداً ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما  
غيره لا ينتبه لهذا.

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه (ذم الهوى): قال يحيى بن معاذ: سقم الجسد بالأوجاع،  
وسقم القلوب بالذنوب، كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه فكذلك القلب لا يجد  
حلاوة العبادة مع الذنوب.

<sup>١</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

<sup>٢</sup> قال في لسان العرب الصدا: الدنس يركب الحديد، وصدا الحديد وسخه، وفي الحديث: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وهو أن يركبها الرين بمباشرة المعاصي والآثام.

<sup>٣</sup> قال السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور: أخرج حديث إن العبد إذا أذنب الخ أحمد وعبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

وكان بعض الحكماء يقول: إذا لم يُستعمل القلب فيما خلق له من الفكر في اجتلاب المصالح في الدين والدنيا واجتناب المفسدات تعطل واستترت جوهريته، فإذا أضيف إلى ذلك فعل ما يزيده ظلمة كشرب الخمر وطول النوم وكثرة الغفلة صار كالحديد يغشاه الصدأ فيفسده (١).

وقال ابن رسلان في مقدمة الزبد:

فشهوة النفس مع الذنوب      موجبتان قسوة القلوب

وفي تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر: في ترجمة وكيع بن الجراح الكوفي وهو أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، أن الناس كانوا يحفظون تكلفاً، ويحفظ هو طبعاً، وقال علي بن خشرم: رأيت وكيعاً وما رأيت بيده كتاباً قط إلا وهو يحفظ، فسألته عن دواء الحفاظ فقال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفاظ.

وهو الذي عناه الإمام الشافعي رضي الله عنه بقوله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي      فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور      ونور الله لا يهدي لعاص

وقال عبد الله بن مسعود: إني لأحسب أن الرجل ينسي العلم قد علمه بالذنوب يعمل به.

واعلم أن الذنوب قسمان صغائر وكبائر، فالصغائر كثيرة جداً، والكبائر قليل: إنها سبع، وقيل: تسع، وري عن ابن عباس رضي الله عنه أنها إلى السبعين أقرب، وروي عنه أيضاً أنها إلى سبعمئة أقرب، فقد قال السيوطي في (الدر المنثور) في تفسير قوله تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه}: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير أن رجلاً سأل ابن عباس كم الكبائر سبع هي؟، قال: قال: إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار اهـ. وقد عدّ هذه الكبائر ابن حجر الهيتمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر) فبلغها أربعمئة وسبعاً وستين كبيرة .

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٩٢.

## وَأَنَّ الْعُلُومَ النَّافِعَاتِ دَوَاؤُنَا وَنُورٌ يُزِيلُ رَيْنَ قَلْبٍ وَقَسْوَةَ

يعنى لا شك أن العلوم النافعة هي دواء ونور يزيل ظلمة القلوب وقسوتها، فقد أخرج ابن المنذر عن إبراهيم التيمي رحمه الله في قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} قال: إذا عمل الرجل الذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ثم يعمل الذنب بعد ذلك فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم كذلك حتى يسود عليه، فإذا ارتاح العبد قال: يُيسر له عمل صالح فيذهب من السواد بعضه، ثم يُيسر له عمل صالح أيضا فيذهب من السواد بعضه، ثم يُيسر له أيضا عمل صالح فيذهب من السواد بعضه، ثم كذلك حتى يذهب السوء كله (١).

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن المؤمن إذا أذنب كانت نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُفِّلَ قَلْبُهُ، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (٢).

وقال الحافظ سليمان بن طرخان: الحسننة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل (٣).

وقال ابن عباس: إن للحسنة نورا في القلب، وزينا في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب، وشين في الوجه، ووهن في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضة<sup>٤</sup> في قلوب الخلق (٥).

فإذا اجتمع نور الإيمان ونور العلم ونور اجتناب المعاصي وفعل الطاعات في قلب العبد اتسع وانشرح واستنار، فيعي حينئذ الحكمة، وتثبت فيه، فلهذا لا بد لطالب العلم اجتناب ما نهى الله عنه وامتنال أوامره جل وعلا .

<sup>١</sup> الدر المنثور في التفسير بالمأثور في تفسير قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

<sup>٢</sup> سنن ابن ماجه باب ذكر الذنوب من كتاب الزهد.

<sup>٣</sup> تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي ص ٢٢١.

<sup>٤</sup> في القاموس: البعض بالضم ضد الحب والبغضة بالكسر والبغضاء شدته.

<sup>٥</sup> تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي ص ٢١٨-٢١٩ .



وَمَا اجْتَمَعَ الضَّدَانِ فِي الْقَلْبِ مَرَّةً فَإِنْ جَاءَ هَذَا غَابَ هَذَا بِسُرْعَةٍ  
كَذَلِكَ ظَلَامُ اللَّيْلِ يَذْهَبُ إِنْ بَدَأَ الصَّـ بَاحٌ وَحَلَّ النُّورُ مَوْضِعَ ظُلْمَةٍ  
أي لا تجتمع ظلمة المعاصي ودأؤها ونور العلم النافع ودواؤه في القلب كما لا يجتمع ظلام  
الليل وضياء النهار.

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر: الحذر الحذر من الذنوب خصوصا ذنوب الخلوات، فإن  
المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه، ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما  
المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها، لأنه عند التذاده يقف بإزائه علمه بتحريمها، وحذرُه من  
عقوبتها، فإن قويت معرفته رأي بعين علمه قرب الناهي وهو الله فيتنصص عيشه  
في حال التذاده، فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنغصا بهذه المراقبات، وإن كان  
الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة، ثم خزي دائم، وندم ملازم، وبكاء متواصل، وأسف  
على ما كان مع طول الزمان، حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب، فَأُفٍّ  
للذنوب! ما أقبح آثارها وأسوأ أخبارها!!.

وفيه أيضا: أن الفضيل بن عياض قال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي  
وجاريتي.

وفيه أيضا في فصل علة الإبطاء في الإجابة: أن إبراهيم الخواص رحمة الله عليه خرج لإنكار  
منكر فنبحه كلب له فمنعه أن يمضى، فعاد ودخل المسجد وصلى ثم خرج فبصبص  
الكلب له فمضى وأنكر المنكر فزال المنكر، فسئل عن تلك الحال فقال: كان عندي منكر  
فمنعني الكلب، فلما عدت تبت من ذلك فكان ما رأيتم اهـ.

وأحسن من قال:

يمر السحاب على بلدة بماء معين من المعصرات  
يريد النزول فلا يستطيع لما حل فيها من المنكرات ( ١ )

<sup>١</sup> تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي، ص ٢٢٢.

سَيَنْدُمُ مَنْ يَعْصِي بِعَمْدٍ إِلَهَهُ إِذَا الْأَرْضُ رُجَّتْ وَالْحِجَارَةُ بُسَّتْ (١)  
وَيَأْتِي كَثِيبًا بَاكِيًا (٢) فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَيَا وَيْلِي كُنْتُ كَثْرَبَةً  
وَيَصْرُخُ بِالثُّبُورِ حُزْنًا وَحَسْرَةً يُنَادِي فَهَلْ لِي مِنْ رُجُوعٍ وَأَوْبَةٍ

أي سيندم يوم القيامة من تعمد بالعصيان وبارز ربه باجتراح الآثام والسيئات، إذا اشتدت الكروب وبلغت الحناجر القلوب، ورجت الأرض وبست الجبال؛ لعظم الدواهي والأهوال، ويأتي في ذلك اليوم ذليلاً باكياً، صارخاً بالثبور والويل، ويتمنى أن يكون تراباً وأن يرجع إلى الدنيا ليعمل فيها عملاً صالحاً، قال تعالى حكاية عن أهل النار: {فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل}. نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَغْفُ رَبِّي ذُنُوبَهُ بِفَضْلِ وَيَسْمَحَ مَا جَنَاهُ بِمِنَّةٍ  
قال النبهي في سعادة الدارين: روى عن علي أنه قال: اسم الله الأعظم ترك المعاصي اهـ  
وكان بشر بن الحرث الحافي: يقول: الدعاء ترك الذنوب اهـ (٣) وكان بشر هذا من أئمة الصالحين، وقد قال فيه الإمام أحمد لما أخبر له بموت بشر: مات رحمه الله وما له نظير في هذه الأمة إلا عامر بن قيس.

وفي البداية والنهاية أن الإمام أحمد قال يوم بلغه موت بشر: ما ترك بعده مثله.  
وكان سفيان الثوري يقول: الدعاء حقيقة هو ترك الذنوب، فمن تركها فعل الله به ما يختاره من غير سؤال (٤) اهـ.

<sup>١</sup> الرَّجُّ التحريك، والتحرك والاهتزاز . قاموس . وقوله: وبست أي فتتت الحجارة. قال الله تعالى: {إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً}

<sup>٢</sup> الكآبة الغم وسوء الحال، والانكسار من الحزن، قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت      إنما الميت ميت الأحياء  
إنما الميت من يعيش كتيبا      كاسفاً باله قليل الرجاء

<sup>٣</sup> طبقات الصوفية للسلمي.

<sup>٤</sup> تنبيه المغترين، ص ١١٢.

## فصل في إخلاص طالب العلم

### تفسير الإخلاص

عن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، أن تكون حركاته وسكونه في سره وعلا نيته لله تعالى وحده، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا .

وقال السري في رسالته: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق، أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى، قال: ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العقل عن ملاحظة الخلق .

وقال الشيخ زين الدين بن علي المعبري ثم المليباري في (هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء):

أخلص وذا أن لا تريد بطاعة إلا التقرب من إلهك ذي الكلا ( ١ )

وقال الإمام أبو القاسم القشيري في كتابه الرسالة: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول: وقد سألته عن الإخلاص ماهو؟ فقال: سمعت علي بن سعيد، وأحمد بن محمد بن زكريا وقد سألتهما عن الإخلاص فقالا: سمعنا علي بن إبراهيم الشقيقي وقد سأله عن الإخلاص فقال: سمعت محمد بن جعفر الخفاف، وسألته عن الإخلاص فقال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت جبريل عن الإخلاص

<sup>١</sup> الكلاءة الحفظ قال الله تعالى : ( قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ) وفي المصباح: كالأه يكلؤه كلاءة بالكسر والمد حفظه وفي المعجم الوسيط: كالأ الله فلانا كلاً وكلاءً وكلاءةً .

ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو؟ قال: هو سر من سري استودعته في قلب من أحببته من عبادي(١).

وذكره الغزالي في الإحياء في باب الإخلاص، وذكر المرتضى الزبيدي في "إتحاف السادة المتقين" طرقاً لهذا الحديث(٢).

وقال الجنيد البغدادي: الإخلاص سر بين الله وعبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله(٣).

### أدلة الإخلاص

إعلم أن الآيات والأحاديث الواردة في الإخلاص كثيرة جداً لكن نتبرك بذكر نبذ منها، فمن الآيات قوله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} إلى قوله تعالى: {وذلك دين القيمة} وقوله تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص} وقوله تعالى: {هو الحي لا إله إلا هو} الآية.

ومن الأحاديث ما ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض، رواه ابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين .

وعن أبي فراس-رجل من أسلم- قال: نادى رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الإخلاص، وفي لفظ آخر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوني عما شئتم، فنادى رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال: فما الإيمان؟ قال: الإخلاص، قال: فما اليقين؟ قال: التصديق، رواه البيهقي وهو مرسل .

<sup>١</sup> ذكره في باب الإخلاص من الرسالة.

<sup>٢</sup> وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ما يشبه هذا الحديث فقال: روى الحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم أيضاً في مسلسلاته عن حذيفة بن اليمان عن علم الباطن قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم الباطن قال: سألت جبريل عليه السلام عن علم الباطن قال: سألت الله تبارك وتعالى عن علم الباطن، قال: يا جبريل هو سر بيني وبين أوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل. إتحاف ج ١٠ ص ٤٤.

<sup>٣</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

وعن معاذ بن جبل أنه قال حين بعث إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: أخلص دينك  
يكفيك العمل القليل، رواه الحاكم من طريق عبيد الله بن زجر عن أبي عمران، وقال:  
صحيح الإسناد.

وروى عن ثوبان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: طوبى للمخلصين  
أولئك مصاييح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء، رواه البيهقي .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما ينصر الله  
هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم، رواه النسائي وغيره وهو في  
البخاري وغيره دون ذكر الإخلاص.

وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما  
ابتغي به وجه الله تعالى. ورواه الطبراني بإسناد لا بأس به.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أخلص  
لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ذكره رُزَيْنُ العبدري في كتابه،  
ورواه الحسين بن الحسين المروزي في زوائده في كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، ورواه  
أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن مكحول مرسلا.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا ينظر إلى أجسامكم  
ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، رواه مسلم اهـ (١).

وَكُنْ مُخْلِصًا يَا طَالِبَ الْعِلْمِ قَاصِدًا بِمَرْضَاةِ رَبِّي عَنْكَ بَعْدَ الْمَنِيَّةِ  
تَعَلَّمْ لِأَجْلِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا حُصُولَ الْأَمَانِ ثُمَّ فَوْزًا بِجَنَّةِ

أي كن يا طالب العلم مخلصا في تعلمك للعلم قاصدا به رضاء الله سبحانه وتعالى عنك  
والتقرب إليه فقط، إن كنت راغبا حصول الأمان لك من النيران، والفوز بدخول الجنان،  
قال الله تبارك وتعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} وقال تعالى:  
{فاعبد الله مخلصا له الدين ألا الله الدين الخالص} وقال تعالى: {قل الله أعبد مخلصا له  
ديني}.

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب في باب الإخلاص والصدق والنية الصالحة.

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وفي (الزواجر عن اقتراف الكبائر): روى الشيخ نصر المقدسي إمام الشافعية في زمنه عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: أوصاني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات هن أحب إلى من الدنيا وما فيها، قال لي: يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق يعني الدنيا وخفف الحمل فإن السفر بعيد، واحمل الزاد فإن العقبة طويلة، وأخلص العمل فإن الناقد بصير (١).

وقال الإمام النووي: اعلم أنه ينبغي لمن أراد شيئا من الطاعات وإن قلَّ أن يحضر النية، وهو أن يقصد بعمله لله عز وجل وتكون نيته حال العمل، ويدخل في هذا جميع العبادات من الصلاة والصوم والوضوء والتميم والاعتكاف والحج والزكاة والصدقة وقضاء الحوائج وعيادة المريض واتباع الجنائز وابتداء السلام وردّه وتشميت العاطس وإنكار المنكر والأمر بالمعروف وإجابة الدعوة وحضور مجالس العلم والأذكار وزيارة الأخيار والنفقة على الأهل والضيف وإكرام أهل الود وذوي الأرحام ومذاكرة العلم والمناظرة فيه وتكراره وتدريسه وتعلمه وتعليمه ومطالعة وكتابته وتصنيفه والفتاوى، وكذلك ما أشبه هذه الأعمال حتى ينبغي له إذا أكل أو شرب أو نام يقصد بذلك التَّقَوِّيَّ على طاعة الله أو راحة البدن للتنشط للطاعة، وكذلك إذا أراد جماع زوجته يقصد إيصالها حقها وتحصيل ولد صالح يعبد الله تعالى وإعفاف نفسه وصيانتها من التطلع إلى حرام والفكر فيه، فمن حُرِمَ النية في هذه الأعمال فقد حرم خيرا عظيما كثيرا، ومن وُفِّقَ لها فقد أعطي فضلا جسيما، فنسأل الله الكريم التوفيق لذلك وسائر وجوه الخير، ودلائل هذه القاعدة قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. قال العلماء من أهل اللغة والأصول والفقهاء: إنما للحصر تفيد تحصيل المذكور ونفي ما سواه (٢) اهـ.

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١ ص ٢١.

<sup>٢</sup> بستان العارفين، ص ٣٩.

## الإخلاص أساس الأعمال وأصعبها

قال الغزالي في الإحياء قيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ قال الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب (١).

وقال أيضا: معرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى: إلا عبادك منهم المخلصين، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر (٢) اهـ .

وفي (اتحاق السادة المتقين): قال سهل: أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون قليل (٣).

وعن يوسف بن حسين رحمه الله: أعز شيء في الدنيا الإخلاص .

وعن يعقوب السوسي رحمه الله قال: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص (٤) .

وفي كتاب (الأربعين في أصول الدين) للإمام الغزالي: قيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئا؟ فقالت: إذا ظن أنه محسن (٥).

## خاتمة

قال ابن علان في (الفتوحات): ذكر الشيخ زكريا الأنصاري درجات الإخلاص في شرح كتاب (الرسالة القشيرية) فقال: هي ثلاثة، عليا ووسطى ودنيا، فالعليا أن يعمل لله وحده امتثالا لأمره وقياما بحق عبوديته، والوسطى أن يعمل لثواب الآخرة، والدنيا أن يعمل للإكرام (٦) في الدنيا والسلامة من آفاتِها وما عدا الثلاثة من الرياء وإن تفاوتت أفرادها اهـ (٧).

<sup>١</sup> إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص ج ٥ ص ٣٠:

<sup>٢</sup> إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص ج ٥ ص ٢٩:

<sup>٣</sup> إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٦٥

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع، ص ٤٨.

<sup>٥</sup> الأربعين في أصول الدين ص ١٦٤.

<sup>٦</sup> أي لأن يكرمه الله في الدنيا كأن يغنيه ويقضي حاجاته ونحو ذلك. ابن علان .

<sup>٧</sup> الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ج ١ ص ٨٠ .

## الصدق في الأعمال

ويقرب من الإخلاص الصدق، قال الإمام النووي في الأذكار: الصدق التنقي عن مطاوعة النفس .

وقال في (المجموع): عن الحارث بن أسد المحاسبي بضم الميم رحمه الله: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيء من عمله، لأن كراهته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين .

وعن أبي القاسم الجنيد بن محمد رحمه الله قال: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة. قال النووي: معناه: أن الصادق يدور مع الحق حيث دار، فإذا كان الفضل الشرعي في الصلاة مثلاً صلى، وإذا كان في مجالسة العلماء والصالحين والضيوفان والعيال وقضاء حاجة المسلمين وجبر قلب مكسور ونحو ذلك فعل ذلك الأفضل وترك عاداته .

وكذلك القراءة والذكر والأكل والشرب والجد والمزح والاختلاط والاعتزال والتنعم والابتذال ونحوها، فحيث رأى الفضيلة الشرعية في شيء من هذا فعله، ولا يرتبط بعبادة ولا بعبادة مخصوصة كما يفعله المرائي، وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال في صلاته وصيامه وأوراده وأكله وشربه ولبسه وركوبه ومعاشرة أهله وجمعه ومزاحه وسروره وغضبه وإغلاظه في إنكار المنكر ورفقه فيه وعقوبته مستحقي التعزير وصفحه عنهم وغير ذلك بحسب الإمكان والأفضل في ذلك الوقت والحال .

ولا شك في اختلاف أحوال الشيء في الأفضلية فإن الصوم حرام يوم العيد وواجب قبله مسنون بعده، والصلاة محبوبة في معظم الأوقات وتكره في أوقات وأحوال كمدافعة الأخبثين، وقراءة القرآن محبوبة وتكره في الركوع والسجود وغير ذلك، وكذلك تحسين اللباس يوم الجمعة والعيد وخلافه يوم الاستسقاء، وكذلك ما أشبه هذه الأمثلة، وهذه نبذة يسيرة ترشد الموفق إلى السداد وتحمله على الاستقامة وسلوك طريق الرشاد اهـ.<sup>(١)</sup>

<sup>١</sup> مقدمة المجموع، ص ٥٠.



وقال بعض العلماء: كن من الصادقين، فإن لم تكن منهم فكن معهم، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}.

قال السيد أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب. الرسالة القشيرية باب الفراسة.

وَلَا يَخْطُرُنْ فِي الْقَلْبِ حُبُّ رِيَاةٍ وَجَاهٍ فَذَا أَصْلُ لِكُلِّ رَزِيَّةٍ  
وَلَا تَطْلُبُنْ صَيْتًا وَمَدْحًا وَشُهْرَةً فَهَذَا سُفُوطٌ صَاحٍ فِي قَعْرِ هَوَّةٍ  
وَمَنْ يَتَعَلَّمُ لِلْمَنَاصِبِ دِينَهُ فَقَدْ ضَاعَ عُمْرًا بِالْمَسَاوِي وَغَفَلَةً

أي لا يخطر في قلبك حال تعلمك للعلم حب رياسة وجاه ومدح وشهرة وكثرة الأتباع ونحوها من حظوظ النفس وشهواتها، فقد روى ابن عبد البر في كتاب (جامع بيان العلم وفضله) عن يزيد بن أبي حبيب قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية، فقال: هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه (١).

وروى الحافظ الخطيب البغدادي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو لتماروا به السفهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار، ولكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تعلم علما مما يتغنى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة.

وقال الشافعي رضي الله عنه لأهل الحلقة: تفقهوا مع فقهكم هذا بمذاهب أهل الإخلاص، ولا تفقهوا بما يؤديكم إلى ركوب القلاص (٢).

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: احذروا الشهوة الخفية، قالوا: يارسول الله وما الشهوة الخفية؟ قال: العالم يحب أن يجلس إليه، رواه الديلمي في مسند الفردوس.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله، في باب ذم الفاجر من العلماء وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه في باب إخلاص النية والقصد بالفقه وجه الله عز وجل، ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩.

قال المناوي في شرح هذا الحديث: فإن ذلك يبطل عمله لتفويته الإخلاص وتصحيح النية، فليس الشأن حفظ العلم بل في صونه عما يفسده كالرياء والعجب والتعاضم بإظهار علمه، وذلك سم وخيم، وسهم من سهام الشيطان الرجيم، أخرج العلاني في أماليه عن علي كرم الله وجهه سيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم، وسرهم علنهم، يجلسون حلقة حلقة، يباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جلسائه إذا جلس لغيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم إلى الله تعالى.

وقال كعب الأحبار: سيكون في آخر الزمان علماء يتغايرون على العلم كما تتغايرون النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جلسائه إذا جالس غيره أو أخذ عنه، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وفي تاريخ ابن عساكر عن ابن عيينة أن ربيعة بكى فقيلاً: ما يبكيك؟ قال: رياء حاضر وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كغلمان في حجور أمهاتهم، إن أمرهم ائتمروا وإن نهوهم انتهوا. قال الغزالي: هذا هو الانتكاس على أم الرأس وفاعله الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسا رأسه عند ربه، انظر كيف انتهى أمر الذين يزعمون التقرب إلى الله تعالى بالعلم يبدلون المال والجاه، ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات، ويتوقع المعلم في نفس المتعلم أن ينقطع إليه ويقتصر عليه، ويقوم معه في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه، وينهض حماراً له في حاجاته مسخراً بين يديه في أوطاره ومهماته، فإن قصر غضب عليه وعاداه، فاحسباً بعالم يرضى لنفسه بهذه المرتبة ثم يفرح بها ثم لا يستحيي أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى انتهى. فهذا حال زمن الغزالي فلو رأى زماننا هذا!! قال البيهقي: فعلى هذا ينبغي للعالم أن يكون فعله لوجه الله تعالى لا يريد أن يزداد من الناس جاهاً أو على أقرانه استعلاء ولا يريد أن يكثر الآخذون عنه، وأن يكون علمه أظهر في الناس من علم غيره بل يقصد أداء الأمانة بنشر ما عنده وإحياء معالم الدين وصونها عن الدروس.

وقال في الحكم: ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه اهـ — مناوي .

وقال صلى الله عليه وسلم: ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها ما أراد بها، رواه البيهقي عن الحسن مرسلًا.

قال المناوي: ورواه ابن أبي الدنيا عن الحسن البصري مرسلًا، قال المنذري: إسناده جيد اهـ لكن فيه جعفر بن سليمان، قال الذهبي: ضعفه القطان ووثقه جمع (١).

وَأَيَّاكَ إِيَّاكَ الْقَوَادِحَ كُلَّهَا كَأَعْجَابِ نَفْسٍ وَالرِّيَاءِ وَسُمْعَةٍ  
وَيُفْسِدُ ذَا أَعْمَالَهُ فَتَوَابُهَا كَمِثْلِ سَرَابٍ أَوْ هَبَاءٍ وَرَغْوَةٍ

أي احذر أيها المتعلم للعلم من القوادح للأعمال من الرياء والسمعة والعجب فإنها تفسد الأعمال وتحبط ثوابها فتكون كالسراب والهباء والرغوة، واعلم أن العوارض المشوشة للإخلاص مختلفة، فمنها: ما هو حرام يحبط ثواب الأعمال الصالحة كلها وتجب التوبة منه، ومنها: ما هو ظاهر جلي، ومنها: ما هو خفي دقيق لا يدركه إلا الموفقون من عباد الله، فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء أن درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص أربعة فقال: اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي، وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا، فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته، ثم إذا نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، فهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

**الدرجة الثانية:** يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدي بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فاحسن عملك بين يديه فحسباه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول، وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع

وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب علمه.

فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به.

**الدرجة الثالثة:** وهي أدق مما قبلها، أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملائ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملائ ويصلى في الملائ أيضا كذلك، فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملائ فلا يكون قد فرق بينها، فالتفاتة في الخلوة والملائ إلى الخلق، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليس تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملائ وهيئات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملائ جميعا، وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في الملائ والخلا جميعا، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان.

**الدرجة الرابعة:** وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: يخشع لأجله فإنه قد عرف أنه قد تفتن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألّفه في الخلوة كما يألّفه في الملائ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة

إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعيد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول: هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمرى الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة، فمنها ما يغلب ومنها ما يقل ولكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير.

وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي، فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم، ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكى عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأني تأخرت يوما لعذر، فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حتى رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرقي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا}، وبقوله تعالى: {قل هل أنبئكم بالأخسرين عملا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}.

وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

والحاصل أن ثواب الأعمال الصالحة لا يحصل إلا بالإخلاص كما ذكره الإمام الغزالي، فقد قال رحمه الله تعالى في الإحياء: لا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها، وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي

بصيرة، ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي، وقال عبد العزيز بن أبي رواد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين سنة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي، ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً اهـ (١).

**وقوله: كإعجاب نفس:** اعلم أن من الآفات المحبطة للثواب العجب، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب. وروى الديلمي: إن العجب يحبط عمل سبعين سنة. وروى الطبراني: لو كان العجب رجلاً لكان رجل سوء. وروى البيهقي: لو لم تكونوا تذنبون لصب عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب. وقال صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

وقال الهيثمي: وللعجب آفات كثيرة، منها: تولد الكبر عنه فتكون آفات الكبر آفات العجب لأنه الأصل. (٢)

وقال أيضاً: من أعجب بشيء من علمه أو عمله أو غيرهما استعظم نفسه وتكبر وتمرّد وتجبر، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعض العباد إلى أنه إذا أودى يتوعد مؤذيه ويقول: سترون ما يحل به، وإذا نكب مؤذيه يعد ذلك من كراماته لعظم قدر نفسه عنده واستيلاء الجهل عليه لجمعه بين العجب والكبر والاعتزاز بالله تعالى، وقد قتل جماعة الأنبياء وماتوا من غير أن يعاجلوا بعقاب في الدنيا فما مرتبة هذا الجاهل؟ وإذا اتضح لك كبر هذين النوعين (٣) اللذين هما في الظاهر عليهما معول الدين والدنيا اتضح لك كبر البقية من ذوي الأموال والجاه وغيرهم، فالتكبر بالنسب قد يرى من ليس كنسبه مثل عبده، وكذا بالجمال، وأكثر ما يجري بين النساء ونحوهن، وكذا بالمال كما هو مشاهد بين أرباب

<sup>١</sup> إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص والصدق .

<sup>٢</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ص ٦٨-٦٩.

<sup>٣</sup> المراد بهما العلماء والعاملون.

الدنيا من المناصب والمتاجر وغيرها، وكذا بالاتباع والجند وأكثر ما يجري بين الملوك، ومما يهيج الكبر ويسعر ناره العجب والحقد والحسد والرياء إذ التكبر خلق باطني لأنه استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وموجبه الحقيقي هو العجب وحده. (١)

قال تعالى: {إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلِيتِمَّ مَدَبْرِينَ}. وقال تعالى: {وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعًا}.

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنين، القنوط والعجب، أي لأن القنوط أيس من نفع الأعمال ومن لازم ذلك تركها، والمعجب يرى أنه سعد وظفر بمراده فلا يحتاج لعمل، ومن ثم قال تعالى: {فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}. ومن تركية النفس أنها بارة وهو معنى العجب. وقال مطرف: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا.

قال الإمام أبو القاسم القشيري في (الرسالة): كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا كتب كتابا واستحسن لفظه مزق الكتاب وغيّره بكتابة غيره خوفا من العجب اهـ

وفي (الزواجر): أخرج الطبراني في (الأوسط) والبخاري بإسناد لا بأس به عن عمر، وأبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟، ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار. وروى الطبراني: من قال: أنا عالم فهو جاهل (٢).

**وقوله: والرياء:** اعلم أن الرياء هو أن ترائي الناس بأعمالك ويكون هو الحامل والباعث عليها، ويدخل في جميع الطاعات والأعمال الصالحة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وتعلم العلم الشريف وتعليمه وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، فالمرائي هو الذي يفعل الطاعات ويريد بها غير وجه الله تعالى، وهو حرام شرعا ومن الكبائر الموبقات وهو الشرك الأصغر، قال العلامة ابن حجر الهيتمي في "الزواجر عن اقتراف الكبائر": قد

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٦٧-٦٨.

<sup>٢</sup> الزواجر ج ١ ص ٨٧.



شهد بتحريم الرياء الكتاب والسنة، وانعقد عليه إجماع الأمة، أما الكتاب فمنه قوله عز وجل قائلًا: {الذين هم يراءون} وقال تعالى: {والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد} قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى: {ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} أي لا يراني بعمله ومن ثم نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله.

وقال تعالى: {إنما نطعمكم لوجه لا نريد منكم جزاء ولا شكورا}.  
 أما السنة فمنها ما رواه أحمد: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، انظروا هل تجدون عندهم جزاء.

وروى ابن ماجه: إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله، أما إنني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية.

وروى الحاكم وأبو نعيم في (حلية الأولياء): الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

وروى الترمذي والحاكم: إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد - أي يتجلى لهم تجلياً منزهاً عن الحركة والانتقال وسائر لوازم الجهات والأجسام - ليقضى بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيما قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت ويقول الله له: أردت أن يقال: فلان

جريء - أي شجاع - فقد قيل ذلك، يا أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.

وروى أحمد ومسلم والنسائي: إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه أي الله نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لي قال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم لي قال: عالم وقرأت القرآن لي قال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمته، فقال: فما ذا عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها، قال: كذبت ولكنك فعلته لي قال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار. وروى الحاكم: ثلاثة مهلكون عند الحساب: جواد وشجاع وعالم.

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه: إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك.

وروى مسلم وابن ماجه: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه، إذا كان يوم القيامة أتى بصحف محتمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله للملائكة اقبلوا هذا وألقوا هذا فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول: نعم لكن كان لغيري ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي.

وفي رواية لابن عساكر والدارقطني: يجاء يوم القيامة بصحف محتومة فتنصب بين يدي الله عز وجل فيقول للملائكة: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيراً، فيقول وهو أعلم: إن هذا كان لغيري لا أقبل اليوم من العمل إلا ما كان ابتغي به وجهي.

وفي أخرى مرسلة لابن المبارك: إن الملائكة يرفعون عمل العبد من عباد الله يستكثرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحى الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي في عمله فاجعلوه في سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحرقونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحى الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على نفسه إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين.

وروى الديلمي: ربح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجده من طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وروى الطبراني: من قام مقام رياء وسمعة فإنه في مقت الله حتى يجلس.

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه: من يراني يراني الله به ومن يسمع يسمع الله به: وهو بتشديد الميم أي من يظهر عمله للناس رياء يسمع الله به أي يفضحه يوم القيامة، ومعنى من راءى راءى الله به أي من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم وليس هو كذلك راءى الله به أي أظهر سريره على رؤوس الخلائق.

وروى أحمد والطبراني: يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل قالوا: وكيف نتقيه يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه: الشرك فيكم أخفى من ديب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات.

وروى أبو داود بسند صحيح: من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة أي ريحها الطيب.

وروى الديلمي: إياكم أن تخلطوا طاعة الله تعالى بحب ثناء العباد فتحبط أعمالكم.

وروى البيهقي: أيها الناس إياكم وشرك السرائر: أن يقوم الرجل فيصلّي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر.

وفي رواية له: إياكم وشرك السرائر أن يتم ركوعها وسجودها لما يلحظه من الحقد والنظر فذلك شرك السرائر.

وروى الحاكم: من تهياً للناس بقوله ولباسه وخالف ذلك في أعماله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وروى الطبراني وأبو نعيم والبيهقي وابن عساكر وابن النجار: يؤمر بناس، وفي رواية بفتة أي جماعة من الناس يوم القيامة إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعده الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأولياك كان أهون علينا، قال: ذاك أردت بكم يا أشقياء، كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام، وإذا لقيتم الناس لقيتموني مخبئين، تراءون الناس بأعمالكم خلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتهم الناس ولم تجلوني، وتركتهم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتهم من الثواب. وفي رواية: فاليوم أذيقكم أليم عذابي مع ما حرمتكم من جزيل ثوابي. وروى الذهبي: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما النجاة غدا؟ قال صلى الله عليه وسلم: أن لا تخادع الله، قال: وكيف يخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله ورسوله وتريد به غير وجه الله، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله، وإن المرائي ينادى عليه يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق أي لا نصيب لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت له تعمل يا مخادع (١).

وقال الهيثمي في الزواجر أيضا: الرياء إما جلي وهو ما يحمل على العمل ويبحث عليه، وإما خفي وهو ما لا يحمل عليه لكنه يخفف مشقته كمن يعتاد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه لكنه إذا نزل به ضيف أو اطلع عليه أحد نشط له وخف عليه ومع ذلك هو إنما يعمل لله ولولا رجاء الثواب لما صلى، وأمانة ذلك أنه يتهجيد وإن لم يطلع عليه أحد، وأخفى من هذا ما لا يحمل على تسهيل وتخفيف ومع ذلك عنده رياء كامن في قلبه

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١ ص ٣٥-٣٨.

ككمون النار في الحجر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسره اطلاع الناس على طاعته وعبادته، فرب عبد مخلص في عمله يكره الرياء ويذمه فلا يكون عنده منه شيء يحمل على العمل ابتداء ولا دواما ولكنه إذا اطلع الناس عليه سرّه ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة عليه، وهذا السرور يدل على رياء خفي إذ لو لا التفات القلب للناس لما ظهر سروره عند اطلاعهم، فاطلاعهم مع عدم كراهته له حرّك ما كان ساكنا وصار غذاء للعرق الخفي من الرياء، وحينئذ يحمل على تكلف سبب الاطلاع عليه ولو بالتعريض ونحوه كإظهار النحول وخفض الصوت وبيس الشفتين وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه ولا يسره ولكنه يجب أن يبدأ بالسلام والتعظيم، وأن يقابل بمزيد الثناء، والمبادرة إلى حوائجه، وأن يسامح في معاملته، وأن يوسع له المكان إذا أقبل، ومتى قصر أحد في ذلك ثقل على قلبه لعظمة طاعته التي أخفاها عند نفسه، فكأن نفسه تطلب أن يحترم في مقابلتها، حتى لو فرض أنها لم تفعل تلك الطاعات لما كانت تطلب ذلك الاحترام، ومهما لم يكن وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله تعالى ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء أخفى عن ديب النمل. قال الغزالي: وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون (١).

وقال أيضا: وكل من وجد في نفسه فرقا بين اطلاع الصغار والمجانين واطلاع غيرهم على عبادته فعنده شوب من الرياء، إذ لو علم أن الله هو النافع الضار القادر على كل شيء وغيره هو العاجز عن كل شيء لاستوى عنده الصغار وغيرهم ولم تتأثر نفسه بحضور كبيرهم ولا صغيرهم اهـ.

وقال المليباري في هداية الأذكياء:

إيمان مرء لا يكون تكاملا حتى يرى ناسا بآبل مُثلاً

فيكون مدحهم وذمهم سوا لم يخش لومة لائم في ذي العلا

أي لا يخشى لومة لائم في دين ذي العلا جل جلاله .

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٤٣.

وقال السيد أبوبكر بن محمد شطا في شرحه لهذين البيتين: هذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر . أي في مشاهدة العمل، فما دام يفرق بينهما فهو ليس بمخلص اهـ.

وفي الزواجر: اختلف الغزالي وابن عبد السلام فيمن قصد بعمله الرياء والعبادة فقال الغزالي: إن غلب باعث الدنيا فلا ثواب له، أو باعث الآخرة فله الثواب، وإن تساوى تساقطا فلا ثواب أيضا، وقال ابن عبد السلام: لا ثواب مطلقا للأخبار الواردة كخبر: من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء هو للذي أشرك، وأول الغزالي الحديث على ما إذا استوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح، وصريح كلام الغزالي أن الرياء ولو محرما لا يمنع أصل الثواب عنده إذا كان باعث العبادة أغلب، ومن ثم قال: لو كان اطلاع الناس مرجحا ومقويا نشاطه ولو فقد لم يترك العبادة ولو انفرد قصد الرياء لما أقدم فالذي نظنه والعلم عند الله تعالى أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه يعاقب على مقدار قصد الرياء في صدقته وصلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص، وقد نقلناه عن سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ما يدل على أنه لا ثواب له أصلا انتهى، قال الهيثمي: وبهذا يترجح كلام ابن عبد السلام.

والحاصل أن الذي يتجه ترجيحه في ذلك أنه متى كان المصاحب لقصد العبادة رياء مباحا لم يقتض إسقاط ثوابها من أصله، بل يثاب على مقدار قصده العبادة وإن ضعف أو محرما اقتضى سقوطه من أصله كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة السابقة، وقوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} قد لا يعكر على ذلك لأن تقصيره بقصده المحرم أوجب سقوط الأجر فلم يبق له ذرة من خير فلم تشمله الآية (١).

### مهمة في عدم تأثير الرياء الوارد بعد تمام الأعمال غالبا

اعلم أن العبد إذا عقد عبادته على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فإن كان بعد تمام العمل لم يؤثر فيه لأنه تم على الإخلاص فلا ينعطف عليه أثر ما طرأ إن لم يتكلف إظهاره والتحدث به، فإن تكلف ذلك قصدا للرياء قال الغزالي: فهذا مخوف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط العمل وساق ذلك ثم استبعد أن يكون ذلك الطارئ مبطلا لثواب

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١، ص ٤٠-٤١.

العمل. قال: بل الأقيس أنه مثاب في عمله الذي انقضى ويعاقب على مراآته بطاعة الله ولو بعد فراغه منها بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء في أثنائها فإنه يبطها بل يفسدها إن تمحض قصد الرياء، فإن لم يتمحض لكنه غلب حتى انغمر<sup>(١)</sup> قصد القربة فيه فهذا يتردد في إفساده للعبادة، وميل الحارث المحاسبي إلى إفساده، والأحسن عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه سرور باطلاع فلا يفسد عمله لبقاء أصل النية الباعثة عليه والحاملة على إتمامه، بخلاف ما لو عرض له ما لولا الناس لقطع صلاته مثلا فإنه يفسدها فيعيدها إن كانت فرضا. (٢).

وقال العلامة المحدث بن علان الصديقي في شرح الأذكار: إن طرأ الرياء في عمل عقده لله خالصا فإن دفعه حالا لم يضر إجماعا، وإلا فرجح أحمد وجماعة من السلف إثابته عملا بنيته الأولى، ومحلّه إن كان العمل مرتبطا آخره بأوله كالصلاة وإلا كالقراءة فلا ثواب بعد الرياء .

أما إذا صاحبه غير محرّم كأن حج بقصد الحج والتجارة فنقل عن ابن عبد السلام منع الثواب مطلقا، وعن الغزالي اعتبار الباعث فإن غلب باعث الدنيا أو تساويا فلا ثواب، وقول الشافعي وأصحابه: من حج بنية التجارة كان ثوابه دون ثواب المتخلي عنها يقتضي ثوابه على القصد الديني وإن قلّ، ويؤيده قوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، وكلام الإحياء في مواضع، وكذا كلام غيره يتبين منه صحة ذلك (٣) اهـ.

### فائدة في إطلاق الرياء على أمر مباح

قال ابن حجر الهيتمي في "الزواجر": وقد يطلق الرياء على أمر مباح وهو طلب نحو الجاه والتوقير بغير عبادة كأن يقصد بزينة لباسه الشاء عليه بالنظافة والجمالة ونحو ذلك، وقس على ذلك ما أشبهه من كل تحمل وتزين وتكرم لأجل الناس كالإنفاق على الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة بل ليقال: إنه سخي، ووجه عدم حرمة هذا النوع أنه ليس فيه ما مر في المحرم من التلبس بالدين والاستهزاء برب العالمين، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد الخروج سوّى عمامته وشعره ونظر وجهه في المرأة، فقالت عائشة رضي الله

<sup>١</sup> حتى انغمر: أي غطاه.

<sup>٢</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١، ص ٤١.

<sup>٣</sup> الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية، ج ١ ص ٦٢

عنها: أو تفعل ذلك يا رسول الله، فقال: نعم، إن الله يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم، نعم هذا منه صلى الله عليه وسلم عبادة متأكدة لأنه مأمور بدعوة الخلق واستمالة قلوبهم ما أمكنه، إذ لو سقط من أعينهم لأعرضوا عنه، فلزمه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا يزدروه فيعرضوا عنه لامتداد أعين عامة الخلق إلى الظواهر دون السرائر، فهذا قصده صلى الله عليه وسلم وفيه قرينة أي قرينة، ويجري ذلك في العلماء ونحوهم إذا قصدوا بتحسين هيأتهم نحو ذلك (١).

### فائدة أخرى

قال الهيثمي: ليس كل شوب من الرياء مفسدا للعمل ومحبطا له، بل السرور إما محمود بأن يشهد أن الله أطلعهم عليه إظهارا لجميع أحواله ولطفه به فإنه في نفسه يستر طاعته ومعصيته ثم إن الله تعالى يستر معصيته ويظهر طاعته، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له ولطفه به لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، أو يشهد أنه لما ستر قبيحه وأظهر جميله في الدنيا فكذلك يفعل معه في الآخرة لخبر ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة، أو بأن يظن رغبة المطلقين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما ظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولاً إذ من أقتدي به في طاعة له مثل أجر المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن ينشأ عنه السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ يوجب السرور لا محالة، أو بأن يفرح بكونه تعالى وفقه إلى سبب يحمدونه عليه ويحبونه لأجله ولم يجعلهم كجماعة آخرين مذنبين يهزءون بالمطيعين ويؤذونهم، وعلامة هذا الفرح أن يكون فرحه بحمدهم غيره كفرحه بحمدهم له (٢).

وقوله: **وسمعة**: اعلم أنه ورد في ذم السمعة ما يرتدع به أولو الألباب ولا يستهين به من يرجو الثواب ويخشى العقاب، فمن ذلك ما رواه جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال:

<sup>١</sup> الزواجر ج ١ ص ٤٠.

<sup>٢</sup> الزواجر ج ١ ص ٤٣-٤٤.



قال النبي صلى الله عليه وسلم: من سمع سمع الله به، ومن يراء يراء الله به، رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هند الداري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من قام مقام رياء وسمعة رايها الله به يوم القيامة وسمع، رواه أحمد بإسناد جيد والبيهقي والطبراني ولفظه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رايها بالله لغير الله فقد برئ من الله .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سمع الناس بعمله سمع الله به سامع خلقه (١) وصغره وحقره، رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح، والبيهقي.

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قام مقام رياء رايها الله به، ومن قام مقام سمعة سمع الله به، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي (مشكاة المصابيح): عن أبي تيمية قال: شهدت صفوان وأصحابه وجندب يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سمع سمع الله به يوم القيامة، ومن شاق شق الله عليه يوم القيامة، رواه البخاري (٢) .

<sup>١</sup> الذي في مشكاة المصابيح: أسامع خلقه، قال الطيبي في (الكاشف شرح مشكاة المصابيح): ويروى سامع خلقه مرفوعاً، فيكون السامع من نعت الله تعالى، يريد سمع الله الذي هو سامع خلقه، يعني يفضحه الله اهـ .

وفي القاموس وشرحه تاج العروس: يكون السمع للواحد والجمع كقوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم} وجمعه أسمع، وجمع القلة أسمع، وجمع الجمع أي جمع الأسمع: أسامع، ومنه الحديث: من سمع الناس بعمله سمع الله به أسامع خلقه وحقره وصغره، يريد أن الله تعالى يسمع أسمع خلقه بهذا الرجل يوم القيامة، ويحتمل أن يكون أراد أن الله يظهر للناس سريره وبملاً أسمعهم بما ينطوي عليه من خبث السرائر جزاء لعمله، ويروى سامع خلقه برفع العين فيكون صفة من الله تعالى، المعنى: فضحه الله تعالى اهـ .

<sup>٢</sup> مشكاة المصابيح في باب الرياء والسمعة في الفصل الثالث .

وَلَا تَكْتَرِثُ بِالذَّمِّ وَالسَّبِّ وَاطْلُبْ مَرَاتِبَ عِزِّ كُلِّ وَقْتٍ بِهَمَّةٍ

أي لا تكثر ثوباً ولا تبال بدم الناس وسبهم إياك وازدرائهم عليك، فإن ذلك يؤدي إلى التشويش وانكسار الخاطر وضعف المهمة، واطلب كل وقت بهمة عالية وعزيمة قوية مراتب العز والشرف من العلم والعمل به.

### المهمة العالية أساس التقدم والنجاح

اعلم أن المهمة العالية هي من أشرف خصال المرء ومن أعظم نعم الله على عباده، وقد كان صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق همّة، وقد قيل: أحسن بيت مدح به رسول الله صلى الله عليه وسلم قول حسان بن ثابت:

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر ( ١ )

وقال أبو سعيد البوصيري في البردة:

كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم  
قال ابن حجر الهيتمي في شرحه على البردة: أي كل همّة من هممه صلى الله عليه وسلم  
كهمم أهل الدهر، بل هي أعلى وأجل اهـ .  
وكما يطير الطير بجناحيه كذلك ينهض الإنسان بهمته، وينال بها إلى مقصوده وتحقيق  
مراده، وبلوغ أغراضه، فهي سُلّمُ المأمول، والطريق الوحيد إلى وصول المطلوب، وبقدر  
المهمة يكون النجاح، وأحسن القائل:

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

وفي قصيدتي التائية:

وبالهمة العلياء والعزم تقطع الـ —مفاوز فاطلب كل خير بقوة

وفي الإنسان طاقة عظيمة في ذهنه وفكره، وقدرة عجيبة خلقها الله تعالى فيه يتمكن بها  
إذا استخدمها الوصول إلى أعلى المناصب وأرفع المراتب، وينال بها المقاصد والمآرب،  
فالإنسان في حاجة ماسة إلى تحريك همته الراكدة، وتنبيه عزمته الراقدة، وليس بينه وبين  
مطالبه إلا استعمال هذه القوة الكامنة، والغريزة الغالية، وقد كانت لكثير من العلماء هممٌ

<sup>١</sup> وبعد هذا البيت:

له راحة لو أن معشار عشرها على البر كان البر أندى من البحر

العمدة شرح البردة لابن حجر الهيتمي .

عجبية وعزائم قوية يرتكبون بها أصعب المشقات ويصعدون بها الشواهد الراسيات، ويقطعون بها المفاوز والفلوات، فكان منهم من استغرق ساعات عمره في تعلم العلوم وجمعها، ومنهم من يصوم نهاره ويسهر بالركوع والسجود وأنواع العبادات، ولا ينام ليله فيصلّي بوضوء العشاء صلاة الفجر عدة سنوات، وقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يصلّي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وفي رواية خمسين سنة، وصلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العشاء خمسين سنة، وقال الحافظ ابن الجوزي: صلى وهب بن منبه وطاووس بن كيسان الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان صفوان بن سليم لم يضع جنبه على فراش منذ أربعين سنة، وقال الإمام يحيى بن معين: إن أبا بكر بن عياش لم يفرش له فراش خمسين سنة، وذكر كثير من علماء السير والتواريخ أن السري بن مغلّس السَّقَطِيّ أتت عليه ثمانية وسبعون سنة لم يُرَ فيها مضطجعا إلا في علة الموت (١). وقال الإمام النووي: إن أبا بكر النيسابوري بقي أربعين سنة لم ينم الليل يصلّي الصبح بطهارة العشاء.

وفي (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يصلّي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة. وفي (مكاشفة القلوب) أن حبشي بن داود صلى الغداة أربعين سنة على طهر العشاء، وكان بشر الحافي ويزيد الرقاشي ومالك بن دينار وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتوا رحمهم الله. وكان قوم من الصالحين يصلون كل ليلة ألف ركعة، منهم زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبلال بن سعد التابعي، وعلي بن عبد الله بن عباس، وقال الذهبي: كان له خمسمائة شجرة يصلّي عند كل شجرة ركعتين، وذلك كل يوم، وكهمس بن الحسن، ومرة بن شراحيل الهمداني.

<sup>١</sup> هذا ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة، والذي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية والإمام القشيري في الرسالة والحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء وابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب وغيرهم أن السري بن مغلّس السَّقَطِيّ أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا إلا في علة الموت!! ذكرت ذلك كله وما فيه من الإشكال في إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين. فليراجع.

وكان من العلماء من يكرر درسه ويعيده كثيرا من المرات، وكان الشيخ أبو إسحق الشيرازي رحمه الله يقول: كنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياسا آخر، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسئلة بيت يستشهد حفظت القصيدة. ولقد كان اشتغاله أول طلبه أمرا عجابا وعملا دائما، يقول من شاهده عجا لهذا القلب والكبد كيف ما ذابا .

ومنهم من له كل يوم دروس كثيرة تزيد على عشرة من الفنون المختلفة، ومنهم من انقطع لنصح المسلمين وأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من يعتني غير ذلك من المهمات المختلفة التي لا بد منها في السعادة الأخروية والدينية.

فلا بد لطالب العلم إذا كان عاقلا مخلصا من اقتحام العقبات، وارتكاب المشقات، واحتمال الصعوبات، اقتداء بهؤلاء السادة المذكورين وبأمثالهم، لينال بذلك ما نالوا من الدرجات العلية والراتب الهنية، وقال الله سبحانه وتعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} وقال تعالى: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} فإذا صبر الطالب على شدائد التعلم وسلك مسالك الصالحين من السلف والخلف يلتحق بهم ويفوز كما فازوا إن شاء الله، والله الموفق.

وقال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): اعلم أن الفضائل لا تنال بالهويناء، وأن يسير التفريط يشين وجه المحاسن، فالبدار البدار، وانهض بعزيمة عازم، وارفض في هذه العزيمة الدنيا وأربابها، فبارك الله لأهل الدنيا في دنياهم، فحن الأغنياء وهم الفقراء، كما قال إبراهيم بن أدهم: ولو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراما أو شبهه، وإن جمعوا مالا فمن وجوه لا تصلح، ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم، ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة، ولا نخاف من عدو، ولا ولايتنا تقبل العزل، والعز في الدنيا لنا لا لهم، وإقبال الخلق علينا وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير، وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى (١) اهـ .

<sup>١</sup> صيد الخاطر، في فصل تكاليف المجد ص ٣٩٠-٣٩١.

وقال في موضع آخر: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون ديني. وفي هذا قال الشاعر:

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دوناً  
وقال آخر:

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محب  
وقال أيضاً في (صيد الخاطر): ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعد الزمان، وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب، وإني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب، ولا أقول: ليت له لم يكن، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل.

وقال أيضاً في (صيد الخاطر): ومن رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كل علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن، ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب، ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم والبذل، ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على طبعه من الكرم احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك، وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع بين أضداد، فهو أبداً في نصب لا ينقضي، وتعب لا يفرغ، ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال زاد تعبهُ وقوي وصبه، فأين هو ومن دنت همته؟ إن كان فقيهاً فسئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدثاً فسئل عن مسألة فقهية قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه مقصر!، والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة، قد كشفت عيبه، وقد رأت الناس عورته، والقصير الهمة لا يبالي بمن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك، ولكن تعب عالي الهمة راحة في المعنى، وراحة قصير الهمة تعب وشين

إن كان ثَمَّ فهم، والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي المهمة أن لا يقصر في شوطه، فإن سَبَقَ فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَمَّ (١). وقال أيضا في (صيد الخاطر): خلقت لي همة عالية تطلب الغايات، بلغت السن وما بلغت ما أملت، فأخذت أسأل الله تطويل العمر (٢)، وتقوية البدن وبلوغ الآمال، فأنكرت عليّ العادات وقالت: ما جرت عادة بما تطلب، فقلت: إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات.

وقد قيل لرجل: لنا حُويجة، فقال: اطلبوا لها رجُيلا (٣). وقال أيضا: نظرت إلى علو همي فرأيتها عجبا!! وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أي لا أصِل إليه، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فن، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه، فإن عرض لي ذو همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصا في غيره، فلا أعد همته تامة، مثل المحدث فاته الفقه، والفقيه فاته علم الحديث، فلا أرى الرضا بنقصان من العلوم إلا حادثا عن نقص المهمة!! .

ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بشر الحافي، وزهد معروف الكرخي، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيداً!! . ثم إني أروم الغني عن الخلق وأستشرف الإفضال عليهم، والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وقبول المنن مما تأباه المهمة العالية .

ثم أي أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، ليبقي الخلفان نائبين عني بعد التلف، وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثم لو حصل فرَّق جمع المهمة!! ، وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود بالترفه واللف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد!! .

وقال أيضا: لقد رأيت أقواما يصفون علو همهم، فتأملتها فإذا بها في فن واحد، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضي:

<sup>١</sup> صيد الخاطر في فصل علو المهمة، ص ٤٠٠-٤٠١

<sup>٢</sup> وقد عاش ٨٩ سنة

<sup>٣</sup> صيد الخاطر، في فصل قوة المهمة ص ٢٢٩.

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي  
فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة !.

وكان أبو مسلم الخراساني في حال شببته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك، فقال: ذهن صاف، وهمٌ بعيد، ونفس تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج الرعاع!  
قيل: فما الذي يبرد غليلك ؟ قال: الظفر بالملك، قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال! قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع ! قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلا، وأحاول به خطرا لا يُنال إلا بالجهل! وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به فإن الخمول أخ العدم.

فنظرت إلى حال هذا المسكين، فإذا هو قد ضيع أهم المهمات، وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات، فكم فتك وقتل؟! حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا، ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين! ثم اغتيل ونسي تدير العقل! فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال!!.

ثم قال ابن الجوزي أين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا ؟ وأنا لا أحب أن يَخْدِشَ حصولُ شيء من الدنيا وجهَ ديني بسبب، ولا أن يُؤثِّرَ في علمي ولا في عملي. فوا قلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع مع إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم!!

ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقات الناس وتعليمهم، ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة!!

غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي؛ لأن علو الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل. وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفسٌ في غير فائدة، فإن بلغ همي مراده... وإلا فَنِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أبلغ من عمله (١) اهـ.

وقال أيضا في (صيد الخاطر): واللذات كلها حاصلة بين حِسِّي وعقلي، فمنهاية اللذات الحسية وأعلاها: النكاح، وغاية اللذات العقلية: العلم، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية. وأنا أرشدُ الطالب إلى أعلى المطلوبين، غير أن للطالب المرزوق علامة،

<sup>١</sup> صيد الخاطر، في فصل تفاوت الهمم والأمل، ص ٢١٨-٢٢٠

وهو أن يكون مرزوقا علو المهمة، وهذه المهمة تُؤكّد مع الطفل، فتراه في زمن طفولته يطلب معالي الأمور، كما يروى في الحديث أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر - بجوار الكعبة المعظمة -، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى وهو طفل فيجلس عليه، فيقول عبد المطلب: إن لابنى هذا شأنًا.

فإن قال قائل: فإذا كانت لى همّة، ولم أرزق ما أطلب فما الحلّية؟ فالجواب أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر.

ثم من البعيد أن يرزقك همّة ولا يُعيّئك، فانظر في حالك، فلعله أعطاك شيئًا ما شكرته! أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه!

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيرًا، ليؤثرك بلذات العلم، فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع، فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك، فإن الشاب المبتديّ طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفًا ويجعل علم الفقه الأهمّ، ولا يقصر في معرفة النقل أي المنقولات من الأحاديث والسير والأخبار، فبه يتبيّن سير الكاملين، وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع يعني اللغة والنطق، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو، فقد شجّدت شفرةً لسانه على أجود مسنّ.

ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فُتحت له أبوابٌ لا تفتح لغيره (١) اهـ.

ولله در القائل:

سبقت العالمين إلى المعالي بصائب فكرة وعلو همه

ولاح بحكمتي نور الهدى في ليال للضلالة مدلهمة

يريد الجاهلون ليطفئوه ويأبى الله إلا أن يتمه ( ٢ )

وعن الشافعي: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، قيل: ولم؟ قال: لأن العاقل لا يعدو من إحدى خلتين، إما يغتم لآخرته أو لدنياه، والشحم مع الغم لا ينعقد (٣).

<sup>١</sup> صيد الخاطر، في فصل جوانب الفضل، ص ١٦٥.

<sup>٢</sup> علو المهمة ص ٣٢.

<sup>٣</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٨٩.



وصاحب المهمة العالية لا يستريح ولا يكسل، وليس لنفسه هدوء واطمئنان، بل هو في سير حثيث، ونصب شديد؛ لطموحه إلى الترقى والسمو، فهو مغتم مجهود؛ لرغبته فيما هو أشرف وأرفع مما ناله من منصب أو مال أو علم، وإن كان ما ناله بذاته رفيعاً مرموقاً يقتنع به كثير من الناس. فيا طالب العلم سُلّ سيف العزم عن الغمْد، واضرب بها رأس الكسل والعجز، واطعن برمح الرجولية جثمان التواني والبطء، وأرخ عنان جواد المهمة والعزم، وسير إلى الأمام كي تلحق مواكب ذوي المهمم العالية، وقوافل راغبي المراتب السامية، والله المستعان، ويده التوفيق.

وَلَا تَفْرَحَنَّ فِي مَدْحِهِمْ وَثَنَائِهِمْ فَذَلِكَ أَصْلُ لِلْغُرُورِ وَخِسَّةٍ

أي لا تفرح بمدحهم وثنائهم عليك، فإن ذلك يؤدي في الغالب إلى الغرور والزهو والعجب والانخداع بأقوالهم، قال الإمام النووي في مقدمة التلخيص شرح الجامع الصحيح للبخاري: قال الإمام البخاري: المادح والذام عندي سواء .

وفي (سير أعلام النبلاء) قال يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي: رضى الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه (١).

## فصل في التحذير من اتباع الهوى

### تعريف الهوى

قال ابن الجوزي في كتابه (ذم الهوى): الهوى هو ميل الطبع إلى ما يلائمه (١). وقال بعضهم: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع (٢). وقال ابن حجر الهيتمي في (العمدة في شرح البردة): الهوى بالقصر لغة: الميلان إلى الشيء، وعرفا: ميلان النفس إلى ما يترتب عليه ذم في العاجل، وعقاب في الآجل اهـ. وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين بشرح الأربعين): المعروف في استعمال الهوى عند الاطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، ومنه: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ}. وقد يطلق بمعنى مطلق الميل والمحبة، فيشمل الميل للحق وغيره، وبمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، ومنه حديث: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به وقول عائشة رضي الله عنها لما نزل قوله تعالى: {تَرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتَوَوَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ} للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقول عمر رضي الله عنه في قصة المشاورة في أسارى بدر: فَهَوَىٰ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ (٣) اهـ.

وَأَيَّاكَ طَوَعَ النَّفْسَ فِيمَا تُرِيدُهُ وَلَا تَتَفَقَّ مَعَهَا بِصُلْحٍ وَهُدْنَةٍ

أي احذر أن تطيع نفسك فيما تريده من اتباع هواها وشهواتها، ولا تقبل منها الصلح والهدنة والتنزل لها في بعض مطالبها، فإنها هي العدو الملازم، فقد قال تعالى: {وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٥.

<sup>٢</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٨.

<sup>٣</sup> قال الهيتمي: قوله صلى الله عليه وسلم: تبعا لما جئت به أي من هذه الشريعة المطهرة الكاملة، بأن يميل قلبه وطبعه إليه كميله لمحباته الدنيوية التي جبل على الميل إليها من غير مجاهدة وتَصَبُّرٍ واحتمال مشقة، أو بعض كراهة ما، بل يهواها كما يهوى المحبوبات المشتهايات؛ إذ من أحب شيئا أثبته هواه، ومال عن غيره إليه، ومن ثم أثر صلى الله عليه وسلم التعبير بذلك على نحو حتى يأتمر بكل ما جئت به؛ لأن المأمور بالشيء قد يفعله اضطرارا. ثم قال الهيتمي: واعلم أن الهوى يميل بالإنسان بطبعه إلى مقتضاه، ولا يقدر على جعله تبعا لما جاء به صلى الله عليه وسلم إلا كل ضامر مهزول. الفتح المبين، شرح حديث الحادي والأربعين.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .

وقال الإمام البوصيري رحمه الله في قصيدته البردة:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم  
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم  
وقال ابن الجوزي في (ذم الهوى): قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى (١).

وَلَا تُرَضْ لِتَأْمَنَ بِهَا إِنَّ كَيْدَهَا عَظِيمٌ يَزِيدُ كَيْدَ شَرِّ الْبَرِيَّةِ  
وَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ وَالشَّرِّ دَائِمًا فَحَازِرُ كَمَا تَخْشَى أَخِي فَتَكْ لَبْوَةٍ ( ٢ )  
أي لا ترض عن نفسك ولا تأمنها فإنها غدارة أشد شرا من الشيطان الرجيم، قال العلامة البيجوري في (تحفة المريد على جوهره التوحيد): النفس أشد من الشيطان في الكيد ولذلك قال بعضهم:

توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أحبت من سبعين شيطانا

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٨.

<sup>٢</sup> قوله: "فَتَكْ" من فتك يفتك ويفتك، وفتك به انتهاز منه فرصة فقتله، وفي المختار: الفتك بفتح الفاء وضمها وكسرهما: القتل على غرة، وقد فتك به يفتك ويفتك بالضم والكسر، وفي الحديث: "قيد الإيمان الفتك لا يفتك مؤمن". وقوله: "اللبوة" في القاموس وشرحه: اللبأة كتمرة: الأسد أي الأنثى من الأسد، واللبوة بالواو مع سكون الباء وفتح اللام قال الزبيدي في "نوادره": هي لغة أهل الحجاز، ونقله أبو جعفر في شرح الفصيح، ونقلها الجوهري عن السكيت، ويكسر فيقال: لبوة غير مهموز، قال أبو جعفر: حكاها يونس في نوادره وهي كلمة قليلة اهـ وقال ابن منظور في اللسان: اللبوة الأنثى من الأسد، والجمع لبو، واللبوة ساكنة الباء غير مهموزة لغة فيها، واللبؤ الأسد اهـ.

وذكر الإمام السيوطي في كتابه الكنز المدفون والفلك المشحون ص ٣٢١ أن للأسد أسماء وهي: الأسد، السبع، الدلمس، هرثمة، الشجعم، الشدقم، الصم، الهواس، الخابس، الهصور، والضیغم، حيدرة، الغضنفر، قسورة، الليث، الكلب، الوثاب، الضرغام، الوردل، السميدع، الهزبر، الحفص، العنيس، ويال، الهرماس، الفرائص، أسامه، ساعدة اهـ.

وقال ابن عجيبة: فرّق الجنيد بين هواجس النفس ووسواس الشيطان (١) بأن ما دعت إليه النفس لا تنتقل عنه بل تعاوده مرة بعد مرة إلا بعد مجاهدة كبيرة، ووسواس الشيطان ينتقل عنها، فإذا خالفته في معصية انتقل لأخرى، وربما ذهب بالتعوّذ ونحوه، ولذلك كانت النفس أحبّ من سبعين شيطانا (٢) اهـ .

وقال ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الخامسة والثلاثين من كتابه (الحكم): أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأبي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه اهـ . وهي أمانة بالسوء فاحذر منها كما تحشى من سطوة الأسد وبطشه، قال الله تعالى: {إن النفس لأمانة بالسوء} .

وَخَالَفَ هَوَاهَا وَأَقْمَعَنَ شَهَوَاتِهَا وَخَذَهَا بِقَهْرٍ وَأَنْقَلَبَ بِعَنَوَةٍ

أي خالف هوى نفسك واقمعها عن التمادي في اتباع شهواتها، وخذها بقهر وانقلب بقوة كانقلاب أهل الثورة على الدول، قال سليمان بن داود: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الشديد من غلب الناس ولكن الشديد من غلب نفسه (٣).

<sup>١</sup> فائدة: قال ابن عجيبة: الخواطر خطابات ترد على القلوب تكون بإلقاء ملك، أو شيطان، أو حديث نفس، فإن كان من الملك فإنها إلهام، أو من الشيطان فوسواس، أو من النفس فهواجس، فما وافق الحق ودعا إليه فمن الملك، وما وافق الباطل أو دعا إلى معصية غالبا فمن الشيطان، وقد يدعو إلى الطاعة حيث يترتب عليها معصية كالرياء وحب المدح، وما دعا إلى اتباع الشهوة والدعة - أي الراحة - فمن النفس، قال أبو علي الدقاق: من أكل الحرام لم يفرّق بين الإلهام والوسواس اهـ .

<sup>٢</sup> معراج التشوف إلى حقائق التصوف للشيخ العلامة الصوفي أحمد بن محمد بن عجيبة شارح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري ص ٤٢ .

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٦٢-٦٣ .

وقال ابن المبارك في قوله تعالى: {وجاهدوا في الله حق جهاده} قال: هو جهاد النفس والهوى (١).

وفي (الجامع الصغير): روى الخطيب عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال: قدمتم خير مَقْدَم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه، ورمز لضعفه (٢). قال المناوي في (فيض القدير): روى هذا الحديث عن جابر البيهقي أيضا في كتاب الزهد. وقال الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري في (المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي): هذا الحديث له شواهد كثيرة، يمكن جمعها في جزء مفرد، ولنا عزم على ذلك إن شاء الله تعالى وأعان عليه اهـ.

وعن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل.

وقال رجل للحسن البصري: يا أباسعيد أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك. وفي (المدابغي) قيل: أوحى الله إلى بعض الصديقين: عاد نفسك فليس في المملكة من ينازعني غيرها (٣).

وقيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزمًا؟ قال: الغالب لهواه (٤). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح (٥). وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق (٦) الشيطان من ظله.

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٦٤.

<sup>٢</sup> قال السيوطي في الدرر المنتثرة: حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب، قال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عيلة اهـ.

<sup>٣</sup> المدابغي حاشية فتح المبين لشرح الأربعين النووية ص ٨٠.

<sup>٤</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٨.

<sup>٥</sup> وفي رواية: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعا لعمله فيومه يوم صالح. اهـ حاشية بسام محمد بارود على العمدة شرح البردة.

<sup>٦</sup> يفرق الشيطان أي يخاف.

وقال بشر بن الحرث الحافي: اعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه (١).

وقال بشر أيضا: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد. وقال علي بن سهل: العقل والهوى يتنازعان، فمعين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس واقفة بينهما، فأيهما ظفر كانت في حيزه.

وقال آخر: إن لكل شيء أبا جاد (٢)، وإن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال (٣). وقال ابن الجوزي أيضا: اعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون، ويُخرج من دار العقل إلى دائرة الجنون، وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم (٤). العلم (٤).

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٦-٤٩.

<sup>٢</sup> أي أول الشيء وبدايته يعني أن لكل شيء بداية، وبداية الحكمة طرد الهوى إلخ، وهي مأخوذة من الأحرف الأبجدية - أبجد هوز إلخ. حيث إن (أبجد) أول الحروف وبدايتها. وفي القاموس: أبجد إلى قرشت ملوك مدين، وكَلَمُنُ رئيسهم، ووضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، هلكوا يوم الظلة، فقالت ابنة كَلَمُن:

كلمن	هدم	ركني	هلكه	وسط	المحله
سيد القوم	أتاه	الـ	احتف	نارا	وسط
جعلت	نارا	عليهم	دارهم	كالمضحله	

ثم وجدوا بعدهم نخذ وضنغ فسموها الروادف اهـ. وقال أبو عبد الله البجلي: كان أبوجاد وهوز وحطي وكَلَمُن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في يوم الظلة اسمه كَلَمُن اهـ حاشية الجمل على الجلالين في قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف. وفي المعجم الوسيط: تستعمل الحروف الأبجدية في حساب الجمل على التالي:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

وفي المعجم الوسيط أيضا: أن المغاربة يخالفون في ترتيب الكلمات التي بعد كَلَمُن، فيجعلونها صغفص قرشت نخذ ظَعَش اهـ. وفي كتاب نور الظلام شرح عقيدة العوام في شرح بيت:

أبياتها ميز بعد الجمل      تاريخها لي حي غر جمل

كلام يتعلق بهذا الموضوع فانظره إن شئت.

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٥٦.

<sup>٤</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٨.

وقال صفوان بن سليم: ليأتين على الناس زمان تكون همّة أحدهم فيه بطنه، ودينه هواه (١).

وقال الحسن بن علي المطّوعي: صنم كل إنسان هواه، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة (٢).

وفي الرسالة القشيرية: قال بشر بن الحرث: إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم لأن في ذلك مخالفة لهوى النفس.

فَلَا أَحَدٌ مِمَّنْ هَوَاهُ اتَّبَعَ بِغَيْرِ — رِ هَدْيٍ أَضَلُّ فَآخَشَ هَدْيُ الْبَلِيَّةِ

أي فلا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير هدي، فليخش طالب العلم من هذا الضلال والبلية، وفي البيه إشارة إلى قوله تعالى: {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال عز وجل في ذم اتباع الهوى: {ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب} .

وقال تعالى: {واتبع هواه وكان أمره فرطاً} .

وقال تعالى: {أفرايت من اتخذ إلهه هواه} . قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

وقال تعالى: {بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله} .

وقال تعالى: {ليضلون بأهوائهم بغير علم} .

وقال تعالى: {ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} .

وقال ابن السماك: إن شئت أخبرتك بدائك وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك (٣).

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٧.

<sup>٢</sup> ذم الهوى، ص ٣٩-٥٢.

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٨.

فَمَنْ خَالَفَ الْهَوَىٰ لِأَجْلِ إِلَهِهِ فَمَأْوَاهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي وَسْطِ جَنَّةٍ

يعني من خالف هواه لأجل الله تعالى فإن الجنة هي مأواه، وقد ورد في فضل مخالفة الهوى آيات وأحاديث وآثار كثيرة ذكرنا بعضها، وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} قال المفسرون: هو نهي النفس عما حرم الله عليها. وقال مقاتل: هو الرجل يهتم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها.

قال أحمد بن الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني في قول الله عز وجل: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} قال: صبروا عن الشهوات (١).

وقال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شببته صيره الله ملكاً في حال كهولته كيوسف عليه السلام، {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ} (٢).

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما خلق الله عز وجل الجنة والنار أرسل إلى جبريل يعني إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز وجل لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحجبت بالمكاره، وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره، فقال: لقد خشيت ألا يدخلها أحد، قال: فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، وقال له: ارجع إليها فانظر إليها، فإذا هي قد حفت بالشهوات، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (٣).

وقال حذيفة بن قتادة المرعشي: كنت في المركب فانكسر بنا فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب فمكثنا سبعة أيام فقالت المرأة: أنا عطشى، فسألت الله تعالى أن

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٥٠.

<sup>٢</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٥٣-٥٦.

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤١.



يسقيها، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء فشربت، فرفعت رأسي أنظر السلسلة فرأيت رجلا جالسا في الهواء متربعا، فقلت: من أنت؟، قال: من الإنس، قلت: فما الذي بلغك هذه المنزلة؟، قال: آثرت مراد الله على هواي فأجلسني كما تراني .

وقال معاوية: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى .

وقال مبادر بن عبيد الله الصوفي: سمعت بعض أصحابنا يقول: رأيت غرفة في الهواء وفيها رجل فسألته عن حاله التي بلغته إلى تلك المنزلة؟ فقال: تركت الهوى فأدخلت في الهوا(١).

وقال أبو سليمان الداراني: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

**خاتمة في بعض ما ورد في ذم اتباع الهوى**

قال تعالى: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين}.

وقال تعالى: {فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا}

وقال ابن عباس: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه.

وقال الشعبي: إنما سمى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه (٢).

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله(٣) .

وعن ابن الجبير(٤) وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: قال صلى الله عليه وسلم: ألا وإن عمل الجنة حزنة(٥) بربوة، ألا وإن عمل النار سهلة بسهولة(٦)، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا(٧).

<sup>١</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٦ .

<sup>٢</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٦ .

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٦٠ .

<sup>٤</sup> وفي الجامع الصغير: أبو الجبير بدل ابن الجبير.

<sup>٥</sup> الحزن: المكان الغليظ وهو الخشن، والحزونة الحشونة. لسان العرب.

<sup>٦</sup> وذكر في لسان العرب هذا الحديث وقال: السهوة الأرض اللينة التربة، شبه المعصية في سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حزونة فيها، وقيل: كل لئى سهو، والأنثى سهوة أهـ.

<sup>٧</sup> وفي رواية: وتمنى على الله الأمان. بتشديد الياء جمع أمنية. أهـ فيض القدير للمناوي.

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات. أخرجه مسلم.

وقال خلف بن هشام: سمعت الفضيل بن عياض يقول: من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه موادّ التوفيق.

وقال يحيى بن معاذ: حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء إن صبر نفسه على مضض<sup>(١)</sup> الدواء اكتسب اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقي طالت به علة الضنى .

وعن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخوف ما أخاف على أمتي حَكَمُ جائر، وزلة عالم، وهوى متبع.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه<sup>(٢)</sup>.

وقال الأصمعي: سمعت رجلاً يقول:

إن الهوان هو الهوى قُلبَ اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه، فنظمه شاعر فقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا ( ٣ )

وقال الإمام البوصيري في (البردة):

فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم ( ٤ )

<sup>١</sup> المضض الألم ووجع المصيبة. قاموس.

<sup>٢</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٠-٤٣.

<sup>٣</sup> ذم الهوى لابن الجوزي ص ٥٧-٥٨.

<sup>٤</sup> قوله: يُصم بضم أوله أي يقتله، من أصمى الصيد قتله، وقوله: يصم بفتح أوله أي يعب؛ لأن الهوى تارة يأتي بما فيه قتل وعيب، كالردة وزنى الحصن، وتارة يأتي بما فيه عيب فقط كالسرقة والقذف، وهو أصل كل مفسدة، ورأس كل خطيئة؛ إذ هو حالة شبيهة بالسكر تمنع التمييز بين حسن الأمور وقبحها.

قال ابن حجر الهيتمي في (العمدة في شرح البردة): في منشور الحكم: من أطاع هواه أعطي  
عدوه مناه.

وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

وقال بعض البلغاء: أفضل من عصي هواك، وأفضل من رفض دنياك. وقال هشام بن عبد  
الملك:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

اهـ.

## المبادرة إلى الخيرات

اعلم أن الله تعالى أمر بالمبادرة والمسارة إلى الأعمال الصالحة فقال عز وجل: {فاستبقوا الخيرات} وقال جل شأنه: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم} الآية، وقال تعالى في وصف بعض رسله عليهم الصلاة والسلام: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات} وأمر بها أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا(١) أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر، رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن.

وقال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور، بما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: "نية المؤمن خير من عمله". وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات.

وكان الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي في محافظته على وقته، وحرصه على الانتفاع به في كل نفس من أنفاسه، حتى إنه كان يختار سف الكعك وتحسيه بالماء على مضغ الخبز، لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت، ليتوفر على مطالعة، أو تسطير فائدة، أو القيام بعبادة.

وقال أبو غدة: الوقت أرخص ما يكون عند الجهلاء، وأغلى ما يكون عند العقلاء، فهو قوام علمهم وعماد حياتهم (٢).

وفي (شرح الحكم) لابن عباد: قال السري السَّقَطِي رحمه الله: جرت من بغداد أريد الرباط، إلى عبادان لأصوم بها رجب وشعبان، فاتفق لي في طريقي علي الجرجاني، وكان من الزهاد الكبار، فدنا وقت إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص، فقال: ملحك مدقوق ومعلك ألوان من الطعام، لن تفلح، ولن تدخل في سنن المحبين،

<sup>١</sup> قوله مجهزا بإسكان الجيم وكسر الهاء وفي "النهاية" أجهز على الجريح إذا أسرع قتله اهـ دليل الفالحين ج ٣

<sup>٢</sup> تعليق أبي غدة على رسالة المسترشدين ص ٢٠٧.

فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير فسَفَّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟، قال: إني حسبت ما بين المضغ والسَفَّ سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة (١) سنة (١) اهـ.

وقال بعض السلف: بين شرب السويق ومضغ الفتيت قراءة خمسين آية (٢). وقد كان مؤرخ بغداد ومحدثها الخطيب البغدادي يمشي وفي يده جزء يطالعه، كسبا للوقت حتى في أثناء المشي (٣). وقال السيوطي والسخاوي في ترجمة الإمام النووي رحمه الله تعالى: إنه لم يصرف ساعة في غير طاعة.

وكان ابن عقيل يقول: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين، وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإن أجلّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص (٤).

وَأَيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ (5) فَالْعَجْزُ فِيهِ وَالتَّخَلُّفُ وَالذُّلُّ وَحِرْمَانُ مُنِيَّةٍ  
أي احذر من التسويف؛ فإن فيه العجز والتخلف عن الرفقة السائرين إلى بلوغ المعالي واكتساب المجد، وفيه الذل والحرمان عن بلوغ الآمال .

<sup>١</sup> شرح الحكم لابن عماد ج ٢ ص ٣٩.

<sup>٢</sup> المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي، ص ١٠٤.

<sup>٣</sup> كذا في ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ ص ١١٤١.

<sup>٤</sup> رسالة المسترشدين ص ٢٠٥-٢٠٦.

<sup>٥</sup> سوف الأمر: قال سوف أفعله، المعجم الوسيط.

وفي مقدمة المجموع: من آداب المتعلم أن تكون همته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وأن لا يُسوِّف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها، وإن أمن حصولها بعد ساعة؛ لأن للتأخير آفات؛ ولأنه في الزمن الثاني يُحصَّل غيرها (١).

وَلَا تُمَهِّلُوا (٢) لِلْغَدِ أَعْمَالَ يَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ لَهُ أَعْمَالُ بَرٍّ بِكَثْرَةِ  
وَيُمْكِنُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِيكَ بَغْتَةً فَبَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْلَ الْمَنِيَّةِ  
أي لا تؤخروا أعمال يومكم إلى الغد؛ فعليكم أعمال بر أخرى تواجهكم في الغد، ولا يتسع الغد لعمله وعمل الأمس، فإن أتيت فيه بعمل الأمس ضيعت عمله، وكذا العكس، قال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم): حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها؛ إذ ما من وقت يرد إلا والله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه اهـ. ويمكن أن يأتيك الموت بغتة قبل الغد، فينبغي أن تبادر إلى الخيرات قبل أن يحول بينك وبينها الموت؛ لما مر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: بادروا بالأعمال سبعا.

وفي (الترغيب والترهيب) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم لرجل وهو يعظه: اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، رواه الحاكم، وقال صحيح على شرطهما.

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا، رواه ابن ماجه.

<sup>١</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم .

<sup>٢</sup> قال في لسان العرب: أمهله أنظره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا، رواه مسلم.

وعن مصعب بن سعد عن أبيه: قال الأعمش ولا أعلمه إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: التؤدة (١) في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة، رواه أبو داود والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم صحيح على شرطهما (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وفي (طلوع الثريا بإظهار ما كان خفيا) للحافظ السيوطي أنه صلى الله عليه وسلم قال في وصف الجنة: غالية لا تدرك بالهويناء (٣).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك (٤). وقد أحسن من قال:

وكن صارما كالوقت فالوقت في عسى وإياك مهلا فهي أخطر علة  
وسر زمناً وأنهض كسيرا فحظك الـ بطلالة ما أخرت عزما لصحة

وقال الترمذي حدثنا عبيد بن حميد، قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن حبيب بن الشهيد، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من بيته وهو في مرض موته يتكئ على أسامة بن زيد، وعليه ثوب قطري قد توشح به فصلى بهم، ثم قال عبيد بن حميد وهو شيخ الترمذي: قال محمد بن الفضل: سألتني يحيى بن معين عن هذا الحديث أول ما جلس إلى فقلت: حدثنا حماد بن سلمة، فقال: لو كان من كتابك، فقامت لأخرج كتابي، فقبض على ثوبي

<sup>١</sup> قال الحافظ المنذري: التؤدة بفتح المثناة فوق، وبعدها همزة مضمومة، ثم دال مهملة مفتوحة وتاء تأنيث هي التأني والتثبت وعدم العجلة.

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٨٩ - ٩٠.

<sup>٣</sup> طلوع الثريا بإظهار ما كان خفيا، وهو في ضمن الحاوي للفتاوي للسيوطي ج ٢ ص ٣٨٥.

<sup>٤</sup> الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية: ج ١ ص ١٢٧.

ثم قال: أمله علىّ، فإني أخاف أن لا ألقاك، فأمليته عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه (١).

وَشَمَّرَ ( ٢ ) وَخَضَ بَحْرَ الْعُلُومِ فَإِنَّمَا تَنَالُ الْمُنَى بِالْجِدِّ مَعَ تَرْكِ لَذَّةِ

أي اجتهد وبالغ يا طالب العلم وخض بحر العلوم المتنوعة؛ فإن المنى لا تنال إلا بالجد وترك الراحة، فقد قيل: من جد وجد، وقال الإمام يحيى بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة الجسم، رواه مسلم في صحيحه في باب أوقات الصلوات الخمس.

وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة (٣).

وقال بعضهم:

ادأب على جمع الفضائل جاهدا وأدم لها تعب القريحة والجسد  
واقصد بها وجه الإله ونفع من بلغته ممن جدّ فيها واجتهد  
واترك كلام الحاسدين وبغيهم هملاً فبعد الموت ينقطع الحسد ( ٤ )

وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم في الجنة (٥).

### الحرص على طلب العلم

وقال الذهبي: قال علي بن أحمد الخوارزمي: قال ابن أبي حاتم: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقّة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا فلم نزل السمكة ثلاثة أيام وكادت أن تتنن، فأكلناها نيئة لم نتفرغ نشويها، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسم (٦).

<sup>١</sup> قيمة الزمن ٣٣-٣٤.

<sup>٢</sup> التشمير: المبالغة في الاجتهاد، قال في المصباح: شَمَّرَ ثوبه رفعه، ومنه قيل: شَمَّرَ في العبادة إذا اجتهد وبالغ، وقال أيضاً: التشمير في الأمر: السرعة فيه.

<sup>٣</sup> علو المهمة ٢٨.

<sup>٤</sup> آخر كتاب الإتيان في علوم القرآن.

<sup>٥</sup> علو المهمة ٣٠.

<sup>٦</sup> علو المهمة ١٥٠.



وجاء في (توالي التأسيس في معالي محمد بن إدريس) للحافظ ابن حجر قال ابن أبي حاتم: سمعت المزي يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف أي بالكلمة مما لم أسمع، فتودّ أعضائي أن لها أسماعاً تَتَنَعَّمُ به مثل ما تَتَنَعَّمُ به الأذنان، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المتنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره . وقال أبو غدة: بمثل هذا الشغف والعشق للعلم يتكوّن النبوغ والإمامة فيه (١) اهـ.

ومما يحكى عن الشيخ شمس الدين أبي الشاء الإصبهاني: من حرصه على العلم وشحه بضيايع أوقاته أن بعض أصحابه كان يذكر أنه كان يمتنع كثيرا من الأكل لئلا يحتاج إلى الشرب، فيحتاج إلى دخول الخلاء، فيضيع عليه الزمان (٢). وكان لون ثياب الإمام شعبة بن الحجاج الواسطي كالتراب، وذلك لاشتغاله بالعلم، وعدم تفرغه بسبب ذلك لغسلها (٣).

وَكُنْ بِإِذْلًا جُهْدًا كَبِيرًا كَمِثْلٍ مَنْ يَغُوصُ الْبَحَارَ كَيَّ يَفُوزَ بِدُرَّةٍ

يعني كن باذلا في طلب العلم غاية طاقتك ونهاية وسعك كما يبذل طالب الدرر والجواهر غاية جهده في حصولها بحيث يغوص أعماق البحار لينالها ويظفر بها. قال بعض العلماء:

بقدر الكد تُكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي  
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المُحَال

وقال آخر:

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا بغير عناء والجنون فنون  
وليس اكتساب المال دون مشقة تَحْمِلُهَا فالعلم كيف يكون

وقال آخر:

وكن مستفيدا كل يوم زيادة من العلم واسبح في بحور الفوائد

<sup>١</sup> قيمة الزمن ص ٢٩.

<sup>٢</sup> قيمة الزمن ص ٧٩.

<sup>٣</sup> صفحات من صبر العلماء ص ١١٢.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح عشرين سنة! وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم خيّل إلينا أنه مؤيد أي تمده الملائكة بما يقول. وكان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي! ففي جسمه ستة عيوب، ولكنه كان ركنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة. وكان ثقة فقيها، حج نيفا أي زيادة على سبعين حجة.

وكان عطاء أسود شديد السواد، ليس في رأسه شعر إلا شعرات، فصيحًا إذا تكلم (١).  
**وَكُنْ صَابِرًا فِي كُلِّ عُسْرٍ وَشِدَّةٍ      تَنْلُ يَا أَخِي شَأَوَ الْعُلَا وَالْمَسَرَّةِ**  
 أي كن أيها الطالب صابرا في كل عسر وشدة تلحق بك في طلب العلم أيّا كان نوعها فتتال حينئذ شأو العلا والمسرة أي غايتهما.

روى الخطيب البغدادي بسنده عن محمد بن عاصم بن خلاد قال: كان يقال: من لم يركب المتاعب لم ينل الرغائب (٢).

وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلا استراح طويلا (٣).

قال الشاعر:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه      فلا يخاف للسع النحل من ألم

وقال الآخر:

وإذا كنت المقدام فلا      تجزع في الحرب من الرّهج

وقال ابن الوردي في مبحث العلم من لاميته:

واهجر النوم وحصله فمن      يعرف المطلوب يحقر ما بذل

<sup>١</sup> سير أعلام النبلاء في ترجمة عطاء بن أبي رباح، وصفحات من صبر العلماء ص ١١٤.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٥.

<sup>٣</sup> علو الهمة ٢٨.

إِذَا مَا تَسَابَقَتْ خِيُولُ ذَوِي الثُّقَى بِمَيِّدَانِهَا عَجَلَ خُطَاكَ بِسُرْعَةٍ

أي إذا تنافس المتنافسون وتحركت همهم إلى المبادرة في تعلم العلم والعمل به وفي سائر الخيرات من كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، لا تتأخر أيها الطالب عنهم، ولا تتخلف عن تلك القافلة السائرة ليلها ونهارها إلى ذروة المجد، وسمام العز والشرف، ففي هذا البيت استعارة مكنية حيث شبه ذوو الثقى بمتسابقين على خيول يجامع توجه كل إلى غاية وذكر الميدان ترشيح، وقوله: عجل خطاك كناية عن اللحوق؛ لأن من لازم تعجيل الخطا اللحوق.

وَلَا تَرْضَ أَنْ تَبْقَى وَرَاءَ جِيَادِهِمْ وَحِيدًا بَلَا أَنْسٍ فَتَنْدَمَ بِحَسْرَةٍ ( ١ )

أي لا ترض أن تتخلف عن رفقتك في طلب العلم، وتقيم وحدك في مضيق الجهل وظلماته، التي هاجروا منها، كي لا تندم وتتحسّر، فقد قال الإمام البوصيري في همزيته يلوم نفسه:

كنت في نومة الشباب فما استيقظت إلا ولمتي شمطاء ( ٢ )  
وتماذيت أقتفي أثر القوم فطالت مسافة واقتفاء  
فورا السائرين وهو أمامي سبل وعرة وأرض عراء ( ٣ )

<sup>١</sup> ولي في هذا المعنى أبيات في معاناة نفسي وتوبيخها على تأخرها عن المشمرين عن ساعد الجد القائمين في ليلهم ونهارهم لطاعة ربهم، منها:

وَلَكِنَّ بَيْنَ هَؤُلَاءِ ذَوِي الثُّهَى وَيَبْنِي قِفَارًا ذَاتُ بُعْدٍ وَظُلْمَةٍ  
فَقَدْ أَدْلَجُوا رَوْماً لِنَيْلِ الْعُلَى وَمُهِمَّ جَنِّي هَذِهِ مَالَتْ إِلَى نَحْوِ رَاحَةٍ  
تَرَى وَحْدَهَا قَدْ أَصْبَحَتْ فِي حَظِيرَةٍ تَرَحَّلَ أَهْلُ اللَّبِّ عَنْهَا بَلِيلَةً  
فَيَبْدُو وَرَاءَ السَّائِرِينَ سَوَادَهَا فَهَلْ ذُو حِجِّي يَرْضَى بِتِلْكَ الْفَضِيحَةِ

<sup>٢</sup> اللمة بالكسر: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهي حمة، والشمطاء: التي يخالط سوادها بياض. اهـ لسان العرب.

<sup>٣</sup> قوله: وعرة أي يعسر سلوكها، والعراء: الفضاء الواسع اهـ لسان العرب.

وَكُنْ مُكْثِرًا ذِكْرَ إِلَهِهِ بِخُلُوعٍ وَجَمْعٍ وَلَيْلٍ وَالْمَسَاءِ وَغُدُوءٍ

أي كن مكثرا ذكر الله تعالى في كل وقت وحال، فإنه لا يختص بزمان ولا مكان ولا حال من الأحوال، قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا} وقال تعالى: {والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}، وقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}، وقال جل شأنه: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم} وقال تعالى: {وتبتل إليه تبتيلا}، وقال تعالى: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}.

قِرَاءَةُ قُرْآنٍ مَجِيدٍ فَرْتَلْنُ لِكَيْ تَرْتَدِي كُسُوءَ مَجْدٍ وَرَفْعَةٍ

أي رتلن قراءة القرآن المجيد، والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل، وتمييز الحروف والحركات، وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت: ما لكم وصلاته! كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح، ثم نعت قراءته فإذا هي نعت قراءة مفسرة حرفا حرفا، أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب (١) اهـ.

وفي (الدر المنثور): أخرج العسكري في المواعظ عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله {ورتل القرآن ترتيلا} قال: يَبْنُهُ تَبِينًا، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تَهْذِه هَذَّ الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكوننَّ همُّ أحدكم آخر السورة.

وأخرجه الديلمي أيضا بسند واه عن ابن عباس مرفوعا اهـ.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الصُّبْحِ وَالْمَسَاءِ مَعَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ الْبَهِيَّةِ

أي سبح الله واحمده في الصباح والمساء، فقد أمر الله تعالى بذلك في القرآن الكريم، قال الله تعالى: {واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار}. وقال تعالى: {فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا} وقال تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى}. وقال تعالى: {يسبح له

<sup>١</sup> ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله}. وقال تعالى: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون}. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا}. وقال تعالى: {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق}. وقال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار}. وقال تعالى: {ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه بكرة وأصيلا}. وقال تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود}.

فهذه عشر آيات أمر فيها المولى جل جلاله بالتسبيح في الصباح والمساء. وقد ورد في فضل التسبيح والحمد في هذين الوقتين أحاديث كثيرة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر.

وروى الحاكم أبو عبد الله من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة أو وجبت له الجنة، ومن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعاً وعشرين ألف حسنة، قالوا: يا رسول الله إذا لا يهلك منا أحد، قال: بلى إن أحدكم ليحيى بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلته، ثم تجيء النعم فتذهب بتلك، ثم يتناول الرب بعد ذلك برحمته، قال الحاكم صحيح الإسناد.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة، ومن قال: لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله يوم القيامة، رواه الطبراني بإسناد فيه نظر كما قال المنذري. وقال الهيثمي: في إسناده النضر بن عبيد ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل قال: ما اصطفى الله للملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده اهـ.

قال ابن علان: قال ابن حجر في شرح المشكاة: ولأجل ذلك افتخروا أي الملائكة به على آدم قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله، قلت: يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله، فقال: إن أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده. قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه مسلم والنسائي والترمذي إلا أنه قال: سبحانه ربي وبحمده، وقال: حديث حسن صحيح.

وقال الإمام النووي في المجموع: المراد أن هذا -يعني سبحانه الله وبحمده- أحب كلام الآدميين وأفضله لا أنه أفضل من كلام الله اهـ.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانه الله وبحمده، سبحانه الله العظيم، واللفظ لمسلم.

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال حين يصبح: سبحانه الله العظيم وبحمده مائة مرة، وإذا أمسى كذلك لم يواف أحد من الخلائق بمثل ما وافى .

وروى الإمام مسلم وأصحاب السنن الأربعة كلهم عن جويرة بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع إليها بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحانه الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

وأما الباقيات الصالحات فقد ذكرها الله تعالى في القرآن فقال: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا} وهي سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وفي بعض الأحاديث زيادة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد وردت في فضائلها وجزيل ثوابها أحاديث كثيرة، منها: ما روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: جلس النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأخذ عودا يابساً فحط ورقه ثم قال: إن قول لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك

وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة، قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله حتى إذا رأي الجاهل حسب أني مجنون. ذكره ابن جرير الطبري في تفسير آية {المال والبنون زينة الحياة الدنيا} الآية. وقال تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا}.

وروى ابن جرير الطبري بسنده في تفسيره أيضا عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: الملة، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي (الترغيب والترهيب) روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، رواه النسائي واللفظ له، والإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): إن اسناد الإمام أحمد وأبي يعلى حسن اهـ. وفي بعض طرق الحديث زيادة العلي العظيم كما في (الجامع الصغير)، وفي بعضها: التحميد بدل والحمد لله.

وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهن من كنوز الجنة، رواه ابن ماجه باختصار والطبراني اهـ.

وقال الهيثمي أيضا في (مجمع الزوائد): عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خذوا جنتكم، قلنا: يا رسول الله من عدو حضر؟ فقال: خذوا جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدّمات ومنجيات ومجنّبات، وهن الباقيات الصالحات، رواه الطبراني في الصغير والأوسط.

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وليس في رواية مسلم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

### وَصَلِّ الصَّلَاةَ بِالْجَمَاعَةِ دَائِمًا رَوَاتِبَهَا احْفَظْ وَالضُّحَى كُلَّ ضَحْوَةٍ

أي صل بالجماعة جميع الصلوات المكتوبة أو المسنونة التي تشرع فيها الجماعة، واعلم أن الجماعة في الصلاة المفروضة فرض عين في الجمعة وفرض كفاية في غيرها بشروطها المقررة في الفقه، وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار كثيرة، وفي تركها وعيد شديد، من ذلك ما رواه الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال: لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم.

وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وحبان في صحيحيهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان أي غلب، فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

زاد رزين: وإن ذئب الإنسان الشيطان، إذا خلا به أكله .

وفي (الزواجر عن اقتراف الكبائر): حكى ابن عمر أن عمر خرج إلى بستان له فرجع وقد صلى الناس العصر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فاتتني صلاة العصر في الجماعة، أشهدكم أن حائطي على المساكين صدقة لتكون كفارة لما صنع.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا إذا فقدنا الإنسان في صلاة العشاء والصبح في الجماعة أسأنا به الظن أن يكون قد نافق أي لحديث: إنهما أثقل الصلوات على المنافقين، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا .

وقال حاتم الأصم: فاتتني مرة صلاة الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف نفس؛ لأن مصيبة الدين عند الناس أهون من مصيبة الدنيا (١).

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١ ص ١٣١-١٣٤.



وقوله: **رواتها احفظ** أي احفظ رواتب الصلوات المكتوبات، وهي مؤكدة وغير مؤكدة، فالمؤكدة عشر ركعات، وهي ركعتان قبل الفجر، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعده، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وغير المؤكدة أن تزيد ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعده، وأربعاً قبل العصر، وركعتين قبل المغرب، وركعتين قبل العشاء، وأفضل هذه الرواتب المذكورة ركعتا الفجر، والوتر أفضل منهما كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: **والضحى كل ضحوة** أي احفظ صلاة الضحى في وقتها ولا تتركها؛ فإن فضلها عظيم وأجرها جزيل، وهي سنة من السنن المؤكدة، وقد كانت واجبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخفف عنا بفضلته تعالى ولطفه، وقد ورد في فضائلها أحاديث كثيرة. وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد، رواه البخاري ومسلم وأبو داود، ورواه الترمذي والنسائي نحوه، وابن خزيمة ولفظه: أوصاني صلى الله عليه وسلم بثلاث لست بتاركهن: أن لا أنام إلا على وتر، وأن لا أدع ركعتي الضحى، فإنها صلاة الأوابين، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى، رواه مسلم.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة، قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: النخاعة في المسجد تدفنها، والشيء تُنَحِّيهِ عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك، رواه أحمد واللفظ له وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حافظ على شُفْعَةِ الضحى غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، رواه ابن ماجه والترمذي. وقوله شفعة الضحى بضم الشين المعجمة، وقد تفتح أي ركعتا الضحى.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فغنموا وأسرعوا الرجعة، فتحدث الناس بقرب مغزاهم وكثرة غنيمتهم وسرعة رجعتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أدلكم على أقرب منهم مغزى، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة؟ من توضأ ثم غدا إلى المسجد لسبحة الضحى فهو أقرب منهم مغزى وأكثر غنيمة وأوشك رجعة، رواه أحمد من رواية ابن لهيعة، والطبراني بإسناد جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرة، فقال رجل: يا رسول الله ما رأينا بعثاً قط أسرع كرة، ولا أعظم غنيمة من هذا البعث، فقال: ألا أخبركم بأسرع كرة منهم، وأعظم غنيمة؟ رجل توضأ فأحسن الوضوء، ثم عمد إلى المسجد فصلى فيه الغداة ثم عقب بصلاة الضحوة، فقد أسرع الكرة وأعظم الغنيمة، رواه أبو يعلى، ورجال إسناده رجال الصحيح، والبزار وابن حبان في صحيحه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين، ومن صلى أربعاً كتب من العابدين، ومن صلى ستاً كُفِيَ ذلك اليوم، ومن صلى ثمانية كتبه الله من القانتين، ومن صلى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة، وما من يوم ولا ليلة إلا لله من يمين به على عباده وصدقة، وما من الله على أحد من عباده أفضل من أن يلهمه ذكره، رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أبواب، قال: وهي صلاة الأوابين، رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه. وروى عنه رضي الله عنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في الجنة باباً يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا يديمون صلاة الضحى، هذا بابكم فادخلوه برحمة الله، رواه الطبراني في الأوسط (١).

وقال السيوطي في جزء ألفه في صلاة الضحى: روى الأحاديث الواردة في الأمر بصلاة الضحى والترغيب فيها بضع وعشرون صحابياً. وقال السيوطي في هذا الكتاب: لم يرد

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب في باب الترغيب في صلاة الضحى من كتاب النوافل.

حديث بانحصار صلاة الضحى في عدد مخصوص، فلا مستند لقول الفقهاء: إن أكثرها ثنتا عشرة ركعة كما نبه عليه الحافظ أبو الفضل ابن حجر وغيره (١)

### كَذَا الْوُتْرُ وَأَنْوَ الْأَعْتِكَافِ بِمَسْجِدٍ

في هذا الشطر الترغيب بالوتر والاعتكاف، فالوتر هو من النوافل التي لا تشرع فيها الجماعة إلا في رمضان، وهو أكد السنن الراتبة مع الفرائض وأفضلها على الراجح، فقد قال الإمام النووي في المجموع: قال أصحابنا: أفضل النوافل التي لا تشرع لها الجماعة السنن الراتبة مع الفرائض، وأفضل الرواتب الوتر وسنة الفجر، وأيهما أفضل فيه قولان، الجديد الصحيح الوتر أفضل، والقديم أن سنة الفجر أفضل (٢) اهـ .

وقد ورد فيه أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: من لم يوتر فليس منا. وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله أمدكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم وهي الوتر. وقال أبو حنيفة بوجوبه (٣).

ووجوبه على نبينا عليه الصلاة والسلام من خصائصه، وأقله ركعة واحدة، وأكثره إحدى عشرة ركعة.

والاعتكاف في المسجد سنة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف في شهر رمضان وغيره، فينبغي لطالب العلم أن ينويه إذا دخل المسجد ويهتم به؛ فإنه من أيسر العبادات للتلاميذ؛ لأن المساجد مساكنهم ومنازلهم غالباً.

### وَصَلِّ صَلَاةَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ ( ٤ )

أي صل صلاة التهجد، وهي الصلاة بعد النوم في الليل، أما الصلاة قبل النوم فلا تسمى تهجداً. وقال الإمام النووي في (المجموع): قال العلماء: التهجد أصله الصلاة في الليل بعد

<sup>١</sup> الحاوي للفتاوي ج ١ ص ٥٧ و ٦٣.

<sup>٢</sup> المجموع شرح المذهب للنووي في باب صلاة التطوع.

<sup>٣</sup> وفي المجموع: وخالف أبا حنيفة في وجوب الوتر صاحبه أبو يوسف ومحمد بن الحسن، فقالا: هو سنة. وقال ابن المنذر: لا أعلم أحدا وافق أبا حنيفة في هذا.

<sup>٤</sup> في المصباح: يقال: جاء بعد هجعة أي بعد نومة من الليل، وفي مختار الصحاح يقال: أتيت فلانا بعد هجعة أي بعد نومة خفيفة من الليل. وفي اللسان وتاج العروس مثل عبارته، لكنهما قالوا: من أول الليل.

النوم، وقوله تعالى: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون} قال المفسرون وأهل اللغة: الهجوع النوم في الليل.

وقال أيضا: فقيام الليل سنة مؤكدة، وقد تطابقت عليه دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، والأحاديث الواردة فيه في الصحيحين وغيرهما أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

وقال أيضا: يسن لكل من استيقظ في الليل أن يمسخ النوم عن وجهه، وأن يتسوك وأن ينظر في السماء، وأن يقرأ الآيات التي في آخر آل عمران {إن في خلق السموات والأرض} ثبت كل ذلك في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

وقال أيضا في (المجموع): كان قيام الليل واجبا في أول الإسلام، ثم نسخ في حق الأمة، وفي حقه عليه الصلاة والسلام وجهان لأصحابنا، قال أكثرهم: لم ينسخ، والصحيح أنه نسخ (٢).

وقال الله تعالى: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} وقال تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه} وقال تعالى: {من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون}.

وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه.

وعنه أيضا قال: قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء، فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة، قال: أطعم الطعام وأفش السلام، وصل الأرحام، وصل بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام، رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، وابن حبان في صحيحه واللفظ له، والحاكم وصححه.

<sup>١</sup> مجموع النووي ج ٣ ص ٣٦٩-٣٧٠.

<sup>٢</sup> مجموع النووي أول كتاب الصلاة.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت، لا تروث ولا تبول، لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا، فيقول الذين أسفل منهم درجة: يا رب بم بلغ عبادك هذه الكرامة كلها؟ قال: فيقال لهم: كانوا يصلون بالليل، وكنتم تنامون، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون، رواه ابن أبي الدنيا.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائما والناس نيام، رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

وروي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي مناد، فيقول: أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب، رواه البيهقي .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم، رواه الترمذي في كتاب الدعاء من جامعه، وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم، ومطرودة للداء عن الجسد، رواه الطبراني في الكبير، والترمذي في الدعوات من جامعه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحب من شئت

فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس، رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل، رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي. وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن، رواه الترمذي وابن خزيمة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال: في أذنه، رواه البخاري ومسلم والنسائي، ورواه ابن ماجه، وقال: في أذنيه من غير شك، وزاد في آخره: قال الحسن: إن بوله والله ثقیل.

وروى الطبراني في الأوسط حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك، فقال له: قم فقد أصبحت فصل واذكر ربك، فيأتيه الشيطان فيقول: عليك ليل طويل وسوف تقوم، فإن قام فصلى أصبح نشيطاً خفيف الجسم قدير العين، وإن هو أطاع الشيطان حتى أصبح بال في أذنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يُغضُّ كل جعظري جواظ صخاب (١) في الأسواق جيفة بالليل، حمارٍ بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة، رواه ابن حبان في صحيحه، والأصبهاني (٢).

وفي (الجامع الصغير للسيوطي): عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة

<sup>١</sup> قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب: قال أهل اللغة: الجعظري الشديد الغليظ، والجواظ الأكل، والصخاب الصياح.

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب باب الترغيب في قيام الليل، والترهيب من نوم الإنسان إلى الصباح وترك قيام شيء من الليل، من كتاب النوافل.

النوم بالليل تترك الإنسان فقيراً يوم القيامة، رواه النسائي وابن ماجه والبيهقي عن جابر(١).

والأحاديث الواردة في صلاة الليل خصوصاً وفي قيامه عموماً كثيرة جداً، فلنكتف بما ذكرناه والله الموفق.

وفي (فتح المغيـث) للحافظ السخاوي عن أبي عصمة عاصم بن عصام البيهقي قال: بت ليلة عند أحمد، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء، فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل (٢).

وكان الإمام السبكي تقي الدين علي بن عبد الكافي ينهى أولاده عن نوم النصف الثاني من الليل ويقول: يا بني تعود السهر ولو أنك تلعب، والويل كل الويل لمن تراه نائماً وقد انتصف الليل(٣).

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا غلبه النوم يقوم فيجول في الدار وينشد قوله :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل(٤).

وفي (صفة الصفوة) كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بهذه الأبيات:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم وكيف يطيق النوم حيران هائم  
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت مدامع عينيك الدموع السواجم  
بل اصبحت في النوم الطويل وقد دنت إليك أمور مفضعات عظام  
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم  
يغرك ما يفنى وتُشغَلُ بالمنى كما غرَّ في اللذات في النوم حالم  
وتُشغَلُ فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم (٥)

<sup>١</sup> قال السيوطي في التعقبات ص ١٠٢: ذكر هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات، وليس بموضوع بل هو إما حسن وإما ضعيف انتهى باختصار . وقال المنذري في الترغيب والترهيب: في إسناده احتمال للتحسين.

<sup>٢</sup> فتح المغيـث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج ٢ ص ٣٢٢ .

<sup>٣</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي في ترجمة الإمام السبكي.

<sup>٤</sup> تنبيه المغترين ص ٦٧.

<sup>٥</sup> صفة الصفوة لابن الجوزي، ج ٢ ص ١٢٤-١٢٥.

وقال آخر:

أما والله لو علم الأنام لما خُلِقوا لَمَّا هَجَعُوا وناموا  
لقد خُلِقوا لأمرٍ لو رآته عيونُ قلوبهم تاهوا وهاموا  
مما ثم قبر ثم حشر وتويخ وأهوال عظام  
ليوم الحشر قد عملت رجال فصلوا من مخافته وصاموا  
ونحن إذا دُعينا أو نُهينا كأهل الكهف أيقاظ نيام

وقال في قصيدة (تبارك ذو العلا):

وخذ بالليل حظ النفس واطرد عن العينين محبوب الغماض  
وَكُنْ فِي الصَّلَاةِ خَاشِعًا مُتَدَبِّرًا قِرَاءَتَهَا يَا صَاحَّ مَعَ حُسْنِ هَيْئَةٍ

يعني كن في صلاتك خاشعا متدبرا قراءتك فيها مع حسن هيئة الصلاة. والخشوع كما في القاموس: السكون والتذل. وهو روح الصلاة وسرها، وأثنى الله على فاعليه، فقال جل شأنه: {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون}. قال النووي: ليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظة الفلاح، ويقرب منها النصيحة (١). وفي (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية عن ابن عمر في قوله تعالى: {الذين هم في صلاتهم خاشعون} قال: كانوا إذا قاموا إلى الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقبل عليهم فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا. وعن ابن عباس في قوله تعالى {الذين هم في صلاتهم خاشعون} قال: خائفون ساكنون.

وعن قتادة قال: الخشوع في القلب هو الخوف، وغض البصر في الصلاة. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحكم قال: إن من تمام الصلاة أن لا تعرف مَنْ عن يمينك ولا مَنْ عن شمالك .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، الحديث. اهـ.

<sup>١</sup> شرح مسلم للنووي في باب الأذان، ج ٤ ص ٨٧.



وعن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله. ، رواه مسلم (١).

وفي (الترغيب والترهيب) عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن، وسجودهن، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له (٢).

وقال الجنيد البغدادي: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وعن الحسن رحمه الله: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

ونقل الغزالي رحمه الله عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته.

وعن معاذ بن جبل: من عرف مَنْ على يمينه وشماله متمعدا وهو في الصلاة فلا صلاة له .  
وفي (تحفة المحتاج في شرح المنهاج) لابن حجر الهيتمي: ويسن الخشوع في كل صلاة بقلبه بأن لا يحضر فيه غير ما هو فيه وإن تعلق بالآخرة، وبجوارحه بأن لا يعيث بأحدها، والمراد من الخشوع المذكور في الآية خشوع القلب والجوارح كما هو ظاهر، وإنما يسن الخشوع لثناء الله تعالى في كتابه العزيز، ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولأن لنا وجها اختاره جمع أنه شرط للصحة، لكن في البعض (٣)، فيكره الاسترسال مع حديث النفس، والعبثُ كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورة من تحصيل سنة أو دفع مضرة. ومما يُحصل الخشوع استحضر المصلي أنه بين يدي ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى يناجيه، وأنه ربما تجلى عليه بالقهر لعدم قيامه بربوبيته فردّ عليه صلاته اهـ.

<sup>١</sup> الجامع الصغير للسيوطي.

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب في باب الترغيب في الصلاة مطلقا، وفضل الركوع والسجود والخشوع.

<sup>٣</sup> أي بعض الصلاة، فيشترط في هذا الوجه حصول الخشوع في بعضها فقط وإن انتفى في الباقي اهـ رشيد.

=ومن ذهب إلى وجوب الخشوع الإمام الرازي، وأطال في الاستدلال له بثمانية خصال اهـ تفسير الرازي.

وفي (البداية والنهاية) روي أنهم قطعوا رجله -يعني رجل عروة بن الزبير التابعي الجليل- وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة. ثم قال ابن كثير: ذكر غير واحد أن الأكلة وقعت في رجله، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه، وربما ترقّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بذلك، وقالوا له: ألا نسقيك مُرَقْدًا حتى يذهب عقلك فلا تحسّ بالألم، فقال: لا، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين ذلك فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحسّ بذلك ولا أشعر به، فقطعوا رجله من فوق الأكلة وهو قائم يصلي فما اختلج. وقال الأوزاعي: لما قطعت رجل عروة قال: اللهم إنك تعلم أيّ لم أَمْشَ بها إلى سوء قط<sup>(١)</sup>.

وفي (صفة الصفوة) و(حلية الأولياء) أن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كان إذا توضأ يصفرّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: تدرون بين يدي من أقوم؟ وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: مالك؟ فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟ وقد وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله النارَ يا ابن رسول الله النارَ، فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَتْ، فقيل له: ما الذي أهلك عنها؟ قال: ألهتني عنها النار الأخرى<sup>(٢)</sup>.

وفي (تحفة المحتاج) للهيتمي: ويسن تدبر القراءة في الصلاة أي تأمل معانيها أي إجمالاً لا تفصيلاً كما هو ظاهر؛ لأنه يشغله عما هو بصدد؛ لأن التدبر يكمل به الخشوع والأدب اهـ.

وفي (نهاية المحتاج) للرملي: يسن ترتيل القراءة وهو التأني فيها، إفراط الإسراع مكروه، وحرف الترتيل أفضل من حرفي غيره اهـ. يعني إن نصف السورة مثلاً مع الترتيل أفضل من تمامها بدونه .

ومن غرر الحكم التي توجب البكاء على النفس وشدة الندم والحث على الخشوع والتدبر ما نظمته الشيخ إسماعيل بن المقرئ رحمه الله :

تصلي بلا قلب صلاة .تمثلها يصير الفتى مستوجبا للعقوبة

<sup>١</sup> البداية والنهاية ج٩ ص١٠٢.

<sup>٢</sup> صفة الصفوة وحلية الأولياء في ترجمة الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

تصلي وقد أتممتها غير عالم  
فويلك تدري من تناجيه معرضا  
تخاطبه إياك نعبد مقبلا  
ولو ردّ من ناجاك للغير طرفه  
أما تستحي من مالك الملك أن يرى  
صلاة أقيمت يعلم الله أنها  
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة  
سبيلك أن تستغفر الله بعدها  
فيا عاملا للنار جسمك لئن  
وجربه في لسع الزنابير تجتري  
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي  
تبارزه بالمنكرات عشية  
فأنت عليه منك أجراً على الورى  
تقول مع العصيان ربي غافر  
وربك رزاق كما هو غافر  
فإنك ترجو العفو من غير توبة  
على أنه بالرزق كفل نفسه  
فلم ترّضَ إلا السعي فيما كُفيتُهُ  
تسيء به ظنا وتحسن تارة  
تريد احتياطا ركعة بعد ركعة  
وبين يدي من تنحني غير مخبت  
على غيره فيها لغير ضرورة  
تميزت من غيظ عليه وغيره  
صدودك عنه يا قليل المروءة  
بفعلك هذا طاعة كالخطيئة  
إذا عدّدت تكفيك من كل زلة  
وأن تتلافى (١) الذنب منها بتوبة  
فجربه تمرينا بحر الظهيرية  
على نهش حيات هناك عظيمة  
دعاك إلى إسقاط رب البرية  
وتصبح في أثواب نسك وعفة  
بما فيك من جهل وخبت طوية  
صدقت ولكن غافر بالمشيئة  
فلم لم تصدق فيهما بالسوية  
ولست ترجي الرزق إلا بحيلة  
ولم يتكفل للأنام بجنة  
وإهمال ما كُلفته من وظيفة  
على حسب ما يقضي الهوى في القضية (٢)

<sup>١</sup> كذا في النسخة التي نقلت هذه الآيات منها، والمعنى: وأن تصادف وتلاقي الذنب بتوبة . والله أعلم.

<sup>٢</sup> نقلتها من شرح تائبة السلوك إلى ملك الملوك، وهي قصيدة طويلة وكلها غرر، ومنها:

إلى كم تمادي في غرور وغفلة  
لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري  
أتنفق هذا في هوى هذه التي  
أترضى من العيش الرغيد تعيشه  
فيادرة بين المزابيل ألقيت  
أفان بباق تشتريه سفاهة  
أأنت صديق أم عدو لنفسه  
وكم هكذا نوم إلى غير يقظة  
بملء السما والأرض أية ضيعة  
أبى الله أن تسوي جناح بعوضة  
مع الملا الأعلى بعيش البهيمة  
وجوهرة بيعت بأبخس قيمة  
وسخطا برضوان ونارا بجنة  
فإنك ترميها بكل مصيبة

## وَبَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَاطْلُبْ مَظْنَةً لَهَا مِنْ جِهَاتِ الْكَوْنِ فِي كُلِّ طَرَفَةٍ

أي بادر إلى الخيرات واطلبها من جميع مظانها في كل وقت وحين، واعلم أن الخيرات الموصلة إلى الله كثيرة، وطرقها غير محصورة، فقد قيل: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق (١).

### كثرة الأجور بتنويع النيات

اعلم أنه قد يكون لعمل واحد ثواب أعمال كثيرة بالإتيان فيه بنيات مختلفة متنوعة، فقد قال الإمام الغزالي في كتاب (الأربعين في أصول الدين): اجتهد أن تستكثر من نيتك في جميع أعمالك حتى تنوي بعمل واحد بنيات كثيرة، ولو صدقت رغبتك هديت لطريقه، ويكفيك مثال واحد، وهو أن الدخول في المسجد والقعود فيه عبادة، ويمكن أن تنوي فيه ثمانية أمور:

أولها: أن تعتقد أنه بيت الله عز وجل، وأن داخله زائر الله تعالى، فتنوي ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحق على المزور إكرام زائره. وثانيها: نية المراقبة لقول الله تعالى: وصابروا ورابطوا، قيل: معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة.

ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما	فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعثها هونا عليك رخيصة	وكانت بهذا منك غير حقيقة
فويك استفق لا تفضحنها بمشهد	من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
فبين يديها موقف وصحيفة	يعدّ عليها كل مثقال ذرة
كلّفت بها دنيا كثيرا غرورها	تقابلنا في نصحتها بالخدعة
إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت	أساءت وإن صافت أتت بالكدورة
ولو نلت منها مال قارون لم تنل	سوى لقمة في فيك منها وخرقة
فدعها وأهلها بقسم وخذ كذا	بنفسك عنها فهي كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة	تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضي	كعيشك فيها بعض يوم وليلة
عليك بما تجزى عليه من التقى	فإنك في لهو عظيم وغفلة

قوله: (كلّفت بها دنيا) كذا في الأصل، ولعل معناه: كلّفت بنفسك دنيا أي أولعت وأحببت دنيا كثيرا غرورها.

وثالثها: الاعتكاف، ومعناه كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات المعتادة، فإنه نوع صوم.

ورابعها: الخلوة ودفع الشواغل بلزوم السر للفكر في الآخرة، وكيفية الاستعداد لها. وخامسها: التجرد للذكر وسماعه أو إسماعه لقوله صلى الله عليه وسلم: من غدا لمسجد يذكر الله تعالى أو يذكر كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى. وسادسها: أن تقصد إفادة علم وتنبيه من يسيء الصلاة، ونهيا عن منكر وأمر بمعروف حتى يتيسر بسببه خيرات ويكون شريكا فيها. وسابعها: أن تترك الذنوب حياء من الله عز وجل بأن تحبس نفسك في بيته حتى تستحي منه أن تقارف ذنبا.

وثامنها: أن تستفيد أخا في الله، فإن ذلك عنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وقس على هذا سائر الأعمال، فباجتماع هذه النيات تزكو الأعمال، وتلتحق بأعمال المقربين، كما أنه بنقيضها تلتحق بأعمال الشياطين، كمن يقصد من القعود في المسجد التحدث بالباطل، والتفكه بأعراض الناس، ومجالسة أصدقاء اللهو واللعب، وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان، ومناظرة من ينازعه من الأقران على سبيل المباهاة والمراءاة باقتناص قلوب المستمعين لكلامه، وما يجري مجراه.

وكذلك لا ينبغي أن يغفل في المباحات عن حسن النية، ومثال ذلك في المباحات أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعم بلذته، والتفاخر بإظهار ثروته، أو التزويق للنساء وأخذان الفساد، ويتصور أن ينوي اتباع السنة، وتعظيم بيت الله تعالى، واحترام يوم الجمعة، ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة، وإيصال الراحة إليهم بالرائحة الطيبة، وحسم باب الغيبة إذا شتموا منه رائحة كريهة، وإلى الفريقين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: من تطيب في الله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أتنن من الجيفة(١).

<sup>١</sup> الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق للإمام الغزالي ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

وهذا كله من المبادرة إلى الخيرات وطلبها من مظانها، المشار إليها بقوله: واطلب مظنة لها إلخ. والله الموفق.

تَمَسَّكَ بِحُبِّ الْمُصْطَفَى سَيِّدِ الْوَرَى وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالتَّوَجُّدِ إِخْوَتِي

أي كن متمسكا بحب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعضّ عليه بنواجذك. واعلم أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة على كل مسلم ومسلمة، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده. وفي رواية أنس زيادة والناس أجمعين. ورواه أيضا مسلم عن أنس (١).

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس حبا له صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت في (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أنه سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وكان أبوبكر رضي الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحبة معه في ذهابه إلى غار ثور في هجرته فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه، فبكى فرحا وسرورا بذلك.

وفي (البداية والنهاية) قال ابن إسحاق: عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم-أي في بيت أبيها- وقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، قالت فقال: أبوبكر الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة، قالت فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا ييكي من الفرح حتى رأيت أبابكر يومئذ ييكي اهـ باختصار .

وفي (المواهب اللدنية) وشرحه للزرقاني روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: حب إلي من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة، قال أبو بكر الصديق: وأنا يارسول الله حب إلي من الدنيا النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك، أي التوسل إليك بقرابتك كعلي والعباس وفاطمة اهـ.

<sup>١</sup> ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، وذكره مسلم في باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والناس أجمعين.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر بعيني من إسلامه - يعني أباه أبا قحافة - وذلك إن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للعباس رضي الله عنه: أن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، لأن ذلك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى البيهقي عن زارع وكان في وفد عبد القيس قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنُقَبِّل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله.

وروي عن عبدة بنت خالد بن معدان قالت: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أصحابه من المهاجرين والانصار، يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فاجعل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم.

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُدٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيرا، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جليل. ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادى امرأته واحزنه، فقال: وا طرباه، غدا ألقى الأحبه محمدا وحزبه.

ويروى أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: اكشفي لي قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفتها لها، فبكت حتى ماتت.

وفي كتاب (حياة الصحابة): أخرج الطبراني عن حصين بن حوح الأنصاري أن طلحة بن البراء رضي الله عنهما لما لقي النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يلصق برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقبل قدميه، قال: يا رسول الله، مرني بما أحببت ولا أعصي لك أمرا، فعجب لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فقال له عند ذلك: اذهب فاقتل أباك، فخرج موليا ليفعل، فدعاه فقال له: أقبل فإني لم أبعث بقطيعة رحم اهـ.

وفي (المواهب اللدنية) للحافظ القسطلاني: كان السخيتاني إذا ذكر النبي صلى الله عليه عنده بكى حتى نرحمه، وكان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، وإذا ذكر عنده النبي صلى

الله عليه وسلم اصفر لونه، وكان عبد الرحمن بن قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى لونه كأنه قد نزع منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. و"نزع" بضم النون وكسر الزاي أي سال عنه الدم ولم يبق منه شيء، وكان عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينه دموع، وكان الزهري محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن هشام من أهدأ الناس وأقربهم -أي في المودة- فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم فكأنك ما عرفته ولا عرفك. وكان صفوان بن سليم -بضم السين- من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وفي (الشفاء) للقاضي عياض: قال مصعب بن عبد الله: كان الإمام مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقليل له يوما في ذلك: فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا تكاد تسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينه دموعه.

وفي (المواهب اللدنية) أن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان كان يعمل في جنة له، فأتاه ابنه فأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي، فقال: اللهم أذهب بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أحدا فكف بصره.

وكان الإمام مالك كما في (الشفاء) لا يركب بالمدينة دابة، وكان يقول: استحيي من الله تعالى أن أظأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة.

وفي (الإصابة في تمييز الصحابة): وفي (الزهد) للبيهقي بسند صحيح عن عمر بن محمد ابن زيد بن عبد الله بن عمر سمعت أبي يقول: ما ذكر ابن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بكى، ولا مر على ربهم إلا غمض عينيه. وقال في (مجمع الزوائد) بعد ذكره هذا: رواه الطبراني في (الأوسط).



وبالجملة كان الصالحون من السلف والخلف معروفين بمحبته صلى الله عليه وسلم، وكان للصحابة رضي الله عنهم الحظ الأوفر والنصيب الكامل منها، فقد ملأ حبه صلى الله عليه وسلم قلوبهم ولم يترك فيها فراغا، وكانوا كما قال القائل:

تملك بعض حبك كل قلبي      فإن ترد الزيادة هات قلبا

روى الطبراني وابن مردويه عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لأنت أحب إليّ من أهلي ومالي، وإني لأذكرك<sup>(١)</sup> فما أصبر عنك حتى أنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فدعا به صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه. وفي تفسير القرطبي: أنه لما قرأها صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يعميه حتى لا يرى أحدا غيره في الدنيا فعمي مكانه اهـ .

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت: بمحبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشهوتي النظر إليه، فنوديت من اشتهى النظر إلى حبيبتنا نستحي أن نذله بعتابنا، بل نجتمع بينه وبين من يحبه اهـ .

ومما تنشأ عنه محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم متابعته في أفعاله وأحواله كلها، والتمسك بسنته، وبذل المهجة في خدمة ملته بالتعلم والعمل بها، ثم بتعليم الناس ودعوتهم إليها، والذب عن حمى الشريعة وحراسة أصولها وفروعها، وقمع المبتدعة وإزالة شبهها وإدحاض أباطيلها، فمن أكرمه الله بمتابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره أعطاه الله ببركتها محبته صلى الله عليه وسلم، لأنه إذا تابعه واقتدى به في أموره تعلق به قلبه ويكثر تفكره فيه، ويكون بينه وبينه صلى الله عليه وسلم علاقة التابع والمتبوع، والخادم والمخدوم، ويدوم بينهما الاتصال الروحي والارتباط القلبي، فيدرك حينئذ محاسنه صلى الله عليه وسلم ويستحضر في ذهنه كمالاته الظاهرة والباطنة، وينطبع ذلك في نفسه ويستقر فيها، فيستحسن حينئذ أحواله صلى الله عليه وسلم من

<sup>١</sup> قوله: إني لأذكرك، يعني أتذكرك في ذهني وأتصورك، أو أذكر اسمك وصفاتك

أفعاله وأقواله وتصرفاته وأخلاقه، ورحمته وجوده ووقاره، وحيائه وحلمه وفصاحته وجوامع كلامه وغير ذلك من مزاياه العلية، وأوصافه السنية، وجمال صورته البهية، فيؤدي ذلك إلى محبته وتعظيمه، والتلذذ بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى أن استحسان الشيء يقتضي حبه وميل القلب إليه، فتحقق لك إن شاء الله أن متابعتة صلى الله عليه وسلم الصداقة تكون سببا قويا لمحبهه عليه الصلاة والسلام، بل قد تكون أقوى الأسباب وأعلاها وأنفعها، رزقنا الله من متابعتة حظا وافرا ونصيبا كاملا، وكما تكون المتابعة سببا للمحبة كذلك تكون المحبة الصداقة سببا للمتابعة والطاعة غالبا، فإن الحب يستحيي طبعاً عن مخالفة محبوبه، فقد قيل :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمرى في القياس شنيع  
لو أن حبك صادقا لأطعته      إن الحب لمن يحب مطيع

فالحبة والمتابعة متلازمتان، متى وجدت إحداها ترتبت عنها الأخرى غالبا، فأيتهما سبقت عن أختها لحقتها الأخرى هذا ما ظهر، والعلم عند الله سبحانه وتعالى اهـ.  
وهذه بنذة يسيرة لخصتها من كتابي إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين، وقد بسطت القول في تعريف المحبة وعلاماتها وأسبابها وثوابها وما روي عن السلف الصالح من محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبة الجمادات وشوقها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فمن أراد العثور على ذلك فعليه بذلك الكتاب .

إِذَا كُنْتَ مُشْتَاقًا بُلُوغَ ذُرَى الْعُلَا      فَكُنْ تَابِعًا طَهَ بِأَكْمَلِ قُدْوَةٍ  
بِأَقْوَالِهِ وَفِعْلِهِ      بَلْ وَحَالِهِ      تَنَلْ كُلَّ خَيْرٍ بِالدَّوَامِ وَنِعْمَةٍ

أي إذا كنت مشتاقا إلى بلوغ ذروة المجد وقمته فكن تابعا للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، متأسيا به في أخلاقه وأعماله وأحواله كلها، فإنك إذا فعلت ذلك واقتديت به في ذلك كله يكون حركاتك وسكناتك وأعمالك وجميع تصرفاتك على أحسن الأحوال وأشرف الخصال، فتنال بذلك كل خير دنيوي وأخروي، فإنه ليس شيء يساوي أو يداي في الفضل والثواب بأعماله صلى الله عليه وسلم.

وقال العارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندري في (تاج العروس): قد جمع الله الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه في متابعتة صلى الله عليه وسلم، فمن فتح له باب المتابعة فذلك

دليل على محبة الله له ، قال تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، وإذا طلبت الخير كله فقل: اللهم أني أسألك المتابعة لرسولك صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال، وقال الله تعالى حكاية عن الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام: فمن تبعني فإنه مني، فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام: إن ابني من أهلي فأجابه سبحانه بقوله تعالى: إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً، كسلمان الفارسي لقوله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت، ومعلوم أن سلمان رضي الله عنه من أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه صلى الله عليه وسلم ذلك تعليماً، فكما أن المتابعة تثبت الاتصال، كذلك عدمها يثبت الانفصال اهـ.

ولقد أجاد الشيخ العلامة محمد بن عبد الله بن محمد السلمي ابن أبي الفضل المرسى حيث قال:

من كان يرغب في النجاة فما له	غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره	سبل الضلالة والغواية والردي
فاتب كتاب الله والسنن التي	صحت فذاك إذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بلم وكيف فإنه	باب يجر ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبي وصحبه	والتابعون ومن مناهجهم قفاً ( ١ )

وقال الجنيد البغدادي: الطريق إلى الله عز وجل مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} (٢).

وفي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) نقلاً عن (المواهب اللدنية) وشرحه للزرقاني : ليس الشأن أن تحب الله فقط، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً، وصدقته وأطعت أمره وأجبت دعوته، وآثرت طاعته على كل شيء، وإن لم تكن كذلك فلا تتعنّ، فلست على شيء، وتأمل قوله تعالى: فاتبعوني

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص ٣٩ .

<sup>٢</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

يجبكم الله أي الشأن في أن الله يجبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالونه إلا باتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم انتهى باختصار.

وقال أبو عبد الله محمد بن خفيف: ما سمعت شيئا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واستعملته حتى الصلاة على أطراف الأصابع، وهي صعبة (١).

### نبذة فيمن اشتهر بمتابعته صلى الله عليه وسلم

وفي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) وكان كثير من السلف والخلف يكثر التبرك به صلى الله عليه وسلم وبكل ما له اتصال وتعلق به. وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما معروفا بالتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم وتتبعها حتى ظن البعض أن به نوع خلل وخفة.

ففي (سير أعلام النبلاء) و(حلية الأولياء) لأبي نعيم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان يتبع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره وحاله ويهتم به، حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك.

وعن نافع قال: لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلت هذا مجنون.

وقال ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تركنا هذا الباب للنساء، قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات.

وكان إذا رآه أحد ظن به شيئا مما يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن نافع أن ابن عمر كان في طريق مكة يأخذ برأس راحلته يثنيها، ويقول: لعل خفا يقع على خف يعني خف راحلة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان سلمة يتحرى الصلاة عند الأسطوانة التي عند المصحف، فقلت له: يا أبا مسلم أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها اهـ.

وقال الإمام النووي في (التلخيص شرح الجامع الصحيح): قل أن يوجد نظير لعبد الله بن عمر رضي الله عنه في المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيء.

<sup>١</sup>فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

وقال الإمام أحمد: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به حتى مرّ بي في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أباطية ديناراً فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت (١).  
احتجمت (١).

وفي (فتح المغيث) صلى رجل ممن يكتب الحديث بجانب ابن مهدي، فلم يرفع يديه، فلما سلم قال له: ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في كل تكبيرة؟ قال: نعم، قال: فما ذا تقول لربك إذا لقيك في تركك لهذا وعدم استعماله؟ (٢).

وكان شيخ مشايخنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المقدشي المشهور بالشيخ صوفي كثير الاجتهاد في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأحواله كلها، وقد قال رحمه الله تعالى في قصيدته اللامية المسماة: النبذة اليقينية في معجزات خير البرية:  
هذا لتشريعہ معالم النهج ونتأسی به فی کل ما فعلا ( ٣ )

<sup>١</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

<sup>٢</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث .

<sup>٣</sup> والقصيدة طويلة تبلغ ٤٢٨ بيتاً، وقبل هذا البيت:

تنبيك أوصافه أن قد بأى وعلا	تنبيك سيرته عظيم رتبته
وخاتم فضة في خنصر جعل	لابس بيض وخضر من ثيابهم
حق ويفشي السلام لا لمن حظلا	وكان يمزح لكن لا يقول سوى
والقرفصا وارثدى واعتم وانتعلا	يجلس محتبياً ما مدّ رجله قط
وقصّ شاربه ولحيه هملا	وعاطسا يضع اليد على فمه

## فصل في احترام المشايخ

### وَأَدَابُ طُلَّابِ الْعُلُومِ كَثِيرَةٌ كَصُحْبَةِ شَيْخِهِ بِتَعْظِيمِ حُرْمَةِ

أي إن آداب طالبي العلم كثيرة، منها: السكينة والوقار، وصحبة شيخه باحترام وتواضع وغيرهما مما يشعر بتعظيمه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه، رواه الطبراني في الأوسط.

وفي الإحياء وشرحه: ينبغي أن يتواضع المتعلم لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الإمام عامر بن شراحيل الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه تبركا وتشرفا، فقال زيد: خلّ عنه يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم (١). وفي (مقدمة المجموع) ينبغي للمتعلم أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه يناله، وقد أمرنا بالتواضع مطلقا فهنا أولى، وقد قالوا:

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

وينقاد لمعلمه، ويشاوره في أموره، ويأتمر بأمره، كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح، وهذا أولى لتفاوت مرتبتهما، وقالوا: لا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته وظهرت ديانته، وتحققت معرفته واشتهرت صيانتة وسيادته، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم (٢).

وفي (تذكرة السامع) ينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه، ولا يناديه من بعد بل يقول: يا سيدي ويا أستاذي. وقال الخطيب: يقول: أيها العالم وأيها الحافظ ونحو ذلك، ولا يسميه في غيبته باسمه إلا مقرونا بما يشعر بتعظيمه كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ كذا (٣) اهـ.

<sup>١</sup> شرح الإحياء ج ١ ص ٣١٢.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٣</sup> تذكرة السامع ص ١٩٠.

ومن آدابه أن يقبل يد شيخه، فعن جميلة أم ولد أنس بن مالك قالت: كان ثابت إذا أتى أنسا قال: يا جارية، هاتي لي طيبا أمسح يدي، فإن ابن أم ثابت لا يرضى حتى يقبل يدي، رواه أبو يعلى (١).

وقال علي بن أبي طالب: من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرا، ولا تغتاب عنده أحدا، وأن تجلس أمامه، وإذا أتيت خصصته بالتحية، وسلمت على القوم عامة، وأن تحفظ سره ومغيبه، وإنما العالم بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء (٢). ولقد أحسن من قال:

رأيت أحق الحق حق المعلم      وأوجبه حفظا على كل مسلم  
لقد حق أن يهدى إليه كرامة      لتعليم حرف واحد ألف درهم

وقال بعضهم: من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم، ولا ينتفع به إلا قليلا، كما قيل:

إن المعلم والطبيب كلاهما      لا ينصحان إذا هما لم يكرما  
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه      واقنع بجهلك إن جفوت معلما

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه، لا ينبغي أن يخذله ولا يستأثر عليه، رواه الطبراني في الكبير (٣). وفي (تذكرة السامع): قال شعبة: كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبدا ما حيي (٤).

وروى الخطيب البغدادي عن أبي بكر محمد بن علي الأدموني النحوي قال: إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ} وهو يوشع بن نون ولم يكن مملوكا له وإن كان متلميذا له متبعا له فجعله الله فتاه لذلك (٥).

<sup>١</sup> مجمع الزوائد للهيثمي في باب آداب الطالب من كتاب العلم، ج ١ ص ١٧٢، وقال: جميلة هذه لم أر من ترجمها.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٩٩.

<sup>٣</sup> مجمع الزوائد باب معرفة حق العالم، قال الهيثمي: وفيه عبيد بن رزين اللاذقي، ولم أر من ذكره.

<sup>٤</sup> تذكرة السامع، ص ١٩٠.

<sup>٥</sup> الفقيه و المتفقه ج ٢ ص ٩٩.

وفي (تعليم المتعلم) حكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا عبد من علمني حرفا واحدا إن شاء باع وإن شاء أعتق وإن شاء استرق اهـ .

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: شر الناس اللئيم، إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه ونسي فضل معلمه، ولأجل ذلك ضربوا المثل وقالوا: كل شيء إذا زرعت قلعته إلا ابن آدم إذا زرعت قلعك (١).

وفي المجموع: كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه مني (٢).

وكان الإمام النووي إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وذكر مناقبهم (٣).

ومنها: إذا أوقفه الشيخ على دقيقة من أدب وكان يعرفه من قبل فلا يظهر أنه كان عارفا به، بل يشكر على إفادته ذلك واعتناؤه بأمره، فإن كان له في ذلك عذر وكان إعلام الشيخ به أصلح فلا بأس به، وإلا تركه إلا أن يترتب على ترك بيان العذر مفسدة فيتعين إعلامه (٤) اهـ.

ومنها أن يكون الطالب خاليا عن العلائق والشواغل، فارغا عن كل ما يصرفه عن وجهته ومقصده، متجردا عن الكسب وتحمل المسؤولية، غير متزوج، فقد قال الإمام النووي في مقدمة (المجموع): قال الخطيب البغدادي في كتاب (الجامع لأدب الراوي والسامع): يستحب للطالب أن يكون عزبا ما أمكنه؛ لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم، واحتج بحديث خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ، وهو الذي لا أهل له ولا ولد.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح، يعني اشتغل بهنّ، وهذا في غالب الناس لا الخواص.

<sup>١</sup> المنن الكبرى للشعراني ص ٣٥٤

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ٨٤.

<sup>٣</sup> المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي للسيوطي.

<sup>٤</sup> تذكرة السامع ص ١٩٣.



وعن سفيان الثوري: إذا تزوج الفقيه فقد ركب البحر فإن ولد له فقد كسر به، وقال سفيان لرجل: تزوجت؟ فقال: لا، قال: ما تدري ما أنت فيه من العافية. قال النووي: هذا كله موافق لمذهبنا؛ فإن مذهبنا أن من لم يحتج إلى النكاح استحب له تركه، وكذا إن احتاج وعجز عن مؤنته، وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تركت بعدي فتنة هي أشد على الرجال من النساء (١).

### وَبِرٌّ (٢) لَهُ وَاللَّيْنُ فِي كُلِّ حَالَةٍ دُعَاءٌ لَهُ فِي الْجَهْرِ أَيْضًا وَخُفْيَةٍ

في هذا البيت ثلاث خصال من آداب الطالب مع شيخه، وهي البر واللين والدعاء له في السر والجهر، فأما البر فهو لغة الصلة والخير والاتساع في الإحسان، وقال الهيثمي في (الفتح المبين شرح الأربعين): قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى الصدق، وبمعنى اللطف والمبرّة وحسن العشرة والصحبة ولين الجانب واحتمال الأذى، وغير ذلك اهـ. وروى الخطيب البغدادي بسنده في (الفقيه والمتفقه) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السنة ثوالحلم، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تعلّمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلبَ علمكم جهلكم (٣). وقال النووي في مقدمة المجموع ما نصه: وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تتعلّمون منه اهـ (٤).

<sup>١</sup> مقدمة المجموع ص ٨٢-٨٣.

<sup>٢</sup> قوله: وبر وما عطف عليه بالجر معطوف على صحبة شيخه، ويجوز أن يكون مرفوعا خبرا لمبتدأ محذوف أي ومن آداب الطالب البر لشيخه.

<sup>٣</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١١٣.

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع ص ٧٤.

## المداراة والتملق

ينبغي لطالب العلم المداراة والتملق لشيخه، قال البخاري في صحيحه: يذكر عن أبي الدرداء: إنا لنكشِرُ<sup>(١)</sup> في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم<sup>(٢)</sup>.

قال العسقلاني في الفتح: وزاد بعضهم: ونضحك إليهم. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداينة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداينة محرمة، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يُظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك اهـ

وروى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال: ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، فلما دخل الآن له الكلام، فقلتُ له: يا رسول الله قُلْتَ ما قُلْتَ، ثم أَلْنْتَ له في القول، فقال: أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه -أو ودعه- الناس اتقاء فحشه.

وقال العسقلاني: وفي بعض طرقه: إنه منافق أَدَارِيهِ عن نفاقه وأخشى أن يفسد على غيره. وفي رواية مسروقة عن عائشة: مرَّ رجل برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بئس عبد الله وأخو العشيرة، ثم دخل عليه فرأيتُه أقبل عليه بوجهه كأنَّ له عنده منزلة، أخرجه النسائي .

وروى البخاري عن عبد الله بن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم أهديت له أقيية من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل منها واحدا لمخرمة، فلما جاء قال: خبأت هذا لك، قال أيوب بثوبه أنه يريه إياه، وكان في خلقه شيء.

<sup>١</sup> الكشر بالشين المعجمة وفتح أوله ظهور الأسنان، وأكثر ما يطلق عند الضحك.

<sup>٢</sup> ذكره البخاري في باب المداراة مع الناس من كتاب الأدب.

قال العسقلاني في الفتح: قوله: "قال أيوب بثوبه وأنه يريه إياه" معناه: أشار أيوب بثوبه ليري الحاضرين كيفية ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عند كلامه مع مخزومة، ولفظ القول يطلق ويراد به الفعل (١).

وروي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: رأس العقل المداراة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة (٢). وفي رواية: رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وما يستغني رجل عن مشورة.

وفي رواية أخرى: رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس (٣).

وفي (الجامع الصغير) إذا مررت بأهل الشر فسلموا عليهم تطفأ عنكم شرثهم وثائرتهم. قال العزيري: أي عداوتهم وفتنتهم، رواه البيهقي عن أنس بن مالك وهو ضعيف.

وقال ابن حجر الهيتمي: التملق والمداراة يراد بهما التواضع للغير وعدم الاعتراض عليه فيما يفعله أو يصدر عنه، وقد يضم إلى ذلك مدح أفعاله، والانتصار لصحة أحواله وأقواله، مع البشاشة له والإجلال والتعظيم، وحكم ذلك كله أنه إن ترتب عليه إعانة على باطل أو تحسين ما قبحه الشرع أو تقييح ما حسنه الشرع أو غير ذلك من المفاصد التي لا يدركها إلا العلماء الحكماء العالمون بالكتاب والسنة، الآخذون أنفسهم بالحق في كل نفس ولحظة، كان كل منهما حراما شديدا التحريم إن تحققت المفسدة أو غلب على الظن وقوعها، وإلا كان مكروها، وإن لم يترتب عليه شيء من ذلك أبيح، وإن ترتب عليه إعانة على الحق أو تألف لقبوله أو نحوهما من المصالح الخاصة والعامة كان مندوبا متأكدا الندب، بل قد يرتقي الحال إلى الوجوب كما قال بعض أئمتنا في القيام، قال: فإن تركه الآن صار علما على القطيعة ووقوع الفتنة، فيجب دفعا لذلك، ولا شك أن القيام إذا خشي من تركه ضرر أو فتنة أو تنافر القلوب أو نحو ذلك يكون من المداراة، وهي في نحو ذلك إما متأكدة الندب أو الوجوب، والكلام فيمن لم توجد فيه الصفات المقتضية لندب القيام من نحو علم أو صلاح أو قرابة أو شرف نسب أو صداقة، فافهم هذا التفصيل

<sup>١</sup> فتح الباري ج ١٠ ص ٥٢٨-٥٢٩.

<sup>٢</sup> قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه البيهقي، وقال العزيري في شرحه على الجامع الصغير: قال الشيخ أي السيوطي رحمه الله: صحيح المتن ضعيف السند.

<sup>٣</sup> جامع الصغير للسيوطي.

المأخوذ من أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله، فإنه ملتبس على كثير ممن لم يحط بالسنة وكلام الأئمة، فرمما أفرط فممنع المداراة مطلقا، وربما فرط فمدحها مطلقا، وكل من هذين خطأ، والصواب ما فصلته وقررتُه (١) اهـ.

وقال أبو يوسف رحمه الله: خمسة يجب على الإنسان مداراتهم وعدّ منهم العالم ليقبّس من علمه.

وفي (تذكرة السامع) ينبغي أن يدعو الطالب لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه وأودّاءه بعد وفاته، ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدي مسلكه، ويراعى في العلم والدين عاداته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عاداته وعبادته، ويتأدب بآدابه ولا يدع الاقتداء به، وأن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عن جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع والاستغفار وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب فيه عليه، فإن ذلك أبقي لمودة شيخه وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب اهـ.

وقال أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبيّ، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول: إني لأدعو لحماذ مع أبيّ اهـ.

وفي تعليق أبي غدة على (رسالة المسترشدين): قال أبو حنيفة: ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمني علما. وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فأني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي كالشمس للدين، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذا من خلف؟ أو عنهما من عوض؟.

<sup>١</sup> الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٦.

وقال النووي في (مقدمة المجموع): ومن آداب الطالب أن يتدبّر درسه بالحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين ويُكرّر بدرسه لحديث اللهم بارك لأمتي في بكورها (١) .

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافئتموه، رواه عن ابن عمر النسائي، وأبو داود، واللفظ له في كتاب الزكاة باب عطية من سأل الله (٢) .

### وَتَوْقِيرُهُ إِجْلَالُهُ وَمَحَبَّةُ حَقِيقَتِهِ وَبَشَرُهُ فِي التَّحِيَّةِ

أي ومن آدابه توقير الشيخ وإجلاله ومحبة الحقيقة والبشر وطلاقة الوجه عند سلامه ولقائه، روى الحافظ ابن عبد البر بسنده عن ابن طاووس عن أبيه قال: من السنة أن توقّر العالم (٣) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عليك أن توقّر العالم وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته (٤) .

وقال المليباري في هداية الأذكياء:

ومعلما وقر ولست مجادلا ( ٥ )

وقال الشيخ أبوغدة في تعليق له على (رسالة المسترشدين): وفي مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق الخوارزمي: روي عن أبي حنيفة أنه قال: ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالا له، وإن بين داري وداره سبع سكك اهـ.

<sup>١</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٢</sup> تعليق على رسالة المسترشدين لأبي غدة ص ٢٠٣.

<sup>٣</sup> جامع بيان العلم وفضله، في باب هيئة المتعلم للعالم ج ١ ص ١٣٦.

<sup>٤</sup> جامع بيان العلم وفضله، في باب آداب العالم والمتعلم ج ١ ص ١٥٦.

<sup>٥</sup> عجز بيت، وصدره:

وَجَّهَ كَلَامَ الْقَوْمِ غَيْرَ مُخْطِئٍ

أي إذا طالعت كلام القوم الصوفية فاحمله على محمل حسن ولا تحطئه، ولا تعترض عليهم فيه فإن ذلك يكدّر ويؤلّد الذهن ويخاف عليك سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك. قال سيدنا القطب الحبيب عبد الله الحداد:

وسلم لأهل الله في كل مشكل لديك لديهم واضح بالأدلة

اهـ كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء للسيد أبوبكر بن محمد شطا.

ومن آدابه محبته لشيخه كما يحب والده وولده أو أشد من ذلك، فإنه وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن يكمل إيمان أحد حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، فعلى الطالب أن يحب شيخه حبا من نوع حبه صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن مثله ولا مقاربه؛ لأنه هو المبلغ عنه صلى الله عليه وسلم.

وينبغي للطالب أيضا أن يقابله بالبشر وطلاقة الوجه والسرور عند سلامه ولقائه؛ لأن هذا مطلوب شرعا عند تلاقي المؤمنين عموما وعند الأصدقاء والأحباب خصوصا، فعند المشايخ أجدر وأهم. والله أعلم.

**وَمُقْتَرِشًا كُنْ فِي جُلُوسِكَ عِنْدَهُ وَخَفِّضْ لَدَيْهِ الصَّوْتَ مَعَ كُلِّ هَيْبَةٍ**

أي كن مفترشا في جلوسك عند شيخك فإنه أقرب إلى الأدب مع شيخك وإلى التواضع، وهو جلوس التشهد الأول، واغضض صوتك عنده هيبة له وتعظيما، قال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية: كان مجلسه صلى الله عليه وسلم مجلس علم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تنتهك فيه الحرم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير (١) اهـ.

وفي (إتحاف السادة المتقين): قال السيوطي: قد أورد الديلمي في (مسند الفردوس) بسنده عن عبد العزيز بن سعيد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم: من غض صوته عند العلماء كان يوم القيامة من الذين امتحن الله قلوبهم من أصحابي، ولا خير في التملق والتواضع إلا ما كان في الله أو طلب العلم (٢) اهـ .

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: { لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض } : كره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء اهـ.

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده أن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية لا أستطيع أن أسأله هيبه.

<sup>١</sup> المنح المكية في شرح الهمزية ص ٢٩١.

<sup>٢</sup> إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣١٣.

وذكر ابن عبد البر أن سعيد بن المسيب قال: قلت لسعد بن مالك رضي الله: إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أهابك، فقال: لا تهيني يا ابن أخي، إذا علمت أن عندي علما فسلي (١).

وفي المجموع: قال الشافعي رحمه الله: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحا رقيقا هببة له؛ لئلا يسمع وقعها.

وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلى هببة له (٢).

وَمُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ كُنْ وَرَاضِيًا بِهِ فَاحْذَرْنَ خِلَافَهُ قَدَرَ ذَرَّةً

أي كن أيها الطالب ممتثلا لأمر شيخك ونهيه من غير تلعنم وتردد؛ فإنه لا يأمر إلا بما ينفعك، ولا ينهك إلا عما يضرك، وكن راضيا بذلك في قلبك، طيبة به نفسك غير مستثقل به، واحذرن خلافة في كل كبير وصغير وإن كان قدر ذرة.

قال البد بن جماعة في (تذكرة السامع) ينبغي أن ينقاد لشيخه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتديبره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاور فيما يقصد ويتحرى رضاه، ويبالغ في حرمة، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة، ويقال: إن الشافعي عوتب على تواضعه للعلماء فقال:

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولم تكرم النفس التي لا تُهينها (٣)

وينبغي لطالب العلم أن يتعamy عما قد يقع من أستاذه من شدة طبع وسوء خلق ونحو ذلك من كل ما تستثقل به النفس وتكرهه، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: قيل لسفيان بن عيينة: إن قوما يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا أو يتركوك، فقال للقاتل: هم حمقى إذن مثلك إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي .

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله في باب هبة المتعلم للعالم ج ١ ص ١٣٥.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ٨٤.

<sup>٣</sup> تذكرة السامع ص ١٨٨.

وفي (جامع بيان العلم): أن بلال بن أبي بردة قال: لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا، وقال الخليل بن أحمد: اعمل بعلمي وإن قصرتُ في عملي، ينفعك علمي، ولا يضررك تقصيري(١).

وينبغي له أيضا أن لا يأنف من تأديب أستاذه ولومه وزجره وقيده وحبسه وضربه، بل يسرّ بذلك ويراه إحسانا له من أستاذه، ففي (جامع بيان العلم وفضله): أن بعضهم قال:

ولطمة عالم في الخد مني ألد لدى من شرب الرحيق (٢)  
وسلّم له اختيار فنّ ثريده فإنّ له في ذاك أعظم خبرة

أي أطع واستسلم لشيخك في اختياره لك الفنون التي تتعلمها؛ فإن له التجربة والخبرة في ذلك. ففي (تعليم المتعلم): ينبغي لطالب العلم أن لا يختار نوع علم بنفسه، بل يفوض أمره إلى الأستاذ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد وما يليق بطبيعته، وكان طلبة العلم في الزمان الأول يفوضون أمورهم في التعلم إلى أساتذتهم، فكانوا يصلون إلى مقاصدهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم، فلا يحصل مقصودهم من العلم والفقه.

وحكي أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى كان بدأ بكتاب الصلاة على محمد بن الحسن، فقال له محمد رحمه الله تعالى: اذهب وتعلّم علم الحديث، لما رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه، فطلب علم الحديث فصار فيه مقدّما على جميع أئمة الحديث اهـ . وقال الغزالي: لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. قال: ومهما أشار عليه شيخه بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه، فخطأ أمر شيخه أنفع له من صوابه في نفسه(٣)اهـ.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٥٩.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج ٢ ص ٢٤٨، والبيت من الوافر.

<sup>٣</sup> تذكرة السامع، ص ١٨٨.



## خاتمة

اعلم أن مشايخك هم آباؤك في الدين، وأن لهم عليك مثلَ حقوق الوالدين من البر والإحسان إليهم والاحترام والطاعة والانقياد والدعاء في حياتهم وبعد مماتهم، قال الإمام النووي رحمه الله في (تهذيب الأسماء واللغات): إن سلسلة الفقه يعني السند من المطلوبات المهمات والنفائس الجليلات التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، ويقبح به جهالتها، فإن الشيوخ في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم اهـ .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في الإحياء: حق المعلم -يعني الدال على الخير والآخرة- أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية اهـ .

وقال الرازي في تفسيره: العالم أرأف بالتلميذ من الأب والأم؛ لأن الآباء والأمهات يحفظونه من نار الدنيا وآفاتهما، والعلماء يحفظونه من نار الآخرة وشدائدها. وقال بعضهم: أبو الإفادة أنفع من أبي الولادة . ولقد أجاد القائل :

أقدم استاذي على فضل والدي وإن كان لي من والدي البر واللطف  
فهذا مربى الروح والروح جوهر وهذا مربى الجسم وهُوَ لها صَدَف (١)  
وفي كتاب (صفحات من صبر العلماء) قال الإمام الشافعي: الحر: من راعى وداد لحظة وانتفى إلى من أفاده لفظة (٢).

وفي (فتح المغيث) للسخاوي قال طاووس: من السنة أن يوقر العالم، لقوله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ولا شك أنه بمنزلة الوالد وأعظم، وإجلاله من إجلال العلم (٣)

<sup>١</sup> وفي بعض النسخ والجسم كالصدف بدل قوله: وهو لها صدف.

<sup>٢</sup> صفحات من صبر العلماء لأي غدة ص ٢٤٨.

<sup>٣</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج ٢ ص ٢٤.

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي كان يقول: من قرأ على مسألة فهو ولدي اهـ.

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الوالد الأعظم، والأب الأكرم، فحقوقه عليك أعظم من جميع الحقوق وأوجب، فكما أن زوجاته صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين كذلك هو أب رؤوف رحيم للمؤمنين، فقد قال الإمام النووي في (تهذيب الأسماء واللغات): قال البغوي من أصحابنا: ويقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أبو المؤمنين والمؤمنات، و نقل الواحدي عن بعض أصحابنا أنه لا يقال ذلك، لقوله تعالى: {ما كان محمد أباً أحد من رجالكم} قال: ونص الشافعي على جوازه، أي أبوهم في الحرمة، قال: ومعنى الآية: ليس أحد من رجالكم ولد صلبه . وفي الحديث الصحيح في سنن أبي داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما أنا لكم مثل الوالد (١) اهـ.

وفي (مجمع الزوائد) عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس من أمي من لم يحل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه، رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن.

وعن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق: ذو شيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط، رواه الطبراني في الكبير من رواية عبيد الله ابن زحر، عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف.

وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا أخاف على أمي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم من الدنيا فيتحاسدون فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب يأخذهم المؤمن يتغي تأويله وليس يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: {آمننا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب} وإن يروا ذا علمهم فيضيعونه ولا يبالون عليه، رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش، عن أبيه ولم يسمع من أبيه اهـ.

<sup>١</sup> تهذيب الأسماء واللغات في فصل خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

## أهمية تلقي العلم من أفواه المشايخ

قال أبو الدرداء: إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتوقى الشر يوقه (١).

وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي عن ابن مسعود أنه كان يقول: فعليكم بهذا القرآن، فإنه مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يأخذ من مأدبة الله فليفعل، فإنما العلم بالتعلم، رواه البزار في حديث طويل، ورجاله موثقون.

وفي (إتحاف السادة المتقين): قد أجمع العلماء على فضل التعلم من أفواه الشيوخ، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وقد قال العلماء: لا تأخذ العلم من صحفي ولا من مصحفي، يعني لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف (٢).

وفي (مقدمة المجموع): قالوا: وينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانتها، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانتها وسيادته، ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية، فإنها مرتبطة.

وقالوا: ولا يأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق، فمن لم يأخذه إلا من الكتب يقع في التصحيف، ويكثر منه الغلط والتحريف (٣) اهـ.

وفي (مجمع الزوائد): عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب الناس بالجابية، وقال: أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أباي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله جعلني له واليا وقاسما رواه الطبراني في الأوسط، قال الهيثمي: وفيه سليمان بن داود بن الحصين، لم أر من ذكره (٤).

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله في فصل الإنصاف في العلم، ج ١ ص ١٦٤.

<sup>٢</sup> إتحاف السادة المتقين، ج ١ ص ٦٦.

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع ص ٨٣-٨٤.

<sup>٤</sup> مجمع الزوائد للهيثمي، في باب أخذ كل علم من أهله من كتاب العلم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام (١).  
وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: لا يؤخذ العلم إلا من أفواه العلماء.  
وقال الشيخ محمد عوامه في كتاب (أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين): قال إمام  
الحرمين:

أخي لن تنال العلمَ إلا بستةٍ سأنبيك عن تفصيلها بيان  
ذكاءٍ وحرصٍ وافتقارٍ وغربةٍ وتلقينٍ أستاذٍ وطولِ زمانٍ (٢)  
ثم قال الشيخ عوامه: ذلك أنه بالتلقي عن الأستاذ يحصل الطالب على خيرين، يحصل على  
العلم الصافي المحقق، ويحصل على الأدب مع العلماء والشيخ؛ لأنه س يلتزم الأدب مع  
معلمه، ومنه يتعرف على قدر العلماء .

ولم يكونوا يلتفتون إلى من لم يكن له شيوخ في العلم ولا يقيمون له وزناً ولا اعتباراً، ولا  
يرون فيه أهلية التكلم معه؛ لأنه محل الخطأ والغلط، ففي (الإلماع) للقاضي عياض،  
و(الصلة) لتلميذه ابن بشكوال بسندهما إلى ابن الفرّضي أن صالح بن الإمام أحمد قال: لقد  
التفت المعتصم إلى أبي فقال له: كَلِّمْ ابن أبي دؤاد، فأعرض عنه أبي بوجهه وقال: كيف  
أكلم من لم أره على باب عالم قط؟!.

وقال القاضي عياض رحمه الله في ترجمة أبي جعفر الداودي: بلغني أنه كان ينكر على  
معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عُبيد وبقاءهم بين أظهرهم وأنه كتب  
إليهم مرة بذلك، فأجابوه: أسكت لا شيخ لك. أي لأن درسه كان وحده ولم يتفقه في  
أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنما وصل إلى ما وصل بإدراكه، ويشيرون أنه لو كان له  
شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على  
الإسلام، فانظر إلى جوابهم: أسكت لا شيخ لك، ولهذا كله - وغيره - كان كل من أخذ  
العلم عن السطور ضالاً مضلاً، قال النووي رحمه الله: من رأى المسئلة في عشرة كتب

<sup>١</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٢</sup> قال الشيخ محمد عوامه: هذان البيتان اشتهرا على لسان العلماء ينسبان إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهما  
لإمام الحرمين شافعي عصره رحمه الله. وقال في تعليقه على هذا الكتاب: إن الحافظ ابن النجار رحمه الله أسند هذين  
البيتين إلى إمام الحرمين في ذيل تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٩ مع مغايرة يسيرة، ويمثل لفظ ابن النجار ذكرهما السبكي في  
طبقاته ج ٥ ص ٢٠٨.

مثلا لا يجوز له الإفتاء بها؛ لاحتمال أن تلك الكتب ماشية على قول أو طريق ضعيف. فأين المتبحر بأنه ليس له إلا شيخ واحد وبالإجازة لا بالتلقي اهـ ملخصا (١).

### تنبيه في فضائل مجالسة العلماء والنظر إليهم

وفي مجمع الزوائد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لقمان قال لابنه: يا بني عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحبي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحبي الأرض الميتة بوابل المطر، رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، وكلامهما ضعيف لا يحتج به.

وعن أبي جحيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جالسوا الكبراء، وسأئلوا العلماء وخالطوا الحكماء، رواه الطبراني في الكبير من طريقين، إحداهما هذه والأخرى موقوفة، وفيه عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي، وهو منكر الحديث، والموقوف صحيح الإسناد.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا: يارسول الله ما رياض الجنة؟ قال: حلق العلم، رواه الطبراني في الكبير، وفيه رجل لم يسم.

وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: المتقون سادته، والفقهاء قاده، ومجالستهم زيادته. قلت: هذا بعض حديث طويل، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون. وعن سهل التستري: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، فاعرفوا لهم ذلك.

وذكر الفخر الرازي في تفسيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبل تهامة، فإذا سمع العلم وخاف واسترجع على ذنوبه انصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء؛ فإن الله لم يخلق تربة على وجه الأرض أكرم من مجالس العلماء (٢).

<sup>١</sup> أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين للشيخ محمد عوامه ص ١٦١-١٦٥ تحت عنوان قوارب النجاة وسبل الخلاص من الواقع المؤلم.

<sup>٢</sup> تفسير الفخر الرازي.

### فائدة في فضيلة التعلم في المساجد

ومن المهم اختيار الأماكن الفاضلة لتعلم العلم كالمساجد والربط ونحوهما، وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته، رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

وعقد الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) مبحثا في فضل تدريس الفقه في المساجد، فروى بسنده عن أبي الأحوص قال: أدركنا الناس وما مجالسهم إلا المساجد.

وقال: يستحب للفقيه أن لا يخل بعقد الحلقة في المسجد الجامع في أيام الجمع.

وروى أيضا بسنده عن معاوية بن قرّة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من مزينة ليس فيهم إلا من طعن أو طعن أو ضرب أو ضرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الجمعة اغتسلوا ولبسوا من صالح ثيابهم وشموا من طيب نسائهم ثم أتوا الجمعة وصلوا ركعتين ثم جلسوا يثنون العلم والسنة حتى يخرج الإمام (١) اهـ.

وقال جعفر بن برقان: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز وقال في كتابه: مر أهل الفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله في مساجدهم ومجالسهم والسلام (٢).

وقال سفيان بن عيينة قال: مررت بأبي حنيفة وهو مع أصحابه في المسجد وقد ارتفعت أصواتهم، فقلت: يا أبا حنيفة هذا في المسجد والصوت لا ينبغي أن يرفع فيه؟ فقال: دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا (٣).

وقال النووي في المجموع: يستحب عقد حلق العلم في المساجد وذكر المواعظ والرفائق ونحوها، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مشهورة (٤).

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٢٩-١٣٠.

<sup>٢</sup> علو الهمة ص ٢٧١.

<sup>٣</sup> جامع بيان العلم وفضله في فصل رفع الصوت في المسجد وغير ذلك من آداب العلم، ج ١ ص ١٦٩.

<sup>٤</sup> المجموع شرح المذهب في فصل المساجد وأحكامها، ج ٢ ص ١٧٧.

### الصبر على ضيق المعيشة

وَكُنْ بِالْيَسِيرِ قَانِعًا رَاضِيًا بِمَا حَبَاكَ إِلَهُ مِنْ قَلِيلٍ كُلُّمَّةٍ

أي كن أيها الطالب قانعاً باليسير من المعيشة راضياً بما أعطاكه الله تعالى منها وإن كان قليلاً كلُّمَّةً، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس، فقيل: ولا الغني المكفي؟ قال: ولا الغني المكفي. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضرَّ به الفقر ويؤثره على كل شيء.

وقال إبراهيم الآجري: من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم (١).

وقال الشافعي أيضاً: ما أفلح في العلم إلا من طلبه بالقلة، وقال أيضاً: ما فزعت من فقر قطّ (٢).

وقال الجنيد البغدادي: ما أخذنا النصوص من القال والقليل ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المؤلف (٣).

ولما أثر أحمد بن حنبل رضي الله عنه طلب العلم وكان فقيراً بقي أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج، فينبغي للفقير أن يصبر على فقره كما فعل أحمد، فما شاع له الذكر الجميل ولا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب، وتَلَمَّحُ قبورَ أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار، ترخصوا وتأولوا وخالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم ومحي الجاه، ووردوا عند الموت حياض الندم، فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل، فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى (٤) اهـ.

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه (صفحات من صبر العلماء): إن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثرواتهم في الغالب، لأن عامة الخلق لا تضطر إليهم، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص من أقبل على دينه، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الإضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر، وهم لشرف بضائعهم أعزة على الخلق

<sup>١</sup> مقدمة المجموع في باب آداب المتعلم، ص ٨٢.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ٤٠.

<sup>٣</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

<sup>٤</sup> صيد الخاطر، في فصل تكاليف المجد ص ٣٨٩.

وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منهم حظا يستدرون به الرزق، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن، بل ولا يسعهم ابتدال أنفسهم لأهل الدنيا، لشرف بضائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .

ولقد باحثت بعض الفضلاء في هذا المعنى فأنكر ذلك علىّ، فوقع بيدي أوراق مخزقة من حسابات الدواوين بدار "المأمون" تشتمل على كثير من الدخل والخرج، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين، فوقفته عليه، وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه، وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه، والله الخالق القادر لا رب سواه (١) اهـ.

وقال أبو غده أيضا: قال أحمد عمر المزجد الزبيدي المتوفى سنة ٩٣٠هـ:

قلت للفقر أين أنت مقيم قال لي في عمام الفقهاء ( ٢ )

إن بيني وبينهم لإخاء وعزيز علىّ قطع الإخاء

انتهى (٣)

وقال شعبة بن الحجاج: إذا رأيت المحبرة في يد إنسان فارحمه، وإن كان في كملك شيء فأطعمه (٤) اهـ.

فَكَمْ مِنْ إِمَامٍ طَبَّقَ ( ٥ ) الْأَرْضَ عِلْمُهُ تَعَلَّمَ فِي جُوعٍ وَأَضِيقٍ عَيْشَةٍ

أي كم من إمام من أئمة المسلمين عم الأرض علمه، وقد تعلم العلم في جوع وأضيق معيشة كالإمام الشافعي رحمه الله تعالى؛ فإنه قال: كنت يتيما في حجر أُمِّي فدفعتني إلى الكتاب ولم يكن عندها ما تعطني المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام،

<sup>١</sup> صفحات من صبر العلماء، ص ١٤٥-١٤٦.

<sup>٢</sup> وفي بعض النسخ: في محابر العلماء .

<sup>٣</sup> صفحات من صبر العلماء، ص ١٥٥.

<sup>٤</sup> جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٦٢.

<sup>٥</sup> في القاموس: طبق الشيء تطبيقاً عمّاً.



فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث والمسألة فأحفظها، فلم يكن عند أُمي ما تعطيني أشتري به القراطيس، فكنت أنظر إلى العظم فأخذه فأكتب، فإذا امتلأ طرحته في جرة فاجتمع عندي حَبَان (١). وقال الإمام الشافعي أيضا: كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلحن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فيلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أُملى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئا، قال: ثم لما أن خرجت من الكتاب كنت أَلْتَقِطُ الخُزْفَ والرقوق. (٢) وَكَرَبَ النخل (٣) وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث، وأجبيء الدواوين وأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كان لأُمي حبان فملاؤتهما أكتافا وخزفا، وكربا مملوءة حديثا (٤).

ومما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا  
وفيهنّ نفس لو تقاس جميعها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا  
وما ضر نصل السيف إخالق غمده إذا كان عضبا حيث وجهته فرى

وقال أيضا رحمه الله تعالى: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعِزَّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح.

وفي حكمة لقمان الحكيم: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال سفيان الثوري: بقلة الطعام يملك سهر الليل. وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع. وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسم، مؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فهو أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يُؤثِرَ شهوته على دينه (٥).

<sup>١</sup> والحبان تشنية حب وهو الجرة الضخمة، والجمع أحبان وجبّة وحياب . لسان العرب.

<sup>٢</sup> جمع رق: وهو جلد رقيق يكتب فيه.

<sup>٣</sup> الكرب أصول السعف، العراض التي تبيس فتصير مثل الكتف واحدها كربة لسان العرب

<sup>٤</sup> مناقب البيهقي، ج ١ ص ٩٢-٩٥.

<sup>٥</sup> تعليق على كتاب قيمة الزمن ١٠٩-١١٠.

وفي (طبقات الحنابلة) أن الإمام الشافعي قال: أحمد بن حنبل إمام في ثمان خصال، منها الزهد والفقر، وسيأتي بتمامها إن شاء الله تعالى في ترجمته في مبحث التمسك بالمذاهب الأربعة.

وفي (صفحات من صبر العلماء) قال أبو بكر الخلال: سمعت أبا زرعة الصغير يحكي عن إبراهيم بن يعقوب قال: كان أحمد بن حنبل يصلي، فسها يوما في صلاته، فسئل عنه، فأخبر أنه لم يطعم شيئا منذ ثلاث.

وفيه أيضا: قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه (ذيل طبقات الحنابلة) أن الحافظ المعمر أبابكر محمد بن عبد الباقي قال: كنت مجاورا بمكة حرسها الله، فأصابني يوما من الأيام جوع شديد، لم أجد شيئا أدفع به عني الجوع، فوجدت كيسا من إبريسم مشدودا بشرابة من إبريسم أيضا، فأخذته وجئت به إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله، فخرجت فإذا بشيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فأخذ هذا الذهب فأنفَع به، وأردّ عليه الكيس، فقلت له: تعال إليّ فأخذته وجئت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وعدده والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلمّ إليّ خمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب عليّ أن أعيده إليك، ولا آخذ له جزاء، فقال لي: لا بد أن تأخذ وألحّ عليّ كثيرا، فلم أقبل ذلك منه، فتركتني ومضى.

وأما ما كان مني فإني خرجت من مكة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلك أموالهم وسلمت أنا على قطعة من المركب، فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب؟! فوصلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعدت في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال: علمني القرآن، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال. ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقا من مصحف، فأخذتها أقرأ فيها، فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علّمنا الخط، فجاءوا بألادهم من الصبيان والشباب، فكنّت أعلمهم، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك:

عندنا صبية يتيمة، ولها شيء من الدنيا، نريد أن تتزوج بها، فامتنعت، فقالوا: لا بد، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفوها إلى مددت عيني أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلما كهذا الذي رد عليّ هذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيت معها مدة، ورزقت منها ولدين، ثم إنها ماتت فورث العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان فحصل العقد لي، فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال (١).

قال التاج السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) في ترجمة الإمام أبي إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي: قال أبو العباس الجرجاني: كان أبو إسحاق الشيرازي لا يملك شيئا من الدنيا، فبلغ به الفقر مبلغه، حتى كان لا يجد قوتا ولا ملبسا، ولقد كنا نأتيه فيقوم لنا نصف قومة، ليس يعتدل قائما من العري كي لا يظهر منه شيء، قيل: وكان إذا بقي مدة لا يأكل شيئا جاء إلى صديق له باقلائي، فكان يثرد له رغيفا، فرمما أتاه وقد كان فرغ من بيع الباقلاء فيقف أبو إسحاق ويقول: تلك إذا كرة خاسرة ويرجع (٢).

وقال ابن السبكي في ترجمة الفقيه الشافعي المقرئ المحدث المتعبد الزاهد أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن محمويه: قال السمعاني: كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت، وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، سمعته يقول: وقد دخلت عليه داره مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ، مسلما عليه، فوجدناه عريانا متأزرا بمئزر،

<sup>١</sup> صفحات من صبر العلماء ص ٢٢٢-٢٢٤.

<sup>٢</sup> أنظر طبقات الشافعية الكبرى في ترجمة أبي إسحاق الشيرازي.

فاعتذر من العربي، وقال: نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري:

قوم إذا غسلوا ثياب جملهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل (١)

قال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ): إن الإمام الحافظ الجوال أبا علي الحسن بن علي البلخي الوخشي قال يوما: سمعت ورحلت وقاسيت المشاق والذل ورجعت إلى -وخش- وهي قرية من أعمال بلخ- وما عرف أحدهم قدري، ولا فهم ما حصلته، فقلت: أموت ولا ينتشر ذكري، ولا يترحل أحد علي، فسهل الله ووفق نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة في وخش، وأجلسني فيها حتى أحدث، ولقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره، فضاقت على النفقة وبقيت أياما بلا أكل، فأخذت لأكتب، فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز، وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله عليّ (٢) اهـ.

وفي كتاب (صفحات من صبر العلماء): قال الحافظ الذهبي في (العبر في خبر من غبر) وفي (ميزان الاعتدال): قال بكر بن حمدان: سمعت الحافظ عبد الرحمن بن يوسف بن خراش يقول: شربت بولي في هذا الشأن -يعني طلب الحديث- خمس مرات (٣) .

وفي مقدمة (إعانة الطالبين حاشية فتح المعين) ومقدمة (الفتاوي الفقهية) التي وضعها بعض العلماء أن الشيخ ابن حجر الهيتمي كان يقول: قاسيت في الجامع الأزهر من الجوع ما لا تحتمله الجبلة البشرية لولا معونة الله وتوفيقه بحيث إني جلست فيه نحو أربع سنين ما ذقت اللحم إلا في ليلة دعينا لأكل، فإذا هو لحم يوقد عليه ثم جيء به فإذا هو لحم يابس كما هو نبيء فلم استطع منه لقمة، وقاسيت أيضا من الإيذاء من بعض أهل الدروس التي كنا نحضرها ما هو أشد من ذلك الجوع إلى أن رأيت شيخنا ابن أبي الحمائل قائما بين يدي سيدي أحمد البدوي، فجيء باثنين كانا أكثر إيذاء لي فضربهما بين يديه ومزقا كل ممزق، وكذلك أوزي بمكة كثيرا فصبر فكفاه الله شر المؤذين (٤) اهـ.

<sup>١</sup> صفحات من صبر العلماء ص ٢٤٩.

<sup>٢</sup> ٢٣٠ تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١١٧٣.

<sup>٣</sup> صفحات من صبر العلماء ص ٢٢٩-٢٣٠.

<sup>٤</sup> إعانة الطالبين حاشية فتح المعين، ج ١ ص ١٨، ومقدمة الفتاوي الفقهية ص .

وقال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يموتون وجهالكم لا يتعلمون، لقد خشيت أن يذهب الأول، ولا يتعلم الآخر، ما لي أراكم شباعا من الطعام جيعا من العلم (١).

وَأَنْتَ لَا تَرْضَى بِذَلِكَ فَكَتَسَبَ وَكُنْ جَاهِلًا أَعْمَى يَعِيشُ بِذِلَّةٍ

أي لا تترك أيها الطالب تعلم العلم وطلبه لضيق المعيشة، وإذا لم ترض نفسك بذلك ولم تستطع الصبر على شدة الجوع فاكسب المال لبطنك، واصبر على العمى عن أمر دينك، وذل الجهل في طول حياتك، قال العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله:

إذا أنت لا ترضى بأدنى معيشة مع الجد في نيل العلى والمآثر

فبادر إلى كسب الغنى مترقبا عظيم الرزايا وانطماس البصائر

و لقد أجاد القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وما أحسن قول من قال:

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر

وصار لهم حظ من الجهل والغنى وصار لنا حظ من العلم والفقر

وقال أبو العتاهية:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقال محمود الوراق:

يا عائب الفقر أما تنزجر عيب الغنى أكبر لو تعتبر

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صح منك النظر

أنك تعصي الله تبغي الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر ( ٢ )

وكان إبراهيم بن الأدهم ينشد:

وما هي إلا جوعة قد سددها وكل طعام بين جنبي واحد

وكان أحمد رحمه الله تعالى يقول: الدنو من المترفين فتنة، والجلوس معهم فتنة، وإن لكل شيء كرمًا، وكرم القلب الرضا عن الله تعالى.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم، في باب إنكار أهل العلم ما يجدونه من الأهواء والبدع، ج ٢ ص ١ ص ١٤٦.

<sup>٢</sup> صفحات من صبر العلماء، ص ١٦١.

وعن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لي الشافعي رضي الله عنه: يا أبا موسى قد أنست الفقر حتى لا أستوحش منه، وقال لي: يا أبا موسى أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة، والرضا بهما، وسمعته يقول: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار (١). وقد جعل بعض العلماء الفقيه هو الفقير بعينه فقال: وإنما استدرات راء الفقيه فصارت هاء مشيرا إلى التلازم بين الفقيه والفقير. وقد أحسن من قال:

إن الفقيه هو الفقير وإنما راء الفقير تجمعت أطرافها  
ولهذا كان ينصح الإمام ابن هشام النحوي المصري طلبة العلم بالصبر على مشاق العلم  
والتحصيل، ومنها الفقر، إذ الصبر شرط في نيل كل عزيز غال، فيقول:  
ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل  
ومن لم يذل النفس في طلب العلا يسيرا يعيش دهرا طويلا على ذل  
هذا وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ والتراجم والأخلاق بأقوال كثير من العلماء في  
فقرهم وجوعهم وغربتهم وصبرهم على شدائدهم الخانقة، واستهانتهم بها، وعدم  
إكترائهم بها، تمسكا منهم بمثوبة الصبر المكتسب فيه الأجر، والذي كانوا فيه من  
الفائزين، فمما قاله قائلهم يتصبر على الفقر والعدم:

الجوع يُدفع بالرغيف اليابس فعلام أُنْكَرَ حسرتي ووساوسي؟!  
والموت أَنْصَفَ حين ساوى حُكْمُهُ بين الخليفة والفقير البائس ( ٢ )

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

ومن لم يذق مُرَّ التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته  
ومن فاتته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعا لوفاته  
حياة الفتى والله بالعلم والتقوى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

<sup>١</sup> صفحات من صبر العلماء، ص ١٥١.

<sup>٢</sup> صفحات ص ١٥٣.

وقال محمد بن مظفر النحوي:

ومن قلّ فيما يتقيه اصطباره فقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه ( ١ )

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله:

أمطري لؤلؤا سماء سرنديب — وفيضي آبار تكرور تبرا ( ٢ )

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همّة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلما ذا أزور زيدا وعمرا ( ٣ )

وروي عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: تحشأ رجل عند النبي صلى الله عليه

وسلم فقال: كُفَّ عنا جشاءك؛ فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة،

رواه الترمذي وابن ماجه، ورمز السيوطي لحسنه .

وأجاد القائل:

ومن الدليل على القضاء وحكمه بُؤْسُ اللبيب وطيب عيش الأحمق

لكنَّ مَنْ رُزِقَ الْحِجَا حُرْمُ الْغِنَى ضدان يفترقان أيَّ تَفَرُّقٍ

واعلم أن طباع كثير من الناس مجبولة على ازدراء الفقراء وذوي الإملاق والمسكنة، فقد

قال بعضهم:

وكان بنو عمي يقولون مرحبا فلما رأوني معسرا مات مرحبا

وقال آخر:

إذا ما رأوني موسرا قالوا مرحبا وإذا ما رأوني ملفجا مات مرحبا

وقد قيل: إن الفقر يظهر العيوب ويقلل الأصدقاء، وقيل في ذلك:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه وأوَّمت إليه بالعيوب الأصابع

<sup>١</sup> صفحات ص ٢١٢.

<sup>٢</sup> سرنديب : جزيرة كبيرة في أقصى بلاد الهند بالجنوب، وتكرور: اسم بلاد بأقصى جنوب المغرب .

<sup>٣</sup> صفحات من صير العلماء، ١٥٣-١٥٤.

وقال الأديب الوزير يحيى بن هبيرة شيخ الإمام ابن الجوزي:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه وقُبِّحَ منه كل ما كان يحمل

وقال بعضهم:

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة وحكمة لقمان وعفة مريم

إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ونودي عليه لا يباع بدرهم

فينبغي لطالب العلم أن لا يكثر بذلك، بل يتحمل على تحقيرهم ويصبر على جفوتهم فإنه يكون بعد ذلك إن شاء الله إماما يحبونه ويحترمونه ويعظمونه لاحتياجهم إلى علمه، ويتسابقون إلى خدمته وامتنال أمره، ويطلبون منه صالح دعائه.

قال ابن عبد البر: ول بعض الأدباء:

رأيت العلم صاحبه شريف وإن ولدته آباء لثام

وليس يزال يرفعه إلى أن يُعْظَمَ قدره القوم الكرام

ويُتَّبَعُونَهُ في كل أمر كراع الضأن تتبعه السَّوام ( ١ )

ويحمل قوله في كل أفق ومن يك عالما فهو الإمام

فلو لا العلم ما سعدت نفوس ولا عرف الحلال ولا الحرام

فبالعلم النجاة من المخازي وبالجهل المذلة والرغام ( ٢ )

هو الهادي الدليل إلى المعالي ومصباح يضيء به الظلام

كذلك عن الرسول أتى عليه من الله التحية والسلام ( ٣ )

<sup>١</sup> قال في لسان العرب: السوام والسائمة بمعنى، وقال أيضا: السَّوم كل ما رعى من المال في الفلوات.

<sup>٢</sup> الرغام: التراب. المعجم الوسيط

<sup>٣</sup> جامع بيان العلم وفضله في باب جامع في فضل العلم ص ٩٤.



### فصل في آداب متفرقة

تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ يَنَالُ الْفَتْى فِيهَا نَهَايَةَ رُتْبَةٍ  
وَكُنْ مُشْفِقًا لِلْخَلْقِ وَارْحَمْ لِكُلِّ مَنْ يُوحِّدُ رَبِّي مِنْ كَبِيرٍ وَصَبِيَةٍ

أي تَخَلَّقْ بالأخلاق الحسنة، فإنك تنال بها أرفع درجة ونهاية رتبة، وكن على الخلق مشفقاً، وارحم لكل المسلمين صغيرهم وكبيرهم، واعلم أن التخلق بالخلق الحسن من حكمة بعثه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق(١)

وفي (الشفاء) للقاضي عياض أنه صلى الله عليه وسلم قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢).

وفي المشكاة عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال، رواه في (شرح السنة)(٣).

وقال النووي في (رياض الصالحين): روى الترمذي عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حسن الخلق قال: هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى.

وقال ابن علان في (دليل الفالحين): قد جمع جماعة محاسن الأخلاق في قوله تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} وقال الحافظ: هو اختيار الفضائل وترك الرذائل، وقال السيوطي: قال الباجي: هو أن يظهر منه لمن يجالسه أو ورد عليه البشر والحلم والإشفاق والصبر على التعليم والتودد إلى الصغير والكبير (٤).

وقال الهيثمي في (فتح المبين): جماع حسن الخلق كما ذكره الترمذي وغيره ينحصر في طلاقة الوجه للناس وكف الأذى عنهم، وبذل المعروف لهم، وهو معنى قول بعضهم:

<sup>١</sup> قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه ابن سعد والبخاري في أدب المفرد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة، ورمز له بالصحة .

<sup>٢</sup> قال الشهاب الخفاجي في (نسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض): حديث صحيح، رواه أحمد عن معاذ، والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ. وقال علي القارئ في شرح الشفاء: ورواه مالك في الموطأ ولفظه: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. نسيم الرياض ج ١ ص ٤٧١.

<sup>٣</sup> مشكاة المصابيح في كتاب الفضائل والشمائل، باب فضائل سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

<sup>٤</sup> دليل الفالحين شرح رياض الصالحين " ج ٣ ص ٨٧.

هو كظم الغيظ لله وإظهار الطلاقة والبشر إلا لمبتدع أو فاجر، والعفو عن الزالين إلا تأديبا، وكف الأذى عن كل مسلم أو مُعاهدٍ إلا تغييرا لمنكر أو أخذًا بمظلمة من غير تَعَدٍّ، وجمع بعضهم ذلك كله في قوله: هو أن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك، فتجتمع القلوب ويتفق السر والعلانية، وحينئذ تأمن كل كيد وشر، وذلك جمع الخير وملاك الأمر إن شاء الله تعالى (١).

وقال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ} وقال ابن علان في (دليل الفالحين): سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن، أي آدابه وأوامره، وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما إذ لم يكن همه سوى الحق سبحانه، عَاشَرَ الخلق بخلقهم، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق، وقيل وصف خلقه صلى الله عليه وسلم بالعظم إشارة إلى أنه كان يؤدي كل مقام من رفق وغلظ حقه، فكان بالمؤمنين رءوفا رحيفا، وكان يغلظ على الكفار وينتقم لله سبحانه (٢).  
وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل حسن الخلق.

فمنها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقًا متفق عليه.  
وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقا، متفق عليه.  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح .

<sup>١</sup> الفتح المبين لشرح الأربعين النووية لابن حجر الهيتمي ص ١٦٧.

<sup>٢</sup> دليل الفالحين ج ٣ ص ٧٦.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يُبْغِضُ<sup>(١)</sup> الفاحش البذيء<sup>(٢)</sup>، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح<sup>(٣)</sup>.

وفي (الترغيب والترهيب): عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهلهم، رواه الترمذي والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، كذا قال، وقال الترمذي: حديث حسن، ولا نعرف لأبي قلابة سماعاً من عائشة.

وعنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم، رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ولفظه: إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل، وصائم النهار. وراه الطبراني من حديث أبي أمامة إلا أنه قال: إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الظامىء بالهواجر.

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم، رواه الطبراني ورواه ثقات سوى شيخه المقداد بن داود، وقد وثق.

وعن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأيسر العبادة، وأهونها على البدن: الصمت، وحسن الخلق، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت مراسلاً.

<sup>١</sup> قوله يبغض بضم التحتية من الإبغاض، قال في المصباح: ولا يقال: بغضته بغير ألف ويقال: أبغضته وبغضه الله

بتشديد الغين، دليل الفالحين ج ٣ ص ٨١.

<sup>٢</sup> قال النووي: البذيء هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: البذيء بذيال معجمة ممدودا هو المتكلم بالفاحش ورديء الكلام. وقال ابن علان في دليل الفالحين ج ٣ ص ٨١: البذيء بفتح الموحدة وكسر المعجمة وتشديد التحتية على وزن فاعيل.

<sup>٣</sup> رياض الصالحين باب حسن الخلق.

وعن العلاء بن الشَّخِير رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقال: يار رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه عن يمينه، فقال: أي العمل أفضل؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه عن شماله، فقال: يار رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من بعده، يعني من خلفه، فقال: أي العمل أفضل؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مالك لا تفقه حسن الخلق هو أن لا تغضب إن استطعت، رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة مراسلا هكذا.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه، رواه أبو داود واللفظ له، وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا.. الحديث، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مدخل الأبرار، وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي، وأن أسقيه من حظيرة قدسي، وأن أدنيه من جواربي، رواه الطبراني.

وعنه أيضا رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما حسن الله خلق رجل وخلقته فتطمعه النار أبدا، رواه الطبراني في الأوسط.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟ فأعادها مرتين أو ثلاثا. فقالوا: نعم يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقا، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال: يا أباذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل على الميزان من غيرهما؟ قال: بلى

يارسول الله قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والبخاري وأبو يعلى بإسناد جيد رواه ثقات، واللفظ له.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رءوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: مَنْ أَحَبُّ عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: أحسنهم خلقا، رواه الطبراني ورواه محتج بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه.

وروى مالك عن معاذ قال: كان آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: يا معاذ أحسن خلقك للناس. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم كما أحسنت خلقي فأحسن خلقي، رواه أحمد، ورواه ثقات.

وري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاءون بالنسيئة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبراء العيب، رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود باختصار.

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة: يا رسول الله المرأة يكون لها زوجان ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجها، لأيهما تكون للأول أو للآخر؟ قال: تُخَيَّرُ، أحسنهما خلُقًا كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، رواه الطبراني والبخاري باختصار، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أم سلمة في آخر حديث طويل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق، رواه أبو يعلى والبخاري من طرق أحدها حسن جيد.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد<sup>(١)</sup>، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي.

وعن رافع بن مكيث وكان ممن شهد الحديبية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: حسن الخلق نماء، وسوء الخلق شؤم، والبر زيادة في العمر، والصدقة تدفع ميتة السوء، رواه أحمد وأبو داود باختصار وفي إسنادهما راو لم يسم، وبقية إسناده ثقات. وري عن جابر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: سوء الخلق، رواه الطبراني في الأوسط.

وروي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه، رواه الطبراني في الصغير والأصبهاني، وفي رواية للأصبهاني عن رجل من أهل الجزيرة لم يسمه عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من ذنب أعظم عند الله عز وجل من سوء الخلق، وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في ذنب، وهذا مرسل. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، رواه أبو داود والنسائي.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذه الأخلاق من الله، فمن أراد الله به خيرا منحه خلقا حسنا، ومن أراد به سوءا منحه خلقا سيئا، رواه الطبراني في الأوسط<sup>(٢)</sup>.

<sup>١</sup> قال في القاموس وشرحه: الجليد ما يسقط من السماء على الأرض من الندى فيجمد، وفي الحديث: حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد .

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب، باب الترغيب في الخلق الحسن وفضله من كتاب الأدب.

وفي (الجامع الصغير) روى الحرث (١) وابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث من ساء خلقه عذب نفسه (٢)، ومن كثر همهم سقم بدنه، ومن لاحى الرجال ذهب كرامته وسقطت مروءته اهـ.

وقيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هما؟ قال: أسوأهم خلقا (٣) اهـ  
وفي الرسالة للقشيري: الخلق الحسن أفضل مناقب العبد، وبه يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلق مشهور بخلق (٤).

وينبغي الاهتمام بتحسين الخلق وإكثار الدعاء بها، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة قال: اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت (٥).

<sup>١</sup> أي ابن أسامة في مسنده كما في الفيض القدير.

<sup>٢</sup> قال المناوي في شرح هذا الحديث: روى البيهقي في "الشعب" عن الفضيل أنه قال: لا تحالف إلا حسن الخلق فإنه لا يأتي إلا بخير ولا تحالف سيء الخلق فإنه لا يأتي إلا بشر، وقال أبو حازم سيء الخلق أشقى الناس به نفسه هي منه في بلاء ثم زوجته ثم ولده.

<sup>٣</sup> قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على الرسالة: أي لأن من ساء خلقه عدم الصبر على ما ابتلي به وساءت معاملته لمن يعامله من الخلق ولا يزال في هم وكرب فيما يخالف غرضه، فسوء الخلق يرجع ضرره على صاحبه في دينه ودنياه، وحسن الخلق يكون صاحبه في تنعم وراحة في دنياه وآخره. الرسالة القشيرية مع شرحها ج ٣ ص ٣٣٤.

<sup>٤</sup> الرسالة القشيرية في باب حسن الخلق.

<sup>٥</sup> وهذا بعض حديث، وكماله: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله بيدك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك. اهـ المجموع للإمام النووي رحمه الله ج ٣ ص ١٨٩-١٩٠.

وقال الإمام القشيري في الرسالة: قال وهب: ما تخلق عبد بخلق حسن أربعين صباحا إلا جعله الله طبيعة فيه. ثم قال الشيخ زكريا الأنصاري في شرحه لهذا الكلام ما نصه: فمن جاهد نفسه لينقلها من خلق ذميم إلى خلق حميد وصبر على ذلك أربعين يوما صار له عادة حسنة، ووجد بركة ذلك الخلق في الدنيا والأخرى (١).

### وَكُنْ لَابِسًا بِيضَ الثِّيَابِ وَعِمَّةً

أي وكن لابسا ببيض الثياب والعمامة، قال النووي في (المجموع): قال الشافعي والأصحاب: أفضل الثياب البيض، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: البسوا من ثيابكم البياض فإنّها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح.

والتعمم لجميع الصلوات سنة لحديث ركعتان بعمامة خير من سبعين ركعة بلا عمامة، قال في (الجامع الصغير): رواه الديلمي في مسند الفروس عن جابر وهو ضعيف، ولخبر: إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمام يوم الجمعة.

وعن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: البسوا البياض فإنّها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم، رواه النسائي والحاكم في المستدرک، وقال: حديث صحيح اهـ—(٢).

وقال السيوطي في (الجامع الصغير): روى حديث سمرة أحمد في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث صحيح .

وفي (فتح المعين بشرح قرة العين): قال الشيخان: من تعمم فله فعل العذبة وتركها ولا كراهة في واحد منهما، زاد النووي لأنه لم يصح في النهي عن ترك العذبة شيء.

لكن قد ورد في العذبة أحاديث صحيحة وحسنة، وقد صرحوا بأن أصلها سنة، قال شيخنا يعني ابن حجر: وإرسالها بين الكتفين أفضل منه على الأيمن، ولا أصل في اختيار إرسالها على الأيسر انتهى ما نقلته من فتح المعين .

<sup>١</sup> الرسالة القشيرية وشرحها أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لزكريا الأنصاري.

<sup>٢</sup> المجموع، في باب ما يكره لبسه وما لا يكره .



## وَلَا زِمَ بِأَقْلَامٍ سِوَاكَ وَسُبْحَةَ

يعني لازم أيها الطالب كتابة العلم وتقييده بقلمك (١) وبالسواك والسبحة أيضا، فأما القلم فهو نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، وقد ذكره الله في أول سورة نزلت من القرآن، قال تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم}.

وقال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: {الذي علّم بالقلم} قال: القلم نعمة من الله عظيمة، لو لا القلم لم يقيم دين ولم يصلح عيش، وفي قوله تعالى: {علم الإنسان ما لم يعلم} قال: الخطّ.

وقال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {علم بالقلم}: في المراد منه قولان أحدهما الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة، وجعل القلم كناية عنها، والثاني: أن المراد علّم الإنسان الكتابة بالقلم، والمراد التنبيه على فضيلة الكتابة، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال: ريح لا يبقى، قال: فما قيده؟، قال: الكتابة. فالقلم صياد يصيد العلوم يُكي ويضحك وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والأيام، والقلم لا ينطق ثم يُسمع الشرق والغرب، فسبحانه من قادر بسواد الكتابة جعل الدين منورا، والقلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم، وقوله تعالى: {علم الإنسان ما لم يعلم} يحتمل أن يكون المراد علّمه بالقلم وعلّمه أيضا غير ذلك.

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: {ن والقلم وما يسطرون}: القلم الذي أقسم الله به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: {وربك الأكرم الذي علّم بالقلم}، فمنّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منّ بالنطق، فقال: {خلق الإنسان علمه البيان} وهو يُنزل الغائب منزلة المخاطب، فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب اهـ.

١ المراد بالأقلام الكتابة أي لازم أيها الطالب كتابة العلم، ففيه كناية حيث أطلق القلم وأريد لازمه وهو الكتابة كما هو شأن الكناية عند البيانيين.

وفي (الفتاوي الحديثية): روى ابن النجار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من حق الولد على والده أن يعلمه الكتاب أي الكتابة، وأن يحسن اسمه، وأن يزوجه إذا بلغ اهـ (١).

وفي (فتح المغيث) للسخاوي قيل لبعضهم: إلى متى تكتب الحديث أفلا تعمل ؟ فقال: والكتابة من العمل (٢).

وفي (طبقات الشافعية) لابن السبكي و(تاريخ بغداد) أن الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أباجعفر الطبري مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة (٣). وفي (تحفة المحتاج): كتابة العلم مستحبة، وقيل: واجبة، وهو وجيه في الأزمنة المتأخرة، وإلا لضاع العلم، وإذا وجبت كتابة الوثائق لحفظ الحقوق فالعلم أولى اهـ بلفظه. وقد أجاد القائل:

من لم يخطّ ولم يقرأ رسالته      قرب له إبلا يرعاها أو غنما ( ٤ )  
وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ما سمعت شيئاً إلا كتبت، ولا كتبت إلا حفظته، وما حفظته إلا نفعتي، من أكثر من مُذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم (٥). وقال بعضهم:

لمحبرة      تجالسي      نهاري      أحب      إلى      من      أنس      الصديق  
وَرَزْمَةٌ كَاغَدٍ ( ٦ )      في البيت عندي      أحب إلى من عِدْلِ ( ٧ )      الدقيق ( ٨ )

<sup>١</sup> الفتاوي الحديثية ص ٧.

<sup>٢</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج ٢ ص ٣٢٤.

<sup>٣</sup> طبقات الشافعية لابن السبكي ج ٢ ص ١٣٦، و(تاريخ بغداد) ج ٢ ص ١٦٣.

<sup>٤</sup> البيت من البسيط وفيه كسر.

<sup>٥</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٧٩.

<sup>٦</sup> ورزمة كاغد أي قراطيس شد بعضها ببعض، وفي لسان العرب والقاموس المحيط الرزمة بالكسر من الثياب ما شد في ثوب واحد، وقال شَمِرٌ: الرزمة قدر ثلث الغرارة أو ربعها من تمر أو دقيق.

<sup>٧</sup> وفي لسان العرب: العدل نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير، قال الأزهري: العدل اسم حمل معدول بحمل أي مسوى .

<sup>٨</sup> جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج ٢ ص ٢٤٨.

وقال بعضهم:

والعالم المدعو حبرا إنما سماه باسم الخبر حمل الخبر  
وبضمّر الأقسام يبلغ أهلها ما ليس يبلغ بالجياذ الضمر (١)

وأما السواك فقد قال النووي في (المجموع): قال أهل اللغة: السواك بكسر السين، ويطلق السواك على الفعل وهو الاستياك، وعلى الآلة التي يستاك بها، ويقال في الآلة أيضا: مسواك بكسر الميم، يقال: ساك فاه يسوكه سوكا، والسواك مذكر، وغلط من قال: إنه مؤنث، وذكر صاحب المحكم أنه يؤنث ويذكر لغتان، والسواك في اصطلاح الفقهاء استعمال عود أونحوه في الأسنان لإذهاب التغير ونحوه والله أعلم.

وقال النووي أيضا في (المجموع): السواك سنة ليس بواجب في مذهبنا ومذهب العلماء كافة إلا ما حكى الشيخ أبو حامد وأكثر أصحابنا عن داود أنه أوجبه، وحكى الحاوي: أن داود أوجبه ولم يبطل الصلاة بتركه، قال: قال إسحاق بن راهويه: هو واجب فإن تركه عمدا بطلت صلاته، وهذا النقل عن إسحاق غير معروف ولا يصح عنه.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، وفي رواية للبخاري: مع كل صلاة، وفي (خلاصة الأحكام) للنووي: وفي رواية صحيحها ابن خزيمة والحاكم وذكرها البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا: "مع كل وضوء" (٢).

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك.

وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السواك مطهرة (٣) للفم، للفم، مرضاة للرب، قال النووي في المجموع: حديث عائشة صحيح، رواه أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة في صحيحه والنسائي والبيهقي في سننهما وآخرون بأسانيد صحيحة، وذكره البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا، وهذا التعليق

<sup>١</sup> آخر كتاب جامع بيان العلم .

<sup>٢</sup> خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الأحكام، ج ١ ص ٨٣.

<sup>٣</sup> والمطهرة بفتح الميم وكسرهما لغتان وهي كل إناء يتطهر به شبه السواك بها لأنه ينظف الفم.

صحيح لأنه بصغية الجزم، وتعليقات البخاري إذا كانت بصغية الجزم فهي صحيحة اهـ.

وروت عائشة أيضا رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: صلاة بسواك خير من سبعين صلاة بغير سواك، قال النووي في المجموع: هذا الحديث، رواه البيهقي من طرق، وضعفها كلها، وكذا ضعفه غيره، وذكره الحاكم في المستدرک وقال: هو صحيح على شرط مسلم وأنكروا ذلك على الحاكم وهو معروف عندهم بالتساهل في التصحيح، والبيهقي أتقن في هذا الفن من شيخه الحاكم، وقد ضعفه والله أعلم.

ومعنى هذا الحديث: أن ثوابها أكثر من ثواب سبعين صلاة بغير سواك.

وروى العباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: استاكوا لا تدخلوا على قلح<sup>(١)</sup>، قال النووي: حديث العباس ضعيف، رواه أبوبكر بن أبي خيثمة في تاريخه ثم البيهقي عن العباس، وإسنادهما ليس بقوي، قال البيهقي: هو حديث مختلف في إسناده، وضعفه أيضا غيره، ويغني عنه في الدلالة حديث: السواك مطهرة للفم.

وعن حذيفة رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من النوم يشوص فاه، متفق عليه. ولمسلم يشوص فاه بالسواك .

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرت عليكم في السواك، رواه البخاري. وروى مسلم عن شريح بن هانئ: قلت لعائشة: لأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته قالت: بالسواك.

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وطرف السواك على لسانه، متفق عليه، وفي رواية البخاري: فوجدته يستن بسواك بيده يقول: أع أع، والسواك في فيه كأنه يتهوّج.

---

<sup>١</sup> قال النووي: بضم القاف وإسكان اللام والحاء المهملة جمع أفلح وهو الذي على أسنانه قلح بفتح القاف واللام وهو صفرة ووسخ يركبان الأسنان اهـ وظاهر هذا الحديث أن تشريع السواك معقول المعنى وأنه ليس تعبديا، لكن قال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد الجويني في نهاية المطلب في باب السواك ما حاصله: الغرض من استعمال السواك إزالة قلح الأسنان، وفيه فيما أظن تثوب-أي طلب الثواب-خفي من التعبد، فإن من أزال قلح أسنانه بغير السواك فما أراه مقيما سنة الاستياك، ولو كان الرجل نقي الأسنان قويم الطبيعة لا يغشاها قلح فسنة الاستياك لا تسقط عنه، وهذا يقرب التعبد فيه قليلا اهـ. فنبت بهذا أنه معقول المعنى، وفيه شوب تعبد .

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل: كنا نُعِدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواكه وطهوره، فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ ويصلي.

وعن عائشة قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: أعطني هذا السواك، فأعطانيه فقصمته ثم مصصته فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستن به وهو مستند إلى صدري، رواه البخاري. قصمته بالمهملة وروي بالمعجمة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أراي في المنام أتسوك بسواك، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقبل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر منهما، متفق عليه، رواه مسلم مسندا والبخاري تعليقا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يستاك فيعطيني السواك لأغسله، فأبدأ به فأستاك ثم أغسله فأدفعه إليه، رواه أبو داود بإسناد جيد.

وعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشر من الفطرة، قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء. قال مصعب بن شيبة: ونسيت العاشر إلا أن تكون المضمضة، وقال وكيع: انتقاص الماء: الاستنجاء، رواه مسلم.

وقال النووي في المجموع: أما الأحوال التي يتأكد استحباب السواك فيها فخمسة: أحدها عند القيام إلى الصلاة، سواء صلاة الفرض والنفل، وسواء صلى بطهارة ماء أو تيمم أو بغير طهارة، كمن لم يجد ماء ولا ترابا وصلى على حسب حاله، صرح به الشيخ أبو حامد والمتولي وغيرهما، والثاني: عند اصفرار الأسنان، ودليله حديث السواك مطهرة، وأما الاحتجاج بحديث العباس فلا يصح لأنه ضعيف كما سبق، والثالث: عند الوضوء اتفق عليه أصحابنا، ومن صرح به صاحبا الحاوي والشامل، ودليل استحبابه عند الوضوء حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع الوضوء، وهو حديث صحيح، رواه ابن خزيمة والحاكم

في صحيحيهما وصحاحه، وأسانيده جيدة، وذكره البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا بصيغة الجزم.

الرابع: عند قراءة القرآن، ذكره الماوردي والرويانى وصاحب البيان والرافعي وغيرهم. والخامس: عند تغير الفم، وتغيره قد يكون بالنوم، وقد يكون بأكل ما له رائحة كريهة، وقد يكون بترك الأكل والشرب، وبطول السكوت، قال صاحب الحاوي: ويكون بكثرة الكلام، والله أعلم.

وهذه الأحوال الخمسة هي التي ذكرها أصحابنا، وفي صحيح مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك والله أعلم. وإذا أراد أن يصلي ذات تسليمات كالتراييح والضحي وأربع ركعات سنة الظهر أو العصر والتهجد ونحو ذلك استحب أن يستاك لكل ركعتين، لقوله صلى الله عليه وسلم لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة أو مع كل صلاة، وهو حديث صحيح كما سبق. وقال النووي فيه: لا يكره السواك في حال من الأحوال لأحد إلا للصائم بعد الزوال؛ فإنه يكره. وقيل: لا يكره.

وقال النووي في (خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الأحكام): من الأحاديث الضعيفة في هذا الباب: حديث إذا شربتم فاشربوا مصا، وإذا استكتم فاستاكوا عرضا، وفي رواية أنه كان يستاك عرضا ويشرب مصا، ويقول: هو أهنا وأمرأ وأبرأ. وعن أنس مرفوعا: يجزي من السواك الأصابع (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لأن أصلي ركعتين بسواك أحب إلي من أن أصلي سبعين ركعة بغير سواك، رواه أبو نعيم في كتاب السواك بإسناد جيد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك، رواه أبو نعيم أيضا بإسناد حسن (٢).

<sup>١</sup> خلاصة الأحكام، ج ١، ص ٨٨.

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب، ج ١، ص ١١٢.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ركعتان بسواك خير من سبعين ركعة بغير سواك. قال السيوطي في (الجامع الصغير): رواه الدارقطني عن أم الدرداء وهو حسن، ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة بلفظ: ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك، وهو حديث حسن.

وفي (إعانة الطالبين): للسواك فوائد كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وسبعين، منها: أنه يطهر الفم ويرضي الرب ويبيض الأسنان ويطيب النكهة ويسوي الظهر ويشد اللثة ويطيئ الشيب ويصفي الخلقة ويزكي الفطنة ويضاعف الأجر ويسهل النزع ويذكر الشهادة عند الموت، وإدامته تورث السعة والغنى وتيسير الرزق، وتطيب الفم وتسكن الصداع وتذهب جميع ما في الرأس من الأذى والبلغم، وتقوي الأسنان، وتجلي البصر، وتزيد في الحسنات، وتفرح الملائكة، وتصافحه لنور وجهه، وتشيعه إذا خرج للصلاة، ويعطى الكتاب باليمين، وتذهب الجذام، وتنمي المال والأولاد، وتؤانس الإنسان في قبره، ويأتيه ملك الموت عليه السلام عند قبض روحه في صورة حسنة اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (تحفة المحتاج بشرح المنهاج): القياس أنه لو ترك السواك أول الصلاة سن له تداركه أثناءها بفعل قليل كما يسن له دفع المار بين يديه بشرطه (١).

**لطيفة:** روي أن سيدنا علياً رضي الله عنه رأى السيدة فاطمة تستاك فقال:

حظيت يا عود الأراك بثغرها      ما خفت يا عود الأراك أراك  
لو كنت من أهل القتال قتلتك      ما فاز مني يا سواك سواك

#### خاتمة

لقد ذكرنا أن الركعتين بالسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك، وكذلك العمامة، فهذان مائة وأربعون فضلية في ركعتين يصليهما العبد في دقائق قليلة، وهذا الفضل في الفروض والنوافل، فكم في اليوم واللييلة من الركعات؟! وكم في الصلوات الخمس المكتوبة وحدها، وكم في رواتبها المؤكدة وغير المؤكدة، وكم في الضحى والوتر والنوافل المطلقة وغيرها؟! ولا يدري مقدار كل فضيلة منها إلا الذي تفضل بها جل جلاله، فانظر إلى سعة رحمته تعالى وجزيل عطائه، وعظيم لطفه وإحسانه، في هذا العمل اليسير. فالذي

<sup>١</sup> وفي نهاية المحتاج أن هذا إذا تركه نسياناً، وخالفهما الشرييني في المغني فقال: الظاهر هنا عدم الاستحباب.

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بهما ويجتهد فيهما ولا يرغب عن هذه العطايا الإلهية، والمواهب الربانية، ومن كان من التجار عنده بضاعة يربح منها في مقدار صلاة ركعتين مائة وأربعين دينارا سرّاً بذلك ويراها تقدُّماً كبيراً في تجارتها، فترتفع همته ويجتهد في السعي إلى الزيادة، ولا يضيع هذه الفرصة الغالية، ولا يشك عاقل أن فضيلتي العمامة والسواك في ركعتين أعظم وأكثر نفعاً من دنائره، فمن تركهما كسلاً واستخفافاً فقد شهد على نفسه بالرعونة، وأنه لا يبالي بما يفوته من هذا الربح العظيم (١).

وأما السبحة فهي كما في القاموس وشرحه: خرزات للتسبيح، وإنما حدثت في الصدر الأول إعانة على الذكر وتذكيراً وتنشيطاً اهـ.

وفي (تهذيب الأسماء واللغات) للإمام النووي: السبحة بضم السين وإسكان الباء خرز منظومة يسبح بها يعتادها أهل الخير اهـ.

تنبيه: كثر الكلام في السبحة هل لها أصل في السنة أم لا؟ وهل الأفضل عدّ الأذكار بها أو بالأصابع؟ فمنعها البعض محتجين بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يأخذها ولم يستعمل بها لحساب الأذكار وعدّها، فهي بدعة منهى عنها، والحق الذي لا محيد عنه أنّها جائزة بل هي مطلوبة مستحسنة لدى المحبين للأذكار الكثيرين لها في الليل والنهار، وقد تكلم عليها كثير من الأئمة الأخيار، منهم الإمام النووي فقال في كتاب (تهذيب الأسماء واللغات) يعتادها أهل الخير .

وقال القاري في (المرقاة شرح المشكاة) في الكلام عن حديث صفية الآتي: إن هذا الحديث أصل صحيح لتجويز السبحة بتقريره صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا فرق بين المنظومة والمنثورة، ولا يعتد بقول من عدّها بدعة، وقد قال المشايخ: إنّها سوط الشيطان، وقال أيضاً في شرح حديث يسيرة رضي الله عنها الآتي: إن في هذا الحديث جواز عدّ الأذكار ومأخذ سبحة الأبرار، وقال في موضع آخر من المرقاة: جاء بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه مرفوعاً نعم الذكر المسبحة اهـ. هكذا رأيته في نسخة المرقاة ويأتي عن المنحة للسيوطي وعن (تحفة أهل الفتوحات) ما يخالفه لفظاً والله أعلم بالصواب، ومعناه حينئذ

<sup>١</sup> وإنما أطلت الكلام في فضائل العمامة والسواك بعض الإطالة ترغيباً لطلبة العلم فيهما، فقد رأيت في هذا العصر كثيراً منهم لا يهتم بهما ويتساهل فيهما .



نعم المذكر لذكر الله، والمسبحة بكسر الميم وفتح الحاء اسم لآلة التسبيح وهي المخصوص بالمدح والله أعلم .

وَألف الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله جزء لطيفا في السبحة سماه (المنحة في السبحة) فقال في أوله: فقد طال السؤال عن السبحة هل لها أصل في السنة ؟ فجمعت هذا الجزء متتبعا فيه ما رود فيها من الأحاديث والآثار .

١. أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عمر قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح بيده.

٢. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم عن يسيرة رضي الله عنها وكانت من المهاجرات قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد، واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات ومستنطقات.

٣. وأخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن صفية قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديّ أربعة آلاف نواة أصبح بهن إلى آخر الحديث.

٤. وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح إلى آخر الحديث، وأخرج الديلمي في مسند الفردوس بسنده عن علي رضي الله عنه مرفوعا "نعم المذكر السبحة" .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة أن سعد بن أبي وقاص كان يسبح بالحصى، وأخرج عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) أنه كان لأبي هريرة رضي الله عنه خيط فيها ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وقال عكرمة: إن أبا هريرة كان له خيط فيه ألفا عقدة، فكان لا ينام حتى يسبح به ثنتي عشرة ألف تسبيحة .

وأخرج أحمد في (الزهد) أنه كان لأبي الدرداء رضي الله عنه نوى من نوى العجوة في كيس، فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفدن .

وأخرج الإمام أحمد فيه أيضا أن أبا صفية -رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- كان يسبح بالحصى.

وفي (معجم الصحابة) للبغوي و(تاريخ ابن عساكر) أن أبا صفية مولى النبي صلى الله عليه وسلم كان يوضع له نطع ويحاء بزنبيل فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ثم يرفع، فإذا صلى الأولى أتى به فيسبح به حتى يمسي.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يسبح بالحصى. وذكر الحافظ عبد الغني في (الكامل) أن أبا الدرداء عومرا رضي الله عنه كان يسبح في اليوم مائة ألف تسبيحة.

وكان خالد بن معدان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ، ومن المعلوم المحقق أن المائة ألفا بل والأربعين ألفا لا يحصر بالأنامل، ولهذا كانا يعدان بآلة.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه أنه كان في يد أبي مسلم الخولاني سبحة يسبح بها، فقام والسبحة في يده، فاستدارت السبحة فالتفت على ذراعه وجعلت تسبح، فالتفت أبو مسلم والسبحة تدور في ذارعه وهي تقول سبحانك يا منبت النبات ويا دائم الثبات، فقال: هلم يا أم مسلم وانظري إلى أعجب الأعاجيب، فجاءت أم مسلم والسبحة تدور وتسبح، فلما جلست سكنت. وكان للشيخ أبي الوفاء كاكيش ومعناه بالعربية عبد الرحمن سبحة، وأعطاهما لسيدي الشيخ محي الدين عبد القادر الكيلاني قدس الله أرواحهم، فكانت إذا وضعها على الأرض تدور وحدها حبة حبة.

وذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) أنه روي في يد أبي القاسم الجنيد بن محمد سبحة، فقيل: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ قال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه، قال -يعني ابن خلكان-: وقد رويت في ذلك حديثا مسلسلا إلى الحسن البصري، فذكره بسنده مسلسلا بالسبحة يقول كل واحد من رجال سنده: إني رأيت في يد شيخي سبحة، فقال آخرهم: رأيت أستاذي الحسن البصري وفي يده سبحة، فقلت: يا أستاذ مع عظم شأنك وحسن عبادتك وأنت إلى الآن مع السبحة؟ فقال لي: شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات، أحب أن أذكر الله في قلبي وفي يدي ولساني. ثم قال أي السيوطي: فلو لم يكن في اتخاذ السبحة غير موافقة هؤلاء السادة، والدخول في سلكهم، والتماس بركتهم، لصارت بهذا الاعتبار من أهم الأمور وأكدها، فكيف بها وهي مذكرة بالله تعالى؛ لأن الإنسان قل أن يراها إلا ويذكر الله، وهذا من أعظم

فوائدها، وهي استعانة أيضا على دوام الذكر، كلما رآها ذكر أنّها آلة للذكر فقاده ذلك إلى الذكر، فياحبذا سبب موصل إلى دوام ذكر الله عز وجل، وكان بعضهم يسميها حبل الوصل، وبعضهم رابطة القلوب، ولم ينقل عن أحد من السلف ولا من الخلف المنع من جواز عد الذكر بالسبحة، بل كان أكثرهم يعدونه بها ولا يرون ذلك مكروها، ورؤي بعضهم يعد تسبيحا، فقليل: له أتعد على الله؟ قال: لا، ولكن أعد له.

وقال بعض العلماء: عقد التسبيح بالأنامل أفضل لحديث ابن عمر، ولكن يقال: إن المسبح إن أمن من الغلط كان عقده بالأنامل أفضل وإلا فالسبحة أولى انتهى. ما لخصته من تأليف الحافظ السيوطي.

قوله: يسيرة بضم الياء المثناة وفتح السين المهملة، وقوله: نطع أي الجلد المدبوغ، ففي المصباح النطع المتخذ من الأديم، وفيه أربع لغات فتح النون وكسرها وفتح الطاء وسكونها.

وقال ابن علان: قال ابن حجر الهيتمي في شرح المشكاة: ويستفاد من الأمر بالعقد المذكور في الحديث ندب اتخاذ السبحة، وزعم أنها بدعة غير صحيح إلا أن يحمل على تلك الكيفيات التي اخترعها بعض السفهاء من اتخاذها للزينة أو الرياء أو اللعب اهـ.

وذكر ابن علان أنه ألف جزء لطيفا في السبحة سماه (إيقاد المصاييح لمشروعية اتخاذ المساييح) وذكر فيه أن استعمال السبحة في عد الأذكار الكثيرة أفضل من العقد بالأنامل، وفي غير الكثيرة سيما الأذكار عقب الصلاة فالعقد بالأنامل فيها أفضل اهـ.

وفي المرقاة قال ابن حجر الهيتمي: قيل: وعقد التسبيح بالأنامل أفضل من المسبحة، وقيل: إن أمن الغلط فالعقد أولى وإلا فهي أولى اهـ.

ومما ألف في السبحة أيضا كتاب (تحفة أهل الفتوحات والأذواق في اتخاذ السبحة وجعلها في الأعناق) وقد أكثر مؤلفها النقول فيها، ومما قال فيها: إن السبحة لا لوم في اتخاذها ولا في جعلها في الأعناق، ثم شدد الإنكار على من جعلها بدعة وأطال في الاستدلال على رده بما يطول ذكره كحديث علي المرفوع: نعم المذكر السبحة، ثم قال: إن السبحة آلة الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس، فينبغي احترامها وتعظيمها بجعلها في العنق إذا فرغ من استعمالها.

وفي (المنن) للشعراني أنه قال: لقد وقعت رجلي مرة على السبحة فكدت أهلك من ذلك إكراما لها، ونقل عن الإمام الساحلي أنه قال: لا بد لأهل الأوراد الكثيرة والأذكار المتواصلة من السبحة، إذ لا يمكنهم العدّ بالأصابع، ثم قال: وهذه حكمة السبحة، وذكر كثيرا من العلماء كانت لهم السبحة، منهم الإمام سحنون، فقد قال بعضهم: دخلت على سحنون وفي عنقه سبحة يسبح بها، وذكر الشعراني في طبقاته الصغرى: أن الشيخ أحمد الكعكي كانت له سبحة فيها ألف حبة فسرق إنسان منها سبع حبات، فرأى الشيخ النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا أحمد، فلان سرق من سبحتك سبع حبات ولك كذا كذا يوما تصلي عليّ ناقصا عن العدد، فذهب إلى ذلك السارق، فقال صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجها له، وكان للشيخ الأكبر سيدي عبد السلام بن مشيش سبحة عظيمة، ومعلوم أن التقليد في الفروع مأمور به شرعا بقوله تعالى: {فاسئلوا أهل الذكر} الآية، وكل من قلده عالما لقي الله سالما، انتهى ما لخصته من (تحفة أهل الفتوحات).

وفي (طبقات الشافعية الكبرى) للمحقق تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي: أن الشيخ الإمام إبراهيم بن علي أبا إسحاق الشيرازي بلغ في بعض أسفاره إلى بلدة "شأوه" من بلاد العجم فخرج إليه صوفيات البلد ومع كل منهن سبحة، فألقت كل منهن سبحتها إلى الحفة، وقصدهن أن يلمسها لتحصل لهن البركة، فجعل يمرها على يديه وجسده ويتبرك بهن، ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه اهـ.

الحفة كما في اللسان رحل يحف بثوب ثم تتركب فيه المرأة، وقيل: الحفة مركب النساء كالهودج إلا أن الهودج يقبب والحفة لا تقبب أي لا تجعل لها قبة اهـ.

وكان لسيدي الشيخ علي ميه سبحة فيها ألف حبة، وقد رأيتها والحمد لله في بيت سيدي الشيخ أبي علي بن الشيخ محمد بن الشيخ علي ميه، وقد أخبرني من أثق به أنه كان عند الشيخ حسين بن الشيخ عبد من خلفاء سيدي الشيخ علي ميه، فنام الشيخ فلمع كل حبة من حبات سبحته نورا واستدارت السبحة من أولها إلى آخرها وهي تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله، وكان هناك جماعة فرأى كل منهم ذلك وعجبوا، ولما تم دورانها استيقظ الشيخ وعادت السبحة إلى حالتها الأولى.

فالحاصل أن اتخاذ السبحة مطلوب محبوب، وللوسائل حكم المقاصد، ولا يشك عاقل منصف أن المقصود منها التوسل إلى إكثار ذكر الله تعالى وترغيب النفوس فيه، وتَهْيِيجُ الهمم إلى دوام الأوراد ودفع الكسل والملل عنها، إذ لا يخفى على عاقل أن حساب الأوراد الكثيرة بالأنامل يورث الفتور ويضعف القلوب، ويخرس الفطنة ويشغلها عن التدبر المطلوب فيها، ولا شك أن تكليف الناس على جمع الأحجار لحساب الأذكار يكون سببا للإهمال والإعراض عن الأوراد، فعيادا بالله أن نكون من المعوقين المثبطين عباد الله عن عبادته، فتحذير الناس عن السبحة بادعاء أنها بدعة تعسف وتنطع وغلو في الدين، وفي ديننا من السماحة والسهولة ما لا يخفى على ذي بصيرة، فقد وضع الله عنا الأغلال التي كانت على من قبلنا فله الحمد والمنة .

واعلم أن العمل بالحديث الضعيف في الفضائل جائز باتفاق العلماء بشروط معلومة، فحديث على رضي الله عنه المذكور يكفينا دليلا وحجة لاتخاذ السبحة، ومعلوم أن الأمة استحسنتها من عهد التابعين إلى عصرنا هذا، ولم ينقل عمن يعتد بخلافه منعها والله در من قال:

وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر

وكل ما استحسنته المسلمون فهو عند الله حسن إذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة كما قال من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، فالحسن البصري كان له سبحة وكان من أكابر التابعين، وكذا خالد بن معدان الكلاعي تابعي جليل توفي سنة خمس وأربعين ومائة، وكان معروف الكرخي سبحة، وكذا سري بن مغلस السَّقَطِي وغيرهم من خلائق لا يحصون، بل لا فرق بينها وبين الحَصَى والنوى التي كانت صفية رضي الله عنها تسبح بها، وأقرها على ذلك النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكذلك لا فرق بينها وبين العقد التي في خيط أبي هريرة رضي الله عنه، ولم ينقل أن أحدا من الصحابة رضي الله عنهم أنكر عليه ورمى عليه بالتبدع باتخاذ هذه العقد، ومعلوم أنهم رضوان الله عليهم لا يسكتون على منكر ولا يخافون في الله لومة لائم، فما أشبه هذا بالإجماع السكوتي .

فإذا علمت ذلك علمت أن هؤلاء المانعين في هذه الأيام عن اتخاذ السبحة معاندون مغرورون، وعن الصواب مبعدون، وهم قطاع الطريق عن السائرين إلى الله،

المكثرين بالأذكار آناء الليل وأطراف النهار، {يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون} والله سبحانه وتعالى الموفق، وهو الهادي إلى طريق الرشاد والصواب .

وَكُنْ هَيِّنًا وَلَئِنَّا مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا زَكِيًّا عَنْ عُيُوبٍ وَخِسَّةٍ

أي كن أيها الطالب هينا لينا متواضعا حلوما، وهذه الصفات متقاربة، ويتأكد على الطالب أن يتخلق ويهتم بها، روى الخطيب البغدادي عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطا وكلمتك طيبة تكن أحب إلى الناس من الذي يعطيهم العطاء، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: من لانت كلمته وجبت محبته (١). وفي (الترغيب والترهيب) عن عياض بن حماد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد، رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، رواه مسلم والترمذي.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا أعلمه إلا رفعه قال: يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا -وجعل يزيد (٢) باطن كفه إلى الأرض وأدناها- رَفَعْتُهُ هكذا -وجعل باطن كفه إلى السماء، ورفعها نحو السماء، رواه أحمد والبخاري ورواهاما محتج بهما في الصحيح .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَةٌ (٣) بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته، رواه الطبراني والبخاري بنحوه من حديث أبي هريرة، وإسنادهما حسن.

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١١٣.

<sup>٢</sup> هو أحد رواة الحديث.

<sup>٣</sup> الحَكَمَةُ بفتح الحاء المهملة والكاف: هي ما تُجعل في رأس الدابة كاللجام ونحوه.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله، رواه الطبراني في الأوسط (١). وفي (جامع بيان العلم): قالوا: المتواضع من طلاب العلم أكثر علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء (٢).

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها.

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: العلم ذو فضائل كثيرة، فأرأسه التواضع، وسلاحه لين الكلمة، وفرسه المداراة، ومالكة الأدب (٣).

وفي (تنائج الأفكار شرح الرسالة القشيرية): حكى أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البراري فاستقبله جندي، فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه وأوضحه، فلما جاوزه قيل له: إنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فجاء يعتذر إليه فقال: إنك لما ضربت رأسي سألت الله تعالى لك الجنة، فقال: لم؟ فقال: علمت أني أوجر عليه، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشر.

وشتم رجل الأحنف بن قيس وكان يتبعه ويسبه ولا يكافئه عليه، فلما قرب من الحي أي قومه وقف وقال له: يافتي إن بقي في قلبك شيء تقوله في فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك، وفي نسخة فيؤذوك.

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب في باب الترغيب في التواضع والترهيب من الكبر والعجب والاحتقار ج ٣ ص ٣٣٧-٣٣٩.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٧٢.

<sup>٣</sup> وهذا بعض أثر طويل، وكماله عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: إن العلم ذو فضائل كثيرة، فأرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور الواجبة، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وفرسه المداراة، وجيشه مجاورة العلماء، ومالكة الأدب وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار، فيكون قد أخذ فقهه من أفواه العلماء لا من الصحف. الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٩٧.

وكان لبعض النساك أي العُباد شاةً فرآها على ثلاث قوائم والرابعة قطعت، فقال: من فعل هذا بها؟ فقال غلام له: أنا، فقال: لم؟ فقال: لأغمك بها، فقال: لا بل أنا لأغمن من أمرك بذلك وهو الشيطان، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى (١).

وقال ابن عبد البر: قال عطاء بن يسار: ما أُووي شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. وقال بقية عن إبراهيم بن أدهم ومحمد بن عجلان: ما من شيء أشد على الشيطان من عالم حلیم إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم (٢).

ويروى في كتب الأدب أن معن بن زائدة كان أميراً على العراق وكان حلیماً كريماً يضرب به المثل فيهما، فقدم عليه أعرابي يمتحن حلمه فقال له:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة      وإذ نعلاك من جلد البعير  
قال: نعم، أذكر ذلك ولا أنساه، فقال:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً      وعلمك الجلوس على السرير  
قال: سبحانه وتعالى، قال:

فلمست مسلماً إن عشتُ دهرًا      على معن بتسليم الأمير  
قال: يا أخا العرب السلام سنة، قال:

سأرحل عن بلاد أنت فيها      ولو جار الزمان على الفقير  
قال: يا أخا العرب إن جاورتنا فمرحبا بك، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة.  
قال:

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء      فأني قد عزمت على المسير  
قال: أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره، فأخذها وقال:

قليل ما أتيت به وإني      لأطمع منك بالمال الكثير  
قال: اعطوه ألفاً آخر، وقال:

سألت الله أن ييقك ذخراً      فما لك في البرية من نظير

<sup>١</sup> الرسالة القشيرية للإمام القشيري في باب الخلق.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم وفضله باب جامع في آداب العالم والمتعلم، ج ١ ص ١٥٢.



فقال: اعطوه ألفا آخر، فقال الأعرابي: أيها الأمير ما جئت إلا مختبرا حلمك، لما بلغني عنه، فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم، فقال معن: يا غلام كم أعطيته على نظمه؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، فقال: اعطه على نثره مثلها، فأخذها ومضى في طريقه شاكرا.

وقيل للأحنف بن قيس وهو ممن يضرب بهم المثل في الحلم: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتت جارية بسفود عليه شواء، فسقط السفود (١) من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية فقال: لا يُسَكِّن روعها إلا العتق، فقال: أنت حرة لا بأس عليك (٢).

وقوله: (زكيا عن عيوب وخسة) أي يكون الطالب زكيا نقيًا عن كل ما يعاب به الإنسان من قول أو فعل أو حركة أو حضور المجالس التي لا تليق بأمثاله ونحو ذلك. ويجتنب أيضا عن الخسة والدناءة والذل والمهانة، ومن كل ما يؤدي إلى الإزدراء والاحتقار، فقد ورد في الحديث: إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها (٣).

وكثير من الناس إنما يأخذون الدين من أحوال العلماء وأعمالهم، ويعتقدون أن الدين هو ما يرونه فيهم فيعتقدون بهم ويتشبثون بأوصافهم، فينبغي حينئذ أن تكون أعمالهم موزونة بميزان الشريعة المطهرة، مقيدة بالكتاب والسنة النبوية، فيكونون سببا في هداية من عاشرهم وخالطهم، بل ومن رآهم أو علم أوصافهم وأحوالهم.

#### تتمة

قد يلتبس على طالب العلم التواضع والحلم بغيرهما فيظن أنه من التواضع والحلم مع أنه ليس منهما، فينبغي له أن يعلم أنه ليس من التواضع الملاينة والملاطفة للفسقة والمبتدعة وأعداء الدين، بل يعامل كلا منهم ما تقتضي به الشريعة من قمعهم وإنكار منكرهم وإغلاظ القول فيهم، وإدحاض أباطيلهم، ورد كيدهم في نحورهم، وتبيين أخطائهم،

<sup>١</sup> السَّفُود: الحديدة التي يشوى بها اللحم . مختار الصحاح.

<sup>٢</sup> تعليق مصطفى محمد عماره على كتاب الترغيب والترهيب في باب الترهب من الغضب والترغيب في دفعه وكظمه .

<sup>٣</sup> قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه الطبراني عن الحسين بن علي، ورمز له بالحسن .

وغلطاتهم للناس، فلتتواضع مواطن، وللحلم مواضع، ولكل مقام له مقال، والحكيم من وضع كل شيء في موضعه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار، وهو حديث غريب (١).

ولله در القائل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
فالبغض على من عصى الله وزجره والإنكار عليه مطلوب محبوب، بل هو مأمور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يغضب عند ارتكاب المنهيات، وفعل المحرمات، وكان حاشد لا يقوم أحد لغضبه، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: هل الدين إلا البغض في الله والحب في الله (٢). ولما عبد قوم موسى صلى الله عليه وسلم على نبينا وعليه وسلم العجل من بعده غضب عليهم، وألقى ألواح التوراة غضبا لله تعالى، ولقد أحسن من قال:

إذا قيل حلم قل فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل  
وقال آخر:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بواد تحمي صفوه أن يكدر  
وقال آخر:

فلو كنت محتاجا إلى الحلم إني إلى الجهل في بعض الأحيان أخرج  
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبنا ولكنني أرضى به حين أخرج  
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج  
فمن شاء تقويمي فإني مقوم ومن شاء تعويجي فإني معوج  
وقال ابن الوردي في لاميته:

لا يغرنك لين من فتى إن للحيات لنا يعتزل  
أنا مثل الماء سهل سائغ ومتى سخن آذى وقتل

اهـ.

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٧٢.

<sup>٢</sup> ذكرنا في مبحث العجب أن هذا الحديث رواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية. ورواه أيضا السيوطي في الجامع الصغير.

وقال آخر:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان وفي الشر نجاة يوم لا ينجيك إحسان  
وَكُنْ بَادِلًا جُهْدًا كَبِيرًا بِحِفْظِ مَا تَرَاهُ مُهِمًّا مِنْ عُلُومٍ وَحِكْمَةٍ

المراد من هذا البيت أمر طالب العلم ببذل جهده في حفظ العلوم المهمة والحكم المفيدة، وذلك من أهم المهمات، وأشرف خصال الطالب، ومن أعظم أسباب النجاح، وبلوغ المآرب والمطالب، وقالوا: من حفظ المتون حاز الفنون، وقد كان السلف ومن بعدهم من أهل العلم يهتمون بالحفظ، ويبدلون فيه قصارى جهدهم، ونهاية وسعهم.

### ذكر عدد من العلماء المكثرين للحفظ

اعتنى كثير من المتقدمين والمتأخرين بالحفظ، وقد يسر الله لهم ذلك بما جعله فيهم من الذكاء الخارق، والعزم القوي، والهمة العلية، ففي (فتح المغيث) للسخاوي و(الأعلام) للزركلي أن ابن عباس رضي الله عنه كان آية في الحفظ، أنشده ابن أبي ربيعة قصيدته التي مطلعها: أمن آل نُعمٍ أنت غاد فمبكر، فحفظها في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتا، وكان إذا سمع النوادب سد أذنيه بأصابعه مخافة أن يحفظ أقوالهن(١).

وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بسنده عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا زيد هل تحسن السريانية؟ فقلت: لا، قال: فَتَعَلَّمَهَا فَإِنَّهُ يَأْتِينَا كِتَابٌ، قال: فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا (٢) اهـ .

وروى ابن سعد بسنده عن زيد بن ثابت أيضا قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يأتيني كتاب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد فهل تستطيع أن تَعَلَّمَ كتاب العبرانية أو قال: السريانية، فقلت: نعم، قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة .

وروى ابن سعد أيضا عن زيد بن ثابت أنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لي: تَعَلَّمَ كتاب اليهود فأني والله ما آمن اليهود على كتابي، قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر (٣) اهـ .

وذكر هذه القصة ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة زيد بن ثابت .

<sup>١</sup> الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٩٥ .

<sup>٢</sup> معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ج ٢ ص ٣٣٢ .

<sup>٣</sup> الطبقات الكبرى لابن سعد في ذكرى مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٣٥٨ .

وقال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي) قال أبوزرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث. وسيأتي في ترجمته إن شاء الله.

وأُسند ابن عدي عن ابن شبرمة عن الشعبي قال: ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته فحدث بهذا الحديث اسحق بن راهويه فقال: تعجب من هذا؟ قلت: نعم، قال: ما كنت لأسمع شيئاً إلا حفظته، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث أو قال: أكثر من سبعين ألف حديث في كتي.

وقال يزيد بن هارون: أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث بإسناده ولا فخر، وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث (١).

وقال محمد بن حمدويه: سمعت البخاري يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح.

وفي (سير أعلام النبلاء) قال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة. وقال محمد بن الأعرابي: شهدت الأصمعي وقد أنشد نحواً من مائتي بيت، ما فيها بيت عرفناه (٢).

وحفظ ابن الأنباري النحوي مائة وعشرين تفسيراً، وقال ابن السبكي: قال الروياني: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي. ثم قال ابن السبكي: ولا يعنى بكتبه منصوصاته فقط، بل منصوصاته وكتب أصحابه، هذا هو الذي يراد عند إطلاق كتب الشافعي (٣).

وقال الإمام النووي: حفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظت ربع المذهب في باقي السنة.

وأما من كان يحفظ مائة ألف حديث مع أسانيدها وأحوال رواتها من عدالتهم وضبطهم وتاريخ ولادتهم ووفاتهم وغير ذلك مما يتعلق بهم فخلائق لا تعد ولا تحصى.

<sup>١</sup> مقدمة تدريب الراوي ج ٢ ص ٤٩-٥٢.

<sup>٢</sup> هدي الساري مقدمة صحيح البخاري، ذكر جمل من الأخبار الشاهدة لسعة حفظه وسيلان ذهنه.

<sup>٣</sup> والرويانى هو: عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد أبو المحاسن الرويانى صاحب البحر، ولد في ذي الحجة سنة خمس عشرة وأربعمائة، وتوفي سنة اثنين وخمسمائة، قتلته الملاحدة حسداً اهـ طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٤ ص ٢٦٤-٢٦٥.

قال الإمام الشعراي: ومما أنعم الله تعالى به عليّ حفظ متون الكتب، فحفظت أولاً أباشحاع، ثم الأجرومية في بلاد الريف، ثم لما جئت مصر حفظت كتاب المنهاج للنووي، ثم ألفية ابن مالك، ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع، ثم ألفية العراقي، ثم تلخيص المفتاح، ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام، وغير ذلك من المختصرات، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ، ثم ارتفعت المهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة لكونه أجمع كتاب في مذهب الإمام الشافعي، فحفظت منه إلى أثناء باب القضاء على الغائب، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق خارج باب زويلة، فقال لي مكاشفا: قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء. فما قدرت بعد ذلك على حفظ لوح واحد منه، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة. ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول رضي الله عنه، فقال لي مكاشفا: أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد علمته، فشاورت في ذلك مشايخي، فقالوا: لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياء، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم، وكان أشياخي كلهم من الجامعين بين العلم والعمل، والحمد لله رب العالمين.

وقال أيضا: كان ذهني بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه<sup>(١)</sup>.

وكان الإمام ابن شهاب الزهري حفظ القرآن في ثمانين ليلة، وحفظ سعد الدين علي بن محمد بن علي القرآن العظيم وهو ابن خمس سنين في سنتين، والحافظ السيوطي ختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين. وروى ليث عن الزهري قال: ما استودعتُ قلبي علما فنسيته.

وقال الحافظ السخاوي في (الجواهر والدرر): روي أن أبا مُحَلَمٍّ كان يقول: لزمتم ابن عيينة فلم أفارق مجلسه، فقال لي: أراك حَسَنَ المَلازمة، ولا أراك تحظى من ذاك بشيء، لأنك لا تكتب، فقلت: أنا أحفظ، فقال: فكل ما حدثت به حفظته؟، قلت: نعم، فأخذ دفتر إنسان بين يديه، فقال لي: أعد عليّ ما حدثت به اليوم، فما أحرمت منه حرفا، فأخذ مجلسا من الماضي فأمررته عليه، فقال: حدثنا الزهري عن عكرمة قال: قال ابن

<sup>١</sup> المنن الكبرى للشعراي ص ٥٦-٦٠.

عباس رضي الله عنهما: يقال: إنه يولد في كل سبعين سنة من يحفظ كل شيء، قال ابن عيينة: أراك صاحب السبعين.

وعن ابن شهاب أنه كان يقول: إني لأمرّ بالبقيع، فأسد أذنيّ مخافة أن يدخل فيها شيء من الحنا، فوالله ما دخل أذنيّ شيء قط فنسيته، وعن الشعبي نحوه، وليس أحد اليوم على هذا، نعم بلغنا عن البلقيني أنه حفظ قصيدة من مرة واحدة، وهو نادر جدا، وحفظ الزين العراقي نصف (الحاوي الصغير) في اثني عشر يوما (١).

وقال الإمام أسعد الميهني: سمعت الغزالي يقول: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم فالتفت إلى مقدّمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلك، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقاتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها، وعرفت علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة، قلت: هذا مستنطق أنطقه الله تعالى ليرشدني به في أمري، فلما وافيت "طوس" أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت (٢) جميع ما علقتة وصرت بحيث لو قطع الطريق عليّ لم أتجرد من علمي (٣).

وفي (فتح الملهم بشرح صحيح مسلم): نقل عن هشام الكلبي قال: حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت ما لم ينسه أحد، حفظت القرآن في ثلاثة أيام، وأردت أن أقطع من لحيتي ما زاد على القبضة فقطعت من أعلاها (٤) اهـ.

<sup>١</sup> الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ج ١ ص ٨٤-٨٥.

<sup>٢</sup> قال الشيخ عبد الله عبد الحميد عرواني في تعليقه على كتاب (الأربعين في أصول الدين): يحاول التربويون الآن في عصرنا التقليل من شأن الحفظ، ويقولون: إنه من المهارات العقلية الدنيا تقليدا للغربيين، ناسين أن علماءنا الذين كانوا أساتذة وعابرة العالم بدؤوا أول أمرهم بحفظ القرآن الكريم وسائر العلوم ثم تفتت أذهانهم بعد ذلك بعجائب الفهوم والاستنباطات وأنواع العلوم.

<sup>٣</sup> إتحاف السادة المقتنين ج ١ ص ٧، وتعليق الشيخ عبد الله عبد الحميد عرواني على كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي.

<sup>٤</sup> فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم باب خصال الفطرة من كتاب الطهارة.

وأما في هذا الزمان فقد كَلَّت فيه الهمة والعزيمة، وَقَلَّ فيه الذكاء والفطنة، وضعفت فيه الأذهان، وكثر النسيان، فَقَلَّ بذلك الحفظ عن ظهر القلب، والله المستعان.

وكان صديقي وشيخي الشيخ محمد بن أحمد بن الشيخ محمود المشهور بالشيخ (أبا) الشاشي المقدشي أكثر مَنْ لقيته في الحفظ، فقد سمعت منه رحمه الله تعالى يقول: إني حفظت ثمانية عشر ألف حديث من الأحاديث النبوية (١)، وكثير من الطلبة في بلادنا يحفظون كتاب قطر الندى وشرحه كلاهما لابن هاشم النحوي، وألفية ابن مالك في النحو، وألفيتي العراقي والسيوطي في مصطلح الحديث، ومختصر ابن أبي حمزة في الحديث، والشاطبية في القراءات، ونحو ذلك من الفنون الأخرى، وكان من مشايخي مَنْ يحفظ عن ظهر قلبه كتاب إرشاد الغاوي في سبيل الحاوي لابن المقرئ، ولقد رأيت شبانا من إخواننا يحفظون رُبْعِي العبادات والبيوع من المنهاج للإمام النووي.

### أهم أوقات الحفظ وأماكنه

قال الخطيب البغدادي: اعلم إن للحفظ ساعات ينبغي لمن أراد التحفظ أن يراعيها، وللحفظ أماكن ينبغي للمتحمّظ أن يلزمها، فأجود الأوقات الأسحر، ثم بعدها وقت انتصاف النهار، وبعدها الغدوات دون العشيات، وحفظ الليل أصلح من حفظ النهار، قيل لبعضهم: بم أدركت العلم؟ قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح، وقيل لآخر: فقال بالسفر والسهر والبكور في السحر، وأجود أماكن الحفظ الغرف دون السفلى، وكل موضع بعيد مما يلهي، وخلاء القلب فيه مما يفرغه فيشغله، وليس بالحمود أن يتحمّظ الرجل بحضرة النبات والخضرة، ولا على شطوط الأنهار ولا على قوارع الطرق، فليس يعدم في هذه المواضع غالبا ما يمنع من خلو القلب وصفاء السر.

وأوقات الجوع أحمد للتحفظ من أوقات الشبع، وينبغي للمتحمّظ أن يتفقد من نفسه حال الجوع، فإن بعض الناس إذا أصابه شدة الجوع و التها به لم يحفظ، فليطفيئ ذلك عن نفسه بالشيء الخفيف اليسير كمص الرمان وما أشبه ذلك، ولا يكثر الأكل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه،

<sup>١</sup> توفي الشيخ (أبا) باليمن ضحوة الأحد الخامس عشر من شعبان سنة ١٤٢٩هـ، ثم نقل جثمانه بالطائرة إلى بلده مقديشو ودفن فيها بجانب ضريح جده من جهة أمه وشيخ مشايخه الإمام العلامة النحرير الفهامة العارف بالله الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المعروف بالشيخ صوفي صاحب القبة المشهورة.

فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه (١). وقال الأصمعي: وعظ أعرابي أحبا له فقال: يا أخي إياك والبطنة فإنها تعمي عن الفطنة. وقال عمر بن هبيرة لملك الروم: ما تعدون الأحق فيكم؟ قال: الذي يملأ بطنه من كل شيء يجدد.

وقال بعض الأطباء: الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهي وتقوم وأنت تشتهي (٢).

وقال البخاري: لأعلم أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر (٣).

وقال ابن عبد البر: سئل البخاري عن دواء للحفظ فقال: إدمان النظر في الكتب (٤).

وفي الإحياء: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم، السواك والصيام وقراءة القرآن (٥).

وفي (فتح الباري) قال سفيان الثوري وغيره: أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، وعن الأصمعي تقديم الإنصات على الاستماع (٦).

وقال الفضيل بن عياض: أول العلم الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

<sup>١</sup> أخرجه أيضا في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن المقدم بن معدي كرب

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٠٢-١٠٦.

<sup>٣</sup> هدي الساري مقدمة صحيح البخاري ص ٤٨٧-٤٨٨.

<sup>٤</sup> جامع بيان العلم ج ٢ ص ٢٤٩.

<sup>٥</sup> إحياء علوم الدين للغزالي باب أسرار القرآن من كتاب أداب تلاوة القرآن.

<sup>٦</sup> فتح الباري ج ١ ص ٢١٧



وقال ابن المبارك: أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر (١).

### فائدة في ذكر مقدار ما يحفظه المتعلم

قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: اعلم أن القلب جارحة من الجوارح تحمل أشياء وتعجز عن أشياء، كالجسم الذي يحمل بعض الناس أن يحمل مائتي رطل، ومنه من يعجز عن عشرين رطلا، ومنهم من يأكل من الطعام أرطالا، ومنهم من يتخمه الرطل فما دونه، فكذلك القلب، من الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام، فإذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبهها بغيره لحقه الملل، وأدركه الضجر، ونسي ما حفظ، ولم ينتفع بما سمع، فليقتصر كل امرئ من نفسه على مقدار يبقى فيه ما لا يستفرغ كل نشاطه، فإن ذلك أعون له على التعليم (٢).

وقال بعض الحكماء: إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش، فَأَلْفُوهُمَا لِتَحْسَنَ طَاعَتَهَا ويدوم نشاطها، ولا ينبغي أن يمزج نفسه فيما يستفرغ مجهوده، وليعلم أنه إن فعل ذلك فتعلم في يوم ضعف ما يحتمل أضر به في العاقبة؛ لأنه إذا تعلم الكثير الذي لا طاقة له به وإن تهيأ له في يومه ذلك أن يضبطه وظن أنه يحفظه فإنه إذا عاد من غد وتعلم نسي ما كان تعلمه أولا وثقلت عليه إعادته.

فينبغي للمتعلم أن يشفق على نفسه من تحميلها فوق طاقتها ويقتصر من التعلم على ما يَبْقَى عليه حفظه ويثبت في قلبه، وينبغي أن يجعل لنفسه حدا كلما انتهى إليه وقف عنده حتى يستقر ما في قلبه ويريح بتلك الوقفة نفسه.

فعن عائشة رضي الله عنها: كانت عندي امرأة فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من هذه؟ فقلت: فلانة لا تنام الليل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مه عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا، قالت: وكان أحب الدين إليه الذي يدوم عليه صاحبه.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله باب منازل العلم، ج ١ ص ١٣٩.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٠١.

وعن وهب بن منبه قال: إن في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات .

وقال قسامة ابن زهير: روحوا القلوب تعي الذكر (١).

واعلم أن الحفظ وحده لا ينفع، بل لا بد من العمل والاستفادة من المحفوظ فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: العلم ما نفع، ليس العلم ما حفظ (٢).

وَمُبْتَدِئًا مِنْ كُلِّ فَنٍّ صِغَارَ كُتُبٍ — بِهِ مِنْ مُتُونٍ أَوْ شُرُوحٍ مُهِمَّةٍ

أي كن أيها الطالب مبتدئاً في تعلم العلم الكتب المختصرة من كل فن من فنون العلم؛ لتكون كالسلم إلى المبسوطات، ولا بد أن تكون في ابتداء دراستك مقتصرًا على ما تحمله طاقتك الابتدائية المحدودة، فقد قال الخطيب البغدادي في (الفاقي والمتفقه): قام أبو حنيفة فأتى حمادا فقال له: ما جاء بك؟ قال: أطلب الفقه، فقال: تعلم كل يوم ثلاث مسائل، ولا تزد عليها شيئاً حتى يتفق لك شيء من العلم، فتعلم ولزم الحلقة حتى فقه، فكان الناس يشيرون إليه بالأصابع، فينبغي للطالب أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر، بل يأخذ قليلاً قليلاً حسب ما يحتمله حفظه ويقرب من فهمه فإن الله تعالى يقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} .

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الدين مستين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت (٣) لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى.

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه، ج ٢ ص ١٠٧-١٠٩.

<sup>٢</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٨٩.

<sup>٣</sup> وفي النهاية لابن الأثير: يقال للرجل إذا انقطع به في سفره وعطبت راحلته قد انبت، من البت القطع، يقال: بته وأبته، يريد أنه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده لم يقض وطره وقد أعطب ظهره اهـ وفي المعجم الوسيط: انبت الرجل في السير جَهِدَ دابته حتى أُعْيِتْ وفي الحديث: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى، يقال لمن يبالغ في طلب الشيء ويُفَرِّطُ حتى ربما يُفَوِّتَهُ على نفسه.

وروى البخاري عن ابن عباس قال في تفسير قوله تعالى: {كونوا ربانيين}: حُلَمَاءُ فَقَهَاءُ، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره اهـ .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الدين يسر ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدُلجة، رواه البخاري. قال الحافظ العيني في شرح هذا الحديث: المعنى لا يتعمق أحدكم في الدين فيترك الرفق إلا غلب الدين عليه وعجز ذلك المتعمق وانقطع عن عمله كله أو بعضه (١) .

وفي (الجامع الصغير) روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ورمز له السيوطي بالصحة. وقال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله: العلم كالبحار المتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فاشتغل بالمهم منه، فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضرب بالمهم (٢) اهـ.

### معاملة النفس عند الفتور والملل

قال ابن المراغي: ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه في الدرس . قال أبوغدة: يعني بهذا أن الإنسان إذا أدركه ملل أو لحقه فتور فلا يحسن به أن يستجيب له ويقف عن متابعة الدرس والتحصيل، بل يعالج فتوره ويغالب ملله حتى يتغلب عليه، فينقشع الفتور والملل ويأتي النشاط والانبساط (٣).

### مُطَالَعَةُ الْكُتُبِ الَّتِي فِي فَضَائِلِ الْـ عُلُومِ فَدَاوِمُهَا لِإِنْهَاضِ هِمَّةِ

أي داوم أيها الطالب مطالعة الكتب التي ذكرت فيها فضائل العلم وأهله، فإن ذلك يؤدي إلى محبة العلم والطموح إليه، فتعلو الهمة وتقوى العزيمة، فيزداد الاجتهاد في طلبه، والسعي إلى خوض بحاره، وقد وردت في فضائل العلم وأهله آيات وأحاديث وآثار كثيرة ذكرنا جملة منها في مقدمة هذا الشرح .

وقال العلامة ابن الجوزي في (صيد الخاطر): إني ما أشبع من مطالعة الكتاب، وإذا رأيت كتابا لم أره فكأنني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبوت كتب أبي حنيفة وكتب

<sup>١</sup> عمدة القاري، باب الدين يسر، من كتاب الإيمان، ج ١ ص ٢٣٧.

<sup>٢</sup> قيمة الزمن عند العلماء ص ١٠٦.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ١٠٤-١٠٥.

الحميدي وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر همهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أسترزي ما الناس فيه، وأحتقر هم الطلاب والله الحمد اهـ. (١)

تَعَوَّذْ بِسُرْعَةِ الْكِتَابَةِ يَا فَتَى بِتَحْسِينِ خَطِّ مِثْلِ خَطِّ ابْنِ مُقْلَةٍ

معنى هذا البيت أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون سريع الكتابة مع تحسينها، وأن يتكلف بهما حتى يصير له ذلك سجية وطبيعة لا كلفة فيها، ذكر الشيخ عبد الفتاح أبوغدة أن القاضي أبابكر بن الطيب الباقلاني، كان ورده كل ليلة عشرين ترويحة، ولا ينام حتى يكتب خمسا وثلاثين ورقة من حفظه (٢).

ولحفظ الوقت وكسبه ذكروا قديما في أوصاف طالب العلم الذي يُؤَهَّلُ لتحصيل العلم ويرجى له النبوغ فيه: أنه ينبغي أن يكون سريع الكتابة، سريع القراءة، سريع المشي، وسرعة مشيه ليتمكن من الطواف على الشيوخ في وقت قليل، وأما سرعة كتابته وقراءته فلاختصار الوقت وحفظه لأعمال أخرى، وللإزدياد من العلم فيه أيضا، وهذه الأوصاف لا شك أنها تساعد على زيادة التزود من العلم والشيوخ بأقل مدة من الزمن والعمر. قال السيوطي رحمه الله:

حدثنا شيخنا الكِنَانِي ( ٣ ) عن أَبِيهِ صاحب الخطابه

أسرع أخوا العلم في ثلاث الأكل والمشى والكتابة ( ٤ )

قال أبوغدة: وكنت زدت عليها وصفا رابعا، وهو: أن يكون سريع الأكل، لأنه إذا لم يكن كذلك وكان بطيء الطعام طويل الغرام به فاته الوقت الذي جمعه بسرعة القراءة والكتابة والمشى، بطول وقت دخول الطعام وخروجه! ولم يحسن التصرف في وقته.

<sup>١</sup> صيد الخاطر، ص ٣٨٨.

<sup>٢</sup> قيمة الزمن ٨٧.

<sup>٣</sup> وشيخه المشار إليه هنا هو الإمام قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكِنَانِي المصري الحنبلي رحمهما الله تعالى.

<sup>٤</sup> قيمة الزمن ١٠٩ - ١١١.

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن الخطيب البغدادي ذكر في تاريخه أن الإمام أبا جعفر محمد ابن جرير الطبري مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وقسم أقوام من تلامذته أوراق مصنفاته منذ بلغ الحلم إلى أن مات فصار لكل يوم أربع عشر ورقة (١). وفي (كنز العمال) في مسند علي رضي الله عنه عن سعيد بن أبي سكينه قال: بلغني أن علي بن أبي طالب نظر إلى رجل يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال: جودها فإن رجلا جودها فغفر له، رواه الختلي.

وعن علي قال: الخط علامة، فكل ما كان آيين كان أحسن، رواه الخطيب في (الجامع) (٢).

وفي (الجامع الصغير): الخط الحسن (٣) يزيد الحق وضحا، رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أم سلمة (٤).

قال المناوي في (الفيض القدير): وفي رواية وضوحا، وذلك لأنه أنشط للقارئ وأبعث على تجريد الهمة للتأمل والتدبر، وقيل: الخط وشي محبوب، وذهب مسبوكة، متنزه الألفاظ، ومجتنى الألفاظ، ومن أمثالهم: ما الثمر اليناع تحت خضرة الورق بأحسن من الخط الرائع في بياض الورق، وقال الماوردي: تقول العرب: الخط أحد اللسانين، وحسنه أحد الفصاحتين. وقال حكيم الروم: الخط هندسة روحانية وإن ظهر بآلة جسدانية، وقال حكيم العرب: الخط أصل في الروح وإن ظهر بحواس الجسد، قالوا: وحسن الخط لسان اليد، وقال عبد الحميد: البيان في اللسان والبنان اهـ.

وفي (مغني المحتاج): قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسن يزيد الحق وضوحا.

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص ٣٢٨.

<sup>٢</sup> كنز العمال ج ١٠ ص ١٣٨-١٣٩.

<sup>٣</sup> قال المناوي: يعني الكتابة الحسنة.

<sup>٤</sup> قال الحافظ أبو الفيض الغماري في المداوي ج ٣ ص ٥٤٠ إن هذا الحديث في الأصل عن سلمة وكانت له صحبة ثم ساق الحديث اهـ.

وابن مقلة كما في (سير أعلام النبلاء) هو أبو علي محمد بن علي بن حسن بن مقلة الوزير الكبير، ولد في شوال سنة اثنين وسبعين ومائتين، ومات في حادي عشر شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، واختلف فيه هل هو صاحب الخط المنسوب أو أخوه الحسن بن علي؟ والظاهر أن الحسن هو صاحب الخط، وكان أول من نقل هذه الطريقة المولدة من القلم الكوفي (١) اهـ.

وقال الشاعر لما سئل هل خط الملك أحسن أم خط ابن مقلة بعد أن رأي الخطين:  
يخطط مولانا خطوط ابن مقلة وينظمها نظم الآلئ في السلك  
فهذا عليه رونق (٢) الخط وحده وهذا عليه رونق الخط والملك  
وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): كان نور الدين محمود بن الأتابك صاحب الشام مليح الخط كثير المطالعة يصلي في جماعة ويصوم ويتلو ويسبح ويتحرى في القوت ويتشبه بالعلماء والأخيار (٣) اهـ .

وقال ابن كثير في (البداية والنهاية): قد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبوية (٤) اهـ .  
وكان خط الشيخ محمد بن عبد الرحيم صفى الدين الهندي في غاية الرداءة، وكان رجلا ظريفا، فيحكى أنه قال: وجدت في سوق الكتب مرة كتابا بخط ظننته أقبح من خطي، فغاليت في ثمنه واشتريته لأحتج به على من يدعي أن خطي أقبح الخطوط، فلما عدت إلى البيب وجدته بخطي القديم (٥).

### سرعة قراءة بعض العلماء

وفي مقدمة حاشية الحفني على (الجامع الصغير): قرأ الحافظ ابن حجر كتاب تاريخ البخاري الأصغر في مجلس واحد فضربوا به المثل وهو عشرون ألف حديث اهـ.

<sup>١</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٥ ص ٢٢٤

<sup>٢</sup> الرونق: الحسن.

<sup>٣</sup> سير أعلام النبلاء ج ٢٠ ص ٥٣٣

<sup>٤</sup> البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٣٠٤.

<sup>٥</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٥ ص ٢٤٠.

وفي (شرح الزرقاني على المواهب) قرأ الحافظ البغدادي (صحيح البخاري) على كريمة بمكة في خمسة أيام، وعلى إسماعيل الحيري في ثلاثة مجالس، ذكره الذهبي وقال: هو أمر عجب (١).

وفي (الضوء اللامع) للحافظ السخاوي أن مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي صاحب (القاموس) قرأ صحيح مسلم على ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن جهيل بدمشق تجاه نعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أيام اهـ ومثله في (شذرات الذهب)، وقال: وتبجح بذلك مجد الدين وقال:

قرأت بحمد الله جامع مسلم      بجوف دمشق الشام جوف لإسلام  
على ناصر الدين الإمام ابن جهيل      بحضرة حفاظ مشاهير أعلام  
وتم بتوفيق الإله وفضله      قراءة ضبط في ثلاثة أيام

فسبحان المانع الذي يؤتي فضله من يشاء اهـ .

وقال عبد الفتاح أبو غدة في (صفحات من صبر العلماء): إن الله تعالى أجرى سنته في علماء الإسلام أن يبارك لأحدهم في قراءته، والآخر في إلقائه وتفهمه، والآخر في نسخه وجمعه، والآخر في عبادته، وسيدي أبو القاسم العبدوسي حافظ المغرب وقته ممن جمع الله له ذلك كله، وبارك له في قراءته وإلقائه ونسخه وجمعه وعبادته، قرأ البخاري في نهار يوم واحد (٢).

وَرَدَّدْ وَكَرِّرْ نَحْوَ عِشْرِينَ مَرَّةً      بِدَرْسِكَ كَيْ تَبْلُغَ مُنَاكَ بِسُرْعَةٍ

أي كرر في إعادة درسك مرات كثيرة حتى تفهمه وتتضح لك مشكلاته ودقائقه، ويثبت في قلبك ويستقر في ذهنك، بحيث تأمن من نسيانه بعد، فقد قالوا: التكرار يعلم الجدار، وقالوا أيضا: التكرار يجعل الحمار فقيها. وذلك يختلف باختلاف الناس في سرعة الإدراك والفطنة والذكاء، وبصعوبة الدرس وسهولته، فرب درس يفهمه الطالب بإعادته مرات قليلة، وآخر لا يفهمه فهما تاما إلا بتكراره عشرين مرة أو أكثر .

<sup>١</sup> شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ١ ص ١٩٦ .

<sup>٢</sup> صفحات ٣٨٣ .

قال الإمام النووي: قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله: كنت أعيد كل درس مائة مرة، وإذا كان في المسألة بيت شعر يستشهد به حفظت القصيدة كلها من أجله (١) اهـ وفي (إقناع المؤمنين) قال أبو إسحاق الشيرازي: كنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياسا آخر وهكذا، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسألة بيت يستشهد به حفظت القصيدة، وقيل: إنه كان يحفظ مسائل الخلاف كما يحفظ أحدكم الفاتحة اهـ.

وقال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ومن آداب الطالب أن يصحح درسه الذي يتحفظه تصحيحا متقنا، ثم يحفظه حفظا محكما، ثم بعد حفظه يكرره مرات ليرسخ رسوخا متأكدا، ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظا جيدا ويداوم على تكرار محفوظاته، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالا بل يصحح على الشيخ فالاستقلال بذلك من أضر المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعي رحمه الله بقوله: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام (٢). الأحكام (٢).

وَأَمَّا إِذَا أَعَدْتَ يَا غَرُّ ( ٣ ) مَرَّةً وَتَرَكْتَهُ تَنْدَمَنْ وَتَحْيَى بِذِلَّةٍ

أي أما إذا أعدت درسك مرة واحدة ثم تركته فإنك سوف تندم إذا نسيتته وتتحسر بعد حين وتحى بذل الجهل وهوانه.

مُطَالَعَةُ الْكُتُبِ الْمُفِيدَةِ لِأَزْمَنِ بَجْدٍ وَفَهْمٍ مَعَ كِتَابَةِ نُكْتَةٍ

أي لازم مطالعة الكتب النافعة مع الاجتهاد والفهم بما فيها من العبارات الدقيقة والمسائل العويصة، واكتب ما فيها من النكت المهمة، والفوائد البهية (٤) .

قال المزني: قرأت الرسالة يعني رسالة الإمام الشافعي خمسمائة مرة، ما من مرة إلا واستفدت منها فائدة جديدة.

وقال أيضا: أنا أنظر في الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أنني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته (١).

<sup>١</sup> مقدمة المجموع ص ٤٣.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٣</sup> الغرُّ بالكسر الشاب لا تجربة له، والغارُّ الغافل. قاموس.

<sup>٤</sup> وهذا البيت أعم من البيت المتقدم في قولنا: مطالعة الكتب إلخ فهو من ذكر العام بعد الخاص



وفي كلام الأفودي في البدر السافر: أن الشيخ - يعني النووي - نوزع مرة في نقل عن الوسيط فقال: ينازعوني في الوسيط وقد طالعت أربعمائة مرة (٢)

وكان محمد بن الحسن الشيباني الكوفي البغدادي رحمه الله تعالى لا ينام الليل، وكان يضع عنده الدفاتر يعني الكتب، فإذا ملّ من نوع نظر في آخر، وكان يزيل نومه بالماء ويقول: إن النوم من الحرارة (٣) اهـ .

وقد حكى عن ثعلب أحمد بن يحيى الشيباني الكوفي البغدادي أحد أئمة النحو واللغة والأدب والحديث الشريف والقراءات رحمه الله تعالى أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرط عليه أن يوسع له مقدار مسورة-أي المتكأ من الجلد- يضع فيها كتابا ويقرأ (٤).

وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ: كان الخطيب البغدادي يمشي وفي يده جزء يطالعه.

وقال أبو غدة في كتابه (قيمة الزمن): وما ذلك إلا للحفاظ على الوقت وكسب الزمن أن يذهب فارغا أثناء المشي دون الاستفادة وانتفاع به في جنب العلم (٥).  
وقال محمد السعيد بن بركات النحوي: رأيت وأنا صبي أبا يوسف يعقوب بن خرزاذ ماشيا في طريق القرافة، شيخا أسمر كبير اللحية، مدور العمامة، ويده كتاب وهو يطالع فيه في مشيه (٦) .

وقال أبو عمرو بن العلاء ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيت ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه واعتقدت أنه أفضل منه عقلا.

<sup>١</sup> تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٦٩.

<sup>٢</sup> الإمام النووي لعبد الغني الدقر ص ٥٢.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ٣٠-٣١.

<sup>٤</sup> قيمة الزمن ٤١.

<sup>٥</sup> قيمة الزمن ص ٥١.

<sup>٦</sup> قيمة الزمن ٥٢.

وكان عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز لا يجالس الناس ونزل المقبرة، فكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده دفتر، فسئل عن ذلك، فقال: لم أر قط أوعظ من قبر، ولا أمتع من دفتر، ولا أسلم من وحدة.

وروى الحسن اللؤلؤي إن صح عنه أنه قال: لقد غَبَرْتُ<sup>(١)</sup> لي أربعون سنة ما قمت ولا نمت إلا والكتاب على صدري (٢).

وفي (مجمع الزوائد) عن أبي بردة بن أبي موسى قال: كنت إذا سمعت من أبي حدثيا كتبت، فقال: أي بني كيف تصنع؟ قلت: إني أكتب ما أسمع منك، قال: فأتني به، فقرأته عليه، فقال: نعم هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أخاف أن يزيد أو ينقص، رواه البزار، وهذه الطريق فيها خالد بن نافع، ضعفه النسائي وأبو زرعة وغيرهما.

وعن أبي هريرة قال: ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب بيده ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي ولا أكتب بيدي، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتابة عنه فأذن له، رواه أحمد، وفي الصحيح بعضه بغير سياقه، خلا استئذانه في الكتابة وغير ذلك.

وعن رافع بن خديج قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تحدثوا، وليتوبوا من كذب عليّ مقعده من جهنم، قلت: يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء فنكتبها، قال: اكتبوا ولا حرج، رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو مدرك، روى عن رفاع بن رافع وعنه بقية، ولم أر من ذكره.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قَيِّدِ العلم، قلت: وما تقييده؟ قال: الكتابة، رواه الطبراني في الأوسط.

وعن ثمامة قال: قال لنا أنس: قيدوا العلم بالكتابة، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

وعن أنس قال: شكى رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم سوء الحفظ، فقال: استعن بيمينك، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل بن سيف، وهو ضعيف (٣).

<sup>١</sup> غَبَرْتُ أي ذهبت، وفي القاموس: غَبَرَ غُبُورًا مَكَثَ وَذَهَبَ، من الأضداد.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج ٢ ص ٢٤٩.

<sup>٣</sup> مجمع الزوائد، في باب كتابة العلم من كتاب العلم.

وعن عمر قال: قيدوا العلم بالكتاب، رواه الحاكم والدارمي (١) .  
 وقال النووي في (مقدمة المجموع): ينبغي لطالب العلم أن لا يحتقر فائدة يراها أو يسمعها  
 في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها ثم يواظب على مطالعة ما كتبه (٢) اهـ  
 وفي الحكمة: ما حُفِظَ فَرَّ وما كُتِبَ قَرَّ.  
 ولقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الوثيقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتفكّها بين الخلائق طالقة

وفي (فتح المغيث): قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى أهل المدينة: انظروا  
 ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه، فإني خشيت دروس العلم  
 وذهاب العلماء.

وعن الشافعي قال: إن هذا العلم يند كما تند الإبل، ولكن الكتب له حماة والأقلام عليه  
 رعاة

وقال السخاوي: الذي استقر عليه الأمر الإجماع على استحباب الكتابة، بل قال شيخنا:  
 إنه لا يبعد وجوبه على من خشى النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم. ولا ينبغي الاقتصار  
 على الكتابة حتى لا يصير له تصور ولا يحفظ شيئاً، فقد قال الخليل:

ليس بعلم ما يعي القمطر ما العلم إلا ما وعاه الصدر

وقال آخر:

استودع العلم قرطاساً فضيعةً وبئس مُستودع العلم القراطيس (٣)

وقال بعضهم:

لمحبرة تجالسي نهاري أحب إليّ من أنس الصديق

ورزومة كاغدٍ (٤) في البيت عندي أحب إلى من عدلٍ (١) الدقيق

<sup>١</sup> كنز العمال أدب الكتابة من كتاب العلم، قسم الأفعال. ج ١٠ ص ١٣٧، .

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٣</sup> فتح المغيث ج ٢ ص ١٤٥-١٤٦.

<sup>٤</sup> ورزومة كاغد أي قراطيس شد بعضها ببعض، وفي لسان العرب والقاموس المحيط الرزومة بالكسر من الثياب ما شد  
 في ثوب واحد، وقال شَمِرٌ: الرزومة قدر ثلث الغرارة أو ربعها من ثمر أو دقيق.

ولطمة عالم في الخدّ مني ألدّ لدى من شرب الرحيق ( ٢ )

إِذَا مَا دَهَاكَ الْخَطْبُ وَالْعُسْرُ فَاسْتَعِنْ بِصَبْرٍ دُعَاءٍ وَالصَّلَاةِ بِخَشْيَةٍ  
أي إذا أصابك الأمر الشديد والعسر في طلب العلم فاستعن بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى  
فإنه كاشف كل كرب، ومزيل كل محنة، ومأنح كل منحة، واستعن أيضا بالصبر والصلاة  
مع رعاية آدابها من الخشية والخشوع وغيرهما، فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} وقال عز وجل: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ  
وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} .

وقال ابن كثير في تفسيره: روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال:  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى.  
وروى ابن جرير عن حذيفة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع  
إلى الصلاة.

وفي رواية: قال حذيفة: رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل  
في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى .

وقوله: **والدعاء**: أي استعن بالدعاء والالتجاء والتضرع إلى الله في جميع المهمات  
والشدائد، فإن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، قال الله تعالى: {أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}،  
والأحاديث الواردة في الدعاء كثيرة جدا، روى الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء مخ العبادة (٣) وروى أبوداود والترمذي والنسائي وابن  
ماجه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء هو  
العبادة. قال النووي في الأذكار: قال الترمذي: حديث حسن صحيح.  
ومعنى الحديث: الدعاء من أعظم العبادة، فهو كقوله: الحج عرفة أي ركنه الأعظم، قاله  
المنائوي.

<sup>١</sup> في لسان العرب: العدل نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير، قال الأزهري: العدل اسم حمل معدول بحمل  
أي مسوّى .

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج ٢ ص ٢٤٨.

<sup>٣</sup> قال العزيزي في شرح الجامع الصغير: قال الشيخ يعني السيوطي: هو حديث صحيح.

وفي الجامع الصغير: روى أبو يعلى والحاكم عن علي أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض.

وروى الحاكم عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء.

وروى أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء يرد البلاء.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء عند الرخاء (١).

### أماكن الدعاء وأوقاتها

واعلم أن للدعاء أماكن وأوقات يستجاب فيها، فينبغي التحري بها، فمن الأوقات التي ترجى فيها الإجابة وقت السحر، وعند نزول المطر، وعند الفطر وغيرها، ومن أماكنها عرفة، ومزدلفة، وعند زمزم، وفي الطواف وعند قبور الصالحين، فإن الدعاء يستجاب عندها، كما ذكره إمام القراء الحافظ شمس الدين الجزري في (عدة الحصن الحصين) (٢). وقال فيه أيضا: وإن لم يُجَبِّ الدعاء عند النبي صلى الله عليه وسلم ففي أي موضع؟! اهـ.

وقال الحافظ الجزري أيضا في (الحصن الحصين): يستجاب الدعاء بين الجلالتين في الأنعام، حفظنا ذلك مجربا عن غير واحد من أهل العلم، ونص عليه الحافظ عبد الرزاق في تفسيره عن الشيخ العماد المقدسي اهـ .

<sup>١</sup> قال العزيمي في شرح الجامع الصغير: ورواه الحاكم عن أبي هريرة أيضا. وهو حديث صحيح.

<sup>٢</sup> قال الشوكاني في تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين ص ٧١ - ٧٢: أقول: وجه ذلك - أي إجابة الدعاء عند قبور الصالحين - أنه يكون في هذه المواضع المباركة مزيد اختصاص، فقد يكون ما لها من الشرف والبركة مقتضيا لعود بركتها على الداعي فيها، وفضل الله واسع وعطاؤه جم، وقد ورد في الحديث الصحيح "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"، فجعل جليس أولئك القوم مثلهم مع أنه ليس منهم، وإنما عادت عليه بركتهم فصار كواحد منهم، فلا يبعد أن تكون المواضع المباركة هكذا، فيصير الكائن فيها الداعي لربه عندها مشمولاً بالبركة التي جعلها الله فيها، فلا يشقى حينئذ بعدم قبول دعائه اهـ. وقال أيضا في ص ٧٤: إن بركة المكان تسري على الداعي كما تسري بركة الصالحين الذاكرين الله سبحانه على من دخل فيهم ممن ليس هو منهم كما يفيد قوله صلى الله عليه وسلم "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم" اهـ. ومن أراد اطلاع ما في مسألة التوسل من مشروعيتها وأقوال العلماء فيها فعليه ما كتبه في إقناع المؤمنين بتترك الصالحين.

وذكر الحافظ إبراهيم الحربي والحافظ أبو عبد الرحمن السلمي والحافظ الذهبي وابن خلكان والمرتضى الزبيدي أن قبر معروف الكرخي الترياق المحرب.

وروى الحافظ الخطيب البغدادي بسنده عن أبي الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري قال: سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي محرب لقضاء الحوائج .

وذكر الخطيب البغدادي وابن حجر الهيتمي أن الإمام الشافعي قال: إذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وحثت إلى قبر أبي حنيفة وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى (١) .

وقال الذهبي: قال شيرويه: الدعاء عند قبر أبي بكر أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن الفرغ بن لال الهمداني الشافعي مستجاب. ثم قال الذهبي: والدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والأولياء وفي سائر البقاع، لكن سبب الإجابة حضور الداعي وخشوعه وابتهاله، وبلا ريب في البقعة المباركة (٢) اهـ .

وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر): لما كثر مرضي وعجزت عن طب نفسي لجأت إلى قبور الصالحين، وتوسلت في صلاحهم، فاجتذبتني لطف مولاي (٣).

وَكُنْ ذَا مُرُوءَةٍ بَعِيدًا عَنِ الْخَنَاءِ وَلَا تَقِفْ أَصْلًا مَوَاقِفَ تُهْمَةٍ

أي كن ذا مروءة بعيداً عن الفحش، والمروءة كما في المصباح آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

<sup>١</sup> ذكرت ذلك كله بإسهاب في كتابي إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين.

<sup>٢</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٧٦.

<sup>٣</sup> وهذا في ضمن كلام طويل ذكره في فصل الخلوة وحلاوة المناجاة، وقال فيه: كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحُببت إليّ الخلوة، فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تنأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاية الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه، لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فأنعدم ما كنت أجد من استنارة وسكينة، وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله، فكان حينئذٍ إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس، وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طب نفسي، فلجأت إلى قبور الصالحين، وتوسلت في صلاحهم، فاجتذبتني لطف مولاي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي على بعد نفور عني، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأقفت من مرض غفلتي اهـ صيد الخاطر ص ٨١، بحذف يسير.

وقال الأجهوري: المروءة ملكة على اجتناب الكبائر وصغائر الخسة والرذائل المباحة، فلا يمشي حافيا ولا مكشوف الرأس إن لم يَلْقَ بأمثاله، ولا يأكل غير السوقي في السوق، ولا يبول قائما، وهكذا(١).

وقال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات): قال الرافعي: اختلفت العبارات في المروءة، فقليل: صاحب المروءة من يصون نفسه عن الأدناس ولا يشينها عند الناس، وقيل: الذي يسير بسيرة أمثاله في زمانه ومكانه اهـ .

وروى عن الشافعي أنه قال: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: إياك وما يسوء الأذن، رواه أحمد عن أبي الغادية، وأبو نعيم في كتاب المعرفة عن حبيب بن الحرث والطبراني عن عمه العاص بن عمر الطغاوي(٣) .  
وقال عليه الصلاة والسلام: إياك وكل أمر يعتذر منه، رواه الضياء في المختارة عن أنس قال السيوطي في الجامع الصغير: حديث حسن.

وقال الجنيد البغدادي: المروءة احتمال زلل الإخوان.  
وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكرا لا تستطيع أن تسمعه عذرك.

وفي صحيح الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ أنفه ثم لينصرف. وذلك لئلا يقال عنه: أحدث.

واعلم أن المروءة قد ذهب أربابها وانقرض أصحابها ولم يبق منهم في هذا الزمان إلا الأفراد وقد صدق القائل حيث قال:

مررت على المروءة وهي تبكي      فقلت علامَ تَنَحَّبُ الفتاةُ  
فقلت كيف لا أبكي وأهلي      جميعا دون خلق الله ماتوا

<sup>١</sup> حاشية الشيخ عطية الأجهوري على شرح البيهقي للزرقاني ص ١٦ .

<sup>٢</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٩٨ .

<sup>٣</sup> الجامع الصغير للسيوطي .

فنبغي لطالب العلم التخلي عن الرذائل، والتخلي بالفضائل، والتجنب عن كل حرام للمروءة وما لا يليق بأهل العلم والعقل السليم، والله در الإمام الشافعي حيث قال:

فدع عنك سوآت الأمور فإنها حرام على نفس التقي ارتكابها

وقال السيوطي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة): حديث من سلك مسالك التهم أنَّهُم، رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمر بن الخطاب موقوفاً بلفظ من أقام نفسه مقام التهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظن.

وفي (آداب الشافعي ومناقبه) أن الإمام الشافعي عاتب ابنه أبا عثمان وكان فيما قال له فوعظه به: يا بني والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي شيئاً ما شربت إلا حاراً. وفي رواية: ديني بدل شيئاً (١) اهـ.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه:

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار

وَلَا تُكْ ثَرْتَاراً (٢) يُضَيِّعُ وَقْتَهُ بِقِيلٍ وَقَالَ وَالْمِزَاحُ وَسَمَرَةٌ (٣)

أي لا تكن كثير الكلام يضيع وقته بما لا يفيد ولا ينفع من المزاح وحديث الليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، رواه البخاري ومسلم.

وروى الترمذي في الشمائل عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافاً قلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه باسم الله، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا بالمهين، يُعْظَمُ النعمة وإن دَقَّتْ، لا يذم منها شيئاً،

<sup>١</sup> آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص ٦٤.

<sup>٢</sup> الثثرة كثرة الكلام وترديده، والثثار الصياح. القاموس المحيط.

<sup>٣</sup> سمر: قال في القاموس وشرحه: السَّمرَةُ الأحذوثة بالليل، والأحذوثة ما يتحدث به اهـ. وفي اللسان: قال

الفراء: واحد الأحاديث أحذوثة ثم جعلوه جمعاً للحديث اهـ .



غير أنه لم يكن يذم ذواقا (١) ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعِدِّيَ الحق لم يقيم شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا فرح غصَّ طرفه، جل ضحكته التسم انتهى بحذف يسير. (٢).

وقال الهيثمي: روى أحمد والترمذي والنسائي: إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة.

وروى الطبراني خبر: لا يبلغ عبد حقيقة التقوى حتى يحترز من لسانه. وخبر: إنك لن تزال سالما ما سكت، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك. والأحاديث في ذلك كثيرة جدا، ومن ثم قال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت.

وقال الفضيل: لا حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان. وقال لقمان لابنه: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب. قال ابن المبارك معناه: لو كان الكلام بطاعة الله تعالى من فضة لكان السكوت عن معصية الله من ذهب. وقال الشافعي في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: فليقل خيرا: أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به فإذا ظهر له أنه خير محقق لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إلى كلام محرم أو مكروه أتى به (٣) اهـ.

و قال بعض الشعراء:

إذا تم عقل المرء قلّ كلامه وأيقن بحمق المرء إن كان مكثرا

وقال آخر:

النطق زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثرا

<sup>١</sup> قال ابن حجر الهيثمي في أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل: قوله ذواقا: فعال بمعنى مفعول من الذوق أي متذوقا مأكولا كان أو مشروبا .

<sup>٢</sup> ذكره الترمذي في باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

<sup>٣</sup> الفتح المبين بشرح الأربعين للهيتمي.

ما إن ندمتُ على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا (١) وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل (٢).

### التحذير من تضييع الأوقات والترغيب في حفظها

قال أبو غدة: قال الأستاذ محمد كرد في كتابه (كنوز الأجداد في ترجمة ابن جرير الطبري): ما أثر عنه أنه ضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة. وكان الحافظ ابن عساكر يحافظ على اللحظات من وقته، فجاد على المكتبة الإسلامية بتأليف، تعجز الجامعات العلمية اليوم على طبعها! وقد كتبها وحده، وألفها بيده وقلمه، وحررها وحققها، وجمع أصولها، وانتخب منها، ونسقها ورتبها، وأخرجها للناس آية باقية ناطقة بأنه كان أعجوبة الأعاجيب في سعة الحفظ، ووفرة المعرفة، ونفاذ المهمة في القدرة على التأليف وكثرة المصنفات المدهشة (٣). وكان رحمه الله يحاسب نفسه على لحظة تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة أي منذ أذن له شيوخه بالرواية والتحديث إلا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته (٤).

وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة.

وقال الأديب المصري أحمد شوقي رحمه الله:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

وقال آخر:

أذان المرء حين الطفل يأتي وتأخير الصلاة إلى الممات

دليل أن محياه يسير كما بين الأذان إلى الصلاة

ولله در ابن المقرئ حيث قال:

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب ج٣ ص٣٣٤.

<sup>٢</sup> تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٧٥.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ٩٣.

<sup>٤</sup> قيمة الزمن ٩٦.

لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري .ملء السما والأرض أية ضيعة  
وقال الإمام أحمد بن فارس الرازي اللغوي:

إذا كان يؤذيك حر الصيف ( ١ ) ويس الخريف وبرد الشتاء  
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى؟! ( ٢ )

ودخل الشيخ الطبيب علاء الدين مرة إلى الحمام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض  
تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام-موضع نزع الثياب وخلعها- واستدعى بدواة وقلم  
وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهأها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل  
تغسيله اهـ وكان الشيخ علاء الدين طبيباً ماهراً، وعليه تخرج كثير من الأطباء بمصر  
والقاهرة(٣).

وكان الإمام الجليل الذكي أبو يوسف الألمي شديد الملازمة لشيخه الإمام أبي حنيفة،  
لازم مجلسه ١٧ سنة أو ٢٩ سنة(٤)، ما فاتته صلاة الغداة معه، ولا فارقه في فطر ولا  
أضحى إلا من مرض. وروى محمد بن قدامة قال: سمعت شجاع بن مخلد، قال: سمعت أبا  
يوسف يقول: مات ابن لي، فلم أحضر جهازه ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي،  
مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عني(٥).

وكانت لمحمد بن سحنون سُريرة أي جارية مملوكة يقال لها أم مدام، فكان عندها يوماً،  
وقد شغل في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام فاستأذنته فقال لها: أنا مشغول  
الساعة، فلما طال الليل عليها (الانتظار) جعلت تلقيم الطعام وتمادى هو على ما هو فيه  
إلى أن أذن لصلاة الصبح، فقال: شغلنا عنك الليلة يا أم مدام! هات ما عندك، فقالت: قد  
والله يا سيدي ألقمته لك، فقال: ما شعرت بذلك! (٦).

<sup>١</sup> المصيف: ظرف زماني ميمي، أي حر زمان الصيف.

<sup>٢</sup> قيمة الزمن ص ١١٤-١١٦.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ص ٧٥.

<sup>٤</sup> قوله: ١٧ أو ٢٩ سنة كذا في قيمة الزمن لأبي غدة، وجزم في البداية والنهاية أن أبا يوسف لازم شيخه ١٧ سنة.

<sup>٥</sup> قيمة الزمن تحت عنوان: أبو يوسف يموت ابنه فيوكل بتجهيزه ودفنه ليحضر الدرس.

<sup>٦</sup> قيمة الزمن تحت عنوان: ابن سحنون ألقمته جاريته العشاء ولم يشعر به لاشتغاله بالتأليف.

## وَلَا تُكْثِرَنَّ الْإِلْتِفَاتَ فَإِنَّهُ أَمَارَةٌ نُقْصَانٍ وَطَيْشٍ وَخِفَّةٍ

في البيت النهي عن إكثار الالتفات إلى الوراء واليمين والشمال، فإن ذلك ليس من شأن أهل الوقار، ولا من دأب كَمَل الرجال، وهو يدل على الخفة وعدم الهدوء، ففي كتاب (منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم) أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان إذا التفت التفت معا) أي بجميع أجزائه، فلا يلوي عنقه يمنة أو يسرة إذا نظر إلى الشيء، لما في ذلك من الخفة وعدم الصيانة، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يقبل جميعا ويدبر جميعا؛ لأن ذلك أليق بجلالته ومهابته، وقال الحافظ العراقي في (ألفيته):

يُقْبِلُ كُلَّهُ إِذَا مَا التَّفَتَا      وَلَيْسَ يَلْوِي عُنُقًا تَلَفَّتَا (١) اهـ

وقال ابن حجر الهيتمي في شرح وصفه صلى الله عليه وسلم المذكور: أراد أنه لا يسارق النظر، وقيل: لا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة إذا نظر إلى الشيء، وإنما يفعل ذلك الطائش الخفيف، ولكن كان صلى الله عليه وسلم يقبل جميعا ويدبر جميعا لما أن ذلك أليق بجلالته ومهابته (٢) اهـ.

وقال الإمام الغزالي في (بداية الهداية) في مبحث آداب الصحبة: لا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات إلى روائك. وقد يسبب الالتفات وقوع النظر إلى عورات الأجنبية، وإلى ما يشغل القلوب ويحركها من الزخارف الملهيات. فينبغي لطالب العلم أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتصف بأوصاف الرجال، ذوي الفضل والكمال، فلا يكثر الالتفات إلى ورائه وجوانبه .

<sup>١</sup> ألفية العراقي في السيرة النبوية، باب ذكر صفته صلى الله عليه وسلم أي أوصافه الطاهرة.

<sup>٢</sup> أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل في شرح الشمائل المحمدية للإمام الترمذي في باب ما جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

## فصل في ترتيب الفنون وتقديم بعضها على بعض وَتَقْدِيمُ فَنِّ الْفِقْهِ فَرَضٌ فَإِنَّمَا يَصِحُّ بِهِ كُلُّ الْفُرُوضِ وَسُنَّةٌ كَصَوْمٍ صَلَاةٍ وَالزَّكَاةِ وَحَجَّةٍ بِهِ عِلْمٌ أَرْكَانٍ شُرُوطٍ وَهَيْئَةٍ

أي تعلم يا طالب العلم علم الفقه قبل الفنون الأخرى؛ فإن العبادات المفروضة والمسنونة مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة يجب على المكلف عند دخول وقتها العلم بما تصح به ليأتي به، وبما تفسد به ليحترز عنه، ولا يخفى أن فن الفقه هو الباحث عن الأركان والشروط في العبادات والمعاملات والجنايات والحدود والقضاء والميراث وغيرها، ولا يوجد ذلك مبينا مستوفى في الفنون الأخرى، وأهم شيء وأوجه على المكلف صحة عباداته ومعاملاته، وقد تكفل بذلك الفقه لا غيره، قال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): مما يجب تعلمه عينا أركان الصلاة وشروطها ومبطلاتها أي ظواهر ذلك بعد وجوبها وكذا قبله إن لم يتمكن بعده من التعلم وإدراك الفرض في وقته وكذا الصوم وكذا الزكاة إن كان له مال، وكذا الحج إن أراد فعله أو تضييق لنحو خوف موت أو غضب أو تلف مال، وكذا البيع إن أراده، ومثله سائر المعاملات كالنكاح، وكالقسم لمن معه أكثر من زوجة، فهذه كلها بعد الوجوب أو إرادة الفعل، ويجب عينا تعلم ظواهر شروطها وأركانها ومبطلاتها، وكذلك يجب عينا تعلم ظواهر حدود أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كالحسد والعجب والرياء والسمعة والحقد والبغض، نعم من خُلِقَ سَلِيمًا منها أو أمكنه إزالتها من غير تعلم لا يلزمه تعلم ما ذكر من الحدود وما بعدها، إذ لا حاجة به إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

وقال الإمام النووي في (الإيضاح في مناسك الحج): من أراد الحج فعليه أن يتعلم كيفية، وهذا فرض عين؛ إذ لا تصح العبادة ممن لا يعرفها. وقال ابن حجر الهيتمي في حاشيته على الإيضاح: نقل الغزالي وغيره إجماع المسلمين على أنه لا يجوز لأحد أن يُقَدِّمَ على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، قال البلقيني: ووجوب ذلك بعد إحرام الحج لا قبله؛ لأن الأعمال إنما يدخل وقتها بعده، فلا فائدة في الوجوب قبله، نعم لو أيس ممن يتعلم منه بعده اتجه وجوب تقديم التعلم عليه. قال العز بن جماعة: ومن العجب أن أبناء الدنيا يسهل عليهم إنفاق الكثير ولو في الحرام دون اليسير في سفر من يصحبهم ليعلمهم.

ويجب عليه أيضا أن يتعلم ما يحتاجه في سفره من نحو تيمم وقصر وجمع وصلاة على راحلة ومعرفة وقت وقبلة اهـ.

وفرضية تقديم الفقه فيمن عزم على تعلم دينه وترتيب فنونه، وقد كان خالط المسلمين والعلماء كما هو عادة أكثر طلبة العلم، فإن كلامنا فيهم فهي نسبية لا مطلقة فلا يرد تقديم علم الأصول.

واعلم أن العلوم المحموده شرعا كثيرة، منها ما هو فرض عين يجب على كل مكلف تعلمه، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو مندوب، فأما الواجب المفروض على كل مسلم مكلف فقد اختلفوا فيه، قال الإمام الغزالي في (الإحياء): اختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل ولكن حاصله: أن كل فريق نَزَلَ الوجوب على العلم الذي هو بصده، فقال المتكلمون: هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة؛ إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها (١)، وقال المتصوفة: المراد به هذا العلم-أي علم التصوف-، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل، وقال بعضهم: العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان، وقال بعضهم: هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك، وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله إلى آخر الحديث؛ لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب. والذي ينبغي أن يقطع به المحصّل ولا يستريب فيه ما سنذكره، وهو أن المراد بهذا العلم علم المعاملة، والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك، فإذا بلغ الرجل العاقل في الاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهم

<sup>١</sup> قال الزبيدي في شرح الإحياء: هما قولان، فالمفسرون قالوا: هو علم الكتاب، وقال المحدثون: هو علم السنة، ولما كانت العلة متحدة جمعتهما في قول واحد اهـ.

معناها ولو إجمالاً وهو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحريّر الأدلة، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير احتلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث وبرهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلّاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل، فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفههما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنها، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد.

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد أن يقال: الظاهر أنه يجب عليه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم وهو أن يعلم أن وقته من الصباح إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين، فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال، وإنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام، فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف. ثم ذكر الغزالي الحج، وقال: لا يلزم المبادرة إليه فإنه على التراخي، فلا يكون تعلمه على الفور إلى آخر ما ذكره.

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص؛ إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب تعلمه بحسب ما يقتضيه الحال.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمة الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسمع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتنطق الناس بالبدع فينبغي أن يصاب في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه، وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب وقت وجوبه علم العلم الذي هو فرض عين.

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضاً، ولكن ليس في حق كل أحد، إنما هو في حق من يتصدى له ويتعرض ممن هو في سلوك طريق الحق، وإذا كان الغالب في الأحوال أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد وغير ذلك من الأوصاف الذميمة فيلزمه أن يتعلم ما يرى نفسه محتاجاً إليه. انتهى ملخصاً (١).

### أهمية الفقه وفضائله

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: كنت أنظر في الشعر فارتقيت عقبة بمنى فإذا صوت من خلفي عليك بالفقه.

وعن الحميدي قال: قال الشافعي: خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد الزنجي فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: من أين منزلك؟ قلت: بشعب الخيف، قال: من أي قبيلة؟ قلت: من عبد مناف، فقال: بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان أحسن بك. (٢)

<sup>١</sup> إحياء علوم الدين بزيادات يسيرة من شرحه إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي، في باب بيان العلم الذي هو فرض عين من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> تهذيب الأسماء واللغات، ج ١ ص ٦٨-٦٩.



قال الخطيب في (الفقيه والمتفقه): اعلم أن العلوم كلها أباير (١) للفقه، وليس دون الفقه الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى دون ما يحتاج إليه الفقيه؛ لأن الفقيه يحتاج أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة وإلى معرفة الجد والهزل والخلاف والضد والنفع والضرر وأمور الناس الجارية بينهم والعادات المعروفة منهم اهـ (٢) .

قال الحافظ ابن الجوزي: ينبغي للشاب المبتدئ طلب العلم أن يأخذ من كل علم طرفا ويجعل الفقه الأهم اهـ.

وقال النووي رحمه الله تعالى في (مقدمة المجموع): كان السلف لا يُعَلِّمُونَ الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالا يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصرا ويبدأ بالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو ثم الحديث والأصول ثم الباقي على ما تيسر (٣)

قال النووي أيضا: ينبغي أن يعتني من تأهل للتصنيف بعلم المذهب فإنه من أعظم الأنواع نفعا وبه يتسلط المتمكن على المعظم من باقي العلوم (٤).

وفي مقدمة المجموع:

عاب التفقه قوم لا خلاق لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر  
ماضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر ( ٥ )  
ومما قيل في الفقه:

إذا ما اعتز ذو علم بعلم فعلم الفقه أولى باعتزاز  
فكم طيب يفوح ولا كمسك وكم طير يطير ولا كباز

<sup>١</sup> وفي القاموس وشرحه الأبرار كل حب يبذر للنبات، والبزور الحبوب الصغار مثل بزور البقول وما أشبهها، والبزور إلقاء الأباير في القدر، يقال: بزر برمتك أي ألق فيها الأباير، والبزور ما يطيب به الغذاء اهـ.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه، في باب أوصاف المفتي، ج ٢ ص ١٥٨.

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

<sup>٥</sup> مقدمة المجموع، باب الإفتاء.

وقال الشيخ عبد الفتاح بن صالح قريش الياضي في كتابه (التمذهب): الفقه ثمرة الحديث، وهو أكثر ما يحتاجه الناس وأكثر ما يحتاجه المرء في نفسه، ولذا قال الإمام عبد الهادي ضياء الدين إبراهيم بن محمد بن القاسم الأهدي في مطلع منظومته بالقواعد الفقهية:

وبعد فالعلم عظيم الجدوى لا سيما الفقه أساس التقوى  
فهو أهم سائر العلوم إذ هو للخصوص والعموم

ولما أراد الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه أن يطلب العلم وتخبر بين العلوم اختار الفقه؛ لأنه أنفع العلوم، وأكثرها حاجة للناس، ومثل من يشتغل بالحديث دون الفقه كمن يهتم بالشجرة دون أن يأكل الثمر، ومن يأخذ الفقه من شروح الحديث كمثل من يأكل الثمر قبل أن تنضج، قال الحاكم في معرفة علوم الحديث: النوع العشرون من هذا العلم معرفة فقه الحديث إذ هو ثمرة هذه العلوم وبه قوام الشريعة (١) اهـ .

#### نكتة

ومما يدل على فضيلة الفقه والفقهاء قوله صلى الله عليه وسلم: يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء رتوة<sup>(٢)</sup>، وقوله صلى الله عليه وسلم: أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل<sup>(٣)</sup>. فالحديث الأول يدل على أنه يتقدم العلماء يوم يدعو الله كل أناس بإمامهم، والحديث الثاني يدل على أنه أعلمهم بالحلال والحرام، ومعلوم أن الفقه هو مبحث الحلال والحرام، فكأنه بين السبب الذي اقتضى تقدمه على العلماء، ولا شك أن فيهم من هو أفضل وأعلم بالتفسير والحديث منه، كالخلفاء الراشدين الأربعة وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولا يخفى أن على بن طالب الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابها، وترجمان القرآن خير هذه الأمة عبد الله بن عباس هما أعلم منه، وكذلك لا شك أن أبا هريرة وأم المؤمنين عائشة وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود

<sup>١</sup> التمذهب ص ٢٥٨-٢٥٩.

<sup>٢</sup> قال الهيثمي في الفتح المبين شرح الأربعين: أي رمية بسهم، وقيل: بحجر، وقيل: بميل، وقيل: مد البصر اهـ ص ٣٤٩. وقال في هامش فتح المبين على الأربعين النووية: رواه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني ١٨٣٣ عن سيدنا عمر رضي الله عنه.

<sup>٣</sup> قال في هامش فتح المبين على الأربعين النووية: أخرجه ابن حبان ص ٧١٣١، والترمذي ٣٧٩٠، وابن ماجه ١٥٤ عن سيدنا أنس رضي الله عنه..

وأما لهم كانوا أعلم منه بالحديث وأكثر رواية منه، ومن المعلوم أن المفضل قد يختص بمزية أو مزايا على من هو أفضل وأرفع درجة منه، فلا استغراب حينئذ على تقدمه واختصاصه بهذه المنقبة العلية والدرجة السنية في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون. ففي تقديم معاذ رضي الله عنه في هذا اليوم على العلماء وفيهم من هو أفضل منه وأجل شرف كبير وفخر عظيم للفقهاء والفقهاء.

وكما يتقدم أعلم الصحابة بالحلال والحرام في القيامة كذلك يُقدّم شرعا علماء الحلال والحرام وهم الفقهاء بالإمامة في الصلوات، فقد قال أبو إسحق الشيرازي في المذهب: السنة أن يؤم القوم أقرؤهم وأفقههم، فإن زاد أحدهما في الفقه وزاد الآخر في القراءة فالأفقه أولى اهـ.

وقال النووي في المجموع شرح المذهب: قال أصحابنا: الأسباب المرححة في الإمامة ستة الفقه والقراءة والورع والسن والنسب والمجرة، وإذا تعارضت أسباب التقديم فالأصح أن الأفقه مقدم على الأقر والأورع وغيرهما، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والأوزاعي وأبو ثور اهـ.

### تنبيه في أن المحدث لا يستغني عن الفقه أصلا

اعلم أن الأثري المحدث العارف بعلوم الحديث المتنوعة، العالم بجليها ودقيقها، المتضلع من زلال حياضها الغواص في لجج بحارها، المستخرج من أصدافها جواهرها الكامنة ودررها الغالية لا يستغني عن الفقه وأربابه، فإنهم أهل النظر والاستنباط من الكتاب والسنة ومعرفة كيفية الاستدلال بهما، وهم العالمون بالإجماع والقياس، وأما الفقيه وإن كان محتاجا إلى الحديث وعلومه المتنوعة ليكون عارفا بدرجة الحديث الذي يستدل به ويستنبط منه الأحكام الشرعية لكن حاجة المحدث إلى الفقه أشد بكثير من حاجة الفقيه إلى الحديث، فإن من اعتنى بالحديث ومهر فيه وحفظ جملة من كتبه ولم يهتم بشيء من الفقه بل أعرض عنه بالكلية فجدير به أن يجهل عن البديهيات التي لا تخفى على مبتدئي طلبة علم الفقه، وأن تكثر غلطاته وأخطاؤه في صلاته وصيامه ونحوهما، وقد كثر في هذه الأزمنة من يدعي العمل بالسنة وأخذ الأحكام منها مع أنه لم يحفظ منها أصغر كتاب مثل الأربعين للإمام النووي، والفقيه هو المقدم في الإمامة الصلوات وهو الذي يستفتى به في

العبادات والعقود والحدود والقضاء وفصل الخصومات. قال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): قال سفيان بن عيينة أو غيره: الحديث مضلة إلا للفقهاء، ومعناه: أن الحديث كالقرآن في أنه قد يكون عام اللفظ خاص المعنى وعكسه، ومنه ناسخ ومنسوخ، ومنه ما لم يصحبه عمل، ومنه مشكل يقتضي ظاهره التشبيه كحديث ينزل ربنا إلخ، ولا يعرف معنى هذه إلا الفقهاء بخلاف من لا يعرف إلا مجرد الحديث؛ فإنه يضل فيه كما وقع لبعض متقدمي الحديث بل ومتأخريهم كابن تيمية وأتباعهم، وبهذا يعلم فضل الفقهاء المستنبطين على المحدثين غير المستنبطين اهـ.

وروى ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) بسنده والهيتمي في (الفتاوي الحديثية) أن امرأة وقفت على مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وخلف بن سالم في جماعة يتذاكرون الحديث فسمعتهم يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورواه فلان وما حدث به غير فلان، فسألتهم عن الحائض هل تغسل الموتى وكانت غاسلة فلم يجبهما أحد منهم، وكانوا جماعة وجعل بعضهم ينظر إلى بعض، فأقبل أبو ثور، فقالوا لها: عليك بالمقبل، فالتفتت إليه وقد دنا منها، فسألته، فقال: نعم تغسل الحديث القاسم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: إن حيضتك ليست في يدك؛ ولقولها: كنت أفرق رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالماء وأنا حائض، فقال أبو ثور: فإذا فرقت رأس الحي فالميت أولى به، فقالوا: نعم، رواه فلان وأحبرناه فلان، ونعرفه من طريق كذا، وخاضوا في الروايات والطرق، فقالت المرأة: فأين أنتم إلى الآن (١) اهـ.

وقال الهيتمي: كان الأعمش يسأل أبا حنيفة رضي الله عنهما عن المسائل فيجيبه، فيقول: من أين لك هذا؟ فيقول: أنت حدثتنا عن النخعي بكذا، أو عن الشعبي بكذا، فيقول الأعمش عند ذلك: يا معشر الفقهاء نحن الأَطْيَار وأنتم الصيادون لها (٢)، وعن عطية قال: كنت عند شعبة فقال: يا أبا محمد إذا جاءكم معضلة من تسألون عنها؟ فقلت في نفسي:

<sup>١</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ج ١ ص ٢٢٩.

<sup>٢</sup> وروى ابن عبد البر بسنده عن عبيد الله بن عمرو قال: كنت في مجلس الأعمش، فجاءه رجل فسأله عن مسألة فلم يجبه فيها، ونظر فإذا أبو حنيفة، فقال: يا نعمان قل فيها، قال: القول فيها كذا، قال: من أين؟ قال: ما حدثناه، قال: فقال الأعمش: نحن الصيادلة وأنتم الأطباء اهـ جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٦٠ باب ذكر من ذم الإكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه.

هذا رجل أعجبته نفسه، فقلت له: نتوجه إليك وإلى أصحابك حتى تفتوا، فما بقيت إلا قليلا حتى جاء سائل فقال: يا أبا بسطام رجل ضرب رجلا على أم رأسه، فادعى أنه ذهب بذلك ثمة، فجعل يتشاغل عنه يمينا وشمالا، فأومأت للرجل أن يلح عليه، فالتفت إلى وقال لي: يا أبا محمد ما أشرّ البغي على أهله، والله ما عندي فيه شيء أنت أنت، فقلت: يستفتيك وأنا أجيبه؟ فقال: إني سائلك، فقال: سمعت الأوزاعي والزهري يقولان: يدق الخردل دقا بالغا ويشم، فإن عطس فقد كذب، وإن لم يعطس فقد صدق، فقال: جئت بها والله ما يعطس رجل انقطع ثمة.

وقال ابن عبد البر: أراد الأعمش الحج، فلما بلغ الحيرة قال لعلي بن مشهد: اذهب إلى أبي حنيفة حتى يكتب لنا المناسك.

وقال ابن وهب: كل صاحب حديث لا يكون له رأس في الفقه لا يفلح أبدا، ولولا أن الله تعالى أنقذنا بمالك لضللنا.

وقال بعضهم: لا أجهل من صاحب حديث إن لم يتفقه فيه.

وقال مالك رضي الله عنه لابن أخته بكر وإسماعيل: أراكما تحبان الحديث وتطلبانه قالوا: نعم، قال: إن أحببتم أن تنتفعا به وينفع الله بكم فأقلا من الحديث وتفقهها، أشار رضي الله عنه إلى أنه لا بد من معرفة الحديث لكن العمدة إنما هي على التفقه فيه (١) اهـ.

وروى ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية) والسيوطي في (تدريب الراوي) عن عمار بن محمد بن مخلد التميمي قال: سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد البخاري قال: لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن زيد الهمداني عن قضاء الري ورد بخارى فنزل في جوارنا، فحملني معلمي أبو إبراهيم الختلي إليه وقال له: أسألك أن تحدث هذا الصبي بما سمعت من مشايخك، فقال: مالي سماع، قال: فكيف وأنت فقيه؟ قال: لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلى معرفة الحديث، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري، وأعلمته مرادي، فقال لي: يا بني لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره، واعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعاً مع أربع، كأربع مثل أربع، في أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع، وكل هذه

<sup>١</sup> الفتاوي الحديثية، ص ٢٤٢-٢٤٣.

الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع وابتلي بأربع، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع، قلت له: فسر لي رحمك الله ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات، قال: نعم، أما الأربعة التي يحتاج إلى كتبها هي أخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وشرائعه، والصحابة ومقاديرهم، والتابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتواريخهم، مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمنتهم، كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع الرسائل، والبسملة مع السور، والتكبيرات مع الصلوات، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات، في صغره وفي إدراكه وفي شبابه وفي كهولته، عند شغله وعند فراغه وعند فقره وعند غناه، بالجبال والبحار والبلدان والبراري، على الأحجار والأصداف والجلود والأكتاف، إلى الوقت الذي يمكنه نقله إلى الأوراق عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه، وعن كتاب أبيه الذي يتيقن أنه خطه دون غيره لوجه الله تعالى طلبا لمرضاته، والعمل بما وافق كتاب الله تعالى ونشرها بين طالبها، والتأليف في إحياء ذكره بعده، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع هي من كسب العبد، معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو، مع أربع هن من محض عطاء الله تعالى، القدرة والصحة والحرص والحفظ، فإذا تمت هذه الأشياء هان عليه أربع، الأهل والمال والوطن والولد، وابتلي بأربع، شتماته الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء، فإذا صبر على هذه المحن الأربع أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع، بعز القناعة، وتهنئة النفس، ولذة العلم، وحسن الذكر (١)، وأثابه الله في الآخرة بأربع، بالشفاعة لمن أراد من أحبابه، وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، وبسقي من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم، وبجوار الرحمن (٢) في أعلى العليين في الجنة، فقد أخبرتك يا بني بمجملات جميع ما كنت سمعت من مشايخي متفرقا في هذا الباب، فأقبل الآن على ما قصدتني له أو دغ، قال: فهالني قوله فسكت متفكرا، وأطرقت نادما، فلما رأى ذلك مني قال لي: فإذا لم تنطق هذه المشاق كلها فعليك بالفقه الذي يمكنك فعله وأنت بيتك لا تحتاج لبعد الأسفار، ووطء الديار، وركوب البحار، وهو مع ذلك ثمة الحديث، وليس ثواب

<sup>١</sup> وفي بعض النسخ: وبهية اليقين وبجياة الأبد بدل قوله: تهنئة النفس وحسن الذكر.

<sup>٢</sup> وفي بعض النسخ: وجوار النبيين.

الفقه دون ثواب الحديث في الآخرة، ولا فن الفقيه بأقل من فن المحدث، قال: فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت متقدما فيه، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه على هذا الصبي، فقال له المعلم: إن هذا الحديث الذي لا يوجد عند غيرك خير للصبي من كلام كثير نجده عند غيرك انتهى. واستفيد من ذلك مزيد فضل الفقه، وأنه ثمرة الحديث وإن كان طلب الحديث أشدّ وتحصيله أشقّ.

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: من تعلم الفقه عظمت قيمته، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم الشعر والعربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه (١).

وروى ابن عبد البر بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: من حفظ القرآن عظمت حرمة، ومن طلب الفقه نُبل قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم (٢).

قلت: لا شك أن الحديث والفقه هما أهم العلوم بعد كتاب الله تعالى، وأن الحديث مفسر للقرآن الكريم، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} وقال الإمام الشافعي رحمه الله: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وأن الفقه مستنبط ومستمد منهما، فهما أصلان والفقه فرعهما، وقد كثر الاختلاف في الأهم من الحديث والفقه، وما زال التنافس بين أصحابهما، فقليل: الحديث؛ لأنه الأصل، وقيل: الفقه؛ لأنه المبين المفسر للحديث، ولولا الفقه لم يعرف الفرق بين الأركان والشروط، ولا الفرق بين الأبعاد والهيئات للصلاة، ونحو ذلك من البديهيّات، فضلا عن الدقائق الخفيات، والمشكلات العضلات، ومعلوم أن منبع الفقه ومأخذه غير منحصر بفن الحديث فقط، بل مأخذه كثيرة، كالقرآن والحديث والإجماع والقياس بأنواعه وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة، فلهذا تجد الفقه يذكر مسائل كثيرة أخذ قيودها وشروطها واحترازاتها من تلك المنابع المختلفة، فالفقيه يشرب في الحقيقة من أودية

<sup>١</sup> الفتاوي الحديثية، ص ٢٤٢-٢٤٤ وتدريب الراوي ج ٢ ص ١٥٦-١٥٩.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٥٤.

كثيرة مباركة لا من واد الحديث الشريف فقط، فهو كالنحل تأكل من كل الثمرات وتسلك سبل ربها فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. ومن تكلم عن ذلك الإمام الشهير والمحدث الكبير والفقيه المحقق أبو سليمان الخطابي فقال في مقدمة كتابه (معالم السنن شرح سنن أبي داود): رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين، أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة، لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الذي هو له كالفرع، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب، ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في الحلين، والتقارب في المنزلة، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه إخوانا متهاجرين، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين، فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث فإن الأكثرين منهم إنما وكدهم الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب، لا يراعون المتون ولا يفهمون المعاني، ولا يستخرجون ركازها وفقهها، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن، ولا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون، وبسوء القول فيهم آثمون، وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر فإن أكثرهم لا يعرفون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيم، ولا يعرفون جيده من رديئه، ولا يعباون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها، ووافق آراءهم التي يعتقدونها، وقد اصطالحوا على مواضع (١) بينهم في قبول الخبر الضعيف، والحديث المنقطع إذا كان ذلك قد اشتهر عندهم، وتعاورته (٢) الألسن فيما بينهم، من غير ثبت فيه، أو يقين علم به، فكان ذلك ضلة من الرأي وغبنا فيه، وهؤلاء وفقنا الله وإياهم لو حكى لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاد من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة، واستبرؤا له

<sup>١</sup> أي على موافقة بينهم، ففي القاموس: المواضعة الموافقة في الأمر.

<sup>٢</sup> أي تداولته الألسن كما في القاموس.



العهد، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون من مذهبه إلا ما كان من رواية ابن القاسم والأشهب وضربائهم من تلاد أصحابه، فإذا جاءت رواية عبد الله بن عبد الحكم وأضرابه لم تكن عندهم طائلا، وترى أصحاب أبي حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن والعلية من أصحابه والأجلة من تلامذته، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذويه رواية قول بخلافه لم يقبلوه ولم يعتمدوه، وكذلك تجد أصحاب الشافعي إنما يُعَوَّلُون في مذهبه على رواية المزني والربيع بن سليمان المرادي، فإذا جاءت رواية حرملة والجيزي وأمثالهما لم يلتفتوا إليها، ولم يعتدوا بها في أقاويله، وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأستاديتهم، فإذا كان هذا دأبهم وكانوا لا يقنعون في أمر هذه الفروع ورواياتها عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والثبت، فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم، والخطب الأعظم، وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة الواجب حكمه، اللازمة طاعته، الذي يجب علينا التسليم لحكمه، والانقياد لأمره، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجا مما قضاه، ولا في صدورنا غلا من شيء مما أبرمه وأمضاه، أرايتم إذا كان للرجل أن يتساهل في أمر نفسه ويتسامح عن غرمائه في حقه فيأخذ منهم الزيف، ويغضي لهم عن العيب هل يجوز له أن يفعل ذلك في حق غيره إذا كان نائبا عنه كولي الضعيف ووصي اليتيم ووكيل الغائب، وهل يكون ذلك منه إذا فعله إلا خيانة للعهد وإخفارا للذمة، فهذا هو ذاك، ولكن أقواما عساهم استوعروا طريق الحق، واستطالوا المدة في درك الحظ، وأحبوا عجلة النيل فاختصروا طريق العلم، واقتصروا على حروف منتزعة عن معاني أصول الفقه سموها عللا، وجعلوها شعارا لأنفسهم في الترسم برسم العلم، واتخذوها جنة عند لقاء خصومهم، يتناظرون بها ويتلاطمون عليها، وعند التصادر عنها قد حكم للغالب بالحذق والتبريز، فهو الفقيه المذكور في عصره، والرئيس المعظم في بلده ومصره، هذا وقد دس لهم الشيطان حيلة لطيفة، وبلغ منهم مكيدة بليغة، فقال لهم: هذا الذي في أيديكم علم قصير وبضاعة مزجاة، لا تفي بمبلغ الحاجة والكفاية فاستعينوا عليه بالكلام، وصلوه بمقطعات منه واستظهروا بأصول المتكلمين يتسع لكم مذهب الخوض ومجال النظر، فصدق عليهم ظنه،

وأطاعه كثير منهم واتبعوه إلا فريقا من المؤمنين، فيا للرجال والعقول أنى يذهب بهم، أنى يختدعهم الشيطان عن حظهم وموضع رشدهم، والله المستعان انتهى كلام الخطابي. واعلم أن التبحر في الفقه والحديث أمر متعسر على أكثر الناس ومعظمهم فقد قال القسطلاني في (إرشاد الساري): قال إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى: تريد أن تجمع بين الفقه والحديث؟ هيهات (١) انتهى بحذف يسير.

### وَعِلْمُ أَصُولِ الدِّينِ يَتْلُوهُ فَالْتَمِسْ بِجِدِّ صَحِيحِ الْإِعْتِقَادِ بِسُرْعَةٍ

أي يتلو فن الفقه في الأهمية والفرضية علم أصول الدين فقد قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (مقدمة المجموع): وأما أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقاده اعتقادا جازما سليما من كل شك، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحدا بشيء سوى ما ذكرنا، وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول، بل الصواب للعوام وجمهير المتفقهين والفقهاء الكف عن الخوض في دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجهم، بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم، وقد نص على هذه الجملة جماعات من حذاق أصحابنا وغيرهم.

وقد بالغ إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشد مبالغة، وأطنب في تحريمه وتغليظ العقوبة لمتعاطيه، وتقبيح فعله وتعظيم الإثم فيه، فقال: لأن يلقي الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقيه بشيء من الكلام، وألفاظه بهذا المعنى كثيرة مشهورة.

وقد صنف الغزالي رحمه الله تعالى في آخر أمره كتابه المشهور الذي سماه إجماع العوام عن علم الكلام وذكر أن الناس كلهم عوام في هذا الفن من الفقهاء وغيرهم إلا الشاذ النادر الذي لا تكاد الأعصار تسمح بواحد منهم والله أعلم.

<sup>١</sup> مقدمة إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للحافظ القسطلاني ص ٢٨.

ولو تشكك والعياذ بالله في شيء من أصول العقائد مما لا بد من اعتقاده، ولم يزل شكه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل. واختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أو لا؟ فقال قائلون: تتأول على ما يليق بها، وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين، وقال آخرون: لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معانيها ويوكل علمها إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه، فيقال مثلاً: نؤمن أنا نعتقد أن الله تعالى {ليس كمثله شيء} وأنه منزّه عن الحلول وسمات الحدوث، وهذه طريقة السلف أو جماهيرهم وهي أسلم. إذ لا يطالب الإنسان بالخوض في ذلك، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى الخوض في ذلك والمخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه، فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وقال محيي السنة الإمام البغوي في مقدمة كتابه (التهذيب): وأولى العلم بالتعلم بعد معرفة الله تعالى بالوحدانية والصفات والإيمان بملائكته وكتبه ورسله علم الفقه ومعرفة أحكام الشرع؛ لأن الله تعالى خلق الخلق للعبادة، فقال جل ذكره: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وأرسل الرسل إلى العباد وأنزل معهم الكتاب ليبينوا لهم الشرائع والأحكام، قال الله تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} وقال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} وقال جل ذكره: {كونوا ربانيين} قال ابن عباس: حكماء وفقهاء اهـ.

وقال الإمام اللقاني في الجوهرة:

وبعد فالعلم بأصل الدين محتم يحتاج للتبيين

وقال أيضاً:

فكل من كلف شرعاً وجباً عليه أن يعرف ما قد وجباً  
لله والجائز والممتنع ومثل ذا لرسله فاستمعاً  
إذ كل من قلّد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد

<sup>١</sup> مقدمة المجموع، ص ٦٢-٦٣.

ففيه بعض القوم يحكي الخلفا وبعضهم حقق فيه الكشف  
فقال إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير  
واجزم بأن أولا مما يجب معرفة وفيه خلف منتصب

وقال ابن رسلان في (الزبد):

أول واجب على الإنسان معرفة الإله باستيقان

وسئل ابن حجر الهيتمي ما الذي يجب علينا تعلمه واعتقاده بينوا لنا بيانا شافيا لا يُحتاج معه إلى مراجعة مُصنّف، ولكم الثواب الجزيل من الملك الجليل؟.

فأجاب بقوله: مما يجب على كل مكلف وجوبا عينيا لا رخصة في تركه أن يتعلم ظواهر الاعتقادات الواردة في الكتاب والسنة مع تنزيه الله تعالى عما هو محال عليه مما يقتضي جسما أو جهة كالاستواء على العرش والآيات والأحاديث التي فيها ذكر الوجه واليد، فهذه ونحوها فيها مذهبان، مذهب السلف -وهو الأسلم- أن يفوض علم حقائقها إلى الله تعالى من التنزيه عما دلت عليه ظواهرها مما هو مستحيل على الله، ومذهب الخلف، وهو أن يخرج تلك النصوص عن ظواهرها وتحمل على محامل تليق به تعالى كحمل الاستواء على الاستيلاء، والوجه على الذات، والعين على تمام الرعاية والكلاءة والحفظ، واليد على النعمة والقدرة، وغير ذلك مما هو مبسوط في محاله من كتب العقائد وغيرها، فالمذهبان متفقان على التنزيه عن ظواهر تلك النصوص المشككة، وإنما اختلفوا هل يفوض علمها إلى الله تعالى ولا يتعرض لتأويلها؟ وهو مذهب السلف، أو يتعرض لتأويلها صونا لها عن خوض المبطلين وزيف الملحدين؟ وهو مذهب الخلف، وأما بقية نصوص الكتاب والسنة مما دل على التوحيد والتقديس وسائر صفات الكمال كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والبقاء، وسائر صفات السلب كليس يجسم ولا جوهر ولا عرض ولا متحيز ولا في مكان ولا يحده زمان ولا يتصوره وهم -ليس كمثله شيء وهو السميع البصير- فهذه كلها يجب على كل أحد أن يتعلم ظواهرها، وكذلك يجب ذلك في نحوها ككون العبد لا يخلق أفعال نفسه خيرها وشرها، وإنما الخالق لذلك والموجد له هو الله وحده لا شريك له، وككونه تعالى يُرى في الآخرة، وككون عذاب القبر

وسؤال الملّكين والصراط والحوض والميزان والحساب حقاً، وأن الجنة والنار مخلوقتان اليوم، وسائر ما يتعلق بالمعاش والمعاد اهـ .

وقال أيضاً: الذي صرح به أئمتنا أنه يجب على كل أحد وجوباً عينياً أن يعرف صحيح الاعتقاد من فاسده، ولا يشترط فيه علمه بقوانين أهل الكلام لأن المدار على الاعتقاد الجازم ولو بالتقليد على الأصح، وأما تعليم الحجج الكلامية والقيام بها للرد على المخالفين فهو فرض كفاية، اللهم إلا إن وقعت حادثة وتوقف دفع المخالف فيها على تعلّم ما يتعلق بها من علم الكلام أو آلاته، فيجب علينا على من تأهل لذلك تعلّمه للرد على المخالفين .

وقيل للقاضي أبي الطيب: إن قوما يذمون علم الكلام، فأنشد:

عاب الكلام أناس لا خلاق لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر  
ما عاب ( ١ ) شمس الضحى في الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر  
طالعة

وما قيل إنه بدعة لأنه لم ينظر فيه السلف مع أنه يورث المراء والجدال والشبهات ردّ بأنه نظر فيه السلف قطعاً، منهم عمر وابنه وعلي وابن عباس رضي الله عنهم، ومن التابعين عمر بن عبد العزيز وربيعه وابن هرمز، ومالك والشافعي رضي الله عنهم، وألف مالك رضي الله عنه فيه رسالة قبل أن يولد الشافعي رضي الله عنه، وإنما نسب للأشعري لأنه بين مناهج الأولين ولخص موارد البراهين ولم يُحدِث فيه بعد السلف إلا مجرد الألقاب والاصطلاحات، وقد حدث مثل ذلك في كل فن من فنون العلم، والقول بأن السلف نهوا عن النظر فيه باطل، وإنما الذي نهوا عنه علم الجهمية والقدرية وغيرهم من أهل البدع وهم الذين ذمهم الشافعي وغيره من السلف.

وقال أيضاً: لا ينبغي للإنسان الذي لم يحط بمقدمات العلوم الإلهية والبراهين القطعية أن يشتغل بمطالعة شيء من كتب العقائد المشكّلة، فإنّها مزلة الأقدام للعوام، جالبة لوقوعهم في ورطة الحيرة والأوهام، بل ربما أدى بهم ذلك إلى الكفر الصريح والابتداع

<sup>١</sup> وفي مصادر أخرى: ما ضر بدل ما عاب.

القيح(١)، فليترك العاقل ذلك إذا أراد سلامة دينه، فإن كان فاعلاً ولا بد فليلزم شيخنا شيخا عالماً

بفن الكلام وغيره نصوحاً سليم العقيدة، فليقرأ عليه في ذلك مبتدئاً فيه إلى أن يحيط بشيء منه بقدر ما يصحح به عقيدته، ثم يترك التوغل في ذلك فإنه الضلال الأكبر كما أشار إليه إمامنا الشافعي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس متقلبه ومثواه آمين(٢) اهـ. وقال اللقاني في (جوهره التوحيد):

إذ كل من قلّد في التوحيد (٣) إيمانه لم يخل من ترديد

ففيه بعض القوم يحكي الخلفاء وبعضهم حقق فيه الكشف

فقال إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير

قال الباجوري في حاشيته عليها: وحاصل الخلاف في التقليد في التوحيد أقوال ستة، أرجحها الاكتفاء بالتقليد مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر وإلا فلا عصيان، وحكى الآمدي اتفاق الأصحاب على انتفاء كفر المقلد، وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمانه إلا لأبي هاشم الجبائي من المعتزلة.

والخلاف في إيمان المقلد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله، وأما بالنظر إلى أحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط، فمن أقرّ جرت عليه الأحكام الإسلامية، ولم يحكم عليه بالكفر (٤).

<sup>١</sup> قال الباجوري في حاشيته على (السلم): وعلم الكلام المنهي عنه: فهو الكتب المشتملة على تخطيطات الفلاسفة كالمطالع والطوالع والمواقف والمقاصد اهـ.

<sup>٢</sup> الفتاوى الحديثية، ص ١٧٦-١٧٧.

<sup>٣</sup> قال الباجوري: التقليد هو الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف دليله، وأما من عرف دليله كالتلامذة بعد أن يرشدهم الأشياخ للأدلة فهم عارفون لا مقلدون، وضرب لهم الشيخ السنوسي مثلاً للفرق بينهم وبين المقلدين بجماعة نظروا للهلال، فسبق بعضهم لرؤيته فأخبرهم به، فإن صدقوه من غير معاينة كانوا مقلدين، وإن أرشدهم بالعلامة حتى عاينوه لم يكونوا مقلدين اهـ.

<sup>٤</sup> تحفة المريد على جوهره التوحيد ص ٢٢-٢٣.

وَحُضُّ بَعْدَ ذَيْنِ فِي بُحُورِ الْفُنُونِ ( ١ ) مَعَ رِعَايَةِ تَرْتِيبٍ بِإِمْعَانٍ فِكْرَةٍ  
أي اجتهد وخض بحر الفنون الأخرى الآتية بعد هذين الفنين المذكورين مع رعاية  
الترتيب، وتقديم الأهم فالأهم، قال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله: العلم كالبحار  
المتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فاشتغل بالمهم منه، فإنه من شغل نفسه بغير  
المهم أضر بالمهم اهـ .

### وَبَادِرُ إِلَى نَحْوٍ وَصَرَفٍ أَصُولٍ فَقْ — هُنَا .

يعني بادر إلى تعلم فن النحو والصرف ....، فأما النحو: فهو علم يعرف به أحوال أواخر  
اللفظ إعرابا وبناء.

وواضعه: أبو الأسود الدؤلي بأمر سيدنا علي بن أبي طالب له بوضعه، وهو فن مهم لا بد  
لكل طالب علم أن يتعلمه ليحترز به عن الخطأ في حركات الألفاظ العربية وفهم معاني  
كلماتها، ويحترز أيضا عن اللحن المعْيَر للمعاني المقصودة من الألفاظ، والمخل لمحاسن  
العبارات.

وكان ابتداء هذا الفن واختراعه في عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد  
قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي  
في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله  
عليه وسلم؟ قال: فأقرأه رجل "براءة" فقال: {إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}<sup>١</sup>  
بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برأ الله من رسوله؟، فإن يكن الله برأ من رسوله فأنا أبرأ منه،  
فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟  
فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني فأقرأني  
هذا سورة براءة فقال: إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فقلت: أو قد برأ الله من  
رسوله إن يكن الله برأ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال:  
فكيف هي يا أمير المؤمنين، قال: {إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، فقال الأعرابي:

<sup>١</sup> في هذا البيت تشبيه فنون العلم بالبحار، وذكر الخوض ترشيح.

وأنا والله أبرأ مما برأ الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يقرأ الناس إلا عالم باللغة، فأمر أبا الأسود فوضع النحو<sup>(١)</sup>.

وقال الحافظ الذهبي: قال أبو داود السُّنَّجِي: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه السلام: من كذب على فليتبوأ مقعده من النار<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي عكرمة قال: كان عمر بن الخطاب إذا سمع رجلاً يخطئ فتح عليه، وإذا أصابه بلحن ضربه بالدرة<sup>(٣)</sup>.

وفي (كز العمال) عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن مر من قبلك يتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق، رواه ابن الأنباري.

وفيه أيضاً: عن أبي الأسود الدؤلي قال: دخلت على علي بن أبي طالب فرأيتَه مطرقاً متفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إذا فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيتَه بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت عنه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأنّ ولم أذكر لكنّ، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بلى هي منها، فزاد لي فيها، رواه أبو القاسم الزجاجي في أماليه<sup>(٤)</sup>.

<sup>١</sup> مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

<sup>٢</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ١٧٦-٢٧٧.

<sup>٣</sup> كنز العمال ج ١٠ ص ١٣٣.

<sup>٤</sup> كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ٧ ص ١٢٥.



وعن علي بن الجعد قال: سمعت شعبة يقول: مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها، وقال حماد بن سلمة: من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال: العربية فهو كمثل الحمار، تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير، وقيل للحسن: إن لنا إماما يلحن، قال: أخروه (١).

وأما الصرف فهو علم يعرف به أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب ولا بناء. ويقال: علم يبحث فيه عن أبنية الكلم وأحوالها صحة وإعلالا.

وواضعه: معاذ بن مسلم.

وأما أصول الفقه فهو كما في (النفحات على شرح الورقات): علم يعرف به أحوال الأدلة والأحكام الشرعيتين من حيث إن له دخلا في إثبات الأحكام بالأدلة.

وفي (جمع الجوامع): هو دلائل الفقه الإجمالية، وقيل معرفتها، والأصولي العارف بها وبطرق استفادتها اهـ.

وواضعه: الإمام الشافعي رضي الله عنه.

### ....وَالْحَدِيثُ ذِي الْعُلُومِ السَّنِيَّةِ

أي بادر إلى تعلّم الحديث الشريف ذي العلوم الرفيعة والأنواع الكثيرة، وهو أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته، وقد قسموه إلى ثلاثة أقسام، قال السيوطي في ألفية الحديث:

والأكثر من قسموا هذي السنن إلى صحيح وضعيف وحسن

قال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي): اعلم أن أنواع علوم الحديث كثيرة لا تعد، قال الحازمي في كتاب العجالة: علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة، كل نوع منها علم مستقل، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته، وقد ذكر ابن الصلاح منها وتبعه المصنف -أي النووي- خمسة وستين وقال: وليس ذلك بآخر الممكن في ذلك فإنه قابل للتنويع إلى ما لا يحصى (٢). وزاد عليها السيوطي في تدريبيه وأنهاها إلى ثلاثة وتسعين نوعا.

<sup>١</sup> مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

<sup>٢</sup> مقدمة تدريب الراوي ج ٢ ص ٥٣.

وسئل العلامة شهاب الدين ابن حجر الهيتمي نفع الله به عن الجلوس لسماع الحديث وقراءته هل فيه ثواب أم لا؟

فأجاب بقوله: إن قصد بسماعه الحفظ وتعليم الأحكام أو الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أو اتصال السند ففيه ثواب، وأما قراءة متون الأحاديث فقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في شرح اللمع: إن قراءة متونها لا يتعلق بها ثواب خاص لجواز قراءتها وروايتها بالمعنى، قال ابن العماد: وهو ظاهر إذ لو تعلق بنفس ألفاظها ثواب خاص لما جاز تغييرها وروايتها بالمعنى، بخلاف القرآن فإنه معجز، وإذا كانت قراءته المجردة لا ثواب فيها لم يكن في استماعه المجرد عما مر ثواب بالأولى، وأفقي بعضهم بالثواب وهو الأوجه عندي، لأن سماعها لا يخلو من فائدة، لو لم يكن إلا عود بركته صلى الله عليه وسلم على القارئ والمستمع فلا ينافي ذلك قولهم: إن سماع الأذكار مباح لا سنة اهـ (١)

وقال الشيخ عطية الأجهوري في حاشيته على الزرقاني على منظومة البيقونية: قال الإمام محمد بن محمد البديري الدمياني في آخر شرحه للبيقونية ما نصه: وأما قراءة الحديث مجوذة كتجويد القرآن من أحكام النون الساكنة والتنوين والمدود والقصر وغير ذلك فهي مندوبة كما صرح به بعضهم، لكن سألت شيعي خاتمة المحققين الشيخ علي الشيراملسي تغمد الله تعالى بالرحمة حالة قراءتي عليه صحيح البخاري عن ذلك، فأجابني بالوجوب، وذكر لي أنه رأى ذلك منقولا في كتاب يقال له: (الأقوال الشارحة في تفسير الفاتحة)، وعلل الشيخ حينئذ ذلك بأن التجويد من محاسن الكلام ومن لغة العرب ومن فصاحة المتكلم، وهذه المعاني مجموعة فيه صلى الله عليه وسلم، فمن تكلم بحديثه صلى الله عليه وسلم فعليه مراعاة ما نطق به صلى الله عليه وسلم (٢).

وفي (فتح المغيث) للحافظ السخاوي: سأل أبو عمرو إسماعيل بن نجيد أبا عمرو بن حمدان وكان من عباد الله الصالحين بأي نية أكتب الحديث، قال: أستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟ قال: نعم، قال: فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الصالحين (٣).

<sup>١</sup> الفتاوى الحديثية، ص ٣٣٨.

<sup>٢</sup> حاشية الشيخ عطية الأجهوري ص ٨٤.

<sup>٣</sup> فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج ٢ ص ٣١٧.

متى يكتفي العالم بالحديث ومن هو المحدث والحافظ والحجة والحاكم؟

قال العلامة علي القاري: الحافظ هو من أحاط علمه بمائة ألف حديث، ثم بعده الحجة وهو من أحاط علمه بثلاثمائة ألف حديث، ثم الحاكم وهو الذي أحاط علمه بجميع الأحاديث المروية متنا وإسنادا، وجرحا وتعديلا وتاريخا، كذا قاله جماعة من المحققين.

وقال العلامة الجزري: الراوي ناقل الحديث بالاسناد، والمحدث من تحمل الحديث رواية واعتنى به دراية، والحافظ من روى ما يصل إليه ووعى ما يحتاج لديه.

وقال العراقي: المحدث في عرف المحدثين من يكون له كتب وقرأ وسمع ووعى ورحل إلى المدائن والقرى، وحصل أصولا من متون الأحاديث وفروعا من كتب المسانيد والعلل والتواريخ التي تقرب من ألف تصنيف انتهى. قال القاري: وكأنه تعريف المنتهي<sup>(١)</sup>.

وقال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي): قد كان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى. والحق أن الحافظ أخص.

وقال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع رواية، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه حظه، واشتهر فيه ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وسيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجمله منها فهذا هو الحافظ.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: إنه سأل الحافظ جمال الدين المزي عن حد الحفظ الذي إذا انتهى إليه الرجل جاز أن يطلق عليه الحافظ؟ قال: يرجع إلى أهل العرف، فقلت: وأين أهل العرف؟ قليل جدا، قال: أقل ما يكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب، فقلت له: هذا عزيز في هذا الزمان، أدركت أنت أحدا كذلك؟ فقال: ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي، ثم قال: وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة، ولكن أين السُّهّا

<sup>١</sup> شرح شرح نخبه الفكر لعلي بن سلطان محمد القاري ص ١٢١-١٢٢.

من الثرى، فقلت: كان يصل إلى هذا الحد؟ قال: ما هو إلا كان يشارك مشاركة جيدة في هذا أعني في الأسانيد، وكان في المتون أكثر لأجل الفقه والأصول.

وروى عن الزهري أنه قال: لا يولد الحافظ إلا في كل أربعين سنة (١).

وفي (صفحات من صبر العلماء) قال ابن الجوزي: قال أحمد بن محمد بن يس: سمعت أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوي يقول: سمعت جدي يقول: مرّ أحمد بن حنبل جاثيا من الكوفة وبيده خريطة (٢) فيها كتب، فأخذت بيده، فقلت: مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة، إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟، فسكت، ثم قلت ستين ألفاً؟ فسكت، فقلت: مائة ألف؟ فقال: حينئذ يعرف شيئا، قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف (٣).

وذكر ابن السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم) فرقا كثيرة من فرق العلماء، فمما قال فيه: ومنهم فرقة إذا رامت بلوغ الغاية في الحديث على زعمها اشتغلت بجامع الأصول لابن الأثير وإن ضمت إليه كتاب علوم الحديث لابن الصلاح أو مختصره المسمى بالتقريب والتيسر للنووي ونحو ذلك فحينئذ ينادى من انتهى إلى هذا المقام بمحدث المحدثين وبخاري العصر، وما ناسب هذه الألفاظ الكاذبة، فإن من ذكرناه لا يعد محدثا بهذا القدر، إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية، هذا أقل درجاته (٤).

### جواز العمل بالحديث الضعيف

قال ابن علان في شرح الأذكار: ممن قال بجواز العمل بالحديث الضعيف الإمام أحمد بن حنبل وابن المبارك والسفيانان والعنبري وغيرهم، بل نقل الإجماع على ذلك الإمام

<sup>١</sup> مقدمة تدريب الراوي ج ٢ ص ٤٥-٤٩.

<sup>٢</sup> الخريطة هي الكيس، له خيط يحيط بفمه، يشد فيغلق.

<sup>٣</sup> (صفحات من صبر العلماء) وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليق له على كتابه هذا: فما قولك فيمن قرأ بعض أحاديث من سبل السلام لا تبلغ في السنوات الدراسية الأربع مائتين أو ثلاثمائة حديث ثم خرج يقول: إنه تخرج من قسم الحديث فما ذا يعرف هذا وما أكثر المحدثين المتخرجين على هذا المنوال في هذا الزمان!! اهـ.

<sup>٤</sup> معيد النعم ومبيد النقم ص ٨٢.

النووي، وعبارته في الجزء الذي جمعه في إباحة القيام: أجمع أهل الحديث وغيرهم على العمل في الفضائل ونحوها مما ليس فيه حكم ولا شيء من العقائد وصفات الله تعالى بالحديث الضعيف (١) اهـ.

وقال الإمام النووي في أربعينه: وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، وقال أيضا في (الأذكار): قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعا اهـ. ومراده بالإجماع والاتفاق في العبارتين واحد كما قال ابن علان وأشار إليه الهيثمي، وقال الإمام ابن مهدي: إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال اهـ وكم من إمام قال مثل ما قاله ابن مهدي رحمهم الله، قال الشهاب الرملي في فتاويه: وفي معنى الترغيب والترهيب القصص ونحوها، وقال الهيثمي في المنح المكية: الحديث الضعيف يعمل في المناقب، قال بعض الحفاظ اتفاقا كالفضائل، وهذا إذا لم يعارضه غيره مما هو مقدم عليه (٢).

وفي (الإرشاد) للنووي: وكالترغيب والترهيب كل ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد اهـ. وللعمل بالحديث الضعيف شروط، قال السخاوي: سمعت شيخنا الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى مرارا يقول وكتبه لي بخطه: إن شرط العمل بالحديث الضعيف ثلاثة، الأول متفق عليه وهو أن يكون الضعف غير شديد، الثاني أن يندرج تحت أصل عام، الثالث أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، بل يعتقد الاحتياط.

وقال الشمس الرملي في آخر باب الوضوء: في هذا الشرط الأخير نظر. وقال ابن علان: قال ابن قاسم في حاشية التحفة: وشرط بعضهم أن لا يعتقد السنية، وفيه نظر، بل لا وجه له؛ لأنه لا معنى للعمل بالضعيف في مثل ما نحن فيه إلا كونه مطلوبا طلبا غير جازم، وكل مطلوب طلبا غير جازم فهو سنة، وإذا كان سنة تعين اعتقاد سنيته اهـ.

<sup>١</sup> الفتوحات الإلهية شرح الأذكار النووية ص ٨٢ ج ٢

<sup>٢</sup> انظر شرح ابن علان على الأذكار ج ص ١٦٠.

والشرطان الأخيران ذكرهما ابن عبد السلام وصاحبه ابن دقيق العيد، وتبعهما كما مرّ العسقلاني، وما ذهب إليه الحافظ ابن العربي المالكي من أنه لا يعمل بالحديث الضعيف مطلقاً يحمل على شديد الضعف المتفق على عدم العمل به كما ذكره ابن علان في شرح الأذكار (١).

فالحاصل أن الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل ونحوها بشروطه المذكورة، وهذا هو المتفق عليه سلفاً وخلفاً.

فإذا علمت هذا فيايبك أن يعوّقك أهل التشكيك والبطالة، ويثبّطك أولو الكسل والحرمان عن التمسك والعمل بالأحاديث الضعيفة المستوفية لشروط العمل بها؛ فإن في الأمر سعة، وفي المواهب الإلهية كثرة، ولا تكثر بتقولات طائفة شأنهم التضييق والتشديد والتنفير عن كثير من العبادات والطاعات، فذرهم في خوضهم يلعبون، وانبذهم في بحر الإهمال يعمهون، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، واسلك سبيل السادات، من أهل العناية، والله الموفق.

### كشف الغطاء عن المراد بقولهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي

اعلم أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا قولي اهـ (٢). وفي رواية: كل ما قلتُ وقال النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي مما يصح فحديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى، ولا تقلدوني. ويروى عنه: إذا صح الحديث فهو مذهبي (٣). وعبارات الإمام في مثل هذا المعنى كثيرة جداً.

وللإمام تقي الدين السبكي رسالة ألفها في المراد من قول الشافعي المذكور وما يجب أن يحمل عليه ويقيد به، سماها (معنى قول المطلي: إذا صح الحديث فهو مذهبي). قال الحافظ العسقلاني في (توالي التأسيس): قرأت بخط الشيخ تقي الدين السبكي في مصنف له في هذه المسألة ما ملخصه: إذا وجد شافعي حديثاً صحيحاً يخالف مذهبه إن كملت فيه آلة الاجتهاد في تلك المسألة فليعمل بالحديث بشرط أن لا يكون الإمام اطلع عليه وأجاب

<sup>١</sup> الفتوحات الإلهية شرح الأذكار النووية ج ١ ص ٨٣.

<sup>٢</sup> مناقب الشافعي للبيهقي ج ١ ص ٤٧٢ ومقدمة المجموع ص ١٣٤.

<sup>٣</sup> سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٥.

عنه، وإن لم يكمل ووجد إماما من أصحاب المذاهب عمل به فله أن يقلده فيه، وإن لم يجد وكانت المسألة حيث لا إجماع قال السبكي: فالعمل بالحديث أولى، وإن فرض الإجماع فلا، قلت (القائل ابن حجر): ويتأكد ذلك إذا وجد الإمام بنى المسألة على حديث ظنه صحيحا، وتبين أنه غير صحيح، ووجد خبرا صحيحا يخالفه، وكذا إذا اطلع الإمام عليه ولكن لم يثبت عنده مخالفة، ووجد له طريق ثابتة، وقد أكثر الشافعي من تعليق القول بالحكم على ثبوت الحديث عند أهله كما قال في البويطي: إن صح الحديث في الغسل من غسل الميت قلت به، إلى غير ذلك (١) اهـ.

وقال الإمام النووي في مقدمة المجموع: وهذا الذي قاله الشافعي ليس معناه أن كل أحد رأى حديثا صحيحا قال: هذا مذهب الشافعي وعمل بظاهره، وإنما هذا فيمن له رتبة الاجتهاد في المذهب، وشرطه أن يغلب على ظنه أن الشافعي رحمه الله لم يقف على هذا الحديث أو لم يعلم صحته، وهذا إنما يكون بعد مطالعة كتب الشافعي كلها ونحوها من كتب أصحابه الآخذين عنه وما أشبهها، وهذا شرط صعب قل من يتصف به، وإنما اشترطوا ما ذكرنا لأن الشافعي رحمه الله ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها لكن قام الدليل عنده على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك.

قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله: ليس العمل بظاهر ما قاله الشافعي بالهين، فليس كل فقيه يسوغ له أن يستقل بالعمل بما يراه حجة من الحديث، وفيمن سلك هذا المسلك من الشافعيين مَنْ عَمِلَ بحديث تركه الشافعي عمدا مع علمه بصحته لما منع اطلع عليه وخفي على غيره كأبي الوليد موسى بن أبي الجارود ممن صحب الشافعي قال: صح حديث أفطر الحاجم والمحجوم، فأقول: قال الشافعي: أفطر الحاجم والمحجوم، فردوا ذلك على أبي الوليد؛ لأن الشافعي تركه مع علمه بصحته؛ لكونه منسوخا عنده اهـ.

وقال النووي في المجموع أيضا:

### فرع: في مذاهب العلماء في حجامة الصائم

مذهبنا أنه لا يفطر بالحجامة الحاجم والمحجوم، وبه قال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والشعبي

<sup>١</sup> تعليق سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٣٤.

والنخعي ومالك والثوري وأبو حنيفة وداود وغيرهم، قال صاحب الحاوي: وبه قال أكثر الصحابة وأكثر الفقهاء. وقال جماعة من العلماء الحجابة تفطر وهو قول علي بن أبي طالب وأبي هريرة وعائشة والحسن البصري وابن سيرين وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحق وابن المنذر وابن خزيمة، قال الخطابي: قال أحمد وإسحق: يفطر الحاجم والمحجوم وعليهما القضاء دون الكفارة. وقال عطاء: يلزم المحتجم في رمضان القضاء والكفارة، واحتج لهؤلاء بحديث ثوبان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة، وإسناد أبي داود على شرط مسلم، وعن شداد بن أوس: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل بالبقيع وهو يحتجم وهو آخذ بيدي لثمان عشرة خلت من رمضان فقال: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة. وعن رافع بن خديج عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله. وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله، رواه الحاكم في المستدرک وقال: هو صحيح، ثم روى عن علي بن المديني أنه قال: هو صحيح، وروى الحاكم أبو عبد الله في المستدرک عن أحمد بن حنبل قال: أصح ما روي في هذا الباب حديث ثوبان، وعن علي بن المديني قال: لا أعلم فيها أصح من حديث رافع بن خديج قال الحاكم: قد حكم أحمد لأحد الحديثين بالصحة وعلي للآخر بالصحة، وحكم إسحق بن راهويه لحديث شداد بن أوس بالصحة، ثم روى الحاكم بإسناده عن إسحق أنه قال في حديث شداد: هذا إسناد صحيح تقوم به الحجة، قال إسحق: وقد صح هذا الحديث بأسانيد وبه نقول، قال الحاكم: رضي الله عن إسحق فقد حكم بالصحة لحديث صحته ظاهرة وقال به، قال الحاكم: وفي الباب عن جماعة من الصحابة بأسانيد مستقيمة مما يطول شرحه، ثم روى بإسناده عن الإمام الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي قال: صح عندي حديث "أفطر الحاجم والمحجوم" من رواية شداد بن أوس وثوبان، قال عثمان: وبه أقول، قال: وسمعت أحمد بن حنبل يقول به ويقول: صح عنده حديث ثوبان وشداد، وروى البيهقي حديث "أفطر الحاجم والمحجوم" أيضا من رواية أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن رواية عطاء عن ابن عباس مرفوعا وعن عطاء عن النبي



صلى الله عليه وسلم مرسلًا قال: هذا المرسل هو المحفوظ من رواية عطاء وذكُر ابن عباس فيه وهم، وعن عائشة مرفوعًا بإسناد ضعيف، وذكر البيهقي عن أبي زرعة الحافظ قال: حديث عطاء عن أبي هريرة مرفوعًا في هذا حديث حسن، وفي الموطأ عن نافع قال: إن ابن عمر احتجم وهو صائم ثم تركه فكان إذا صام لم يحتجم حتى يفطر. واحتج أصحابنا بحديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم "احتجم وهو محرم واحتجم وهو صائم"، رواه البخاري في صحيحه .

وعن ثابت البناني قال: سئل أنس أكنتم تكرهون الحجامة للصائم قال: لا إلا من أجل الضعف، رواه البخاري، وفي رواية عنده: على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الحجامة والمواصلة ولم ينه عنهما إلا إبقاء على أصحابه، رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما سبق واحتج به أبو داود والبيهقي وغيرهما في أن الحجامة لا تفطر، وعن أبي سعيد الخدري قال: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبلة للصائم والحجامة، رواه الدارقطني، وقال: إسناده كلهم ثقات ورواه من طريق آخر، وقال: كلهم ثقات.

وعن أنس قال: أول ما كرهت الحجامة للصائم أن جعفر بن أبي طالب احتجم وهو صائم فمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفطر هذان ثم رخص النبي صلى الله عليه وسلم بعد في الحجامة للصائم، وكان أنس يحتجم وهو صائم، رواه الدارقطني وقال: رواه كلهم ثقات، قال: ولا أعلم له علة.

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم، قال البيهقي وروينا في الرخصة في ذلك عن سعيد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عباس وابن عمر والحسين بن علي وزيد بن أرقم وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم واستدل الأصحاب أيضا بأحاديث أخر في بعضها ضعف والمعتمد ما ذكرناه واستدلوا بالقياس على الفصد والرعاف.

وأما حديث: أفطر الحاجم والمحجوم فأجاب أصحابنا عنه بأجوبة أحدها: جواب الشافعي ذكره في الأم وتابعه عليه الخطابي والبيهقي وسائر أصحابنا وهو أنه منسوخ بحديث ابن عباس وغيره مما ذكرناه، ودليل النسخ أن الشافعي والبيهقي روياه بإسنادهما الصحيح عن

شداد بن أوس قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم زمان الفتح فرأى رجلا يحتجم لثمان عشرة حلت من رمضان فقال وهو آخذ بيدي: أفطر الحاجم والمحجوم، وقد ثبت في صحيح البخاري في حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم صائم قال الشافعي: وابن عباس إنما صحب النبي صلى الله عليه وسلم محرما في حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة ولم يصحبه محرما قبل ذلك، وكان الفتح سنة ثمان بلا شك فحديث ابن عباس بعد حديث شداد بسنتين وزيادة، قال: فحديث ابن عباس ناسخ قال البيهقي: ويدل على النسخ أيضا قوله في حديث أنس السابق في قصة جعفر ثم رخص النبي صلى الله عليه وسلم بعد في الحجامة، وهو حديث صحيح كما سبق قال: وحديث أبي سعيد الخدري السابق أيضا فيه لفظ الترخيص وغالب ما يستعمل الترخيص بعد النهي.

الجواب الثاني: أجاب به الشافعي أيضا أن حديث ابن عباس أصح ويعضده أيضا القياس فوجب تقديمه.

الجواب الثالث: جواب الشافعي أيضا والخطابي وأصحابنا أن المراد بأفطر الحاجم والمحجوم أنهما كانا يغتابان في صومهما، وروى البيهقي ذلك في بعض طرق حديث ثوبان، قال الشافعي وعلى هذا التأويل يكون المراد بإفطارهما أنه ذهب أجرهما كما قال بعض الصحابة لمن تكلم في حال الخطبة لا جمعة لك أي ليس لك أجرها وإلا فهي صحيحة مجزئة عنه.

الجواب الرابع: ذكره الخطابي أن معناه تَعَرَّضًا لِلْفَطْرِ أما المحجوم فلضعفه بخروج الدم فرما لحقه مشقة فعجز عن الصوم فأفطر بسببها، وأما الحاجم فقد يصل جوفه شيء من الدم أو غيره إذا ضم شفتيه على قصب الملازم كما يقال للمتعرض للهلاك هلك فلان وإن كان باقيا سالما، وكقوله صلى الله عليه وسلم من جُعِلَ قاضيا فقد ذبح بغير سكين أي تعرض للذبح بغير سكين.

الخامس: ذكره الخطابي أيضا أنه مر بهما قريب المغرب فقال: أفطرا أي حان فطرهما كما يقال: أمسى الرجل إذا دخل في وقت المساء أو قاربه .

السادس: أنه تغليظ ودعاء عليهما لارتكابهما ما يعرضهما لفساد صومهما (١).

<sup>١</sup> المجموع شرح المذهب كتاب الصيام المجلد السادس ص ٣٤٩-٣٥٣.

وقال ابن خزيمة: لا أعلم سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتبه، وجلالة ابن خزيمة وإمامته في الحديث والفقه ومعرفته بنصوص الشافعي بالحل المعروف، قال الشيخ أبو عمرو: فمن وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نظر، إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقاً أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم يكمل وشق عليه مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته عنه جواباً شافياً فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي، ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا، وهذا الذي قاله حسن متعين والله أعلم (١) اهـ.

وقال السيوطي في (مسالك الحنفا في والدي المصطفى) بعد كلام طويل في النزاع في نجاة والدي المصطفى صلى الله عليه وسلم: إن كان الذي يجادل بذلك شافعي المذهب أقول له: قد ثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم وأنت لا تصحح الصلاة بدون البسملة، وثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا لك الحمد، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون، وأنت إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، تقول: سمع الله لمن حمده مثله، وإذا صلى جالساً لعذر وأنت قادر تصلي خلفه قائماً لا جالساً. وثبت في الصحيحين في حديث التيمم: إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا، ثم ضرب بيديه ضربة واحدة ومسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه، وأنت لا تكتفي في التيمم بضربة واحدة ولا بالمسح إلى الكوعين، فكيف خالفت الأحاديث التي ثبتت في الصحيحين أو أحدهما؟ فلا بد إن كانت عنده رائحة من العلم أن يقول: قامت أدلة أخرى معارضة لهذه فقدمت عليها، فأقول له: وهذا مثله، لا يحتاج عليه إلا بهذه الطريقة، فإنها ملزمة له ولأمثاله. وإن كان المجادل مالكي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيحين: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، وأنت لا تثبت خيار المجلس، وثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم توضأ ولم يمسح كل رأسه، وأنت توجب في الوضوء مسح كل الرأس، فكيف خالفت ما ثبت في الصحيح؟ فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة له فقدمت عليه، فأقول له: وهذا مثله.

<sup>١</sup> مقدمة المجموع ص ١٣٥-١٣٧.

وإن كان المجادل حنفي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيح إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا، وأنت لا تشرط في النجاسة الكلبية سبعا، وثبت في الصحيحين: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، وأنت تصحح الصلاة بدونها، وثبت في الصحيحين: ثم ارفع حتى تعتدل قائما، وأنت تصحح الصلاة بدون الطمأنينة في الاعتدال، وصح في الحديث: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا، وأنت لا تعتبر القلتين، وصح في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم باع المدير، وأنت لا تقول ببيع المدير، فكيف خالفت هذه الأحاديث الصحيحة؟، فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة لها فقدمت عليها، فأقول له: وهذه مثله.

وإن كان المجادل حنبلي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيحين: من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم، وثبت فيهما: لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين، وأنت تقول بصيام يوم الشك، فكيف خالفت ما ثبت في الصحيحين؟ فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة له فقدمت عليه، فأقول له: وهذا مثله. هذا أقرب ما يقرب به لأذهان الناس اليوم، وإن كان المجادل ممن يكتب الحديث ولا فقه عنده يقال له: قد قالت الأقدمون: المحدث بلا فقه كعطار غير طيب، فالأدوية حاصلة في دكانه ولا يدري لما ذا تصلح، والفقيه بلا حديث كطبيب ليس بعطار يعرف ما تصلح له الأدوية إلا أنها ليست عنده، وإني بحمد الله قد اجتمع عندي الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية والمعاني والبيان وغير ذلك، فأنا أعرف كيف أتكلم، وكيف أقول، وكيف استدلل، وكيف أرحج، وأما أنت يا أخي وفقني الله وإياك فلا يصلح لك ذلك؛ لأنك لا تدري الفقه ولا الأصول ولا شيئا من الآلات، والكلام في الحديث والاستدلال به ليس بالهين، ولا يحل الإقدام على التكلم فيه لمن لم يجمع هذه العلوم، فاقصر على ما آتاك الله، وهو أنك إذا سئلت عن حديث تقول: ورد أو لم يرد وصححه الحفاظ وحسنوه وضعفوه، ولا يحل لك في الإفتاء سوى هذا القدر، وخل ما عدا ذلك لأهله:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله      لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وثم أمر آخر أخاطب به كل ذي مذهب من مقلدي المذاهب الأربعة، وذلك أن مسلما روى في صحيحه عن ابن عباس أن الطلاق الثلاث كان يجعل واحدة في عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدر من إمارة عمر، فأقول: لكل طالب علم هل تقول: أنت بمقتضي هذا الحديث وأن من قال لزوجته: أنت طالق ثلاثا تطلق واحدة فقط، فإن قال: نعم أعرضت عنه، وإن قال: لا، أقول له: فكيف تخالف ما ثبت في صحيح مسلم، فإن قال: لما عارضه، أقول له: فاجعل هذا مثله، والمقصود من سياق هذا كله أنه ليس كل حديث في صحيح مسلم، يقال بمقتضاه لوجود المعارض له (١).

ومن الأحاديث التي لا تعمل بها أحاديث كثيرة منها: ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر.

وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن شقيق قال: خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بني تميم لا يفتر ولا ينثني: الصلاة الصلاة، فقال ابن عباس: أتعلمني بالسنة لا أم لك، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال عبد الله بن شقيق: فحاك في صدري من ذلك شيء فأتيت أبا هريرة فسألته فصدق مقالته.

ومنها حديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة (٢). قال الإمام النووي في شرح مسلم: قال الترمذي في آخر كتابه: ليس في كتابي حديث أجمعت الأمة على ترك العمل به إلا حديث ابن عباس في الجمع بالمدينة من غير خوف ولا مطر، وحديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة، قال النووي: هذا الذي قاله الترمذي في حديث شارب الخمر هو كما قاله، وهو حديث منسوخ دل الإجماع على نسخه، وأما حديث ابن عباس فلم يجمعوا على ترك العمل به بل لهم أقوال، منهم من قال: هو محمول على الجمع بعذر المرض ونحوه مما هو في معناه من الأعذار، وهذا قول أحمد بن حنبل والقاضي حسين من أصحابنا واختاره الخطابي والمتولي والرويان من أصحابنا وهو المختار في تأويله لظاهر الحديث ولفعل ابن عباس وموافقة أبي هريرة؛ ولأن المشقة فيه أشد من المطر، وذهب جماعة من

<sup>١</sup> مسالك الحنفا في والدى المصطفى، وهو مطبوع في ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ج ٢ ص ٤٣٨ - ٤٤٠.

<sup>٢</sup> روى حديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه كما في الترغيب والترهيب في كتاب الحدود.

الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر للحاجة لمن لا يتخذ عادة وهو قول ابن سيرين وأشهب من أصحاب مالك، وحكاه الخطابي عن القفال من أصحاب الشافعي عن أبي إسحاق المروزي عن جماعة من أصحاب الحديث واختاره ابن المنذر اهـ.

وذكر العلامة ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): أن الإمام عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين شرع في تأليف كتاب سماه (المحيط) عزم فيه على عدم التقيد بالمذهب، وأنه يفف على مورد الأحاديث لا يعدوها، ويتجنب جانب العصبية للمذاهب، فوقع للحافظ أبي بكر البيهقي منه ثلاثة أجزاء، فانتقد عليه أوهاما حديثية، ويبين أن الآخذ بالحديث الواقف عنده هو الشافعي رضي الله تعالى عنه، وأن رغبته عن الأحاديث التي أوردها الشيخ أبو محمد إنما هي لعل فيها يعرفها من يتقن صناعة المحدثين، فلما وصلت الرسالة إلى الشيخ أبي محمد قال: هذه بركة العلم، ودعا للبيهقي، وترك إتمام التصنيف، فرضي الله عنهما، لم يكن قصدهما غير الحق والنصيحة للمسلمين، وقد حصل عند البيهقي مما فعله الشيخ أبو محمد أمر عظيم كما يظهر من كلامه في هذه الرسالة (١).

فانظر إلى انصاف هذا الإمام الجويني ومبادرته لقبول الحق والرجوع إليه مع جلالته وسعة اطلاعه وكثرة علومه، وقد قيل فيه: لو جاز أن يبعث الله نبيا في عصره لما كان إلا هو. فإذا تحقق أن كثيرا من الأحاديث الصحيحة لا يعمل بها بل تترك لأدلة أقوى منها أو لنسخها أو لتأويلها، علمت أنه لا يسوغ لمن لم يستكمل أدوات الاجتهاد أن يطمح إلى أخذ الأحكام من الأحاديث النبوية الشريفة، وأن ما يردد به كثير ممن يدعي العلم والحضارة من العمل بكل حديث صحيح رأيي سخيظ ظاهر البطلان وغلط فاحش، أدى إلى فتن عظيمة ومفاسد كثيرة، من التفرق وتشتت الشمل، وتقول كل جاهل بما سولت له نفسه، وزين له شيطانه، فضل وأضل كثيرا من الناس، فإلى الله المشتكى والمفزع، وإليه المفر والمهرب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

<sup>١</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي في ترجمة الإمام أبي محمد الجويني.

## وَتَفْسِيرِ قُرْآنٍ بِشَتَّى عُلُومِهِ....

أي بادر إلى تعلم تفسير القرآن الكريم وعلومه الكثيرة المتنوعة، قال الحافظ السيوطي في ديباجة (الإتقان في علوم القرآن): مما أهمل المتقدمون تدوينه حتى تحلى في آخر الزمان بأحسن زينة علم التفسير الذي هو كمصطلح الحديث، فلم يدونه أحد لا في القديم ولا في الحديث حتى جاء شيخ الإسلام وعمدة الأنام جلال الدين البلقيني رحمه الله تعالى، فعمل فيه كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم)، فنقحه وهذبه وقسم أنواعه ورتبه، ولم يسبق إلى هذه المرتبة، فإنه جعله نيفا وخمسين نوعا.

وَألف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي أحد أصحابنا الشافعيين كتابا سماه (البرهان في علوم القرآن) وذكر فيه سبعا وأربعين نوعا من علوم القرآن، وقال فيه: ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد إنسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله اهـ. ثم ذكر السيوطي أنه ألف في هذا الفن (التحبير في علوم التفسير) وذكر فيه مائة واثنين من أنواع علوم القرآن، ثم ألف كتابه (الإتقان في علوم القرآن) وذكر فيه ثمانين نوعا من علوم القرآن، وقال: كل نوع منها يَصْلُحُ أن يكون مفردا بالتصنيف، وقال: أدجت بعض الأنواع في بعض، ولو نوَّعتُ باعتبار ما أدجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة. انتهى ملخصا من ديباجة الإتقان.

وفي (الإتقان) أيضا ما نصه: ذكر كثيرون في أثر أن الله جمع علوم الأولين والآخرين في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلومه في الفاتحة، فزادوا وعلوم الفاتحة في البسملة، وعلوم البسملة في بائها، وَوُجِّهَ بأن المقصود من كل العلوم وُصولُ العبد إلى الرب، وهذه الباء باء الإلصاق، فهي تلصق العبد بجناب الرب، وذلك كمال المقصود. ذكره الإمام الرازي وابن النقيب في تفسيرهما (١).

قال ابن حجر الهيتمي في شرح قول البوصيري:

كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وقال أيضا: جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن،

<sup>١</sup> الإتقان في علوم القرآن ج٢ ص١٦٠.

وما ثبت ابتداء بالسنة فهو في الحقيقة مأخوذ منه؛ لأنه أوجب علينا اتباعه صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال رضي الله عنه مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى، فامتحن بدقائق، فاستنبطها من القرآن، منها: لو قتل محرم زنبورا هل عليه جزاء؟ فاستنبط لهم منه أنه لا جزاء عليه؛ لأن عمر رضي الله عنه أمر بقتله، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر والله تعالى يقول: {وما آتاكم الرسول فخذوه} الآية، وتبعه أعني الشافعي العلماء على ذلك، فقال واحد: ما قال صلى الله عليه وسلم شيئا أو حكم أوقضى بشيء إلا وهو أو أصله في القرآن، قرب أو بعد. وقال آخر: ما من شيء في العالم إلا وهو فيه، فقليل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله تعالى: {ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم} في الخانات.

وقال آخر: ما من شيء إلا ويمكن استخراجها من القرآن لمن فهمه الله تعالى حتى إن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة استنبط من آخر (سورة المنافقين) لأنها آخر رأس ثلاث وستين سورة وأعقبها بـ (التغابن) لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم. وقال آخر: لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به تعالى، ثم نبه صلى الله عليه وسلم فيما عدا ما استأثر الله تعالى بعلمه، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة، مع تفاوتهم فيه بحسب تفاوت علومهم، كأبي بكر رضي الله عنه، فإنه أعلمهم بنص ابن عمر رضي الله عنهما وغيره، وكعلي رضي الله عنه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الحسن، خلافا لمن زعم وضعه: أنا مدينة العلم وعلي بابها (١) ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

<sup>١</sup> وفي الجامع الصغير: حديث: أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب، رواه العقيلي وابن عدي والطبراني في الكبير، والحاكم عن ابن عباس، ورواه كما في الجامع الصغير ابن عدي والحاكم عن جابر، اهـ . وقال ابن حجر الميمني: حديث أنا مدينة العلم وعلي بابها، صححه الحاكم وحسنه الحفاظان العلائي وابن حجر، وقول البخاري: - ليس له وجه صحيح، والترمذي: منكر، وابن معين: كذب - مُعْتَرَضٌ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وتبعه الذهبي وغيره في ذلك الفتاوي الحديثية لابن حجر ص ١٧٢ و ٢٦٩. وقال العلامة أبو الفضل عبد الله الصديق الغماري في الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام: إنه صحيح، وفي هامشه نقلا عن تاريخ بغداد أن يحيى بن معين سئل هذا الحديث فقال: هو صحيح، وصححه السيوطي كما في فتح الملك العلي ص ١١٦.



جميع ما أثرته لكم من التفسير فإنما هو عن علي رضي الله عنه وكابن عباس رضي الله عنهما، حتى إنه قال: لو ضاع عقل بعيري لوجدته في كتاب الله.

ثم ورث عنهم التابعون معظم ذلك، ثم تقاصرت الهمم عن حمل ما حمله أولئك من علومه وفنونه، فنوعوا علومه أنواعاً؛ ليضبط كل طائفة علماً وفناً، ويتوسعوا فيه بحسب مقدرتهم، ثم أفرد غالب تلك العلوم وتلك الفنون التي كادت أن تخرج عن الحصر، وقد بين هذا القائل وجه الاستنباط غالبها منه بتأليف لا تحصى.

وقال آخر: علومه خمسون وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة؛ إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينهما من روابط، لكن هذا لا يحصيه إلا المتكلم به تعالى.

وقال آخر: اشتمل القرآن على كل شيء، كما قال تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} أما العلوم فلا تجد مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق وأسماء مشاهير الأنبياء والملائكة، وعيون أخبار الأمم السابقة، وشأنه صلى الله عليه وسلم وغزواته، وأخباره إلى مماته صلى الله عليه وسلم ثم شأن أمته من بعده، وبدء خلق الإنسان إلى موته، وأمارات الساعة وجميع أحوال البرزخ والمحشر، والجنة والنار (١).

وأما الكتب المصنفة في تفسير القرآن الكريم فهي كثيرة جداً، منها المطول، ومنها المتوسط، ومنها المختصر، قال السيوطي رحمه الله تعالى في (الإتقان): فإن قلت: فأَي التفسير ترشد إليه وتأمّر الناظر أن يعوّل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماء المعترفون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله، قال النووي في تهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنّف أحد مثله اهـ.

---

وحديث أنا مدينة العلم وأبوبكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفاها وعلي بأبها، رواه صاحب مسند الفردوس وتبعه ابنه بالإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، وهو حديث ضعيف كحديث أنا مدينة العلم وعلي بابها ومعاوية حلقها فهو حديث ضعيف أيضاً. الفتاوى الحديثية لابن حجر ص ٢٦٩.

<sup>١</sup> المنح المكية شرح الحمزية ص ٣٩٧-٣٩٨.

## ....بَيَانٍ مَعَانٍ وَالبَدِيعِ بِجُمْلَةٍ

أي بادر إلى تعلم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع بجملتها (١)، ولا تقتصر بوحدة أو اثنين منها، فإنها من أعظم آلات العلوم الشرعية، ولا تدرك دقائقها وما اشتملت عليه من الاعتبارات اللطيفة إلا بواسطة مراعاة هذا الفن، ولذلك كان الاشتغال به فرض كفاية، وقال السيوطي في شرحه على (عقود الجمان): لا شك أن علوم البلاغة الثلاثة هي من أعظم آلات الشرع، بل ذُكِرَ أن كمال الإيمان متوقف عليها لتوقف إدراك إعجاز القرآن على معرفتها (٢) اهـ.

وقال الأخضري في (الجواهر المكنون):

هذا وإن دُرَرَ البيان وَغُرَرَ البديع والمعاني  
تهدى إلى موارد شريفه ونبذ بدیعة لطيفة  
من علم أسرار اللسان العربي ودرك ما خص به من عجب  
لأنه كالروح للإعراب وهو لعلم النحو كاللباب

ووضع علمي المعاني والبيان: عبد القاهر الجرجاني على ما قيل. ووضع علم البديع: عبد الله بن المعتز.

## وَقَافِيَةٍ مَعَ الْعُرُوضِ وَمَنْطِقٍ...

في هذا الشطر الترغيب في فن العروض والقافية والمنطق.

**فالعروض:** هو ما يعرف به أحوال أوزان الشعر سالمة أو متغيرة. ووضعه: الخليل بن أحمد النحوي الفراهيدي. ومن فوائده: تمييز الشعر عن غيره، فيعرف به أن القرآن ليس بشعر. **والقافية:** قيل: هي الحرف الأخير من البيت، وقيل: الكلمة الأخيرة منه، وقيل: هي من الحرف المحرك قبل الساكنين آخر البيت، قال في الخرجية: وقافية البيت الأخيرة بل من الـ — محركٌ قبل الساكنين إلى انتهاء ووضعه: مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس.

<sup>١</sup> فالمعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال. والبيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة الوضوح والخفاء، فيكون بعضه أوضح في الدلالة وبعضه واضح. والبديع هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، وبعد الخلو عن التعقيد.

<sup>٢</sup> شرح عقود الجمان في علمي المعاني والبيان ص ٨.

**والمنطق:** هو علم يعرف به الفكر الصحيح من الفاسد (١). وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على (إيساغوجي): المنطق هو آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر.

وقد اختلفوا في حكم تعلمه فمنعه قوم وأباحه آخرون ورغبوا فيه، منهم الإمام الغزالي، فقد نقل عنه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري أنه قال: من لا معرفة له بالمنطق لا ثقة بعلمه، وسماه معيار العلوم (٢). وفصله بعضهم: قال الأخضري في (السلم):

والخلف في جواز الاشتغال به على ثلاثة أقوال  
فابن الصلاح والنووي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلما  
والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لكامل القرية (٣)  
ممارس السنة والكتاب ليهتدي به إلى الصواب

وللسيوطي رسالة سماها: (القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق)، وأطال أيضا في الاستدلال على تحريمه في شرح عقود الجمان.

واعلم أن هذا الخلاف في المنطق المخلوط بضلالات الفلاسفة المكفرة وغيرها، وأما المنطق الخالي عن ذلك فلا خلاف في جواز الاشتغال به بل هو مطلوب؛ لأنه يتوقف عليه رد الشكوك في علم الكلام (٤).

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين شرح الأربعين): ومن أثنى على المنطق الفخر الرازي والسيف الآمدي وابن الحاجب وشرح كتابه وغيرهم من الأئمة، وقول ابن الصلاح وغيره بتحريمه محمول على ما كان في زمنهما من المخلوط بالفلسفة (٥). وموضوعه: المعلومات التصورية والتصديقية.

<sup>١</sup> حاشية الشيخ حسن العطار على شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على متن الإيساغوجي.

<sup>٢</sup> أي ميزانها التي تعرف بها الأفكار الصحيحة من الفاسدة. إيساغوجي ص ٢٦.

<sup>٣</sup> يعني كامل العقل، والقرينة في الأصل أول مستنبط من الماء، ولكن المراد هنا العقل. حاشية الباجوري على السلم.

<sup>٤</sup> حاشية الباجوري على سلم المنورق، وكفاية الاتقياء للسيد بكر بن محمد شطا، وشرح الشيخ محمد نووي الجاوي على منظومة هداية الأذكياء.

<sup>٥</sup> الفتح المبين شرح الأربعين في شرح حديث: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ... الحديث.

## ...كَذَا لُغَةً طَبُّ حِسَابٍ بِدِقَّةٍ

وعلم اللغة هي الألفاظ الموضوعية لمعان التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ويُعرَفُ بها أوضاعُ المفردات العربية.

**فائدة:** اعلم أن علوم العربية اثنا عشر علماً، ويقال لها أيضاً: علم الأدب، وهو اللغة والصرف وعلم الاشتقاق والمعاني والبيان والعروض والقافية، وقرض الشعر، وعلم الخط، وعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب، وعلم المحاضرات، ومنه التواريخ، وأما علم البديع فقد جعلوه ذيلًا لعلمي البلاغة لا قسمًا برأسه، كذا يستفاد من شرح السيد الشريف على (المفتاح) (١) اهـ.

ونظمها بعضهم من الطويل فقال:

صرف بيان معاني النحو قافية شعر (٢) عروض اشتقاق الخط إنشاء  
إنشاء

محاضرات وثاني عشرها لغة تلك العلوم لها الأداب أسماء (٣) وقال المليباري في هداية الأذكياء:

وعلوم آداب ثمانية لغه صرف ونحو والمعاني المفضلا  
وكذا بيان والبديع وقافيه وكذا عروض فاطلبنها مُجَمَّلًا  
وفروعها إنشاء نثر (٤) والنظام (٥) ومحاضرات والخطوط فأجمالاً  
والنظام (٥)

وقال السيوطي في شرح (عقود الجمان): قال الأندلسي ورفيقه ابن جابر: علوم الأدب ستة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع اهـ .

<sup>١</sup> إرشاد الشافعي حاشية الكافي في علمي العروض والقوافي ص ١٧.

<sup>٢</sup> أي قرض الشعر.

<sup>٣</sup> كفاية الأتقياء ص ٩٦.

<sup>٤</sup> وقوله: إنشاء نثر وهو الإتيان بكلام مسجع في الخطب والرسائل. اهـ كفاية الأتقياء.

<sup>٥</sup> قوله: والنظام أي إنشاء النظام أي النظم وهو الإتيان بكلام مقفى موزون، وهذا العلم هو المعبر عنه بقرض الشعر. كفاية الأتقياء.

وفي هذا الشطر أيضا الترغيب في الطب وهو من فروض الكفايات، وفي (آداب الشافعي ومناقبه) للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: أن الإمام الشافعي قال: إنما العلم علمان، علم الدين وعلم الدنيا، فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الذي للدنيا هو الطب.

وعن الشافعي أيضا قال: لا تسكنن بلدا لا يكون فيه عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك (١) اهـ .

وفيه أيضا: الترغيب في تعلم الحساب بدقة، فإنه ضروري لطالب العلم بحيث يتوقف عليه فهم كثير من المسائل العلمية كالقالتين ومسئلة الرطل البغدادي والدمشقي في باب الزكاة والمراجعة والمحاطة، وفي مسائل كثيرة في باب الإقرار، والفرائض وغير ذلك مما هو معروف في أبواب الفقه، فيتأكد على الطالب أن يتعلم من الحساب ما يهتدي به إلى فهم هذه المسائل بلا مشقة وكلفة، وقد ظن بعض الناس أنه ليس للعلماء المتقدمين والمتأخرين أي معرفة وممارسة في علم الحساب، وهذا ظن خاطئ وَوَهْمٌ ظاهر، نشأ عن عدم المعرفة والجهل عن سيرهم وأحوالهم، فقد كان يُدرّسُ علمُ الحساب في الحلقات والمساجد، ويستفتي العلماء عما أشكل منه، لكن تساهل كثير من المدرسين في هذه الأزمنة، وصعب على الطلبة فهم المسائل المتوقعة على معرفته، وهو من فروض الكفايات، قال الغزالي في الإحياء: إنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث اهـ.

وإليك بعض ما أفتى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من علم الحساب، قال السيوطي في (تاريخ الخلفاء): أُخْرِجَ عن زر بن حبیش قال: جلس رجلان يتغديان مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضع الغداء بين أيديهما مر بهما رجل، فسَلَّم، فقالا: اجلس وتغدّ، فجلس وأكل معهما واستوتوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذاها عوضا مما أكلت لكما، ونلتها من طعامكما، فتنازعا، فقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة، وقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، فارتفعا إلى أمير المؤمنين علي، فقصا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة: قد عرض عليك صاحبك

<sup>١</sup> آداب الشافعي ومناقبه للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص ٣٢١

ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بالثلاثة، فقال: والله لا رضيت عنه إلا بمُرّ الحق، فقال علي: ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد، وله سبعة دراهم، فقال الرجل: سبحان الله! قال: هو ذلك، قال: فعرفني الوجه في مر الحق حتى أقبله، فقال علي: أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثا أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل؟ فتحملون في أكلكم على السواء، قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثا أكل منها ثمانية وبقي له سبعة أكلها صاحب الدراهم وأكل لك واحدة من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة، فقال الرجل: رضيت الآن (١).

وكان علي رضي الله عنه يخطب على المنبر وكان أول خطبته: الحمد لله الذي يحكم بالحق قطعا، ويجزي كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، فستل عن المسألة المشهورة بالمنبرية، فقال ارتجالا: صار ثمن المرأة تسعا، ومضى في خطبته، يعني أن هذه المرأة كانت تستحق الثمن فصارت تستحق التسع (٢).

وقال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ما ليس علما شرعيا ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية نص عليه الغزالي، واختلفوا في تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة والفلاحة ونحوهما (٣)، واختلفوا أيضا في أصل فعلها، فقال إمام الحرمين والغزالي: ليست فرض كفاية، وقال الإمام أبو الحسن علي بن

<sup>١</sup> تاريخ الخلفاء ص ١٣٤.

<sup>٢</sup> وهي ما إذا مات زوج وترك زوجته وهي حامل وأبويه، فللزوجة الثمن، وللأبوين السدسان، فتعول المسألة لاحتمال أن الحمل بنتان، فأصل المسئلة من أربعة وعشرين وتعول لسبعة وعشرين، فيدفع للزوجة منها ثلاثة-أي وهي تُسْع-، وللأبوين ثمانية، ويوقف الباقي، وهو ستة عشر، فإن كان الحمل بنتين كان الباقي لهما . مغني المحتاج بشرح المنهاج، في باب الفرائض .

<sup>٣</sup> قال الغزالي في الإحياء في باب بيان العلم الذي هو فرض كفاية: إن أصول الصناعات من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحجامه والخياطة؛ فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزال الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله .

محمد بن علي الطبري المعروف بإلكيا الهراسي صاحب إمام الحرمين: هي فرض كفاية وهذا أظهر (١) .

---

<sup>١</sup> مقدمة المجموع باب أقسام العلم الشرعي .

## وَسِيرَةُ خَيْرِ الْخَلْقِ تُحْيِي الْقُلُوبَ ...

أي معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر محاسنه وفضائله وشمائله وأخلاقه تحيى القلوب وتنشرح بها الصدور، كيف وقد قيل: إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين، فما ظنك بسيد الكائنات وإمام المقربين صلى الله عليه وسلم.

### والـ تَصَوُّفٌ يُصَفِّي الْقَلْبَ عَنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ

قال الهيثمي في (الفتاوي الحديثية): اختلفت عبارة العارفين في حد التصوف على أكثر من ألف قول نظرا إلى شروطه وآدابه وغاياته وثمراته، فحده سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه بأن يكون مع الله بلا علاقة، وبأن يمتك الحق به ويحييك به، وبأنه ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع، وأبومحفوظ معروف الكرخي: بأنه الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق، وأبو محمد الحريري: بأنه التحلي بكل خلق حسن سني، والتخلي عن كل خلق دني،

وقال الجنيد رحمه الله: إنه كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالسحاب يسقي كل شيء (١).

وسئل أيضا عن التصوف؟ فقال: استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني (٢). وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: هو ترك الاختيار، ويقال: حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك، ويقال: الجِد في السلوك إلى ملك الملوك (٣).

وفي (الموسوعة السياسية): التصوف ثورة ضمير ضد ظلم الإنسان لنفسه، وأيضا ضد ظلم الإنسان للإنسان. وفيه أيضا: وضعوا للتصوف مصطلحاته الخاصة التي تصون أسرارهم عن الذين لم يرتفعوا إلى مستواه (٤) اهـ .

وفي (الموسوعة اليوسفية): التصوف ثورة على التكلف، ودعوة إلى التقشف، ثورة على الحقد، ودعوة إلى الحب، ثورة على الجاه، ودعوة إلى الله، ثورة على الجدل، ودعوة إلى

<sup>١</sup> الرسالة القشيرية، في باب التصوف.

<sup>٢</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

<sup>٣</sup> أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري، باب التصوف.

<sup>٤</sup> موسوعة السياسية، مادة ص .



العمل، ثورة على الظلم، ودعوة إلى العلم، ثورة على الشر، ودعوة إلى البر، ثورة على الكذب، ودعوة إلى الصدق (١) اهـ.

وحد الجنيد الصوفي : بأنه كالأرض يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح. وأبو محمد سهل بن عبد الله التستري: بأنه من صفا من الكدر، وانقطع إلى الله عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (٢) اهـ.

وقال الإمام النووي في (روضة الطالبين) في الوقف على الصوفية: حكى عن الشيخ أبي محمد أنه باطل، إذ ليس للتصوف حد يُعرف، والصحيح المعروف صحته، وهم المشتغلون بالعبادة في أغلب الأوقات، المعرضون عن الدنيا، وفصله الغزالي في (الفتاوي) فقال: لا بد للصوفي من العدالة وترك الحرفة، ولا بأس بالوراقة والخياطة وشبههما إذا تعاطاها أحيانا في الرباط لا في الحانوت، ولا تقدح قدرته على الكسب ولا اشتغاله بالوعظ والتدريس، ولا أن يكون له من المال قدر لا تجب فيه الزكاة أو لا يفي دخله بخرجه، وتقدح الثروة الظاهرة والعروض الكثيرة، ولا بد أن يكون في زي القوم إلا أن يكون مساكنا، فتقوم المخالطة والمساكنة مقام الزي، قال: ولا يشترط لبس المرقعة من شيخ، وكذلك ذكر المتولي (٣) اهـ.

وفي (الرسالة القشيرية) وشرحها: قال الأستاذ أبو علي الدقاق: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل. وقال ذو النون المصري: بأنهم قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم على كل شيء. وقال سلطان العلماء الإمام المجتهد عز الدين بن عبد السلام في (قواعد الأحكام في مصالح الأنام): قَدَّمَ الأولياءُ والأصفياءُ مصالح الآخرة على مصالح هذه الدار لمعرفة بتفاوت المصلحتين، ودرأوا مفسد الآخرة بالتزام مفسد بعض هذه الدار لمعرفة بتفاوت الرتبتين، وأما أصفياء الأصفياء فإنهم عرفوا أن لذات المعارف والأحوال أشرف اللذات، فقدّموها على لذات الدارين، ولو عرف الناس كلهم من ذلك ما عرفوه لكانوا أمثالهم، فنصبوا ليستريحوا، واغتربوا ليقتربوا، فمنهم من تحضره المعارف بغير تكلف، فينشأ عنها

<sup>١</sup> الموسوعة اليوسفية ص ٣٣.

<sup>٢</sup> الفتاوي الحديثية ص ٢٨٠.

<sup>٣</sup> روضة الطالبين للإمام النووي في باب الوقف ج ٥ ص ٣٢١.

الأحوال اللائقة بها بغير تصنع ولا تخلُّق، ومنهم من يستذكر المعارف لينشأ عنها أحوالها، وشتان ما بين الفريقين، وقد يتكلف المحروم استحضار المعارف فلا تحضره، فسبحان من عرّف نفسه لهؤلاء من غير تعب ولا نصب، ولا استدلال ولا وصب، بل جاد عليهم وسقاهاهم خالص وبله، وصافى فضله، فشغلهم به عما سواه، فلا همّ لهم سواه، ولا مؤنس لهم غيره، ولا معتمد لهم إلا عليه؛ لعلمهم أنه لا ملجأ لهم إلا إليه، فرضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وشكروا لنعمائه، يتسع عليهم ما يضيق على الناس، ويضيق عليهم ما يتسع للناس، أدبهم القرآن، ومعلمهم الرحمن، وجليسه المديان، وسرايلهم الإذعان، قد انقطعوا عن الإخوان، وتغربوا عن الأوطان، بكأؤهم طويل، وفرحهم قليل، يردون كل حين موردا لم يتوهموه، وينزلون منزلا لم يفهموه، ويشاهدون ما لم يعرفوه، لا يعرف منازلهم عارف، ولا يصف أحوالهم واصف، إلا من نازلها ولا بسها، قد اتصفوا بأخلاق القرآن، على حسب الإمكان، وتلك الأخلاق موجبة برضا الرحمن، وسكنى الجنان، في الرغد والأمان، مع النظر إلى الديان(١).

وقال الشيخ زكريا الأنصاري في شرح الرسالة القشيرية: قال رجل لأبي يزيد البسطامي: دلي على عمل أتقرب به إلى ربي، فقال: أحب أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك(٢).

وفي (الفتاوي الحديثية) للهيتمي قال شاه بن شجاع الكرمانى: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله عز وجل (٣) اهـ .

وفي (تبين كذب المفتري) للحافظ ابن عساكر أن إمام الحرمين كان من رقة القلب بحيث يبكي إذا سمع بيتا أو فكر في نفسه ساعة، وإذا شرع في حكاية الأحوال وخاض في علوم

<sup>١</sup> قواعد الأحكام في مصالح الأنام ج ١ ص ١٠-١١

<sup>٢</sup> أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لزكريا الأنصاري.

<sup>٣</sup> الفتاوي الحديثية ص ٢٨٤.

الصوفية في مجالسه أبكي الحاضرين ببيكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعقاته ونعراته (١) ونعراته (١) وإشاراته؛ لاحتراقه في نفسه وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار (٢).

### تنبيه في حكم معرفة علم القلوب أي التصوف

قال النووي في (مقدمة المجموع): في أقسام العلم الشرعي: أما علم القلب وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشبههما فقال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين، وقال غيره: إن رُزق المكلف قلبا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يسلم نظر، إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلُّم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ والله أعلم (٣).

وقال في شرح أربعينه في شرح حديث "إن الحلال بين وإن الحرام بين": أمراض القلوب كثيرة تبلغ نحو الأربعين عافانا الله منها، وجعلنا ممن يأتيه بقلب سليم اهـ.

### أولوية الجمع بين الفقه والتصوف

وينبغي لطالب العلم أن يجمع بين الفقه والتصوف فقد نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا فإني وحق الله إياك أنصح  
فذلك قاس لم يذق قلبه تقى وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح (٤)  
وقال الهيثمي في (الفتاوي الحديثية): من الصوفية الخمسة الذين أُجْمِعَ على الاقتداء بهم لجمعهم بين علمي الظاهر والباطن، وهم أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو محمد رُوَيْم، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي، وأبو العباس بن عطاء، وكانوا مجتمعين في عصر واحد (٥).

<sup>١</sup> والزعقة الصبحة، والزقاق كشّداد من يطرد الدواب ويصيح في آثارها، وزعقة المؤذن صوته . قوله نعراته في القاموس وشرحه نَعَرَ الرجل نعيْرا ونُعَارًا صاح وصَوَّتَ بخيشومه .

<sup>٢</sup> تبين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٧٨-٢٨٥.

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع، ص ٦٥.

<sup>٤</sup> ديوان الشافعي

<sup>٥</sup> الفتاوي الحديثية للهيتمي ص ٢٧٣.

ومن محدثي الصوفية وحفاظها وفقهائها قدس الله أسرارهم الفضيل بن عياض شيخ الإمام الشافعي، والحافظ محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرويه أبو أحمد الجلودي (١)، راوى صحيح مسلم عن إبراهيم بن محمد والحافظ أبو عبد الرحمن السلمي، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء، والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وأبو سهل الصعلوكي، ومحمد بن خفيف، والأستاذ أبو القاسم القشيري، وابن العربي، والجيلاني، والحافظ أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني، والحافظ أبو علي حسن بن محمد بن محمد التميمي البكري، والحافظ عبد الله بن محمد بن علي أبو إسماعيل الأنصاري، والحافظ عبد العزيز بن أحمد بن محمد أبو محمد الكتاني، والحافظ عطية بن سعيد الأندلسي، والحافظ محمد بن داود بن سليمان أبوبكر النيسابوري، والحافظ محمد ابن محمد بن محمد البكري أبو الفتح، والحافظ كيلجة محمد بن صالح أبوبكر الأنماطي، والحافظ هبة الله بن عبد الوارث بن علي، والحافظ يوسف بن أحمد الشيرازي، والمحدث سهل بن بشر، وخلائق آخرون.

<sup>١</sup> قال في القاموس: إنه بضم الجيم لا غير، وهم الجوهري في قوله: ولا تقل الجلودي أي بالضم اهـ . وقال الإمام النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم: الجلودي بضم الجيم بلا خلاف، قال الإمام أبو سعيد السمعاني: هو منسوب إلى الجلود المعروفة جمع جلد، وقال ابن الصلاح رحمه الله: عندي إنه منسوب إلى سكة الجلود بنيسابور. وقال النووي: قال الحاكم أبو عبد الله: كان أبو أحمد الجلودي شيخا صالحا زاهدا من كبار عباد الصوفية، صحب أكابر المشايخ من أهل الحقائق، وسمع أبا بكر بن خزيمة ومن كان قبله، توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وهو ابن ثمانين سنة، قال الحاكم: وختم لوفاته سماع صحيح مسلم، وكل من حدث به بعده عن إبراهيم بن محمد بن سفيان وغيره فليس بثقة والله أعلم. انتهى. قلت: ومن العجب الغريب أن بعض الجهال المعاصرين يُبدعون الصوفية وبعضهم يفسقونهم بل بعض غلاتهم يكفرونهم وينسبون إليهم كل سوء، ثم إنهم يروون صحيح مسلم من طريق هذا الصوفي الإمام الجلودي، ويستدلون بأحاديثه، وهم لا يتفطنون لتناقضهم العجيب وتخطئهم الغريب، فقد رموه بأسوء الجرح وأقبحه مرة، واعترفوا بفضلهم وعدالته والثقة به مرة أخرى فرووا عنه صحيح مسلم، وليس هذا خاصا بالإمام الجلودي وحده، بل هو عام في كل محدث وحافظ صوفي، فإنهم يروون عنهم ويدرسون كتبهم، وترى في أسانيدهم كثيرا من حفاظ الصوفية وأئمتهم ممن ذكرناهم في هذا الشرح أو من غيرهم، ومع هذا ينكرون عليهم ويطعنون فيهم ويرمونهم بكل سوء، وما ذاك إلا لبغض كامن في قلوبهم وحسد راسخ في نفوسهم لأولياء الله تعالى، ألا فليتنهوا من غفلتهم وليستيقظوا من غيوبتهم وليتنهوا من الاستدلال بأحاديث من حكموا عليه بالجرح والفسق، وليتقوا الله وليحذروا من محاربهته، فقد قال جل شأنه في الحديث القدسي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، رواه البخاري. ونسأل الله السلامة والعفو والعافية.

## احترام علماء علم الظاهر للصوفية

اعلم أنه ما زال علماء السلف والخلف من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم يحترمون الصوفية ويشنون عليهم ويدافعون عنهم الطاعنين، ويعملون بإشاراتهم، ويعظمونهم، ويهابون منهم، ويتبركون بهم، ويطلبون منهم الدعاء، فقد ذكر الغزالي في الإحياء أن الإمام الشافعي كان يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله كيف يفعل كذا وكذا، فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إن هذا وفق لما أغفلناه، وكان الإمام أحمد ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي، ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما، وكانا يسألانه، ثم قال الغزالي: وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم (١).

وقال الخطيب في (تاريخ بغداد) والذهبي في (سير أعلام النبلاء): ذكر معروف الكرخي عند الإمام أحمد ف قيل: قصير العلم، فقال: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف.

وقال الزبيدي في (شرح الإحياء) نقلاً عن صاحب (قوت القلوب): إن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: بلغني أنك تختلف إلى معروف أكان عنده حديث؟ فقال: يا بني عنده رأس الأمر تقوى الله عز وجل اهـ. ومثله في (تاريخ بغداد) للخطيب (٢).  
وقال سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي: لا يزال أهل بغداد بخير ما بقي فيهم أبو محفوظ معروف الكرخي.

وفي (صفة الصفوة) قال جعفر بن محمد: اعتلّ بشر بن الحارث فعادته آمنة الرملية - من الرملة - ودخل أحمد بن حنبل يعوده، فقال: من هذه؟ فقال: هذه آمنة الرملية، بلغتها عليّ فجاءت من "الرملة" تعودني، قال: فسلها تدعو لنا، فقالت: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيرانك من النار فأجرهما، قال أحمد: فانصرف، فلما كان من الليل طُرحت إليّ رقعة مكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم قد فعلنا ولدينا مزيد (٣) اهـ.

<sup>١</sup> إحياء علوم الدين في مبحث العلم المحمود والمذموم من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص ٢١١.

<sup>٣</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص ٣٥١.

وكان الإمام المجتهد تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي كثير التعظيم للصوفية والمحبة لهم، ويقول: طريق الصوفي إذا صحت هي طريقة الرشاد التي كان السلف الصالح عليها (١) اهـ.

وكان الإمام أبو إسحاق الشيرازي سافر مرة إلى بلاد العجم، فلما وصل إليها خرج إليه أهلها بنسائهم وأولادهم، فيمسحون أردانه ويأخذون تراب نعليه، وخرج إليه صوفيات البلد، وما فيهن إلا ومعها سبحة، وألقين الجميع إلى المحفة، وكان قصدهن أن يلمسها ليحصل لهن البركة، فجعل يمرها على يديه وجسده، ويتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه. وكان يحترم الصوفي المعروف بالسهلبي احتراماً عظيماً (٢) اهـ .

وكان الإمام النووي يحترمهم احتراماً بالغاً .

ومن أثنى عليهم العلامة الإمام المجتهد عز الدين بن عبد السلام، وتاج الدين السبكي، ووالده تقي الدين السبكي، وابن حجر الهيتمي، وخلائق غيرهم.

وقال ابن السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم): الصوفية حياهم الله وبياهم (٣)، وجمعنا نحن وإياهم في الجنة هم أهل الله وخاصته، الذين تربحوا الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، جعل الله قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنوارهم، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق.

<sup>١</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي .

<sup>٢</sup> وتمة كلام ابن السبكي: ولما بلغ "بِسْطَام" قيل للشيخ: قد أتى فلان الصوفي فنهض الشيخ من مكانه، وإذا به شيخ كبير همٌّ وهو راكب بهيمة وخلفه خلق من الصوفية بمرقعات جميلة، فقبل له: قد أتاك الشيخ أبو إسحاق الشيرازي فرمى نفسه عن البهيمة وقبل يده، وقبل الشيخ أبو إسحاق رجله وقال له الصوفي: قتلني يا سيدي فما يمكنني أمشي معك ولكن تتقدم إلى مجلسك. ولما وصل جلس الشيخ أبو إسحاق بين يديه وأظهر كل واحد منهما من تعظيم صاحبه ما جاوز الحد، ثم أخرج الصوفي خرجين، في إحداها حنطة وقال: هذه الحنطة نتوارثها عن أبي يزيد البسطامي، وفي الأخرى ملح، فأعجب الشيخ أبا إسحاق ذلك وودعه وانصرف. وهذا الشيخ الصوفي الذي قصد الشيخ أبا إسحاق يعرف بالسهلبي اهـ .

<sup>٣</sup> قوله: بياهم، قال في القاموس: بياك الله قَرَبَكَ .

ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة، وطريقهم كما قال شيخ الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله: طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، وقال: الطريق مسدود على خلق الله تعالى، إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

وقال إمام الصوفية سهل بن عبد الله التستري: مذهبنا مبني على ثلاثة أصول، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال والأكل من الحلال وإخلاص النية في جميع الأعمال (٢).

وتبرك بهم الباز الأشهب أحمد بن عمر بن سريج، فقد قال ابن السبكي: تكلم ابن سريج يوماً فأعجب بعض الحاضرين، فقال ابن سريج: هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد رحمه الله (٣).

وتترك بهم الخطيب البغدادي، فقد أوصى أن يدفن بجانب قبر بشر بن الحرث الحافي. وقال الحافظ الجلال السيوطي في (تأييد الحقيقة العلية) قال ابن السبكي في طبقاته عن ابن السمعاني أنه روى بسنده أن أبا القاسم القشيري حج سنة من السنين وقد حج في تلك السنة أربعمئة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم فتكلم هو باتفاق منهم وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم أيضاً يحضر عنده الأئمة.

ثم قال ابن السبكي وأعظم ما عظم به أبو نصر أن إمام الحرمين وهو عصره نقل عنه في كتاب الوصية من النهاية، وهذا فخار لا يعدله شيء. قلت: ونقل عنه الرافعي والنووي في الروضة.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين ابن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد.

<sup>١</sup> معيد النعم ومبيد النقم ص ١١٩-١٢١.

<sup>٢</sup> الاعتصام ص ٥٠٨.

<sup>٣</sup> طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، وذكره أيضاً ابن شعبة في طبقات الشافعية، وابن خلكان في وفيات الأعيان.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في (لطائف المنن): سمعت الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال: وأخبرني مكي الدين الأسمر قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ محمد الدين علي بن وهب القشيري والشيخ محيي الدين الأحميمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي، ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقالوا: ياسيدي نريد أن نسمع كلامك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراءه وقد تكلمتم، فقالوا لا بد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عز الدين وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله.

وكان الشيخ أبو العباس تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي يحضر مجلسه الأئمة. وكان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله يحضر مجلس وعظه الأئمة مثل الشيخ تقي الدين السبكي إمام وقته تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما وأصولا ومنقولا ومعقولا بل المجتهد الذي لم يأت بعده مثله ولا قبله من دهر طويل، وقد ذكر السبكي في بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين وحضوره مجلسه، ونقل عنه بعض كلامه، وقال: إنه متكلم الصوفية على طريق الشاذلية. وفي (المعجم المخرج) للسبكي أنه قرأ عليه كتابه (الحكم).

ثم قال السيوطي: ولو كان في طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها السبكي ولا ولده ولا أئمة عصره ومن قاربهم (١) اهـ .

### تَوَارِيخُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّقَى بِهَا الْإِدْكَارُ وَاتَّعَظْ بِعِبْرَةِ

أي في معرفة تواريخ العلماء والعقلاء والأتقياء وسيرهم وقصصهم ومحاسنهم والاتعاظ بهم والاعتبار بها والتخلق بأخلاقهم والأسوة والاهتداء بهديهم، قال الله تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب} وقد ألفت في التواريخ والتراجم تأليف كثيرة واعتنى بذلك أئمة من العلماء (٢) .

<sup>١</sup> تأييد الحقيقة العلية وتشبيد الطريقة الشاذلية للحافظ السيوطي ص ٥٨-٦٠.

<sup>٢</sup> ومن أحسن ما ألفت في هذا الباب "طبقات ابن سعد، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الإصبهاني، ومختصره "صفة الصفوة" للحافظ ابن الجوزي، و"تاريخ بغداد" للإمام الخطيب البغدادي، و"تاريخ دمشق الكبير" الذي بلغت أجزاءه ٨٠٠، والجزء كما قال الذهبي ٢٠ ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة، للإمام حافظ الدين ابن



## الحث على تعلم طرف من كل فن من الفنون المحمودة

واعلم أن فنون العلم المحمود وأنواعه كثيرة، وما ذكرته هو المهم الذي لا ينبغي لطالب العلم أن يجهل عنه، وبقي من العلوم المحمودة فنون أخرى.

والعلوم منقسمة إلى محمودة وقد ذكرنا أقساما منها، وإلى مذمومة، وهي منقسمة إلى محرمة كالسحر، وإلى مكروهة، والعلوم كثيرة لا يبلغ أحد قعرها، ولا مطمع في حصرها، فالذي ينبغي لطالب العلم أن يتعلم من مهمات الفنون طرفا يهتدي به إلى باقيه، ولا يستغرق عمره في التعمق والتبحر في فن واحد منها، فإن العمر قصير والعلوم المهمة كثيرة، فينبغي الاقتصار على ما لا بد منه وعدم الاستقصاء في فن أو فنين مع الجهل عن الفنون الأخرى، فإن العلوم مترابطة يستعان كل نوع منها على الأنواع الأخرى، ويُهتدي ببعضها إلى بعض، وقد أجاد القائل:

لن يبلغ العلم جميعا أحد لا ولو حاوله ألف سنة

إنما العلم عميق بجره فخذوا من كل شيء أحسنه (١)

وقال آخر:

اجهد على كل علم تستريح به ولا تعيش بعلم واحد كسلا

النحل لما جنى من كل فاكهة حوى لنا الجواهرين الشمع والعسلا

فالشمع نور عظيم يستضاء به والشهد يبري لنا الأسقام والعلا (٢)

وفي (جامع بيان العلم): قيل: من أراد أن يكون حافظا نظر في فن واحد من العلم، ومن أراد أن يكون عالما أخذ من كل علم بنصيب.

وقال يحيى بن خالد بن برمك لابنه: يا بني خذ من كل علم بحظ وافر، فإن لم تفعل

جهلت، وإن جهلت شيئا من العلم عاديت، وعزيز على أن تعادي شيئا من العلم.

وقال بعضهم:

= عساكر، و"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" للحافظ السيوطي، و"البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير.

وللذهبي تأليف في التواريخ والسير منها تاريخه الكبير و"سير أعلام النبلاء" و"العبر في خبر من غير" والكتب المؤلفة في طبقات المذاهب والنحاة والمفسرين والمحدثين والصوفية كثيرة جدا.

<sup>١</sup> كفاية الأتقياء ص ٩٦.

<sup>٢</sup> وفي نسخة: والشهد فيه شفاء يبرئ العلا. كفاية الأتقياء ص ٩٤.

فلا تُلْمَهم على إنكار ما نكروا فإنما خلقوا أعداء ما جهلوا (١)

وقال الإمام الغزالي في (الإحياء): ما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء، وأشير إلى ذلك في التفسير والحديث والفقه والكلام لتقيس بها غيرها، فالأقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه الواحدي النيسابوري وهو الوجيز، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه، وما رواء ذلك استقصاء مستغنى عنه، وأما الحديث فالأقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث، وأما حفظ أسامي الرجال فقد كُفيت فيه بما تحمله عنك مَنْ قبلك ولك أن تُعوّلَ على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلًا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة، وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة، وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي، والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.

وأما الفقه فالأقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله، وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات.

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير، والاقتصار فيه القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) ويُحتاج إليه لمنظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئًا يسيرًا فقلما ينفع معه الكلام، فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه، وقدّر أن عند غيره جوابًا ما وهو عاجز عنه، وأما العامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه قبل أن يشتد التعصب للأهواء، فإذا اشتد تعصبه وقع اليأس منهم، إذ التعصب يُرْسِخُ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب وينظرون إلى

<sup>١</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٥٨.

المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، وتتوافر بواعثهم على طلب نصره الباطل، ويتخذون التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس انتهى ما نقلته من الإحياء بحذف (١).

### التعلم في زمن الشباب والفراغ والصحة

وَمِنْ أَوَّلِ التَّمْيِيزِ فَأَبْدَأُ تَعَلَّمَ الْـ عُُلُومَ وَلَا تَتْرُكْ إِلَى يَوْمِ نُقْلَةٍ (٢)

أي ابدأ تعلم العلم من أول التمييز إلى الموت، فقد قيل: تعلم العلم من المهد إلى اللحد. وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكا لصدقت، كان مشغولا، إما أن يحدث، أو يقرأ، أو يسبح، أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك . وقال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة، رحمة الله عليه . وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري أحد أذكى العالم رحمه الله تعالى يقول: أثقل الساعات علي ساعة أكل فيها (٣).

وقال عمار بن رجاء: سمعت عبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث (٤) .

وقال أبو هلال العسكري في كتابه الحث على طلب العلم والجهاد: كان أبو بكر بن الخياط النحوي الإمام محمد بن منصور السمرقندي، المتوفى سنة ٣٢٠، رحمه الله تعالى يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة (٥) .

وقال أحمد بن مردويه: كان أبو نعيم في وقته مَرَحُولاً إليه، لم يكن في أفق من الأفاق أحد أحفظ منه، ولا أسند منه، كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، وكل يوم نوبة واحد

<sup>١</sup> إحياء علوم الدين في مبحث القدر المحمود من العلوم المحموده من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> أي لا تنقطع وقتا من أوقاتك عن طلب العلم حتى لحظة مفارقتك لهذه الدنيا، (فإلى) هنا على خلاف القاعدة من إفادتها عدم دخول الغاية في المغيا، كما قال الأجهوري: وفي دخول الغاية الأصح لا تدخل مع إلى وحتى دخلا، فلا يدع الطالب طلب العلم حتى في يوم انتقاله إلى الآخرة.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ص ٢٨ .

<sup>٤</sup> قيمة الزمن ص ٣٢ .

<sup>٥</sup> قيمة الزمن ص ٤٥-٤٦ .

منهم، يقرأ ما يريد إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما يقرأ عليه في الطريق جزء، وكان لا يضجر، لم يكن له غذاء سوى التسميع والتصنيف (١).

وقال تاج الدين السبكي: كان سليم الرازي رحمه الله من الورع على جانب قوي، يجاسب نفسه على الأوقات، لا يدع وقتاً يمضي بغير فائدة، إما ينسخ أو يدرس أو يقرأ وينسخ شيئاً كثيراً (٢).

وقال السيوطي في (منهاج السوي) قال النووي رحمه الله تعالى: بقيت نحو سنتين لم أضع جنبي على الأرض. قال: فحفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظت ربع المذهب في باقي السنة.

كان- أي النووي- أول طلبه يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً درسين في الوسيط وثالثاً في المذهب ودرسا في الجمع بين الصحيحين وخامساً في صحيح مسلم ودرسا في اللمع لابن جني في النحو ودرسا في إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة ودرسا في التصريف ودرسا في أصول الفقه تارة في اللمع لأبي إسحاق وتارة في المنتخب للفخر الرازي ودرسا في أسماء الرجال ودرسا في أصول الدين وهو التوحيد (٣) قال: وكنت أُعلّق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، قال: وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعاني عليه.

وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر، ولا يشرب المبرد أي الملقى فيه الثلج، ولم يتزوج.

قال ابن عطار: رأيت رجلاً من أصحابه قشّر خيارة ليطعمه إياها، فامتنع من أكلها، وقال: أخشى أن ترطب وتجلب النوم (٤) اهـ.

وقال أبوغدة: ترك النووي من المؤلفات الكثيرة العظيمة ما قسموه على أيام حياته، فكان لكل يوم فيها أربعة كراريس (٥).

<sup>١</sup> قيمة الزمن ص ٤٨.

<sup>٢</sup> قيمة الزمن ص ٥٠.

<sup>٣</sup> الإمام النووي لعبد الغني الدقر ص، ٣٥

<sup>٤</sup> منهاج السوي في ترجمة الإمام النووي.

<sup>٥</sup> قيمة الزمن ص ٧٢-٧٣.

وكان من العلماء طائفة يتعلمون العلم في العسر واليسر، والصحة والمرض حتى في مرض الموت، روى المعافي بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له دعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقبل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات (١).

وحدث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلَوَّالْجِيُّ، قال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج (٢) نَفْسَهُ، وضاق به صدره، وقد بلغ من العمر ٧٨ سنة، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما: حساب الجدات الفاسدة-وهي التي تكون من قبل الأم-؟ فقلت مشفقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا! أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أحليها وأنا جاهل بها، فأعدت ذلك عليه، وحفظ، وخرجت من عنده فسمعت الصراخ وأنا في الطريق (٣).

وأغرب ما في اعتناء ابن مالك بالعلم: أنه حفظ يوم موته عدة أبيات، حدها بعضهم بثمانية أبيات، لقنه إياها ابنه. فجراه الله خيرا عن هذه المهمة العلية (٤).

وقال القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري: مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة (٥)؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج؟ ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار أي في مناسك الحج أن يرميها ماشيا أو راكبا؟ قلت: راكبا، قال: أخطأت، قلت: ماشيا، قال: أخطأت، قلت: قل فيها يرضى الله عنك، قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيا، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن

<sup>١</sup> قيمة الزمن ص ٤٤-٤٥.

<sup>٢</sup> الحَشْرَجَةُ الغرغرة عند الموت وتردد النَّفْسِ. القاموس.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ص ٤٩.

<sup>٤</sup> قيمة الزمن ص ٧١.

<sup>٥</sup> كذا في الأصل ولعل الصواب: في مسألة كذا.

يرميه راكبا، ثم قمت من عنده فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه (١).

وفي (صفحات من صبر العلماء): قال ابن الجوزي: قال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجل مع أبي محبرة (٢) فقال له: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين — يعني ومعك المحبرة تحملها — فقال: مع المحبرة إلى المقبرة .

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

وقال ابن الجوزي: قال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفرائي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يَعدُّو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله ألا تستحيي إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟ قال: إلى الموت (٣) .

### تَعْلَمُ وَلَا تَكْسَلُ أَخِي فِي الشَّبَابِ وَالْفَرَاغِ وَأَيَّامِ النَّشَاطِ وَصِحَّةِ

أي تعلم العلم في زمن الشباب والحداثة والفراغ والنشاط والصحة، ولا تكسل عن ذلك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من العجز والكسل، فكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل.

وقال الإمام النووي في المقدمة الحافلة لكتابه الجليل (المجموع): ينبغي للمتعلم أن يغتني التحصيل في وقت الفراغ والنشاط، وحال الشباب وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، فقد روي عن عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا. وقال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه (٤).

<sup>١</sup> قيمة الزمن ص ٢٨-٢٩ .

<sup>٢</sup> وفي المصباح: الحبر بالكسر المداد الذي يكتب به، والمحبرة معروفة، وفيها لغات، أجودها فتح الميم والباء، والثانية بضم الباء مثل المأدبة والمقبرة، والثالثة: كسر الميم لأنها آلة مع فتح الباء. وفي القاموس: المحبرة بالفتح لا بالكسر، وغلط الجوهري، وحكي محبرة بضم الباء كمقبرة. وقال الزبيدي في تاج العروس: والصحيح أنهما لغتان، أجودهما الفتح، وقال أيضا: المحبرة هي الآنية التي يجعل فيها الحبر، من خزف كان أو من قوارير.

<sup>٣</sup> صفحات من صبر العلماء ١٢٠-١٢١.

<sup>٤</sup> مقدمة المجموع باب آداب المتعلم .

وقال ابن الوردي:

اطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل

وقال بعضهم:

العلم نور فلا تُهمل مجالسه واعمل جميلاً يُرى فالفضل في العمل  
لا ترقد الليل ما في النوم فائدة لا تكسلن ترى الحرمان في الكسل

وقال آخر:

دعي نفسي التكاثر والتواني وإلا فاثبتني في ذا الهوان  
فلم أر للكسالى الحظ يحظى سوى ندم وحرمان الأمان

وقد قلت في قصيدتي النائية:

فلا للذيد النوم عقيب حميدة ولا للكسالى غير ذل وحسرة

فَإِنْ فَاتَكَ التَّعْلِيمُ فِي هَذِهِ الْفُرْصِ ( ١ ) تَكُنْ نَادِمًا مِنْ بَعْدِهَا دُونَ مَرِيَّةٍ

أي إن فاتك تعلم نفسك العلم في هذه الفرص المذكورة تكون نادماً من بعد فواتها دون شك، ولما أدركت الشيخوخة وأمراضها أبا عثمان الجاحظ المشهور كان ينشد هذين البيتين:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب  
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس ( ٢ ) كالجديد من الثياب ( ٣ )

<sup>١</sup> وفي القاموس الفرصة بضم الفاء النوبة والشرب، وفي لسان العرب: الفرصة النهزة والنوبة، وأفرصتني الفرصة أي أمكنتني، وافترضتها اغتنمتها، وانتهز فلان الفرصة أي اغتنمها فاز بها .

<sup>٢</sup> أي بآل .

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ص ١١٨ .

وَقَدْ قِيلَ إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ فِي الصَّغَرِ يَكُنْ عِلْمُهُ صِدْقًا كَنَقْشٍ بِصَخْرَةٍ  
 أي قيل: إن ما تُعَلَّم في الصغر يكون راسخا في القلب كرسوخ النقش في الصخرة، فقد  
 قال السيوطي في (التعقبات): أخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي الدرداء بلفظ: مثل  
 الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش في الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي  
 يكتب على الماء (١).

وأخرج البيهقي في المدخل من مرسل إسماعيل بن رافع: من تعلم وهو شاب كان كوسم  
 في حجر، ومن تعلم في الكبر كان كالكتاب على ظهر الماء (٢) اهـ.  
 وقال السخاوي في المقاصد والعجلوني في كشف الخفا لبعضهم:

أَرَانِي أَنَسَى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرِ      وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصَّغَرِ  
 وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصَّبَا      وَمَا الْحِلْمُ إِلَّا بِالتَّحَلُّمِ فِي الْكِبَرِ  
 وَلَوْ فَلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِي الصَّبَا      لَأُلْفِيَ فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ  
 وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلَّا تَعَسُّفٌ      إِذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ  
 وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا اثْنَانِ عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ      فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وَهَذَا فَقَدْ دَمَرَ  
 قالوا: وهذا محمول على الغالب وإلا فقد اشتغل أفراد كالقفال والقديري بعد كبرهم،  
 ففاقوا في علمهم وراقوا بمنظرهم اهـ.

وفي (المقاصد الحسنة) و(كشف الخفا) أيضا: عن أبي هريرة مرفوعا من تعلم القرآن في  
 شبابه اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره فهو يتفلت منه ولا يتركه فله أجره  
 مرتين.

وروى البيهقي والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو  
 ممن أوتي الحكم صبيا اهـ.

<sup>١</sup> قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورواه الطبراني في الكبير، وفيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري ومسلم وأبو  
 حاتم.

<sup>٢</sup> التعقبات ص ٤٦، وذكره السخاوي في المقاصد في حرف العين، والعجلوني في كشف الخفاء في حرف العين.



وفي (التعقبات) أيضا: أخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم بسند جيد عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب، ولا أوتي العلم إلا وهو شاب (١) اهـ.

وكانت التابعة الجلييلة حفصة بنت سيرين (٢) تقول: يا معشر الشباب، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب، فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب.

وعقد الخطيب البغدادي للتعلم في زمن الشباب بابا في كتابه (الفقيه والمتفقه) فقال: باب التفقه في الحداثة وزمن الشبيبة، فمما قال فيه: التفقه في زمن الشبيبة وإقبال العمر والتمكن منه بقلّة الأشغال وكمال الذهن وراحة القريحة يرسخ في القلب ويثبت ويتمكن ويستحكم، فيحصل الانتفاع به والبركة إذا صحبه من الله حسن التوفيق، وإذا أهمل إلى حالة الكبر المغيرة للأخلاق الناقصة للآلات كان كما قال الشاعر:

إذا أنت أعيك التعلم ناشئا فمطلبه شيخا عليك شديد

وروى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حفظ الغلام كالوسمة في الحجر، قال الخطيب البغدادي: هذا آخر حديث الجوهرى، وقال ابن بشران: كالنقش في الحجر (٣).

وروى الخطيب بسنده عن الحسن البصري أنه قال: الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، وفي رواية أخرى عنه: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقال علقمة: ما حفظت وأنا شاب فكأنى أنظر إليه في قرطاس أو ورقة.

وقال معمر: جالست قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة فما سمعت منه شيئا وأنا في ذلك السن إلا وكأنه مكتوب في صدري.

<sup>١</sup> وذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} بلفظ: ما بعث الله نبيا إلا شاب ولا أوتي العلم علما إلا وهو شاب وتلا هذه الآية.

<sup>٢</sup> هي أخت محمد بن سيرين، وهي أفضل التابعيات كما أن أويسا القرني أفضل التابعين رحمهم الله.

<sup>٣</sup> الجوهرى شيخ الخطيب البغدادي الذي روى عنه هذا الحديث، وابن بشران شيخه الذي روى عنه هذا الحديث بطريق آخر، وهو أبو الطيب عبد العزيز بن أبي الحسين بن بشران.

وروى بسنده عن موسى بن علي عن أبيه أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني ابتغ العلم صغيراً، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير، يا بني إن الموعظة تشق على السفیه كما يشق الوعر الصعود على الشيخ الكبير (١) اهـ.

### الرحلة لطلب العلم

وَسَافِرٌ مِنَ الْأَوْطَانِ لِلْعِلْمِ وَاتْرُكَنْ أَهْلِيكَ وَالْأَحْبَابَ مَعَ كُلِّ إِخْوَةٍ  
فَفِي الْإِغْتِرَابِ رَاحَةٌ وَالْفَرَاغُ مِنْ شَوَاغِلِ أَصْحَابِ وَأَهْلِ وَرُقْفَةٍ  
أي سافر أيها الطالب للعلم من وطنك واترك عن أهلك وأحبابك وإخوتك؛ فإن في  
الاغتراب ومفارقة الأوطان راحةً وفراغاً من شواغل الأهالي والأصحاب والرفقة، فقد  
قال العلامة ابن الوردي في لاميته:

حبك الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلق عن الأهل بدل  
فبمكت الماء يبقى آسنا وسرى البدر به البدر اكتمل (٢)  
وقال بعضهم:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد  
إزالة هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد  
وَيَكْفِي أَنْيساً لِلتَّلَامِيذِ كُتُبُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ فِي الدَّرْسِ أَهْلُ الْمَوْدَةِ  
أي يكفي المغتربين من طلبة العلم في الأنس والصحبة إخوانهم المشاركون في الدرس  
وكتبهم فهم خير بديل وأفضل رفيق وأنفع أنيس وجليس.

وَأَيَّاكَ أَنْ تَعْيَى إِذَا طَالَ مُدَّةُ الْـ غِيَابِ وَهَاجَ الشَّوْقُ نَحْوَ الْأَحِبَّةِ  
أي احذر أيها الطالب أن تسأم نفسك من طول زمن الغربة وأن يؤثرها هيجان شوق  
الأحبة والزملاء فتعي عن الاستمرار في الطلب والإدمان في احتمال التعب والنصب،  
وكثيراً ما تحن نفوس الضعفاء من الطلبة إلى لقاء المعارف والأصدقاء، وتتضرر بانقطاع

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٨٩-٩٢.

<sup>٢</sup> السُّرَى كالمُهدى سير الليل، أي اكتمل البدر بانتقاله من منزل إلى منزل آخر، ولو لا ذلك لما حصل له ذلك الكمال والنور التام، والبدر القمر ليلة كماله.

المآلوفات والبعد عن البلاد، فتكاد القلوب تطير شوقاً إلى الأوطان وسكانها، فيعتربها الفتور وتضعف عما إليه ارتحلت وسافرت له، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إن الغريب له مخافة سارق وخضوع مديون وذلة وامق ( ١ )  
وإذا تذكر أهله وبلاده ففؤاده كجناح طير خافق  
وأما قوي العزيمة ورفيع الهمة فلا يبالي بذلك، ويتحمل كل شدة وعناء حتى يثمر مجهوده وينال مقصوده، وقد أحسن القائل:

إن التَّجَارَ إذا عادوا وقد رجوا أنساهم الربح ما عناهم السفر  
وقال آخر:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه فلا يخاف للسع النحل من ألم  
وقال آخر يخاطب نفسه:

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبرِ النحل  
وما أحسن قول ابن الفارض:

ومن يخطب الحسناء يسخو بمهرها وطالب شهد لم تحفه اللواسع  
وقال آخر:

وإذا كنت المقدام فلا تجزع في الحرب من الرهج ( ٢ )  
وقد ورد في الرحلة إلى طلب العلم والسعي إليه أدلة كثيرة، ففي (الترغيب والترهيب):  
روي عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: ما جاء بك؟ قلت: أنبُطُ العلم قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنتها رضا بما يصنع، رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، قوله: أنبُطُ العلم أي أطلبه وأستخرجه.

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له باباً إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها وصلت عليه

<sup>١</sup> في القاموس: وَمَقَّةٌ وَمَقَا وَمِقَّةٌ أحبه فهو وامق.

<sup>٢</sup> المقْدَامُ الشَّجَاعُ، ففي لسان العرب: يقال: رجل مقدام كثير الإقدام على العدو جريء في الحرب، والرَّهْجُ الغبار، وفي القاموس: الرَّهْجُ ويحرك الغبار اهـ.

ملائكة السموات وحيثان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد، وهو نجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وليس عندهم موت العالم إلى آخره، ورواه البيهقي واللفظ له من رواية الوليد بن مسلم حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن عثمان بن أيمن عنه (١).

وفي (الترغيب والترهيب) أيضاً و(مجمع الزوائد) (٢) عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا قبيصة ما جاء بك؟ قلت: كبرت سني ورق عظمي فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله تعالى به، فقال: يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك، يا قبيصة إذا صليت الصبح فقل ثلاثاً سبحان الله العظيم وبحمده تُعَافَ من العمى والجذام والفالج، يا قبيصة قل: اللهم إني أسألك مما عندك، وأفوض علىّ من فضلك، وانشر علىّ من رحمتك، وانزل علىّ من بركاتك، رواه أحمد وفي إسناده راو لم يسم.

وروى الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن.

قال أبوغدة: قال العلماء في شرح هذا الحديث: قوله: اذهب فسلم على أولئك النفر فاستمع ما يحيونك: فيه إشعار بأنهم كانوا على بعد من آدم عليه السلام، وفيه دليل

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب، في باب الرحلة في طلب العلم من كتاب العلم

<sup>٢</sup> مجمع الزوائد، ج ١، ص ١٧٥.

على استحباب السعي في طلب العلم، وأن آدم عليه السلام أول من سعى لطلب العلم بمقتضى هذا الحديث (١).

وروي عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: أطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. وقد ذكرناه في فضل العلم. وفي (الدر المنثور) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله تعالى: {السائقون} قال: طلبة العلم.

وفي (فتح المغيث) للسخاوي عن أبي مطيع معاوية بن يحيى قال: أوحى الله إلى داود أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد واطلب العلم حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: {السائقون} قال: هم طلبة العلم (٢) اهـ. ونقل الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع): عن أبي أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه السمرقندي: لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته (٣).

وقد ارتحل الكليم نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلى طلب العلم كما أخبر الله جل شأنه في قوله: {وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا} وقد لقي الكليم عليه السلام فيه شدة فقد قال: {لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا}.

وقال العيني في (عمدة القاري شرح البخاري): رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد (٤).

<sup>١</sup> صفحات، ص ٣٣-٣٤.

<sup>٢</sup> فتح المغيث ج ٢ ص ٣١٩.

<sup>٣</sup> صفحات من صبر العلماء، ص ١١١.

<sup>٤</sup> عمدة القاري ج ٢ ص ٧٣.

وروى ابن عبد البر بسنده عن ميمون قال: إن مثل العالم في البلد كمثل عين عذبة في البلد (١).

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهد فقد نقص في رأيه وعقله.

وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي: سمعت أبي يقول: أول ما خرجت في طلب الحديث أقيمت سبع سنين، أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشيا، ومن مصر إلى الرملة ماشيا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي على شيء من حديث أبي اليمان فسمعت، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيا، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعت سنة ٢٢١، وخرجت المرة الثانية سنة اثنين وأربعين، ورجعت سنة خمس وأربعين، أقيمت ثلاث سنين، وكانت سني في هذه الرحلة سبعا وأربعين سنة (٢).

وقال الحافظ الذهبي في (معرفة القراء الكبار): إن الشيخ أبا القاسم الهذلي المغربي ثم الشرقي هو الإمام الكبير الرحال والعلم الشهير المقرئ الجوال، أحد من طوّف بالدنيا في طلب القراءات، واسمه يوسف بن علي بن جُبارة. وقد رحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك في أقصى المشرق، وكانت رحلته في سنة ٤٢٥ وبعدها.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله في باب جامع في فضل العلم ص ٩٤.

<sup>٢</sup> صفحات من صير العلماء ص ٦٠-٦١.

وقال ابن الجزري: إنه طاف البلاد في طلب القراءات فلا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل للقراءات رحلته ولا لقي من لقي من الشيوخ مثله.

وقال في كتابه (الكامل في القراءات): جملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخا، ولو علمت أحدا يُقَدَّم علىّ في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته (١).  
وممن ارتحل إلى طلب العلم الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، الذي قال فيه الإمام النووي: هو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا الإمام مطلقا الثقة الثبت.

وقال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ): سمع ابن عساكر بدمشق ورحل فسمع في بغداد ومكة والكوفة ونيسابور وأصبهان ومرو وهراة وعمل (الأربعين البلدانية) أربعين حديثا من أربعين شيخا من أربعين بلدا، وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة اهـ.

وقال ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) إن الإمام الجليل حافظ الأمة أبا القاسم ابن عساكر سمع خلائق وارتحل إلى العراق ومكة والمدينة، وارتحل إلى بلاد العجم، فسمع بأصبهان، ونيسابور، ومرو، وتبريز، وميمنة، ويهق، وحسروجر، وبسطام، ودامغان، والرّي، وزنجان، وهمدان، وأسداباد، وجي، وبون، وبغ، وبوشنجي، وسرخس، ونوقان، وسمنان، وأبهر ومرند، وخوي، وجرباذقان، وروداور، وحلوان، وأرجيش. وسمع بالأنبار، والرافقة والرحبة، وماردين، وماكسين، وغيرها من البلاد الكثيرة والمدن الشاسعة والأقاليم المتفرقة (٢).

وَلِلْعَلْمِ ذَوْقٌ لَيْسَ يَدْرِيهِ غَيْرُ أَهْلٍ — لَهُ فَائِقٌ مِنْ طَعْمِ شَهْدٍ وَتَمَرَةٍ  
وَقَدْ أَخْبَرَ الزَّمْخَشَرِيُّ بِأَنَّهُ يَفُوقُ يَقِينًا طَعْمُهُ كُلَّ لَذَّةٍ

أي إن للعلم لذة تفوق لذة العسل وطعم التمر، وعذوبة ليس يعلمها غير أهل العلم ولا يدركها خلق سواهم، وقد أخبر بذلك خلائق كثيرون من العلماء، منهم العلامة محمود بن عمر الزمخشري فقال:

سهرى لتنقيح العلوم ألد من لثم لغانية وطيب (٣) عناق

<sup>١</sup> صفحات من صبر العلماء ص ٣٤٣.

<sup>٢</sup> صفحات من صبر العلماء ص ٣٤٣.

<sup>٣</sup> وفي نسخة أخرى: وطول عناق.

وأحب من نقر الفتاة لدفها      نقري لألقي الرمل عن أوراق  
وتمايلي طربا لحل عويصة      أحلى وأشهى من مدامة ساق  
أبيت سهران الدجى وتبيته      نوما وتبغي بعد ذاك لحاق

وقال العلامة المحقق مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١:

إذا خاض في بحر التفكير خاطري      على درة من معضلات المطالب  
حقرت ملوك الأرض في نيل ما حووا      ونلت المني بالكتب لا بالكتائب  
وأكثر من سلك مسلك التعليم مخلصا لله تعالى يشهد على هذا، ولا ينكره إلا جاهل لم  
يذقها، فجرب إن شئت ترى إن شاء الله من ذلك عجبا عجبيا وأمرا غريبا، وقد ذقنا والله  
الحمد شيئا من ذلك.

### الصاحب في التعلم

وَصَاحِبُ مِنَ الطُّلَّابِ مَنْ كَانَ عَزْمُهُ قَوِيًّا لَهُ جِدٌّ وَأَعْظَمُ هِمَّةٍ (١)

يعني صاحب من طلبة العلم من كان ذا عزيمة قوية، وهمة عالية، ففي تذكرة السامع  
والمتكلم: ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه كما روى عن النبي  
صلى الله عليه وسلم: أغد عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك.  
فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيد ولا يستفيد منه ولا يعينه على  
ما هو بصدد فليتلطف في قطع عشرته في أول الأمر قبل تمكنها؛ فإن الأمور إذا تمكنت  
عسرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: الدفع أسهل من الرفع.  
فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحبنا صالحا دينيا تقيا، ورعا ذكيا، كثير الخير، قليل  
الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذكره وإن ذكره أعانه، وإن احتاج واساه  
وإن ضجر صبره.

ومما يروى عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل      وإياك وإياه  
فكم من جاهل أردى      حليما حين وإخاه  
يقاس المرء بالمرء      إذا ما هو ما شاه

<sup>١</sup> قال ابن حجر الهيتمي في العمدة في شرح البردة: الهمة هي قوة العزم اهـ.



وقال غيره:

إن أحاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك  
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك  
وقال آخر:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردا فتردى مع الردى  
ومن فوائد صحبة طلبة العلم الاستئناس والتعاون في حل المشاكل وفهم الدقائق والمراجعة  
في الدروس، قال الخطيب في (الفقيه والمتفقه) في مبحث المراجعة بعد انتهاء الدرس:  
يتحول الذين حضروا الدرس فيتذاكرون ويعيد بعضهم على بعض، فعن أنس بن مالك  
قال: كنا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم وربما كنا نحوا من ستين إنسانا فيحدثنا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقوم فنتراجعه بيننا هذا وهذا وهذا، فنقوم وكأنما قد  
زرع في قلوبنا. قال الخطيب: فإذا أتقن كل واحد منهم الدرس وحفظه فليكتبه ويكون  
تعويله على حفظه، فإن اضطرب عليه شيء من محفوظه رجع إلى كتابه فاستثبته منه كما  
قال الخليل ابن أحمد: اجعل ما في الدفتر رأس مالك وما في قلبك التفقه وأنشد:

ليس بعلم ما يعي القمطر (١) ما العلم إلا ما وعاه الصدر إهـ. (٢)  
وَلَا تَصْحَبَنَّ مَنْ كَانَ أَهْلَ بَطَالَةٍ وَعَجْزٍ وَحَقْدٍ وَالْفَسَادِ وَحِدَّةٍ  
أي لا تصحب أيها الطالب أهل البطالة والعجز ونحوهما، قال المليباري في (هداية  
الأذكياء):

لا تصحب من كان أهل بطالة وتساهل في الدين ذاك هو البلا  
وقال ابن عطاء الله في (الحكم): لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله  
مقاله.

ولله در القائل:

وإياك أن ترضى بصحبة ناقص فتخط قدرا من علاك وتُحقرا

<sup>١</sup> القمطر: ما يصاب فيه الكتب. القاموس.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج٢ ص ١٢٧.

فيتأكد على طالب العلم أن لا يصحب طالبا ديني المهمة ضعيف العزيمة، ذا عجز وبطالة، وضعينة وحدة، وفساد بجميع أنواعه؛ فإن الطبع يسرق من الطبع، والنفس مجبولة على الاقتداء بمن تخالطه، وقد قالوا:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي  
وقد قالوا: من جالس جانس، وأجاد القائل:

فخف أبناء جنسك واحش منهم كما تخشى الضراغم والسبنتا (١)  
والسبنتا (١)

وروى الخطيب أيضا بسنده عن رجل من قریش قال: قال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة، ورائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، الحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحق جوابه (٢).

وَلَا تَقْرَبَنَّ مِنْ سَيِّئِ الطَّعِ وَأَحْذَرَنَّ فَإِنَّ جَلِيسَ السُّوءِ يُفْضِي لَشِقْوَةٍ (٣)  
أي لا تقربن من صحبة سيئ الطبع ومجالسته واحذر منه (٤) فإنه الجليس السوء، ومجالسته ومجالسته توصلك إلى الشدة والشقاء، وروى الإمام مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة (٥) اهـ .

<sup>١</sup> الضَّرْعُغْمُ والضَّرْعَاغْمُ: الأسد، والسَّبَنَتِي: النَّمْرُ والجريء، القاموس، وفي لسان العرب: السَّبَنَتِي النمر، وقيل: الأسد.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٣٦.

<sup>٣</sup> وفي لسان العرب: أصل الإفضاء في اللغة الوصول، يقال: أفضى إليه أي وصل إليه اهـ والشقوة بكسر الشين قال تعالى: {ربنا غلبت علينا شقوتنا} ويفتح أيضا كما في القاموس واللسان، وهي الشدة والعسر، وفي البيت استعارة اللام لمعنى إلى.

<sup>٤</sup> وقد ذكرنا في مبحث حسن الخلق بعض ما ورد في سوء الخلق كحديث ما من شيء إلا وله توبة إلا صاحب سوء الخلق، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه، وكحديث سوء الخلق شؤم.

<sup>٥</sup> قال النووي في شرح مسلم: في هذا الحديث فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، وفيه النهي عن مجالسة أهل البدع وأهل الشر، ومن تكثر بطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة اهـ.

وقد ورد في الحديث: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل.  
وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تصحب الفجار فتتعلم من فجورهم. واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من خشى الله (١) اهـ والله الموفق.

### الصبر على طول مدة التعلم

تَعَلَّمْ مَدَى عُمْرِكَ إِنْ كُنْتَ تَبْتَغِي رُقِيَّ (٢) رَبِّي مَجْدٍ وَعِزٍّ وَرَفْعَةٍ

أي تعلم العلم مدى حياتك واصبر على طول الزمن في تعلمه إن كنت طالبا أن ترقى ربي المجد والعز والرفعة، روى الخطيب بسنده في (الفقيه والمتفقه) عن الفضل بن غانم قال: كان أبو يوسف مريضا شديدا المرض، فعاده أبو حنيفة مرارا فصار إليه آخر مرة فرآه ثقيلا فاسترجع ثم قال: لقد كنت أؤمّلك بعد للمسلمين، ولئن أُصِيب الناس بك ليموتن معك علم كثير، ثم رزق العافية وخرج من العلة، فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه، فارتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلسا في الفقه وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة، فسأل عنه فأخبر أنه قد عقد لنفسه مجلسا وأنه بلغه كلامك فيه، فدعا رجلا كان له عنده قدر، فقال: سر إلى مجلس يعقوب (٣) فقل له: ما تقول في رجل دفع دفع إلى قصار ثوبا ليقصره بدرهم، فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب فقال له القصار: مالك عندي شيء وأنكره؟ ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع إليه الثوب مقصورا، أله أجره؟ فإن قال له أجره، فقل: أخطأت، وإن قال: لا أجره له، فقل: أخطأت، فصار إليه فسأله، فقال أبو يوسف: فله الأجره، فقال: أخطأت، فنظر ساعة ثم قال: لا أجره له، فقال: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال له: ما جاء بك إلا مسألة القصار، قال: أجل، قال: سبحان الله من عقد يفتي الناس وعقد مجلسا يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإيجارات، فقال: يا أبا حنيفة علمني، فقال: إن كان قصّره بعد ما غصبه فلا أجره لأنه قصّره لنفسه، وإن كان قصّره قبل أن يغصبه

<sup>١</sup> تعليق الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري على كتاب تأييد الحقيقة العلية للحافظ السيوطي ص ٦١.

<sup>٢</sup> الربى جمع ومفردها رُبوة وهي ما ارتفع من الأرض، قال الله تعالى: {كمثل جنة ربوة}.

<sup>٣</sup> هو اسم أبي يوسف.

فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه (١).

وَكُنْ يَا أَخِي عَلَى الشَّدَائِدِ صَابِرًا فَتَحْظَى (٢) (بَنِيْل مَا تَرُوْمُ وَبُغْيَةٍ  
أي كن صابرا على شدائد طلب العلم المترتبة على طول زمن التعلم فتسعد بنيل ما تطلبه  
وترغب فيه، وأجاد القائل:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا (٣)  
وَيَاكُمُوا أَنْ تَجْبُئُوا ثُمَّ تَنْكُصُوا (٤) إِلَى أَهْلِكُمْ فَوْرًا بِجَهْلٍ وَخِيَّةٍ  
أي احذروا من الضعف والوهن وعدم التجلد واحتمال مشقة طول مدة التعلم فترجعوا  
بسرعة إلى أهليكم مع الجهل والحرمان عن نيل المطلوب وبلوغ المقصود.

### حل المشكلات بالتدبر وسؤال المشايخ

تَدَبَّرْ وَفَكِّرْ فِي الدَّقَائِقِ وَاجْتَهِدْ بِحَلِّ جَمِيعِ الْمَشْكَلاتِ الْمِلْمَةِ (٥)  
في البيت الحث على التدبر والتفكر في المسائل الدقيقة والاجتهاد في حل المشكلات، قال  
الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من طلب علما فليدقق لثلا يضيع دقيق العلم (٦)  
وَسَلْ مَا جَهِلْتَ مِنْ عَوِيصٍ وَمُعْضِلٍ شَيْوْخَكَ تَظْفَرُ بِالْمُنَى وَالْمَسَرَّةِ  
أي اسأل مشايخك ما جهلت عنه من عويص المسائل ومعضلاتها وفي (المقاصد الحسنة)  
للسخاوي و(كشف الخفا) للعجلوني: العلم خزائن ومفتاحها السؤال. قال العجلوني:  
رواه أبو نعيم والعسكري بسند ضعيف عن علي مرفوعا، وقال النجم: قلت: وزاد

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٤١.

<sup>٢</sup> تحظى أي تسعد.

<sup>٣</sup> قيمة الزمن ص ١٢٢.

<sup>٤</sup> أي ترجعوا، وفي القاموس: نكص على عقبيه رجع عما كان عليه من خير، وهو خاص بالرجوع عن الخير اهـ.

<sup>٥</sup> الملمة: أي النازلة. ففي القاموس: المّ به نزل كلمّ اهـ.

<sup>٦</sup> تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٧٤.

العسكري: فسلوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمحِب لهم  
(١) اهـ

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم.

وعن ميمون بن مهران قال: التودد إلى الناس نصف العقل وحسن المسئلة نصف العلم. وقال ابن عباس: ما سألتني أحد عن مسألة إلا عرفته فقيه أو غير فقيه (٢). وقال مغيرة: قيل لابن عباس: أنى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤال، وقلب عقول (٣).

وقال الرازي في تفسيره: قيل لابن مسعود: بم وجدت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤال، وقلب عقول.

واعلم أنه ينبغي أن يكون سؤال المشايخ تفقها وازديادا للعلم واسترشادا لا إمتحانا ولا إيذاء ولا تعنتا، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لابن الكواء: ويلك سل تفقها ولا تسل تعنتا، وورد في الحديث: تعلموا ولا تعنتوا فإن المتعلم خير من المتعنت (٤)

وَلَا يَمْنَعَنَّكَ الْعُجْبُ وَالْكِبَرُ وَالْحَيَا سَوَالُ الشُّيُوخِ أَهْلَ حَقٍّ وَنُصْحَةٍ (٥)

<sup>١</sup> المقاصد الحسنة ج ٢ ص ٨٥.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٣٣-٣٤.

<sup>٣</sup> شذرات الذهب لابن عماد ج ١ ص ٧٦.

<sup>٤</sup> جامع بيان العلم وفضله، باب جامع في آداب العالم والمتعلم، ج ١ ص ١٥٤-١٥٥.

<sup>٥</sup> قوله "ونصحة" هي بمعنى النصحية، ولم نجد لها في كثير من كتب اللغة، لكنها وردت في حديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط فقال: عن ابن عباس قال العباس: يا رسول الله، إنا لنعرف الضغائن في وجوه أقوام. قال: بم تعرفها؟ قال: تكون الحلقة في الحديث، فإذا اطلعت عليهم أمسكوا لقرايتي منك، ولو كانوا في نصحة الله ورسوله ما أمسكوا لقرايتي منك، قال: تعرفهم؟ قال: نعم، فوضع العباس يده على ذراع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دخل المسجد، فقال له العباس: هذه الحلقة منهم، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس، فرفعها، فقال: من لم يجب عمي هذا لله ولقرايته مني فليس بمؤمن. لم يرو هذا الحديث عن منصور إلا ابن الأجلح اهـ.

أي لا تمنعك هذه الثلاثة ونحوها عن سؤال المشايخ المحققين الناصحين، فالذي ينبغي لطالب العلم أن يسأل عما أشكل أو صعب فهمه عليه، ولا يأنف عن سؤال من يحقره الناس وتزدريه العيون، وكثيرا ما يمنع ذوي الغنى والحضارة والجاه والمناصب والرئاسة والسِّنَّ العجب والكبر عن سؤال ما يحتاجون إليه من العلم لا سيما إذا كان العالم المسؤول صغير السن أو مشوّه الخلقة أو بدويا أو فقيرا أو نحو ذلك من كل ما يعدّه الناس نقصا ودناءة، وفي تفسير الفخر الرازي: أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منها وإن كان أميرا، قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وخدمته للعالم الذي يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم ممن هو أعلم منه اهـ.

وربما يكون المانع من السؤال الحياء، وهو كثير في النساء، والمطلوب المأمور به شرعا أن يسأل الإنسان ما يحتاج إليه من العلم، ولا يبالي باستثقال النفس وكراهيتها لذكر بعض الأشياء التي يُستحي منها طبعاً، ففي صحيح البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: نعم نساء الأنصار لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن في الدين (١).

وفي البخاري قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر اهـ وقال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري): الحياء يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، وهو محمود، وأما ما يقع سببا لترك أمر شرعي فهو مذموم، وليس هو بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة، وهو المراد بقول مجاهد اهـ.

وقال ابن عبد البر: قال عمر مولى غفرة: لا يزال العالم عالما ما لم يستحي أن يمشي إلى من هو أعلم منه. وقال العباس لابنه عبد الله: لا تدع العلم استحياء من التعلم (٢).

### المذاكرة بالعلم والمطارحة والمناظرة

مُذَاكَرَةُ بِالْعِلْمِ عَوْنٌ لِطَالِبٍ زِيَادَةُ عِلْمٍ بَلْ وَفَهُمْ وَفِطْنَةٌ

يعني أن في المذاكرة بالعلم فوائد أربعة لطالب العلم، فيتأكد عليه الاعتناء بها وصرف بعض أوقاته إليها.

<sup>١</sup> ذكره البخاري في باب الحياء في العلم من كتاب العلم، وذكره مسلم في كتاب الحيض، ولفظه: لم يكن يمنعهن، والباقي سواء.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر في باب جامع في آداب العالم والمتعلم.

وفي (الفقيه والمتفقه) عن أبي نضرة قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرأوا سورة.

وعن أنس بن مالك قال: كنا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم وربما كنا نحوا من ستين إنسانا فيحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقوم، فتراجعه بيننا هذا وهذا وهذا فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا (١).

وروى الخطيب بسنده عن أبي بكر بن أبي موسى أن أباه أتى عمر بعد العشاء الآخرة فقال: ما جاء بك يا أبا موسى الساعة؟ قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا ليلا طويلا نتذاكر، قال أبو موسى: الصلاة، فقال عمر: إنا في صلاة، قال: فتذاكرنا حتى كان قريبا من الفجر.

وروى أيضا بسنده عن مجاهد قال: لا بأس بالسمر في الفقه .  
وروى الخطيب أيضا بسنده عن محمد بن فضيل عن أبيه قال: كان ابن شيرمة والمغيرة والحارث العكلي والقعقاع بن يزيد وغيرهم يسلمون في الفقه، فرمما لم يقوموا حتى يسمعون النداء بالفجر (٢).

وفي (تذكرة الحفاظ) للذهبي أن ابن عباس رضي الله عنه قال: مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء ليلة (٣)

وفي مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة بغداد نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوما يقول: ما صليت اليوم غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي .

وفي الإحياء للغزالي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها، وكذلك روي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله اهـ.

وقال أبو غدة في (فيمة الزمن): كان بعض أئمة اللغة العربية يلقب (المذاكرة) لشدة تعلقه بمذاكرة علم العربية مع كل من يراه من العلماء، قال الحافظ ابن حجر في (نزهة الألباب في الألقاب): "المذاكرة" يعني الملقب بالمذاكرة هو المنذر بن عبد الرحمن بن معاوية بن

<sup>١</sup> وقد ذكرنا حديث أنس أنفا في شرح بيت: وصاحب من الطلاب من كان عزمه ... إلخ.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٢٦-١٢٨.

<sup>٣</sup> تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤١

محمد بن عبد الله الأندلسي المرواني. لقب بذلك لأنه كان مغري بعلم النحو، وكان إماما فيه، مقدما في اللغة، وكان متى لقي رجلا من إخوانه قال له: هل لك في مذاكرة باب من العربية، فلقب بالمذاكرة لذلك، توفي سنة ٣٩٣ كما ذكره ابن حزم (١).

وقال عبد الغافر الفارسي: سمعت إمام الحرمين يقول: أنا لا أنام ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلا كان أو نهارا، وآكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان. وكانت لذته ونزهته في مذاكرة العلم، وطلب الفائدة من أي نوع كان.

### مُطَارَحَةٌ بَيْنَ التَّلَامِيذِ وَالْمُبَا حَثَاتُ مَعَ الطُّلَابِ مِنْ خَيْرِ خَصَلَةٍ

أي إن من خير خصال طالب العلم المطارحة والمباحثة مع شركائه، فمما شاع بين الطلبة قولهم: العلم بين التلاميذ، وليست المطارحة خاصة بالتلاميذ فقط، بل ما زال العلماء الأكابر والأئمة الأجلاء يهتمون بها ويصرفون زمانا طويلا من أوقاتهم العالية إليها، وذكر الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) أن الحارث العكلي والمغيرة والققعاق وابن شبرمة كانوا يصلون العشاء الآخرة ثم يجلسون فيتطارحون الفقه، وربما أذن المؤذن الفجر ولم يتفرقوا (٢).

وكان الإمام أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي ثم البغدادي المتوفى سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وناشر علمه ومذهبه، وقاضي الملوك الخلفاء العباسيين الثلاثة: المهدي والهادي والرشيد، وأول من دعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا: يباحث وهو في النزاع بعض عواده في مسألة فقهية، رجاء النفع بها لمستفيد أو متعلم، ولا يخلي اللحظة الأخيرة من لحظات حياته من كسبها في مذاكرة علم وإفادة واستفادة.

وقال السديد الدمياطي الحكيم بالقاهرة: اجتمع ليلة الشيخ مسامرة بن النفيس مع القاضي جمال الدين بن واصل وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة، شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم، والشيخ علاء الدين في كل ذلك يبحث برياضة ودون انزعاج، وأما القاضي جمال الدين فإنه كان ينزعج، ويعلو صوته وتحمر عيناه، وتنتفخ

<sup>١</sup> قيمة الزمن ٤٧-٤٨.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه ج٢ ص ١٢٩.



عروق رقبتة، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين، أما نحن فعندنا مسائل ونكت وقواعد، وأما أنت فعندك خزائن علوم .

### مُناظرةٌ معَ حاذقٍ مُنصفٍ لَهَا فوائدُ جَمَّةٌ كَتَشَحِيدِ (١) فِكْرَةٍ

أي للمناظرة مع حاذق منصف فوائد كثيرة: منها تشحيد الفطنة وتعلُّم إقامة الحجة لنصرة الحق وإدحاض الباطل، وإفحام أهل الأهواء والمبتدعة، قال الحافظ ابن عبد البر: قال سليمان بن عمران: سمعت أسد بن الفرات يقول: بلغني أن قوما كانوا يتناظرون بالعراق بالعلم، فقال قائل: من هؤلاء؟ فقليل: قوم يقتسمون ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عبد البر أيضا: قالوا: لا تصح المناظرة ولا يظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة في الدين والفهم والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراعاة ومكابرة اهـ.

والمناظرة محمودة إذا كانت مع الإنصاف والأمن من التقاطع والجفاء، روى ابن عبد البر بسنده عن العباس بن عبد العظيم العنبري قال: كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه علي بن المديني راكبا على دابة، فتنظرا وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه (٢).

وإنما يكون فيها فوائد كثيرة إذا كان القصد منها إظهار الحق على لسانه أو لسان مناظره، قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يُظهر الله الحق على يديه (٣).

وأما إذا كانت المناظرة معاندة ومغالبة فهي مذمومة وبليّة عظيمة وآفة كبيرة، فليجتنب الطالب وليحذر منها، ومما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إذا ما كنت ذا فضل وعلم      بما اختلف الأوائل والأواخر  
فناظر من تناظر في سكون      حليما لا تلح ولا تُكابر  
يفيدك ما استفاد بلا امتنان      من النكت اللطيفة والنوادر

<sup>١</sup> وفي القاموس: شحذ السكين أحدها . المشحذ المسنن اهـ.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم في باب إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة ج ٢ ص ١٣٠-١٣٢.

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع ص ٣٩ .

وإياك اللُّجُوجَ ومن يرائي بأني قد غلبتُ ومن يفاخر (١) وينبغي للطالب أن يطالع الإحياء للغزالي ليعلم المحمود والمذموم من المناظرات، ويعلم شروطها وآفاتهما، وما قد يكون فيها من تلبيسات الشياطين واتباع الأهواء.

### احترام كتب العلم والمصاحف

وَتَعْظِيمُ كُتُبِ الْعِلْمِ حَقٌّ مُؤَكَّدٌ عَلَيْكَ فَصُنْهَا عَنْ غُبَارٍ وَثُرْبَةٍ  
وَضَعْهَا مَكَانًا طَاهِرًا لَائِقًا بِهَا وَخُذْهَا بِحُبِّ الْيَمِينِ لِحُرْمَةِ

أي إن تعظيم كتب العلم واحترامها حق مؤكد على طالب العلم، ومن تعظيمها صونها عن نحو غبار وتراب، ووضعها مكانا طاهرا نظيفا لائقا بها، وأخذها باليمين احتراماً لها.

وَعَظْمُ مَصَاحِفِ الْقُرْآنِ وَقَبْلَنُ بَيْتِكَ بِهَا وَقَمُّ لَهَا بِالْمَحَبَّةِ

أي عظم المصاحف الشريفة، ومن تعظيمها التقبيل والقيام لها، قال الإمام النووي في (التبيان في آداب حملة القرآن) أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانه.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): قال البيهقي كالحليمي: والأولى أن لا يجعل فوق المصحف غير مثله من نحو كتاب أو ثوب، وألحق به الحليمي جوامع السنن أيضاً، وبحث ابن العماد أنه يحرم أن يضع عليه نعلا جديداً أو يضعه فيه لأن فيه نوع امتهان وقلة احترام، والأولى أن لا يستدبره ولا يتخطاه ولا يرميه بالأرض بالوضع ولا حاجة تدعو لذلك، بل لو قيل: بکراهة الأخير لم يبعد، وورد النهي عن تصغير لفظه كالمسجد فينبغي اجتنابه، قال الزركشي: ويسن تطييبه وجعله على كرسي وتقبيله انتهى.

وقال الزركشي أيضاً: ويحرم مد الرجل إلى شيء من القرآن أو كتب العلم اهـ . وفي إطلاق الحرمة وقفة، بل الأوجه عدمها إذا لم يقصد بذلك ما ينافي تعظيمه، وإذا قلنا بجرمة المد فمحله كما هو ظاهر حيث قرب منه بأن كان يُنسب المد إليه ويُعدّ مُخِلًا بتعظيمه . ويجوز وضع المصحف في كوة طاهرة من غير فرش، لكن الأولى بفرش، وأولى منه وأفضل: تعليقه.

<sup>١</sup> ديوان الشافعي.

ويجب على معلم الصبيان أن يمنع غير المميز من مس المصحف وحمله لئلا ينتهك حرمة، وله أن يمكن المميز من حمله لحاجة تعلمه منه أو ما يتوقف عليه التعليم كذهابه به إلى المكتب أو البيب وإن كان محدثا بل أو جنبا على المعتمد، ولا يجوز له تمكين المحدث من حمله أو مسه بغير ذلك (١).

وأخرج الإمام الدارمي في مسنده عن ابن أبي مليكة قال: إن عكرمة بن أبي جهل كان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي كتاب ربي (٢).

### التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة

وَكُنْ أَشْعَرِيًّا فِي الْعَقِيدَةِ يَا فَتَى      أَوْ اتَّبِعْ أَبَا الْمَنْصُورِ تَسْعِدْ بِجَنَّةٍ  
فَإِنَّهُمَا قَدْ وَافَقَا دُونَ مَرِيَّةٍ      بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَاعْلَمْ وَسَنَّةٍ

أي كن أيها الطالب متمسكا بإحدى العقيدتين المنسوبتين إلى الإمامين الشهيدين أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وأبي منصور الماتريدي، فإنهما الموافقان بما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية المطهرة.

واعلم أن الأشاعرة والماتريدية هما أهل السنة والجماعة، وهما على نهج الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم، ومذهبهما يتمسك أهل المذاهب الأربعة. قال المحقق العلامة تاج الدين السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم): وهذه المذاهب الأربعة والله الحمد في العقائد واحدة، إلا من لحق منها بأهل الاعتزال أو التجسيم، وإلا فجمهورها على الحق، يقرون عقيدة أبي جعفر الطحاوي (٣) التي تلقاها العلماء سلفا وخلفا بالقبول، ويدينون الله برأي شيخ السنة أبي الحسن الأشعري الذي لم يعارضه إلا مبتدع (٤) اهـ.

وقال أيضا: هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة والله الحمد في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة

<sup>١</sup> فتاوي الحديثية، ص ١٩٧-١٩٨.

<sup>٢</sup> ونقله النووي في التبيان في آداب حملة القرآن من سنن الدارمي وقال: إسناده جيد.

<sup>٣</sup> اعلم أن عقيدة الطحاوي هي عقيدة أبي منصور الماتريدي، فهما متفقان، فيعبر مرة بعقيدة الماتريدي، ومرة بالطحاوية.

<sup>٤</sup> معيد النقم ومبيد النقم ص ٢٢.

والجماعة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى لا يحيد عنها إلا رَعَاً<sup>(١)</sup> من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال، ورَعَاً من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية، لم نر مالكية إلا أشعرياً عقيدة اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر): المراد بالسنة ما عليه إماما أهل السنة والجماعة الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري، وأبومنصور الماتريدي، والبدعة ما عليه فرقة من فرق المبتدعة المخالفة لاعتقاد هذين الإمامين وجميع أتباعهما<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً في (فتح الجواد بشرح الإرشاد) في شرح قول المصنف: (وَكُرِهَ إِمَامَةٌ فَاسِقٌ ومبتدع): وهو من يعتقد ما أجمع أهل السنة على خلافه، وهم الإمام أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي وأتباعهما انتهى باختصار.

وقال المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين): إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية، قال الخيالي في حاشيته على شرح (العقائد): الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة، هذا هو المشهور في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار، وفيما وراء النهر يطلق ذلك على الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور اهـ.

وتبعهم على ذلك الشيخ حسن بن عمر الشيرازي كما في كتابه (وسيلة الرجا شرح سفينة النجا)، وتبعهم محمد زاهد الكوثري فقال في مقدمة (تبيين كذب المفتري): الأشعري والماتريدي هما إماما أهل السنة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربها، لهم كتب لا تحصى، وغالب ما وقع بين هذين الإمامين من قبيل الخلاف اللفظي<sup>(٣)</sup> اهـ. وتبعهم على ذلك كثير من العلماء، فثبت أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية فقط.

واعلم أن أبا الحسن الأشعري وأبا منصور الماتريدي لم يخرعا مذهباً لأنفسهما ولم يبدأ رأياً من عندهما، فقد قال العلامة المحدث الشهير الإمام المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين): وليعلم أن كلا من الإمامين أبي الحسن وأبي منصور رضي الله عنهما وجزاهما عن

<sup>١</sup> قال ابن منظور في لسان العرب: رَعَاَ الناس سُقَاطَهُمْ وَسَقَاطَهُمْ. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أن الموسم

يجمع رَعَاً الناس أي غوغاءهم وسقَاطهم وأحلاطهم، الواحد رَعَاةً.

<sup>٢</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر في الكبيرة الحادية والخمسين ترك السنة.

<sup>٣</sup> تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ٢٧.

الإسلام خيرا لم يبدع من عندهما رأيا ولم يشتقا مذهبا، إنهما مقرران لمذهب السلف، مناضلان عما كانت عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا وولوا منهزمين انتهى.

### نبذة من ترجمة أبي الحسن الأشعري

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهو من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد الإمام أبو الحسن الأشعري سنة ٢٦٠هـ على قول الأكثرين، وتوفي رحمه الله ببغداد سنة ٣٢٤ على قول الأكثرين، وقال الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد): أبو الحسن الأشعري هو المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة.

وقال فيه مثل ما قاله الخطيب الإمام السمعاني في (الأنساب)، وأثنى عليه ابن قاضي شهبة في (طبقات الشافعية)، وابن عماد الحنبلي في (شذرات الذهب) وابن خلكان في (وفيات الأعيان)، وألف حافظ الشام فيه وفي الأشاعرة كتابه المشهور (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) وذكره خلائق في كتبهم وأثنوا عليه بما هو له أهل. وللإمام تأليف كثيرة، قال ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين): قال أبو محمد بن حزم: مصنفات الإمام أبي الحسن الأشعري خمسة وخمسون مصنفا، وذكر الحاجي خليفة في (كشف الظنون) ثلاثا وثمانين من كتبه وسردها.

وفي (الأعلام) للزركلي: قيل: إن مصنفاته بلغت ثلثمائة كتاب. وقال الزاهد الكوثري في تعليق كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري): قال الإمام الحافظ أبوبكر بن العربي في العواصم عن القواصم: انتدب أبو الحسن الأشعري إلى كتاب الله فشرحه في خمسمائة مجلد وسماه بالمختزن اهـ.

وكان الإمام أبو الحسن الأشعري شافعي المذهب، أخذ الفقه عن زكريا بن يحيى الساجي، وهو أخذ عن الربيع والمزني، وأخذ عن الشافعي. وتفقه الأشعري أيضا بأبي العباس بن سريج. وذكر ابن خلكان أنه كان يجلس في حلقة الشيخ أبي إسحاق المروزي الشافعي. وذكره ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين) وابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وابن شهبة في (طبقات الشافعية) والإسنوي في (طبقات الشافعية).

وقال بعضهم: إنه مالكي المذهب، وقال آخرون: إنه حنفي المذهب فالله أعلم.  
قال التاج عبد الوهاب السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأيا ولم ينشئ مذهبا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا . وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي المايريقي : لم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة إنما جرى على سنن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجة وبيانا، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبا انفرد به، ثم ذكر المايريقي رسالة الشيخ أبي الحسن القابسي المالكي التي يقول فيها: واعلموا أن أبا الحسن الأشعري لم يأت من علم الكلام إلا ما أراد به إيضاح السنن والتثبت عليها. انتهى ما في الطبقات.

وفي كتاب (الإبانة في أصول الديانة) لما سئل الأشعري عن ديانته التي بها يدين فقال : قولنا الذي به نقول وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيف الزائغين وشك الشاكين اهـ.

وقال ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدة أبي الحسن الأشعري اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري اهـ.

وفي شرح صحيح مسلم للنووي: قال القاضي عياض: إن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح وأهل الحديث والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصا من قلبه بالشهادتين فإنه

يدخل الجنة، إما معجلاً معافى، وإما مؤخراً بعد عقابه انتهى باختصار، ثم قال النووي: وكلام القاضي عياض هذا في نهاية الحسن (١). فهذا الكلام صريح في أن الأشاعرة هم أهل السنة وهم موافقون للسلف الصالح وأهل الحديث، وكفى بهذين الإمامين الجليلين القاضي عياض والنووي شهادة. فانظر إلى قوله: المتكلمين على مذهبهم من الأشعرين!!.

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله بعد أن ذكر عقائد أهل السنة والجماعة: هذا إجمال من اعتقاد الأشعري واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة، ومراده بأهل الطريقة والحقيقة الصوفية (٢).

### ذكر أسماء بعض أعيان الأشاعرة

هم طبقات، فمن الطبقة الأولى المعاصرين لأبي الحسن: الأستاذ أبو سهل الصعلوكي، والأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والشيخ أبو بكر القفال، والشيخ أبو زيد المروزي، والأستاذ أبو عبد الله بن خفيف، والزاهر بن أحمد السرخسي، والحافظ أبو بكر الجرجاني الإسماعيلي، والشيخ أبو بكر الأودني، والشيخ أبو محمد الطبري العراقي، وأبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبري المعروف بالدملي، وأبو جعفر السلمي النقاش، وأبو عبد الله الأصبهاني الشافعي، وأبو محمد القرشي الزهري، وأبو منصور بن حمشاد، فكل هؤلاء عاصروا الإمام أبا الحسن الأشعري وتمذهبوا بمذهبه وقرأوا كتبه وأكثرهم جالسه، وأخذ عنه شفاها.

ومن أخصهم بالشيخ أبي الحسن: ابن مجاهد، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي شيخ القاضي الباقلاني، وكان مالكي المذهب، وأبو الحسن الباهلي العبد الصالح شيخ الأستاذ أبي إسحاق، وخلائق غيرهم.

ومن الطبقة الثانية: سيف السنة أبو بكر الباقلاني، وأبو الطيب الصعلوكي، وأبو الحسن بن داود المقرئ الداراني، والأستاذ أبو بكر بن فورك، والأستاذ أبو علي الدقاق، والحاكم أبو عبد الله الحافظ، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني، وأبو حازم العبدوي الحافظ الأعرج،

<sup>١</sup> شرح صحيح مسلم للنووي، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا من كتاب الإيمان.

<sup>٢</sup> الفتاوى الحديشية للهيتمي ص ٢٧٣.

والشيخ أبو سعد الخرکوشي، والقاضي أبو عمر البسطامي، وأبو القاسم البجلي،  
والشريف أبو طالب المهدي، وأبو معمر بن أبي سعد الإسماعيلي.

ومن الثالثة: الحافظ أبو بكر البيهقي، والحافظ أبو ذر الهروي، وقاضي الموصل أبو جعفر  
السمناني الحنفي، والأستاذ أبو القاسم عبد الجبار بن علي الإسفرايني، وأبو الحسن  
السكري، وأبو منصور الأيوبي النيسابوري، والقاضي عبد الوهاب المالكي، والشيخ أبو  
محمد الجويني، وأبو حسن النعيمي، والأستاذ أبو منصور البغدادي، وأبو محمد الأصبهاني  
ابن اللبان، وأبو عبد الله الخبازي، وأبو الفضل بن عمرو المالك، وسليم الرازي، وأبو  
بكر بن الجرمي الزاهد، وأبو طاهر بن خراشة، ورشأ بن نظيف المقرئ.

ومن الرابعة: الحافظ الخطيب البغدادي، والأستاذ أبو القاسم القشيري، وأبو علي بن أبي  
حريصة الهمداني، وأبو المظفر الإسفرايني، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وإمام الحرمين،  
ونصر المقدسي، وأبو عبد الله الطبري.

ومن الخامسة: أبو المظفر الخوافي، والإمام الغزالي، وفخر الإسلام الشاشي، وأبو نصر  
القشيري، والشيخ أبو سعيد الميهني، والشريف أبو عبد الله الدياجي، والقاضي أبو  
العباس الرطبي، وأبو عبد الله الفراوي، وأبو الوليد الباجي، والحافظ أبو عمرو بن عبد البر،  
والحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر، والحافظ أبو الحسن المرادي، والحافظ أبو سعد بن  
السمعاني، والحافظ أبو طاهر السلفي، والقاضي عياض بن محمد اليحصبي، والإمام أبو  
الفتح الشهرستاني، وعلي بن محمد بن علي إلكيا - بكسر الهمزة والكاف - كما في  
(شذرات الذهب)، وأبو الحسن السلمي، وأبو سعد بن أبي صالح المؤذن، ونصر الله  
المصيبي.

ومن السادسة: الإمام فخر الدين الرازي، وسيف الدين الآمدي، وشيخ الإسلام عز الدين  
بن عبد السلام، والشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، والشيخ جمال الدين الخصري  
الحنفي.

ومن السابعة: شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ علاء الدين الباجي،  
والشيخ الإمام فخر الحفاظ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، والشيخ صفي الدين  
الهندي، والشيخ صدر الدين بن المرحل، وابن أخيه الشيخ زين الدين، والشيخ صدر الدين



سليمان بن عبد الحكم المالكي، والشيخ شمس الدين الحريري الخطيب، والشيخ جمال الدين الزملكاني، والقاضي جمال الدين بن جملة، والشيخ شهاب الدين بن جميل، وقاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري الحنفي، والقاضي عضد الدين الإيجي الشيرازي .

فهذا بعض ما ذكره حافظ الدنيا ابن عساكر في (تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) والمحقق الفقيه الأصولي المحدث صاحب التآليف العديدة النافعة الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى).

وأضيف أنا إلى ذلك ممن لم يذكره أو أتى بعدهما الإمام النووي مجدد القرن السابع كما قيل، فإنه كان أشعريا كما هو واضح في كتبه، وصرح به الحافظ السخاوي في ترجمته عنه، والحافظ إسماعيل بن كثير صاحب التفسير المشهور، فإنه وإن كان صاحب ابن تيمية وتلميذه كان أشعريا كما ذكره الحافظ العسقلاني في (الدرر الكامنة). وقال ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين): قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في طبقات أصحاب الأشعري في آخر كتاب (تبين كذب المفترى): رأيت بخط الثقات ما قول السادة الفقهاء في قوم اجتمعوا على لعن الأشعرية وتكفيرهم؟ وما الذي يجب عليهم؟ أفتونا، فأجاب جماعة، فمن ذلك: الأشعرية أعيان السنة انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة، ويجب على الناظر في أمر المسلمين تأديبه بما يرتدع به كل أحد، وكتب إبراهيم بن علي الفيروزابادي. ثم قال ابن كثير: أما طريقة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري في الصفات بعد أن رجع عن الاعتزال بل وبعد أن قدم بغداد وأخذ عن أصحاب الحديث كزكريا الساجي وغيره فإنها من أصح الطرق، فإنه يثبت الصفات العقلية والخبرية ولا ينكر منها شيئا، ولا يكيّف منها شيئا، وهذه طريقة السلف والأئمة من أهل السنة والجماعة حشرنا الله في زميرهم وأماتنا على اتباعهم ومحبتهم، إنه سميع الدعاء جواد كريم . وعلى هذا المنوال جرى الأئمة

من أصحاب الأشعري كأبي عبد الله بن مجاهد والقاضي أبي بكر الباقلاني وأضرابهم رحمهم الله، انتهى ما قاله الحافظ ابن كثير (١) .

ومنهم الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف بن زكي المزني عبد الرحمن بن يوسف، فإنه صرح وكتب أنه أشعري، كما ذكره تلميذه ابن السبكي في (طبقاته) في ترجمة والده السبكي (٢). ومنهم شيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني، وشيخه الحافظ العراقي، والحافظان السخاوي، والسيوطي، والهيتمي، والتاج ابن السبكي، والقسطلاني، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الفتوحات الكثيرة المشهورة، ففي (غاية البيان في تنزيه الله عن الجهة والمكان): قال السيوطي في كتابه "الوسائل إلى مسامرة الأوائل" ص ١٥: لما ولي صلاح الدين بن أيوب أمر المؤذنين في وقت التسبيح أن يعلنوا العقيدة الأشعرية، فوظف المؤذنين على ذكرها كل ليلة إلى وقتنا هذا اهـ، أي وقت السوطي المتوفى ٩١١هـ انتهى ما في غاية البيان (٣) .

وفي (الفتوحات الربانية على الأذكار النووية): لما ولي صلاح الدين بن أيوب وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعري أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة الأشعرية التي تعرف بالمرشدية فواظبوا على ذكرها كل ليلة (٤) اهـ .

فهؤلاء نيف ومائة من أكابر الأشاعرة في مختلف البلاد والأماكن والأعصار، من زمن الإمام أبي الحسن إلى أواخر القرن العاشر (٥) .

### نبذة من ترجمة الإمام أبي منصور الماتريدي

قال الإمام المحدث اللغوي المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين): اسم الإمام أبي منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود الحنفي المتكلم، وماتريد ويقال: ماتريت بالمشناة الفوقية بدل الدال في آخره مَحَلَّةً بسمرقند أو قرية بها، ويلقب بإمام الهدى، وترجمه الإمام المحدث محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن

<sup>١</sup> طبقات الفقهاء الشافعيين ج ٢ ص ٤٢ .

<sup>٢</sup> طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ١٧١ .

<sup>٣</sup> غاية البيان في تنزيه الله عن الجهة والمكان ص ٩٦ .

<sup>٤</sup> الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (ج ٢ ص ١١٣) .

<sup>٥</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين .

نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي في الطبقات المسمى (بالجواهر المضيئة)، والإمام مجد الدين أبو الندى إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي بن موسى الكناني القاهري الحنفي في كتاب (الأنساب) كل منهما على الاختصار، وحاصل ما ذكره أنه كان إماما جليلا مناضلا عن الدين موطدا لعقائد أهل السنة، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم وخصمهم في محاوراتهم حتى أسكتهم، تخرج بالإمام أبي نصر العياضي، وله مصنفات منها كتاب (التوحيد) وكتاب (المقالات) وكتاب (رد أوائل الأدلة) للكعبي وكتاب (بيان وهم المعتزلة) وكتاب (تأويلات القرآن) وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصنيف من سبقه في ذلك الفن، وله غير ذلك، وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره بسمرقند، كذا وجد بخط الحافظ قطب الدين عبد الكريم بن المنير الحلبي الحنفي، ووجدت في بعض المراجع بزيادة محمد بعد محمود، ووجدت في كلام بعض الأجلاء من شيوخ الطريقة أنه كان مهدي هذه الأمة في وقته.

ومن شيوخته الإمام أبوبكر أحمد بن إسحاق بن صالح الجوزجاني صاحب الفرق والتمييز، وأما شيخه المذكور أبونصر العياضي الذي تخرج به هو أحمد بن العباس بن الحسين بن جبلة بن غالب بن جابر بن نوفل بن عياض بن يحيى بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الفقيه السمرقندي ذكره الإدريسي في (تاريخ سمرقند) وقال: كان من أهل العلم والجهاد، ولم يكن أحد يضاهيه لعلمه وورعه وجلادته وشهامته إلى أن استشهد، ومن مشايخ الماتريدي نصير بن يحيى البلخي، ومحمد بن مقاتل الرازي قاضي الري ترجمه الذهبي في الميزان، وقال: حدث عن وكيع وطبقته، فأما أبوبكر الجوزجاني وأبو نصر العياضي ونصير بن يحيى فكلهم تفقهوا على الإمام أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني وهو على الإمامين أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وتفقه محمد بن مقاتل ونصير بن يحيى أيضا على الإمامين أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي، وأخذ محمد بن مقاتل أيضا عن محمد بن الحسن أربعتهم عن الإمام أبي حنيفة، قال ابن بياضي من علمائنا: وليس الماتريدي من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل

السنة؛ لأن الماتريدي مفصل لمذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة (١).

**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ تَفَرَّقُوا وَخَاضُوا حِيَارَى فِي ضَلَالَاتٍ بَدْعَةٍ**

أي لا تتبع أيها الطالب أهواء أقوام تفرقوا في الاعتقادات وخاضوا حائر في بحار ضلالات البدع، قال الله تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا} وقال تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات} وقال تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء}.

وفي (الدر المنثور في التفسير المأثور) للحافظ السيوطي: أخرج ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت بنو اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: يارسول الله ومن هذه الواحدة؟ قال: الجماعة، ثم قال: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا}.

وأخرج أحمد وأبو داود عن معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أهل الكتابين اختلفوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة.

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: كيف يصنع أهل هذه الأهواء الخبيثة بهذه الآية في آل عمران: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات} قال: نبذوها ورب الكعبة وراء ظهورهم.

<sup>١</sup> اعلم أن كثيراً من علماء التواريخ والتراجم أهمل ترجمة هذا الإمام، وبعضهم ذكر منها كلمات قليلة، فظفرت بعد البحث والله الحمد بما ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ورأيت ذكر فيه ما يروي الظمان إلى ترجمته، ويشيع الغرثان من سيرته، فلخصت منه ما ذكرته هنا والله الموفق.

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يأتي على أمي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى لو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في أمي مثله، إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفرق أمي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقليل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني وابن المنذر عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً حتى عدّ سبعا ما حدثكموه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في (الإبانة) والخطيب في تاريخه واللالكائي في (السنة) عن ابن عباس في هذه الآية قال: **{تبيض وجوه وتسود وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة .

وأخرج أبو نصر السجزي في (الإبانة) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل الجماعات والسنة، وتسود وجوه أهل البدع والأهواء .

وأخرج الخطيب في رواية مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة في قوله: **{فأما الذين اسودت وجوههم}** قال: هم الخوارج .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وأبو نصر السجزي في (الإبانة)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع، وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، ليست لهم توبة،

يعائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني برآء .

وأخرج ابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبي غالب أنه سئل عن هذه الآية: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا} فقال: حدثني أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم الخوارج .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا} قال: هم الحرورية .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا} قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبه وابن منذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الأحوص في قوله {لست منهم في شيء} قال: بريء منهم نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن منيع في مسنده وأبو الشيخ عن أم سلمة قالت: لَيَتَقَيَّنَّ امرؤ أن لا يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ثم قرأت هذه الآية {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء} .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أفلح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث، ضلالة الأهواء، واتباع الشهوات في البطن والفرج، والعجب، انتهى ما نقلته من الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١).

قال البيهقي في (مناقب الشافعي): قال أحمد بن حنبل لأبي عثمان بن الشافعي: إني لأحبك لثلاث خصال، أنك رجل من قريش، وأنت ابن أبي عبد الله، وأنت من أهل

السنة (٢) اهـ

<sup>١</sup> قال الشيخ عبد القاهر في الفرق بين الفرق: للحديث الوارد على افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، ووائل بن الأسقع وغيرهم .

<sup>٢</sup> مناقب الشافعي للبيهقي ج ١ ص ٧٧ .

وفي (بشرى الكئيب بلقاء الحبيب) و(شرح الصدور) كلاهما للحافظ السيوطي أخرج  
 اللالكائي في (السنة) بسنده عن محمد (١) بن نصر الصائغ (٢) قال: كان أبي مولعا  
 بالصلاة على الجنائز من عرف ومن لم يعرف، قال: يا بني حضرت يوما جنازة، فلما  
 دفنوها نزل إلى القبر نفسان، ثم خرج واحد وبقي الآخر، وحثا الناس التراب، فقلت:  
 يقوم يدفن حي مع ميت، فقالوا: ما ثمَّ أحد، فقلت: لعله شُبَّه لي، ثم رجعت فقلت: ما  
 رأيت إلا اثنين خرج واحد وبقي الآخر، لا أبرح حتى يكشف الله لي ما رأيت، فجئت  
 إلى القبر، وقرأت عشر مرات يس وتبارك وبكيت وقلت: يارب اكشف لي عما رأيت،  
 فإني خائف على عقلي وديني، فانشق القبر وخرج منه شخص، فوَلَّى مدبرا، فقلت: يا هذا  
 بمعبودك ألا وقفت حتى أسألك، فما التفت إليّ، فقلت له الثانية والثالثة، فالتفت وقال:  
 أنت نصر الصائغ؟ قلت: نعم، قال: فما تعرفني؟ قلت: لا، قال: نحن ملكان من ملائكة  
 الرحمة وُكِّلْنَا بأهل السُّنَّةِ إذا وضعوا في قبورهم نزلنا حتى نُلقِّنَهُم الحجة وغاب عني (٣).

واعلم أن كل فرقة من هذه الفرق تدَّعي أنها الناجية التي على هدي رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم وأصحابه، وتبرهن على ما تدَّعيه وتذكر أدلتها وحججها التي تمسكت  
 بها، لكن الذي لا شك فيه أنها الأشاعرة والماتريدية كما صرح به جمهور أهل العلم،  
 ولا عبرة بمن شذ وانفرد من أهل الأهواء، وقد ذكرنا أن أهل المذاهب الأربعة متفقون  
 على عقيدة الأشاعرة والماتريدية، فلو ذهب ذاهب من المشرق إلى المغرب وطاف في  
 الأقطار والآفاق كما طاف فيها ابن بطوطة لِيَعْلَمَ علما حقيقيا الفرقة الناجية من هذه  
 الفرق التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لَعَلَّمَ وَتَحَقَّقَ أَنَّها الأشاعرة والماتريدية  
 اللتان هما كفرقة واحدة، لقلة اختلافهما في المسائل، فقد قال المحقق التاج عبد الوهاب  
 السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): إنه لا خلاف بين الأشاعرة وبين الماتريدية  
 أصحاب أبي حنيفة إلا في ثلاث عشرة مسألة فقط، ولا يبدع بعضهم بعضا فضلا عن  
 التكفير، وقال ابن السبكي أيضا في نونيته التي يعارض فيها نونية ابن زفيل:

(١) في بشرى الكئيب عن بحر بن نصر بدل محمد بن نصر .

(٢) في تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي ج ٣ ص ٣١٩: أن الدارقطني قال: محمد بن نصر الصائغ صدوق

فاضل ناسك. توفي رحمه الله تعالى في سبع من رمضان سنة ٢٩٧.

(٣) شرح الصدور للسيوطي ص ١٤١.

يا صاح إن عقيدة النعمان والأشعري حقيقة الاتقان  
فكلاهما والله صاحب سنة بهدى نبي الله معتقدان  
لا ذا بيدع ذا ولا هذا وإن تحسب سواه وهمت في الحسبان  
والخلف بينهما قليل أمره سهل بلا بدع ولا كفران

وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر):

### فصل سلفيون جهال

عجبت من أقوام يدعون العلم، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها، فلو أنهم أمروها كما جاءت سلموا؛ لأن من أمر ما جاء ومر من غير اعتراض ولا تعرض فما قال شيئاً لا له ولا عليه، ولكن أقواما قصرت علومهم فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا، وما هم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها  
فلما أتمت القصيدة، قال لكاتبه: اقطع لسانها، فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى، فقالت له: ويلك إنما قال: أجزل لها العطاء، ثم ذهبت إلى الحجاج فقالت: كاد والله يقطع مقولي، فكذلك الظاهرية الذين لم يَسَلِّمُوا بالتسليم، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لم أَلْمُهُ، وهذه طريقة السلف، فأما من قال: الحديث يقتضي كذا، ويحمل على كذا، مثل أن يقول: استوى على العرش بذاته، وينزل إلى السماء الدنيا بذاته، فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا من النقل.

أما النقل فقله سبحانه وتعالى: {ليس كمثله شيء} ومن فهم هذا لم يحمل وصفا له على ما يوجب الحس.

وأما العقل فإنه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات، واستدل حدوثها بتغيرها، ودخول الانفعال عليها، فثبت له قِدَمُ الصانع.

واعجبا كل العجب من رادّ لم يفهم طبيعة الكلام؟، أوليس في الحديث الصحيح: أن الموت يذبح بين الجنة والنار، أوليس العقل إذا استغنى في هذا صرف الأمر عن حقيقته، لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت؟، فقال: الموت عرض يوجب بطلان الحياة،



فكيف يُمَات الموت؟، فإذا قيل له: فما تصنع بالحديث؟، قال: هذا ضرب مثل بإقامة صورة ليعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى، قلنا له: فقد روى في الصحيح: تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، فقال: الكلام لا يكون غمامة، ولا يشبه بهما، قلنا له: أفتعطل النقل، قال: لا، ولكن أقول: يأتي ثوابهما، قلنا: فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق؟ فقال: علمي بأن الكلام لا يتشبه بالأجسام، والموت لا يذبح ذبح الأنعام، ولقد علمتم سعة لغة العرب، ما ضاقت أعطانكم من سماع مثل هذا، فقال العلماء: صدقت هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة، وفي ذبح الموت، فقال: واعجبا لكم صرفتم عن الموت والكلام ما لا يليق بهما، حفظا لما علمتم من حقائقهما، فكيف لم تصرفوا من الإله القديم ما يوجب التشبيه له بخلقه بما قد دل الدليل على تنزيهه عنه؟، فما زال يجادل الخصوم بهذه الأدلة، ويقول: لا أقطع حتى أقطع، فما قطع حتى قطع (١).

#### خاتمة

ذكرنا أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية، فمن خالفهما فيما اتفقا عليه فليس من أهل السنة والجماعة، فيكون من الفرق الضالة المبتدعة، وقال الهيثمي في (الزواجر): قد ورد في المبتدعة أحاديث وآثار كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. وقال الجلال البلقيني: المراد بذلك أتباع البدع عافانا الله من ذلك.

ومنها: أبي الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته، رواه ابن ماجه، وفي رواية أخرى له: لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا، يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين.

ومنها: لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. ومنها: لكل عمل شريرة (٢) ولكل شريرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت شرته إلى غير ذلك فقد هلك (٣) اهـ.

<sup>١</sup> صيد الخاطر، فصل سلفيون جهال، ص ٨٥-٨٧.

<sup>٢</sup> قوله: شريرة قال ابن حجر الهيثمي: هي بكسر المعجمة فشدة للراء فتاء تأنيث أي نشاط وهمة.

<sup>٣</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر في الكبيرة الحادية والخمسين في ترك السنة.

وروى أبو نعيم في (حلية الأولياء): أهل البدع شر الخلق والخليقة. قال العزيري: قال السيوطي: حديث حسن اهـ.

### التمسك بمذهب من المذاهب الأربعة

تَمَسَّكَ بِفَقْهِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَنُعْمَانِ وَأَحْمَدٍ خُذْ بِقُوَّةٍ

يعني تمسك بمذهب إمام من الأئمة الأربعة وخذه بقوة، وهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنهم وعن أتباعهم أجمعين.

وقال الشيخ إبراهيم اللقاني في (جوهرة التوحيد):

ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم (١) هداة الأمة

فواجب تقليد خبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وقال الباجوري في (تحفة المريد على جوهرة التوحيد): أي إنه يجب على كل من لم يكن فيه أهلية الاجتهاد المطلق ولو كان مجتهد مذهب أو فتوى تقليد إمام من الأئمة الأربعة في الأحكام الفرعية، وما جزم به الناظم هو مذهب الأصوليين وجمهور الفقهاء والمحدثين، واحتجوا بقوله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} فأوجب السؤال على من لم يعلم، ويترتب عليه الأخذ بقول العالم؛ وذلك تقليد له، وقال بعضهم: لا يجب تقليد واحد بعينه، بل له أن يأخذ فيما يقع له بهذا المذهب تارة وبغيره أخرى، فيجوز صلاة الظهر على مذهب الإمام الشافعي، وصلاة العصر على مذهب مالك، وهكذا، وخرج بقولنا: من لم يكن فيه أهلية الاجتهاد المطلق من كان فيه أهليته فإنه يحرم عليه التقليد فيما يقع له عند الأكثر، واختاره الآمدي وابن الحاجب والسبكي لتمكنه من الاجتهاد الذي هو أصل التقليد (٢).

وقال محيي السنة الإمام البغوي في مقدمة (التهذيب): اعلم أن كل من بلغ رتبة الاجتهاد من العلماء إذا عرضت له حادثة يجب عليه أن يطلبها من الكتاب أو السنة أو الاجماع، فإن لم يجد لم يكن له أن يقلد فيها عالماً آخر، لا للعمل به ولا للفتوى ولا للقضاء،

<sup>١</sup> وقوله: أبو القاسم يريد به أبا القاسم الجنيد بن محمد سيد الطائفة الصوفية علماً وعملاً.

<sup>٢</sup> تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٩٥.

وأما العامي ومن لم يبلغ رتبة الاجتهاد ففرضه التقليد والأخذ بقول أهل العلم، قال الله تعالى: {فاسئلو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.

وقال إمام الحرمين في (مغيث الخلق في ترجيح قول الحق): وإننا لا نشك أن الصديق والفاروق وذا النورين والمرضى عليا رضي الله عنهم أجمعين وعامة الصحابة كانوا أفضل وأفقه وأعلى حالا وأكمل شأنا وأعظم قدرا وأرفع خطرا من أبي حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم، ومع هذا لا يجب على الخلق انتحال مذهب الصديق والصحابة، ويجب انتحال مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، ولم يكن ذلك إلا لمعنى معقول، وهو أن الصحابة كانوا مشغولين بتأكيد عرى الدين والذب عن حوزة الإسلام وإيضاح اليقين، وحين استأثر الله تعالى برسوله وانقلب هو إلى رضوان الله تعالى وقضى نحبه ولقي ربه عز وجل تصدى الصديق للإمامة والخلافة، والزعامة العامة، والرئاسة التامة، ونصرة الشريعة وحفظ الحدود، ونزل به من الوقائع ما لو نزل بالجبال الراسيات لهدمها، فلم يتفرغ لتفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل وتخريج المسائل بحيث تفي بجميع الوقائع، بل اشتغل باستمالة القلوب واستعطاف الجوانب، وقتال أهل الردة ومانعى الزكاة، حتى أبقى الشريعة بمائها، واستدامها على بهائها، والفاروق اشتغل بفتح البلاد، وتطهير الأرض من أهل الزيغ والشرك والعناد، وقمع أولى العرامة والفساد، حتى اتسع نطاق الملة، وخضعت الأعناق لأهل القبلة، وكذا ذو النورين اشتغل بفتح الأمصار، وقتل الكفار، والمرضى اشتغل بدفع الداهية الدهماء، والمشكلة العمياء، فلم يتفرغوا إلى تفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل، بل أصلوا الأصول وأسسوا الأساس، فلما لم تكن أصول الصديق ومن في منزلته من الصحابة وافية بجميع الحوادث لم يجب انتحال مذهب الصديق، وأبو حنيفة جاء بعد ذلك وفرّع التفاريع وأحدث من الفروع ما لا يعد ولا يحصى، ولا يحد ولا يخفى، وأتى بالدقائق التي حار فيها العقلاء بحيث لا يغادر الشعر إلا مشقوقا، والغيب إلا مرموقا، واستغرق عمره في وضع المسائل فلم يتفرغ إلى النحل والتميز، وهذا لأن من وضع شيئا في الابتداء كان مشغولا في جميع عمره بالوضع والنصب، فلم يتفرغ إلى النحل

فتدركه المنية قبل أن يتفرغ إلى النحل والتميز، ولهذا كان أبو يوسف ومحمد خالفاه في مسائل عدة، ومواضع حجة، ونحلا وميزا الصحيح من الفاسد.

وهذا لا يختص بالعلم فإن الحرف والصناعات والآلات كلها موضوعة على هذا المثال، فإن الأولين وضعوا سمة من كل حرفة، والآخرين فرّعوا عليها تفاريع لا تعد ولا تحصى، وازدادوا عليها بالأعاجيب والبدائع في دقائق الحرف والصنائع، التي لم يتفرغ الأولون إليها، لأن الأولين اشتغلوا بالوضع والتمهيد، وأعطوا الآخرين روح الكفاية عن الأصل، فاستقل الآخرون بالنحل والتميز والتفريع، وكانوا أصدق وأدق نظرا فيه، وهذا معلوم من حيث اطراد الله العادة (١) انتهى.

وقال الشاطبي في (الإعتصام): المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من أحد أمور ثلاثة، أحدها أن يكون مجتهدا فيها فحكمه ما أداه إليه اجتهاده، الثاني: أن يكون مقلدا صرفا خليا من العلم الحاكم جملة، فلا بد له من قائد يقوده وحاكم يحكم عليه وعالم يقتدي به، ومعلوم أنه لا يقتدي به إلا من حيث هو عالم بالعلم الحاكم، والدليل على ذلك أنه لو علم أو غلب على ظنه أنه ليس من أهل ذلك العلم لم يحل له اتباعه ولا الانقياد لحكمه، بل لا يصح أن يخطر بخاطر العامي ولا غيره تقليد الغير في أمر مع علمه بأنه ليس من أهل ذلك الأمر كما أنه لا يمكن أن يُسَلَّم المريض نفسه إلى أحد يعلم أنه ليس بطبيب إلا أن يكون فاقد العقل، وإذا كان كذلك فإنما ينقاد إلى المفتي من جهة ما هو عالم بالعلم الذي يجب الانقياد إليه لا من جهة كونه فلانا أو فلانا، وهذه الجملة لا يسع الخلاف فيها عقلا ولا شرعا.

وقال أيضا: إن العالم بالشريعة إذا أُتْبِعَ في قوله وانقاد إليه الناس في حكمه فإنما أُتْبِعَ من حيث هو عالم وحاكم بها وحاكم بمقتضاها لا من جهة أخرى فهو في الحقيقة مبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله عز وجل فَيَتَلَقَّى منه ما بلغ على العلم بأنه بلغ أو على غلبة الظن بأنه بلغ لا من جهة كونه منتصبا للحكم مطلقا إذ لا يثبت

<sup>١</sup> مغيث الخلق في ترجيح القول الحق لإمام الحرمين، ص ١٦-٢٢.

ذلك لأحد على الحقيقة وإنما هو ثابت للشيعة المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت له عليه الصلاة والسلام وحده دون الخلق من جهة دليل العصمة (١). وقال أيضا في آخر كتابه (الإعتصام): إذا ثبت أن الحق هو المعبر دون الرجال فالحق أيضا لا يعرف دون وسائطهم بل بهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه (٢) اهـ.

وفي كتاب (التمذهب) للشيخ عبد الفتاح بن صالح قديش ما نصه: قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٧ ص ١١٧ لا يكاد يوجد الحق فيما اتفق أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه مع اعترافنا بأن اتفاقهم على مسألة لا يكون اجماع الأمة، ونهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأن الحق في خلافها (٣).

وقال الموفق في المغني: النسبة إلى إمام في الفرع كالأئمة الأربعة ليست بمذمومة فإن اختلافهم رحمة واتفاقهم حجة قاطعة (٤).

وقال الدكتور مصطفى سعيد الخنّ في مقدمة كتابه (أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء): منذ نعومة أظفاري كنت أطلب العلم، وكنت أسمع في مجالسه المسألة تعرض فيقال فيها: أبو حنيفة رأيه فيها كذا، والشافعي مذهبه فيها كذا، ومالك أفتى بها كذا، وأحمد قال فيها كيت وكيت.

وكنت أسائل نفسي آنذاك: أليس كتاب الله الذي هو خاتمة كتبه واحدا؟ أليس الرسول الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين واحدا؟ وهو الرسول محمد الذي أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا؟ فلم هذا الاختلاف؟ وما هي عوامله وأسبابه؟ وما هي بواعثه ومنطلقاته؟

وكنت أردد في أعماقي: إن هذا يجب ألا يكون في الأمة الإسلامية التي أكرمها الله جل جلاله بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، وجعلها أمة واحدة متآخية متعاونة {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون} وأمرها أن يكون ملاذها ومعتصمها

<sup>١</sup> الإعتصام للشاطي ص ٥٠٢-٥٠٣.

<sup>٢</sup> الإعتصام للشاطي ص ٥١٥.

<sup>٣</sup> التمذهب ص ٢٠٧.

<sup>٤</sup> التمذهب ص ٢٠٩.

كتابه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد  
 {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}.

وكان يقوِّي في نفسي هذا المعنى ما كنت أقرؤه وأسمعه من صيحات تتعالى من هنا ومن  
 هناك، تنادى بتوحيد المذاهب وأطرِ الأمة<sup>(١)</sup> كلها على خطة واحدة، لا مجال فيها لهذا  
 التلون والاختلاف، بل وهذا التناقض في بعض الأحيان، ولكم كنت أُصيخ بسمعي إلى  
 هذه الأصوات المتعالية متلهفا ومتحرقا إلى بزوغ شمس يوم لا نسمع فيه إنسانا يتمذهب  
 بشافعية ولا حنفية ولا غير ذلك.

ولكم عقدت العزم أنا وأتراب لي أن نعمل على إخماس هذه الأصوات التي تنادى  
 بالمذهبية أيا كان نوعها معتدلة أو متطرفة، كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا.

واستمر بي هذا الحال إلى أن كان لي شرف الانتساب إلى كلية الشريعة في الجامعة  
 الأزهرية، ودرست فيها فيما درست مادة التفسير، وكانت تشير إلى منازع الفقهاء على  
 اختلافهم في أخذهم الفقه من كتاب الله عز وجل الذي أنزله بيانا للناس وهدى ورحمة.

ودرست أيضا أحاديث الأحكام في كتاب (سبل السلام) للصنعاني، وفي كتاب (نيل  
 الأوطار) للشوكاني، ذلك الكتاب الذي كانت إدارة الأزهر آنذاك توزعه بالمجان على  
 الطلاب في الكلية؛ ليكون معوانا لسبل السلام في دائرة أوسع ومجال أرحب.

وكانت هذه الكتب تعرض وجهات نظر العلماء عند استنباطهم الأحكام من سنة النبي  
 صلى الله عليه وسلم التي جاءت مبينة لما أجمل في كتاب الله عز وجل.

ودرست أيضا الفقه المقارن، وفيه عرض جيد وممتع لوجهات نظر الأئمة عندما يقفون  
 أمام النصوص في كتاب وسنة؛ ليستنبطوا منها أحكام الله وهم يبدلون أقصى جهدهم في  
 التعرف إلى الحقيقة، تاركين هوى أنفسهم، غير عابئين إلا بما يرضى الله ورسوله،  
 فيصدرون عنها بأحكام مختلفة، كل على حسب خطته التي استوحاها من الشريعة نفسها.  
 وما إن اطلعت على ذلك حتى شعرت بأن غلوائني أخذتْ تَخِفُ شيئا فشيئا، وأن حقدي  
 على المذهبية طفق يتلاشى رويدا رويدا.

<sup>١</sup> قوله: وأطرِ الأمة كلها على خطة واحدة: أي حبسها وجمعها على مذهب واحد .

وعلمت فيما علمت أن الأمر جد، وأنه لا يكفي أن يرفع الإنسان عقيرته صائحا: حسبنا كتاب الله، ما لم يحدد الطريق التي يتوصل بها إلى فهم ذلك الكتاب، ويرسم الخطة المحكمة لاستنباط الأحكام منه.

ولا يكفي أيضا أن يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، بل لا بد من بذل جهد جاهد، وإحاطة بالسنة، ومعرفة طرائق الاستنباط، فيكون كل ذلك منارا يضيء له الطريق، حتى يهتدي إلى نور الله، ويأمن الضياع عن الحق.

وأدركت حينذاك فضل هؤلاء الأئمة الأعلام الذين أحيوا ليلهم وأظمؤوا نهارهم في سبيل معرفة الحقيقة مرضاة الله، فكانوا مفخرة الأمة الإسلامية، ولآلئ في تاج حضارتها وتفوقها ورقيها في عالم التشريع والقانون.

وأدركت أيضا أن الإنسان الذي يغض من شأنهم ويستطيل على مكانتهم، إن هو إلا رجل غرّ جاهل متعالم، كالمهرّ يحكي انتفاخه صولة الأسد .

والاختلاف في الفروع بعد الاتفاق على الأصل فما هو إلا اختلاف في الطريق الموصل إلى الحقيقة لا في الحقيقة نفسها، وقد يكون في هذا الخلاف توسعة على السائرين ورفق بهم ورحمة، وجدير به أن لا يمت إلى الانشقاق لا من قريب ولا من بعيد وهذا هو شأن المذاهب الفقهية.

ثم قال الدكتور: قدر لي بعد تخرجي بزمان غير يسير الانتساب إلى قسم دراسات العليا "دبلوم أصول الفقه" وكان من جملة موادها الدراسية مادة "أثر القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء" فأعجبت بهذه المادة أيما إعجاب، فلقد رَوَّتْ في نفسي تلك النبتة التي نبتت عند ما كنت منذ زمن طويل طالبا في كلية الشريعة، كما إنها أحدثت في نفسي رد فعل ليس بالسهل تجاه أولئك الذين يهاجمون المذاهب متستري وراء ما أسموه بالسلفية، وقد جهلوا أن أرباب المذاهب إن هم إلا النخبة الصالحة من السلف الصالح إهـ.

وأثنى الحافظ شمس الدين الذهبي تلميذ ابن تيمية فقهاء المذاهب الأربعة، فقد قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (اللامذهبية): قال الحافظ الذهبي في رسالة (زغل العلم والطلب) وهو يتحدث عن الفقهاء الذين التزموا مذاهب أئمتهم مادحا ومثنيا ومؤيدا لهم في ذلك: الفقهاء المالكية على خير واتباع وفضل، والفقهاء الحنفية أولوا

التدقيق والرأي والذكاء والخير، والفقهاء الشافعية من أكيس الناس وأعلمهم بالدين، فأسُ مذهبهم مبني على اتباع الأحاديث الثابتة المتصلة، وإمامهم من رؤس أصحاب الحديث، ومناقبه جمّة، فإن حصلتَ يا هذا مذهبه لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأنت بخير، وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين بالجملة (١) اهـ بحذف.

وقال البوطي أيضا في كتابه (اللامذهبية): نتساءل ما ذا لو أعرضنا عن كل الأدلة ودعونا الناس (اجتهادا منا) إلى الانطلاق من قيد المذاهب واتباعها والانسياح (٢) في رحب الاجتهاد؟.

وأقول لك في الجواب: ما ذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الانطلاق في مشاريعهم العمرانية عن أتباع المهندسين والاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وفي قضاياهم وعلاجاتهم الصحية عن اتباع الأطباء والاعتماد عليهم والأخذ بأقوالهم، وفي صناعاتهم وأسباب معاشهم عن اتباع أرباب الاختصاص في تلك الصناعات ونبد الاستفادة من معلوماتهم ومهاراتهم ما ذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الخروج عن اتباع هؤلاء المختصين والاستعاضة عن ذلك بالاجتهاد في كل ذلك واعتماد القناعة الذاتية التي تأتي بعد البحث والاجتهاد، ثم صدّقنا الناس في هذه الدعوة، وفعلوا ذلك؟.

إن الذي سيحدث وراء ذلك بلا شك هو الفوضى المهلكة للعمران والحرث والنسل: يعمد الناس إلى تخريب بيوتهم عن طريق التعمير، ويسرعون إلى ازهاق أرواحهم باسم التطبيب، ويجرّون على أنفسهم الفقر والضياع من وراء العمل والتصنيع، ذلك لأنهم وضعوا الاجتهاد في غير مكانه وطبقوه بدون شرطه، وتجاهلوا سنة الله في الكون من ارتباط فئات الناس بعضهم ببعض في مجال التعاون والتناصر والتعلم والاسترشاد.

وهذه حقيقة يعلمها الناس جميعا حتى الأطفال الصغار، وحتى دعاة اللامذهبية أنفسهم، ولكن لما ذا لا يفهم هؤلاء الناس هذا القانون نفسه في مجال الاختصاصات الدينية، وأحكام الحلال والحرام؟ لا ندري!

<sup>١</sup> اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ص ٨٠ .

<sup>٢</sup> أي الاتساع في رحب الاجتهاد، ففي القاموس ولسان العرب: انساح بآله أتسع، وفي اللسان أيضا: انساحت الصخرة اتسعت ومنه ساحة الدار اهـ .



إن النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في تلك الاختصاصات الدنيوية هي نفس النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في العلوم الشرعية وأحكام الحلال والحرام.

وقال أيضا ما حاصله: إذا حملنا الناس على ترك كتب المذاهب الأربعة وبدلنا لهم بكتب أخرى أَلْفَهَا واجتهد فيها أناس آخرون وألزمنا على تقليدهم فليس في ذلك أكثر من أننا أوجبنا عليهم أن يتحولوا من تقليد الأئمة الأربعة إلى تقليد فلان وفلان من المعاصرين، وليس لهذا الالتزام أي معنى إلا معنى الحق والضغينة على الأئمة الأربعة وتابعيهم، والتعصب لفلان وفلان والترويج لاجتهادهم(١).

وفي كتاب (التمذهب) قال ابن رجب الحنبلي: فإن قال أحقق متكلف: كيف يحصر الناس في أقوال علماء متعينين ويمنع من الاجتهاد أو من تقليد غير أولئك من أئمة الدين؟ قيل له: كما جمع الصحابة رضي الله عنهم الناس على قراءة واحدة في سائر البلدان لما رأوا أن المصلحة لا تتم إلا بذلك، وأن الناس إذا تركوا يقرأون على حروف شتى وقعوا في أعظم المهالك، فكذلك مسائل الأحكام وفتاوي الحلال الحرام، لو لم تضبط الناس فيها بأقوال أئمة معدودين لأدى ذلك إلى فساد الدين، وأن يُعَدَّ كل أحقق متكلف طلبت الرياسة نفسه من زمرة المجتهدين، وأن يتدع مقالة ينسبها إلى بعض من سلف من المتقدمين، وربما كان بتحريف يحرفه عليهم كما وقع ذلك كثيرا من بعض الظاهريين، وربما كانت تلك المقالة زلةً من بعض من سلف قد اجتمع على تركها جماعة من المسلمين، فلا تقضى المصلحة غير ما قدره الله وقضاه من جمع الناس على مذاهب هؤلاء الأئمة المشهورين رضي الله عنهم أجمعين(٢) اهـ. بمعناه.

وقد ألف العلامة الشيخ محمد عوامه حفظه الله كتابا سماه: أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم، تكلم فيه بإسهاب عن اختلاف أئمة المذاهب، وكتابا سماه أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، وهما كتابان لا يستغني عنهما طلاب العلم الشريف في هذا العصر الذي كثر فيه الغرور والتخيلات والتلبيسات، وانتشر فيه

<sup>١</sup> الالمذهبية أخطر بدعة تُهدد الشريعة الإسلامية ص ٨٧-٨٩.

<sup>٢</sup> التمذهب ص ٢٠٩.

الجهل والفوضى، والتعصب إلى ما يسمى باللامذهبية، وسوّلت لكثير من أهله أنفسهم الاجتهاد الشهواني والتحرر عن التقليد لأئمة المذاهب الأربعة، وإلى الله المشتكى والمفرع.

وَسَاءَ صَنِيعٌ مَنْ تَقَلَّدَ غَيْرَهُمْ وَقَدْ خَابَ سَعِيًّا وَارْتَدَى ثَوْبَ حَسْرَةٍ

في هذا البيت التحذير بعبارة شديدة اللهجة عن تقليد مذهب غير المذاهب الأربعة، أي ساء صنيع من تقلد غير الأربعة وخاب سعيه وتشمله الحسرة والندم كما يشمل الإنسان رداؤه، وذلك لأن من ترك التقليد بالكلية أو قلّد إماما مجتهدا لم تدوّن مذهبه ولم تعرف قواعده وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال في حيرة من أمر دينه وتخط في أعماله، ولا يكاد يهتدي إلى الصواب، بل قد يكون دائما في قلق واضطراب، فلا هدوء له ولا اطمئنان، ولا تفارقه الهموم والوحشة؛ لسلوكه سبيلا ليس فيه أنيس ولا جليس، فقد سار الناس من المفسرين والمحدثين والفقهاء وغيرهم على نهج الأئمة الأربعة وتمذهبوا بمذاهبهم وتمسكوا بجهلهم، فهم الأتباع لهؤلاء الأئمة في الدنيا ويحشر معهم إن شاء الله يوم يدعو الله كل أناس بإمامهم (١).

وقال ابن حجر الهيتمي في (كف الرعا) (٢) عن محرمات اللهو والسماع: قد ذكر الأئمة أنه لا يجوز لمفت ولا لقاض تقليد غير الأئمة الأربعة، قالوا: لا لنقصهم لأن الصحابة وتابعيهم سادات الأمة، وإنما هو لارتفاع الثقة بشروط مذاهبهم وتحقيقاتها وصورها، فإنّها أقوال في جزئيات متعددة، ولم يعلم لهم قواعد يُرجع إليها ولا شروط وتقييدات يُعول عليها، وارتفعت الثقة بها لأنّها لم تُحرّر وتُدوّن بخلاف المذاهب الأربعة،

١ قال القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ}: قيل: بمذاهبهم فيدعون بمن كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلّدونه، فيقال: يا حنفي يا شافعي يا معتزلي يا قدرلي، ونحو ذلك اهـ حاشية الجمل على تفسير الجلالين. وقال ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بعد ذكره أقوالا كثيرة: وأولى الأقوال عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ} الذي كانوا يقتدون به ويأتمون به في الدنيا؛ لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما اتتم واقتدى به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم إليها اهـ .

٢ الرَّعَا كسحاب الأحداث الطغام، والطغام: أوغاد الناس، والوعْد الأحق الضعيف الرذل الديء اهـ القاموس. وفي لسان العرب لابن منظور: الرَّعَا - الأحداث، ورعاع الناس سُقاطهم وسَفَلَتُهُمْ.

فإنّها حررت ودونت وتعاقبت الآراء ومحضتها (١) كوامل العقول حتى نقحتها وحررناها، ولم يُقَلَّ مِنْهَا مَسْأَلَةٌ إِلَّا وَعُلِمَ مغزاها ودليلها ومعناها، فوثقت بها النفوس واطمأنت إليها القلوب بخلاف بقية المذاهب الخارجة عنها، ومن ثم كان الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك لكن ضيعه أصحابه أي بعدم تدوين مذهبه وتحرير مقاصده وقواعده (٢) اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين بشرح الأربعين): قال بعض أئمتنا: لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة، الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رضوان الله تعالى عليهم؛ لأن هؤلاء قد عرفت قواعد مذاهبهم واستقرت أحكامها وخدمها تابعوهم وحرروها فرعا فرعا وحكما حكما، فعزّ أن يوجد حكم إلا وهو منصوص لهم إجمالا أو تفصيلا بخلاف غيرهم، فإن مذاهبهم لم تحرر وتدوّن كذلك، فلا تعرف لها قواعد تُتَخَرَّج عليها أحكامها، فلم يجز تقليدهم فيما حفظ عنهم منها؛ لأنه قد يكون مشترطا بشروط أخرى وكلوها إلى فهمها من قواعدهم، فقلّت الثقة بخلو ما حفظ عنهم من قيد أو شرط فلم يجز التقليد حينئذ (٣).

وفي مجموعة (سبعة كتب مفيدة): انقضت مذاهب غير الأربعة بعد الخمسمائة. وقد صرح جمع من أصحابنا بأنه لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة، وعللوا ذلك بعدم الثقة بنسبتها إلى أربابها؛ لعدم الأسانيد المانعة من التحريف والتبديل بخلاف المذاهب الأربعة (٤).

واعلم أن الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب وغيرهم كثيرون في التابعين ومن بعدهم إلى القرن الثالث الهجري، وقد بقي مذاهب بعضهم زمانا طويلا كمذهب الإمام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد، ومذهب داود الظاهري، وقال الإمام الغزالي في الإحياء والإمام النووي في (التقريب): أصحاب المذاهب المتبوعة: سفيان الثوري،

<sup>١</sup> أي خلصتها من كل ما يشوبها ويخالطها، ففي لسان العرب: المحض: الخالص وكل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه.

<sup>٢</sup> كف الرّعاع عن محرمات اللهو والسماع، وهو مطبوع على هامش الزواجر عن افتراء الكبائر ج ١ ص ١٦١.

<sup>٣</sup> الفتح المبين بشرح الأربعين، شرح حديث الثامن والعشرين.

<sup>٤</sup> سبعة الكتب المفيدة ص ٨٩.

ومالك بن أنس، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل.

وقال السيوطي في (تدريب الراوي): من أصحاب المذاهب المتبوعة: الأوزاعي، وكان له مقلدون بالشام نحو من مائتي سنة، وإسحاق بن راهوية، وأبو جعفر بن جرير الطبري، وداود الظاهري (١) اهـ.

قلت: وما قاله السيوطي من أن ابن جرير الطبري صاحب مذهب هو خلاف المشهور، والمعروف أنه شافعي المذهب كما في طبقات الشافعية الكبرى وغيرها. قلت: وقد انقرضت هذه المذاهب كلها منذ زمان بعيد ولم يبق منها في الأزمنة المتأخرة إلا الأربعة المذكورة.

واعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص الأئمة أصحاب الاستنباط بفهم دقيق، وإدراك عميق، وفكر ثاقب، ورأي صائب، فعلموا يقينا أن الأمة في أشد حاجة إلى الاستنباط من نصوص الكتاب والسنة؛ وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم كانوا جميعا مجتهدين يأخذون أحكام الحوادث والوقائع من الأصلين، وما لم يظهر لهم فيهما كانوا يجتهدون فيه ويأخذ كل منهم ما أدى إليه اجتهاده، فقد يختلف الاجتهاد في بعض الأحوال كما في قضية قتال المرتدين، وقضية علي ومعاوية رضي الله عنهما، وغير ذلك مما هو مشهور، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، وأما سؤال بعضهم بعضا في القضايا والمسائل فليس ذلك تقليدا له؛ إذ لا يمتنع من المجتهد

---

<sup>١</sup> ولد سفيان الثوري سنة سبع وتسعين، ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، ومات مالك بن أنس بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، قيل: ولد سنة ثلاث وتسعين، وقيل: إحدى، وقيل: أربع. ومات أبو حنيفة النعمان بن ثابت ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين، وولد الإمام الشافعي سنة خمسين ومائة، ومات بمصر آخر رجب سنة أربع ومائتين، ولد أحمد بن حنبل سنة أربع وستين ومائة، ومات ببغداد في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين، ومات الأوزاعي ببغداد سنة سبع وخمسين ومائة، ومات إسحاق بن راهوية سنة ثمان وثلاثين ومائتين، ومات جرير الطبري سنة عشر وثلاثمائة، وولد داود الظاهري بالكوفة سنة ثنتين ومائتين، وتوفي في ذي العقدة، وقيل: في رمضان ببغداد سنة تسعين ومائتين. تدريب الراوي شرح تقريب النووي ج ٢ ص ٣٦٠. وقال عبد الوهاب عبد اللطيف محقق تدريب الراوي: ومن أصحاب المذاهب المقلدة أيضا: سفيان بن عيينة، والليث بن سعد المصري، فتكون عدتهم أحد عشر مذهبا، وقد انقرضوا فلم يبق منهم إلا المذاهب الأربعة بعد الخمسمائة لقصور الهمم.

سؤال المجتهد بل عليه أن يعلم كثيرا من آراء المجتهدين وأقوالهم، وعلى هذا مضى عهد الصحابة رضي الله عنهم.

ومما لا شك فيه أن بعض الصحابة كان أعلم من بعض، فمنهم من وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه باب العلم، ومنهم من قال: إنه أعلمهم بالحلال والحرام، ومنهم من قال: إنه أفرضهم أي أعلمهم بالفرائض، ومنهم من دعا له بأن يفقهه في الدين، ومنهم من قال: لو ضاع عقل بعيري لوجدته في كتاب الله، لكن تفاوتهم في العلم لا ينافي تساويهم في أصل الاجتهاد، فقد قال الإمام البوصيري في همزيته:

كلهم في أحكامه ذو اجتهاد وصواب وكلهم أكفاء

وقال ابن حجر الهيتمي في شرحه لهذا البيت: أي كلهم ذو اجتهاد صحيح لتوفر شروط الاجتهاد كلها في جميعهم (١)، ولذلك لم يُعرف عن أحد منهم أنه قلّد غيره في مسألة من المسائل، وكان الناس يستفتون كل من رأوه منهم فيفتيه باجتهاده، ولا يعترض أحد منهم على أحد إلا إن كان هناك نص صريح خولف، فيذكر له، فمنهم من يرجع إليه، ومنهم من يؤوله أو يعارضه بمثله، وهذا رد على قوم سلبهم الله الدين والعقل، وسلط عليهم الحمق والجهل، فاعتقدوا أنهم ذوو هوى أو نفس، أو حظ أو بغض، حاشاهم الله من ذلك، بل لم يخترهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا وهم على أكمل الأوصاف وأجلها. وقوله: (وكلهم أكفاء) أي متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة والعلم والاجتهاد وإبراز الأحكام لا لحظ ولا لهوى، وإنما يتفاوتون في الزيادة في ذلك، وحينئذ فلا ينافي ذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: أبوبكر أعلمنا، ولا سؤال عمر لعلي رضي الله عنهما فيجيبه فيقول: لا قدس الله أمة لست فيها يا أبا الحسن، ولا تقديم عمر لابن عباس رضي الله عنهما على أكابر مشيخة المهاجرين والأنصار؛ لأنه كان يجد عنده من العلم ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بأن الله يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ما ليس عندهم، ولا سؤال معاوية لعلي رضي الله عنهما بالإرسال إليه في المشكلات فيجيبه،

<sup>١</sup> قال بعضهم: لم يكونوا كلهم مجتهدين، فقد قال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه اللاّمذهبيّة: لم يكن جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل فتيا- كما قال ابن خلدون- ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، بل كان فيهم المفتي المجتهد، وفيهم المستفتي المقلد اهـ ص ٧١.

ولقد قال له أحد ابنه: لم تجيب عدونا؟ فقال: أما يكفي أني احتاج إلينا وسألنا (١) اهـ.

وأما التابعون فقد انتشر الإسلام في زمنهم، ودخلت فيه أمم من العرب والعجم، وضعفت الهمم، واستولت الشهوات وحب الدنيا على كثير من الناس خلاف ما كانت عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وصار الناس أخلاطا وأنواعا، فيهم العالم المجتهد الذي كملت فيه آله الاجتهاد، وهؤلاء كثيرون فيهم جدا، وفيهم العامي المقلد يَسْتَفْتِي وَيَعْمَلُ بما يفتيه المفتي فقط.

وفي عصرهم كثرت الفتن والتنافس في المناصب وانتشرت البدع واختلفت الآراء، ولما خيف على الدين من التدهور والضياع اهتم بعضهم بكتابة الحديث وتدوينه، والذب عنه من افتراء الوضاعين وكذب الملحدين، وبعضهم بالتأليف، وبعضهم بترتيب الأدلة وكيفية جمعها عند تعارضها، وتقديم بعضها على بعض، وتأصيل الأصول، وتأسيس القواعد الشرعية ليرجع إليها في حالة عدم النص.

ومن أبرز من شمرَّ وجدَّ وقام لسدِّ هذا الثغر ودفع هذا الخطر المترقب الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وسار على نهجه من أتباع التابعين وغيرهم الإمام مالك بن أنس وتلميذه الإمام الشافعي، وتلميذه أحمد بن محمد بن حنبل ومن هذا حذوهم رضي الله عنهم أجمعين، فبذلوا قصارى جهدهم ونهاية وسعهم في جمع الأدلة المتعارضة، والترجيح بين آراء العلماء المتباينة، وحماية الشريعة من أي خلل ونقص يمكن أن يتطرق إليها ولو باحتمال ضعيف، فخاضوا بحار معاني الكتاب والسنة، وأجالوا فيها الأفكار، فبدت لهم معانٍ ونكتٌ خفيت على غيرهم، واستخرجوا منها دررا غالية، وعلوما باهرة، وحكما بالغة، فكشفوا الغطاء عن مخدرات المسائل المكنونة في كنوز نصوص القرآن والسنة، واقتنصوا كل شاردة ونادرة، وأظهروا من الأصول خبايا، ودفع الله بهم من الناس رزايا، فلا تحتاج إلى حكم من الأحكام في أي حادثة من الحوادث إلا وجدته مسطرا منصوبا في مذاهبهم بالأدلة الواضحة، أو تجد فيها قاعدة من قواعد تدخل

<sup>١</sup> المنح المكية في شرح الهمزية ص ٥٤٩-٥٥٠.

هذه الحادثة فيها وترد إليها(١)، فتراهم استخرجوا من غير آيات الأحكام وأحاديثها- كالقصص والسير والمواعظ وغيرها- أحكاما كثيرة، ومسائل دقيقة، لا يتنبه لها غيرهم، ولا يدركها أحد سواهم.

وكان للإمام الشافعي رحمه الله شأن عجيب وأمر غريب في الفطنة والفهم الدقيق في الاستنباط من الكتاب والسنة، ففي (حاشية النفحات شرح الورقات) قال العراقي: عُدَّ من خاصية الإمام الشافعي رضي الله عنه التَّفَطُّنُ لدلالة قوله عليه السلام والسلام: (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده) على نجاسة الماء القليل بوقوع النجاسة فيه من غير تغير، ودلالة قوله عليه السلام والسلام: (تقعد إحداهن شطر دهرها لا تصوم ولا تصلي) على تقدير أكثر مدة الحيض بخمسة عشر يوما، ودلالة قوله تعالى: {وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} على أن من مَلَكَ بَعْضَهُ (٢) عتق عليه(٣).

#### فائدة في ذكر بعض قواعد الشافعية

اعلم أن للمذاهب قواعد وأصولا يرجع إليها في المسائل والحوادث التي لا يوجد لها نص من أئمة المذاهب ولا نقل صريح من أكابر أصحابهم وأتباعهم، ومن قواعد مذهب إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى: الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد، إذا اجتمع الحلال والحرام، غلب الحرام، الإيثار في القرب مكروه وفي غيرها محبوب، الحدود تسقط بالشبهات، إعمال الكلام أولى من إهماله، الخروج من الخلاف مستحب، الرخص لا تناط بالمعاصي، الرضى بالشيء رضى بما يتولد منه، السؤال معاد في الجواب، لا ينسب للساكت قول، ما حرم استعماله حرم اتخاذه، ما حرم أخذه حرم إعطاؤه، من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بجرمانه، الولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة، الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود، لا ينكر المختلف فيه وإنما ينكر المجمع عليه، يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر

<sup>١</sup> قال إمام الحرمين: يبعد أن تقع مسألة لم ينص عليها في المذهب ولا هي في معنى المنصوص ولا مندرجة تحت ضابط حاشية النفحات ص ١٦٨.

<sup>٢</sup> يعني أصله أو فرعه.

<sup>٣</sup> حاشية النفحات شرح الورقات ص ١٦٦.

في المقاصد، الميسور لا يسقط بالمعسور، لا عبرة بالظن البين خطؤه (١) اهـ. وهي كثيرة كثيرة تزيد على مائتي قاعدة. وأما أصولها المأخوذة منها من الكتاب والسنة وفروعها التي تدخل فيها فهي مذكورة في الكتب الموضوعة لذلك، ومن أحسنها الأشباه والنظائر للسيوطي.

وقال البرماوي وغيره: قواعد فقه مذهبنا الشافعي كثيرة جدا غير أن القاضي حسين لما بلغه حكاية أبي طاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر حيث ردّ جميع مذهب أبي حنيفة إلى سبعة عشر قاعدة وأنه كان يضمن بتعليمها ردّ القاضي مذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أربع قواعد، (الأولى): اليقين لا يزال بالشك، ومن مسائلها من يتيقن الطهارة وشك في الحدث فهو متطهر وعكسه. و(الثانية): المشقة تجلب التيسير (٢)، ويخرج عليها جميع جميع رخص الشرع كجواز القصر والجمع والفطر في السفر وتخفيفاته كأعذار الجمعة وغير ذلك مما لا حصر له في العبادات، ومن التخفيفات في المعاملات ما أبيح من الغرر الممنوع كبيع البيض بقشره والرمان والبطيخ ونحو ذلك وأنموذج التماثلات، ومنها الطلاق والرجعة وجميع فروض الكفايات وسننها، و(الثالثة): الضرر يزال (٣)، ومن مسائلها الرد بالعيب وجميع أنواع الخيار ونصب الأئمة والقضاة. و(الرابعة): العادة محكمة، ومن مسائلها أقل الحيض يوم وليلة، وضم بعض أئمتنا إلى هذه خامسة وهي: الأمور بمقاصدها، ومن مسائلها وجوب النية في نحو الطهارة من العبادات جميعها وفي نحو كنايات البيع وغيرها. ورجع العز بن عبد السلام الفقه إلى قاعدة واحدة، وهي اعتبار المصالح ودرء المفاسد بل قال: قد يرجع الكل إلى اعتبار المصالح فقط، ودرء المفاسد من جملتها. قال الشيخ تقي الدين السبكي (٤): التحقيق عندي أنه إن أريد برجوع الفقه إلى

<sup>١</sup> نقلت هذا من الأشباه والنظائر للحافظ السيوطي رحمه الله .

<sup>٢</sup> قال السيوطي في الأشباه والنظائر: ومعنى هذه القاعدة قول الإمام الشافعي رحمه الله: (إذا ضاق الأمر اتسع).

<sup>٣</sup> ومن القواعد أيضا: الضرر لا يزال بالضرر، لكن قال ابن السبكي: إن هذا يعود على قولهم: الضرر يزال ولكن لا بضرر، فشأنهما شأن الأخص مع الأعم، بل هما سواء؛ لأنه لو أزيل بالضرر لما صدق "الضرر يزال". الأشباه والنظائر.

<sup>٤</sup> هذا ما في حاشية النفحات، والذي في الأشباه والنظائر للسيوطي: قال الشيخ تاج الدين السبكي. وتقي الدين هو الإمام المجتهد علي بن عبد الكافي السبكي، وتاج الدين لقب ولده عبد الوهاب مؤلف جمع الجوامع وغيره من المؤلفات الكثيرة النافعة.



إلى الخمس بتعسف وتكلف وقول جملي فالأمر كذلك وإن أريد الرجوع بوضوح فإنها تزيد على الخمسين بل على المائتين. قال البرماوي: قواعد الفقه وإن كانت كثيرة تزيد على المائتين لكن ليس شيء منها في العموم كهذه الخمسة وقد نظمها بعضهم في قوله:

خمس محررة قواعد مذهب للشافعي بها تكون خيرا  
ضرر يزال وعادة قد حكمت وكذا المشقة تجلب التيسير  
والشك لا ترفع به متيقنا والنية أخلص إن أردت أجورا (١)  
وقد ذكر مثل هذا الحافظ السيوطي في الأشباه والنظائر في الكتاب الأول في شرح القواعد الخمس.

وقد أخذ بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا عمير ما فعل النغير (٢)" فوائد تزيد على المائة، وأفردتها العلامة ابن القاص الشافعي بجزء (٣)، وهذا الحديث معدود من أحاديث مزاحه صلى الله عليه وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام قاله لأبي عمير لما مات طائر كان يلعب به، فرآه صلى الله عليه وسلم حزيناً فمأزجه بذلك. وأبو عمير هو أخ صغير لأنس بن مالك لأمه، والنغير طائر كالعصفور.

قال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري بشرح صحيح البخاري): في بعض طرق هذا الحديث "فزارنا-أي النبي صلى الله عليه وسلم- ذات يوم فقال: يا أم سليم (٤) ما شأنى أرى أبا عمير ابنك خائر النفس (٥)" وفي طريق آخر: فجعل يمسح رأسه ويقول.. الحديث. وفي هذا الحديث عدة فوائد جمعها أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف

<sup>١</sup> حاشية النفحات على الورقات ص ١٦٣-١٦٤.

<sup>٢</sup> حديث "يا أبا عمير ما فعل النغير"، رواه أحمد في مسنده والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، ولفظه في صحيح البخاري عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه فطيماً، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ نُعِرَ كان يلعب به، فرمما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط التي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلينا بنا.

<sup>٣</sup> حاشية المواهب اللدنية للبيجوري على الشمائل المحمدية للترمذي .

<sup>٤</sup> أم سليم بنت ملحان هي أم أنس بن مالك راوي الحديث وأم أبي عمير.

<sup>٥</sup> قال في الفتح: خائر النفس بمعجمة ومثلثة أي ثقیل النفس غیر نشیط.

بابن القاص الفقيه الشافعي صاحب التصانيف في جزء مفرد، وذكر في أول كتابه أن بعض الناس عاب على أهل الحديث أنهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومثل ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: وما درى أن في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجها، ثم ساقها مبسوطه، فلخصتها مستوفيا مقاصده، ثم أتبعه بما تيسر من الزوائد عليه، فمما أخذ منه جواز مازحة الصبي الذي لم يميز، وفيه ترك التكبر والترفع، وجواز الاستدلال بالعين على حال صاحبها؛ إذ استدل صلى الله عليه وسلم بالحنن الظاهر على الحزن الكامن حتى حكم بأنه حزين، وسأل أمه عن حزنه، والتلطف بالصديق صغيرا كان أو كبيرا، وجواز تقنية من لم يولد له، وجواز لعب الصغير بالطير، وجواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أبيح اللعب به، وجواز انفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات، وجواز تصغير الاسم ولو كان لحيوان، وجواز مواجهة الصغير بالخطاب خلافا لمن قال: الحكيم لا يواجه بالخطاب إلا من يعقل ويفهم، قال: والصواب: الجواز حيث لا يكون هناك طلب جواب، وفيه معاشرة الناس على قدر عقولهم.

هذا بعض ما نقله العسقلاني عن ابن القاص، ثم ذكر العسقلاني فوائد أخرى: منها: دعاء الشخص بتصغير اسمه عند عدم الإيذاء، وجواز السؤال عما السائل به عالم؛ لقوله: ما فعل النغير بعد علمه بأنه مات، وفيه إكرام أقارب الخادم وإظهار المحبة لهم؛ لأن جميع ما ذكر من صنيع النبي صلى الله عليه وسلم كان غالبه بواسطة خدمة أنس له، وغير ذلك.

ثم قال ابن القاص: وفيما يسره الله تعالى من جمع طرق هذا الحديث واستنباط فوائده ما يحصل به التمييز بين أهل الفهم في النقل وغيرهم ممن لا يهتدي لتحصيل ذلك مع أن العين المستنبط منها واحدة، ولكن من عجائب اللطيف الخبير أنها تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، هذا آخر كلامه ملخصا (١).

وقد كثر في هذا القرن الخامس عشر الهجري وفي الذي قبله من يدعي رتبة الاجتهاد والعمل بالكتاب والسنة من غير تقليد مذهب من المذاهب الأربعة، ويُزَيَّن ذلك للعوام ويُلقَى إليهم كلمات يستميلهم بها، وخیالات باطلة لا طائل تحتها، ويعيب على أئمة المذاهب ومقلديهم قائلا: كيف يسوغ للمسلم أن يترك الكتاب والسنة ويأخذ قول فلان

<sup>١</sup> فتح الباري ج ١٠ ص ٥٨٣-٥٨٦.

وفلان؟، وقصده من ذلك أن يملك قلوبهم بتلبيساته وتمويهاته، وأن يقتنعوا بأفكاره، ويأخذوا بأقواله وآرائه، ويقلدوه بدل أئمة مذهبهم، وبعض هؤلاء يتبحر باجتهاده المزعوم، وخياله الموهوم، وهو لا يعرف الفرق بين الشروط والأركان، ولا بين أبعاد الصلاة وهياتها، ولا يدري ما القياس وأنواعه، بل قد يرفضه وينكره من أصله. وشهدت الدنيا في هذه العصور عجائب وغرائب لم تكن تخطر بخواطر السابقين من العلماء بل والعقلاء، والظاهر من أحوال هؤلاء وتهكتهم وتخططهم أن فيهم نوع خبل وطيش، ولو قيل: إن فيهم ما يشبه الجنون لم يستبعد فإن للجنون فنونا، وهذا فن منه، بل لو قيل: إن جنونهم أشد من الجنون العادي المعروف لم يستغرب ولكان محتملا، فما أشبههم بمن قيل فيه:

جنونك مجنون ولست بواحد      طبيبا يداوي من جنون جنونا

فأي جهل أشنع من جهل إنسان لم يعرف من الدين إلا كلمات سمعها من المحاضرات والخطب أو من الأشرطة والتلفزيونات ومواقع الإنترنت ثم يدعي الاجتهاد ويفتي إرتجالا برأيه عن المسائل الدقيقة التي لو سئل عنها الإمام النووي وأمثاله رحمهم الله لم يبادروا إلى جوابها بل أجالوا النظر والفكر أياما أو أشهراً في جوابها، وترى بعض المتخرجين من الجامعات والمعاهد الدينية يتعجبون بأنفسهم ويتعاضمون على من سواهم وينظرون إلى الراسخين في العلم بعين التحقير والازدراء، فسبحان الله قد انتكست الأمور وانعكست الأحوال، وصارت الأذنان رؤوسا، وقد قلت في ذلك:

تأسد في الزمان الهرُّ فاعلم      وصار الصَّبْرُ (١) أعذب من حليب  
وأذنان علت فوق الرؤوس      وصار الغرُّ أشرف من لبيب  
وقاد الأكمة البصراء فاعجب      وأرذلهم يحقر (٢) بالنجيب

<sup>١</sup> وفي لسان العرب قال الليث: الصبر بكسر الباء عصارة شجر. وقال الجوهري: الصبر هذا الدواء المر ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر. قال الراجز: أمر من صبرٍ ومقرٍ وحضض. وفي حاشية الصحاح: الحضض الخولان، وقيل: هو بضائين، وقيل: بضاد وظاء اهـ وفي القاموس: الحظظ بضمين كصرد صمغ كالصبر، وقوله: مقر قال في القاموس: المقر محرقة حامض أو مرّ اهـ.

<sup>٢</sup> ضمن معنى يزري فعدي بالباء

وخفّاش ( ١ ) يرى ما لا يراه الـ عقاب فنحن في دهر عجيب  
 فيا أسفي على الإسلام لهفي ويا لسرور أنصار الصليب  
 وقال الأستاذ الدكتور يوسف خطار محمد في (الموسوعة اليوسفية): وما أكثر ما يصدق  
 على هؤلاء قول الشاعر:

إذا وصف الطائيّ بالبخل مادراً وعير قسا بالفهاهة باقلاً ( ٢ )  
 وقال السها للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى يا صبح لونك حائل ( ٣ )  
 وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهة وفاخرت الشهب الحصا والجنادل ( ٤ )  
 فيا موت زُرْ إن الحياة ذميمة ويا نفس جدّي إن دهركِ هازل ( ٥ )  
 وقد ألف العلامة محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله وأيده كتابا في وجوب التقليد  
 وسماه: (اللامذهبيّة أخطر بدعة تُهدد الشريعة الإسلامية)، فعليك به، فإنه ردّ فيه الآراء  
 الباطلة التي يتفوه بها في هذه العصور ذوو الأحلام السخيفة والأفكار السيئة، فجزاه الله  
 خير الجزاء وأحسن إليه في الدنيا وفي الآخرة.

<sup>١</sup> الخفّاش كرمّان الطواط . قاموس.

<sup>٢</sup> أي إذا وصف المادّ بالبخل حاتماً الطائي المشهور بالجود والكرم والسخاء. قال ابن منظور في لسان العرب:  
 وفي المثل الأم (من مادر) وهو جد بني هلال بن عامر. وفي الصحاح هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة لأنه  
 سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدّر به حوضه بُخلاً أن يُشرب من فضله اهـ. وفي القاموس:  
 مَادِر لقب مُخارق لئيم من بني هلال بن مالك، وفي شرحه الصواب: هو رجل من هلال بن عامر اهـ. قوله: سلح  
 أي تغوط، قال في القاموس: والسلاح كغراب النّجو، وقوله: ومدّر به، قال في القاموس: ومدّر الحوض سدّ  
 خصاصة حجارته بالمدر، وهو الطين اليابس . والخصاصة كما في القاموس: كل خلل وخرق في باب ومنخل وبرقع  
 ونحوه أو الثقب الصغير. وقوله: الفهاهة والفهة والفهفة العجيّ. وقوله: باقل رجل اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً  
 فسئل عن شرائه ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه فانفلت فضرب به المثل في العي. وفي القاموس أيضاً: عَيّ  
 في المنطق كرضي عيا بالكسر حصر. وعَيّ بالأمر لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق إحكامه اهـ قاموس  
 ولسان العرب.

<sup>٣</sup> الحائل المتغير اللون، اهـ القاموس.

<sup>٤</sup> الشهاب ككتاب شعلة من نار ساطعة. والجنديل كجعفر: ما يُقْلَع الرجل من الحجارة وتكسر الدال. القاموس

<sup>٥</sup> الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية للدكتور يوسف خطار محمد ص ٥٣١.

وَأَلَفَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا الشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْيَافَعِيُّ كِتَابًا سَمَّاهُ: (الْتِمَازُ) وَهُوَ مَجْلَدٌ يَنْبَغِي الْإِطْلَاقُ عَلَى مَا أَوْدَعَهُ فِيهِ مِنَ الْأَدْلَةِ الْمُقْنَعَةِ وَالْإِفْتَاءِ الْمُسْتَجَادَةِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

## نبذة من تراجم الأئمة الأربعة

### الإمام أبو حنيفة:

اختلفوا في نسبه فقال أكثرهم وصححه المحققون أنه من العجم، وهو النعمان بن ثابت بن زوطى - على وزن موسى وسلمى -، وقيل: نعمان بن ثابت بن النعمان .

قال ابن حجر الهيثمي: إن أباه ثابتاً ذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه صغيراً فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته اهـ. (١)

ولد الإمام أبو حنيفة رحمه الله سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم الكوفة .

وفي فتاوي شيخ الإسلام ابن حجر: أنه أدرك جماعة من الصحابة كانوا بالكوفة بعد مولده بها سنة ثمانين وهو من طبقات التابعين .

قال ابن حجر الهيثمي: فحينئذ فهو من أعيان التابعين الذين شملهم قوله تعالى: {والذين اتبعوهم بإحسان} ... الآية.

وروى أبو حنيفة عن مشايخ كثيرين، ذكر منهم الإمام أبو حفص الكبير أربعة آلاف شيخ، وقال غيره: له أربعة آلاف شيخ من التابعين فما بالك بغيرهم .

وقد أخذ عنه الحديث والفقه خلائق ذكر بعض المتأخرين منهم نحو الثمانمائة .

وقال الذهبي: توفي شهيداً، مَسْقِيّاً (٢) في سنة خمسين ومائة، وله سبعون سنة، وعليه قبة عظيمة، ومشهد فاخر ببغداد والله أعلم.

قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن الثابت بن زُوطي: قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي ألا أفارق حمادا حتى أموت فصحبته ثمانى عشرة سنة، ثم ما صليت صلاة إلا استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو تعلم مني علماً.

وكان أبو حنيفة صبوراً على تعليم العلم بالليل والنهار قليل الكلام حتى ترد مسألة في الحلال والحرام، قال زفر: كان يحبى الليل كله بركعة يقرأ القرآن فيها،

<sup>١</sup> الخيرات الحسان لابن حجر الهيثمي، ص ٣٠.

<sup>٢</sup> المراد به مسموماً أي مقتولاً بالسم كما سيأتي قريباً عن الخيرات الحسان للهيثمي. والله أعلم.

وقال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان عامة الليل يقرأ القرآن في ركعة، وكان يسمع بكأؤه حتى يرحمه جيرانه، وحتم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف ختمة، ولما غسله الحسين بن عمارة قال له: غفر الله لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك في الليل أربعين سنة، وكان يجمع القرآن في ركعتين، ولد رضي الله عنه سنة ثمانين من الهجرة، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة في شهر رجب، وقبره ببغداد يزار ويتبرك به، وقال الإمام الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة رحمه الله اهـ—(١).

وفي الخيرات الحسان للهيتمي: أن المزني قال: سمعت الشافعي يقول: الناس عيال على أبي حنيفة في القياس .

وقال رجل عند وكيع: أخطأ أبو حنيفة فزجره وكيع وقال: من يقول هذا كالأنعام بل أضل سبيلا كيف يخطئ وعنده أئمة الفقه كأبي يوسف ومحمد وأئمة الحديث وأئمة اللغة والعربية وأئمة الزهد والورع كالفضيل وداود الطائي، ومن كان أصحابه هؤلاء لم يكن ليخطئ لأنه إن أخطأ ردوه للحق.

وهو أول من دون علم الفقه ورتبه أبوابا وكتب على نحو ما هو عليه اليوم، وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط وانتشر مذهبه في أقاليم ليس فيها غيره كالهند والسند والروم وما ورواء النهر، وكان ينفق على نفسه وغيره من العلماء وغيرهم من كسب يده ولم يقبل جائزة، ومات مظلوما محبوسا مسموما .

وروى الخطيب عن الشافعي رحمه الله قال: قيل لمالك: هل رأيت أباحنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهابا لقام بحجته .

وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة .

وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة: لقد جئت من أفقه أهل الأرض .

وقال الأوزاعي لابن المبارك: من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة، يكنى أبا حنيفة؟ فأراه مسائل عويصة من مسائله فلما رآها منسوبة للنعمان بن ثابت قال: من هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق قال: هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه، قلت: هذا أبو حنيفة الذي

<sup>١</sup> الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية: ج ٢ ص ١٥٥-١٥٦.

نهيت عنه، ثم لما اجتمع بأبي حنيفة بمكة جاره في تلك المسائل فكشفها أبوحنيفة له بأكثر ما كتبها ابن المبارك عنه، فلما افترقا قال الأوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله، وأستغفر الله تعالى، لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه .

وروى الخطيب عن بعض أئمة الزهد أنه قال: يجب على أهل الإسلام أن يدعوا لأبي حنيفة في صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه .

وقال أبو يوسف: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبيي، وسمعتة يقول: إني لأدعو لحمد مع أبيي، وقال: أبو حنيفة زَيْنَةُ اللَّهِ تعالى بالفقه والعمل والسخاء والبذل وأخلاق القرآن التي كانت فيه، وقال: كان خلف مَن مضى وما خلف والله على وجه الأرض مثله .

وقال الحافظ عبد العزيز بن أبي رواد: من أحب أباحنيفة فهو سني، ومن أبغضه فهو مبتدع (١) اهـ.

قال الخطيب البغدادي: أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الصيمري قال: أنبأنا عمر بن إبراهيم المقرئ قال: نبأنا مكرم بن أحمد قال: نبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم، قال: نبأنا علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائراً، فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى (٢) اهـ.

وعن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رحمه الله صلى العشاء والصبح بوضوء أربعين سنة.

### الإمام مالك بن أنس:

روى عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة .

وفي رواية: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة. قال الذهبي: ويروى عن ابن عيينة قال: إنه مالك، لم يبق له نظير بالمدينة.

<sup>١</sup> الخيرات الحسان، ص ٤٢-٤٨.

<sup>٢</sup> تاريخ بغداد، ومثلها في الخيرات الحسان ص ٩٤.



قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح عن سفيان.

وعن ابن عيينة قال: مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي - وصدق وبرّ - : إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

قال خلف: دخلت على مالك فقال: ما ترى؟ فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم: إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون: إذا ينفذ مالك ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكى فقامت عنه.

وقال مطرف بن عبد الله: قال لي مالك: ما يقول الناس فيّ؟ قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع، فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها.

قال محمد بن رُمح: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن مالكا والليث يختلفان فبأيهما آخذ؟ قال: مالك، مالك.

وروى أشهب عن عبد العزيز الدراوردي قال: دخلت مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فوافيته يخطب إذ أقبل مالك فلما أبصره النبي صلى الله عليه وسلم قال: إلىّ إلىّ، فأقبل حتى دنا منه فسلم صلى الله عليه وسلم خاتمه من خنصره فوضعه في خنصر مالك.

قال جعفر بن عبد الله: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله {الرحمن على العرش استوى} كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرخضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج.

وقال ابن وردى: كنا عند مالك فقال رجل: يا أبا عبد الله {الرحمن على العرش استوى} كيف استواءه؟ فأطرق مالك وأخذته الرخضاء ثم رفع رأسه فقال: {الرحمن على العرش استوى} كما وصف نفسه ولا يقال له: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه.

قال الحلواني: سمعت مطرف بن عبد الله سمعت مالكا يقول: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولادة الأمر بعده سننا، الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال في طاعة الله وقوة

على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولاه وأصله جهنم وساءت مصيرا (١).

### الإمام الشافعي:

في الفتوحات الربانية: أن الشافعي رحمه الله رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أعطاه ميزانا فأولت له بأن مذهبه أعدل المذاهب وأوفقها للسنة الغراء، وأوفقها للحكمة العلمية والعملية، ولد بغزة على الأصح سنة خمسين ومائة، وتوفي رحمه الله آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤هـ، وقبره بقرافة مصر.

وأريد بعد أزمنة نقله لبغداد فظهر من قبره لما فتح روائح عطلت الحاضرين عن إحساسهم فتركوه رضي الله عنه (٢).

وقال الخطيب: وما أحسن ما وصف به بعض العرب الشافعي، قال الربيع: كنا جلوسا في حلقة الشافعي بعد موته بيسير، فوقف علينا أعرابي فسلم ثم قال لنا: أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ فقلنا: توفي رحمه الله فبكى بكاء شديدا، وقال: توفي رحمه الله وغفر له، فلقد كان يفتح بيانه منغلق الحجة وييدي على خصمه واضح المحجة، ويغسل من العار وجوها مسودة، ويوسع بالرأي أبوابا منسدة، ثم انصرف (٣).

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن المزي قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته عن الشافعي فقال: من أراد محبتي وسنتي فعليه بمحمد بن إدريس الشافعي المطلبي فإنه مني وأنا منه.

وقال يونس الصّديّ: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة. قال الذهبي: هذا يدل كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون (٤).

<sup>١</sup> سير أعلام النبلاء، ترجمة إمام مالك.

<sup>٢</sup> الفتوحات الربانية، ج ٢ ص ١٥٤.

<sup>٣</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ٣٧.

<sup>٤</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ١٦-١٧.

ومما يدل على إمامة الشافعي رحمه الله في علوم الحديث وتبحره في فنونها انتساب أئمة الحديث وحفاظه إلى مذهبه، فقد تقرر أن أكابر حملة السنة المطهرة وحاملي رأيها من أتباعه المنتسبين إلى مذهبه، منهم محمد بن إسماعيل البخاري، وأبو داود السجستاني صاحب السنن، والنسائي، وعلي بن عمر بن أحمد الإمام في المعرفة بعلل الحديث وأسماء الرجال الحافظ الجليل الدارقطني، ومحمد بن إسحق إمام الأئمة الحافظ ابن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبري الحافظ، ومحمد بن حيان بن أحمد الحافظ الإمام أبو حاتم، وحمد بن محمد بن إبراهيم الحافظ أبو سليمان الخطابي، وعبد الرحمن بن أبي حاتم الإمام الرازي، وأحمد بن حسين بن علي الحافظ الكبير البيهقي، وأحمد بن عبد الله بن أحمد الإمام الجليل الحافظ أبو نعيم، وأحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب الحافظ الكبير أعلم الحفاظ، وأحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الحافظ الكبير المعروف بالبرقاني، وأحمد بن محمد بن أحمد أبو سعيد الماليني المحدث الحافظ الكبير طاووس الفقراء، ومحمد بن الحسين بن موسى الحافظ أبو عبد الرحمن السلمي، والحاكم محمد بن عبد الله بن حمويه الحافظ المعروف بابن البيع، وأحمد بن محمد بن أحمد السلفي الحافظ الكبير أبو طاهر، وعبد الكريم بن محمد بن منصور الحافظ أبو سعد السمعاني، وعلي بن الحسن بن هبة الله الإمام الجليل حافظ الأمة ابن عساكر، وعبد العظيم بن عبد القوي المنذري الحافظ الكبير، وعلي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الحافظ ابن الأثير، وعثمان بن عبد الرحمن بن موسى الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وأبو زكريا يحيى بن شرف النووي الحافظ، ومحمد بن أحمد بن عثمان الإمام الحافظ الذهبي، ومحمد بن علي بن وهب القشيري أبو الفتح تقي الدين الحافظ ابن دقيق العيد، وعبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الحافظ شرف الدنيا الدمياطي، وعلي بن عبد الكافي السبكي الحافظ، والقاسم بن محمد البرزالي الحافظ، ويوسف بن زكي بن عبد الرحمن الحافظ المزني . هذا بعض ما لخصته من (طبقات الشافعية الكبرى).

ومنهم أيضا شمس الدين محمد بن محمد الحافظ الجزري، وإسماعيل بن كثير الحافظ، وعبد الرحيم العراقي الحافظ، وأبوزرعة، وأبوالفضل شيخ الإسلام أحمد بن علي بن حجر الحافظ العسقلاني، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي الحافظ، وجلال الدين أبوالفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي خاتمة الحفاظ.

وقد اختصه الله تعالى من بين أئمة المذاهب الثلاثة بخصال .

١- منها: شرف النسب، فقد قال أبو ثور: للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه وصحة دينه ومعتقده وسخاوة نفسه ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه وحفظه الكتاب والسنة، وحسن التصنيف وجودة الأصحاب والتلامذة مثل أحمد بن حنبل.

وقال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات): شرف الله الإمام الشافعي بالنسب الطاهر، واجتماعه هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب غاية الشرف، ونهاية الحسب، وبشرف المولد والمنشأ فإنه ولد بالأرض المقدسة، ونشأ بمكة.

٢- ومنها: أنه كان أطولهم باعا في معرفة اللغة، قال المزني: قدم الشافعي مصر وبها عبد الملك بن هشام النحوي صاحب (المغازي) وكان علامة أهل عصره في العربية والشعر، فذهب إلى الشافعي ثم قال: ما ظننت أن الله خلق مثل الشافعي، ثم اتخذ قول الشافعي حجة في اللغة، وكان إذا شك في شيء من اللغة بعث إلى الشافعي فسأله عنه. وقال الأيوب بن سويد: خذوا عن الشافعي اللغة. وقال أبو عثمان المازني: الشافعي عندنا حجة في النحو. وقال الزعفراني: ما رأيت أفضل ولا أكرم ولا أتقى ولا أعلم من الشافعي، وما رأيت لحن قط، وما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منة، ما كان الشافعي إلا بحرا .

وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): قال أحمد بن حنبل: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه. والفيلسوف كما في (المعجم الوسيط) العالم الباحث (١) .

وفي (مناقب الشافعي) للبيهقي قال ثعلب: الشافعي من بيت اللغة، يجب أن يؤخذ عنه، وقال ثعلب أيضا: إنما توحد الشافعي باللغة لأنه من أهلها، فأما أبو حنيفة فإنه منها على بعد، وقال أبو الوليد بن النجار: كان يقال: إن محمد بن إدريس لغة وحده يحتج به كما يحتج بالبطن من العرب.

<sup>١</sup> سير أعلام النبلاء ج ١٠ ص ٨١.

وقال أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله: قال أبي: سمعت عمي يقول: سمعت الشافعي يقول: أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها وحفظت القراءة فما علمت أنه مرّ بي حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد منه ما خلا حرفين، قال أبي: حفظت أحدهما ونسيت الآخر، أحدهما " دساها " . وقال النووي: هو الإمام الحجة في لغة العرب، فقد اشتغل في العربية عشرين سنة .

٣- ومنها: أنه كان أشعر من الأئمة الثلاثة وآدبهم . قال المبرد: كان الشافعي من أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالقراءات .

٤- ومنها: أنه كان معلم الأمة بناسخ الحديث ومنسوخه، قال النووي: وكان الشافعي ميرزا في الاستنباط من الكتاب والسنة، بارعا في معرفة الناسخ والمنسوخ، والمحمل والمبين، والخاص والعام وغيرها، فلم يسبقه أحد إلى فتح هذا الباب.

وقال ابن وارة: قدمت من مصر فأتيت أحمد بن حنبل، فقال لي: كتبت كتب الشافعي؟ قلت: لا، قال: فرطت، ما عرفنا العموم والخصوص وناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعي، قال: فحملني ذلك على الرجوع إلى مصر فكتبتها .

٥- ومنها: اختراعه بفن أصول الفقه، قال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات): ابتكر الشافعي كتباً لم يسبق إليها، منها أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغي، وغيرها. وكان سبب تصنيفه لكتاب (الرسالة) أن عبد الرحمن بن مهدي كتب له وهو شاب أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب (الرسالة) فكان عبد الرحمن يقول: ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي.

وقال النووي أيضاً: إنه أول من صنف أصول الفقه بلا اختلاف ولا ارتياب، وهو الذي لا يساوى بل لا يداني في معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وحكي عن الزعفراني قال: لما قرأ عبد الرحمن بن مهدي (الرسالة) قال: ما ظننت أن يكون في هذه الأمة اليوم مثل هذا الرجل، وأن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل. وقال المزني: إني قرأت كتاب (الرسالة) خمسمائة مرة ما من مرة منها إلا واستفدت منها فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى .

- ٦- ومنها أنه تفرع مذهبان من مذهبه، وهما مذهب أحمد بن حنبل ومذهب أبي ثور (١).  
 ٧- ومنها أن أكثر المحددين لهذه الأمة أمر دينها كانوا منتسبين إلى مذهبه.  
 فبهذه الفضائل السبعة امتاز عن الأئمة الثلاثة، فسبحان من خصه بهذه المزايا وفضله عليهم بهاتيك العطايا .

### الإمام أحمد بن حنبل:

قال الخلال أخبرنا المروزي: أن أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل قال: ما تزوجت إلا بعد الأربعين، وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك، قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

ثم قال الذهبي: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدون في ذلك المكرر والأثر وفتوى التابعي وما فسر ونحو ذلك، وإلا فالمتمون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشر معشار ذلك.

قال ابن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو: يا أبا زرعة أنت أحفظ أم أحمد؟ قال: بل أحمد. وقال إبراهيم الحربي: رأيت أبا عبد الله كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين . وقال أبو إسحاق الجوزجاني: كان أحمد بن حنبل يصلي بعبد الرزاق فسأل عنه عبد الرزاق فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئاً.

وقال قتيبة: خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب يعني أحمد بن حنبل، وإذا رأيت رجلاً يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة. وقال قتيبة أيضاً: لو لا أحمد لأحدثوا في الدين، أحمد إمام الدنيا.

قلت: وقد روى أحمد في مسنده عن قتيبة كثيراً فهو شيخه.

<sup>١</sup> اعلم أن أبا ثور اختلفوا فيه فقال النووي رحمه الله في مقدمة المجموع ص ١٤٩: إنه شافعي المذهب، وقد صرح أبو إسحاق الشيرازي في المهذب أنه من أصحاب الوجوه، وجعل أقواله وجوهاً في المذهب، ثم قال بعد ذلك: يذكر في المذهب قول أبي ثور والمزني وابن المنذر اهـ وقال ابن هداية الله في طبقات الشافعية: كان أبو ثور على مذهب أبي حنيفة، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه وانتشر علمه، ومع ذلك قال الرافعي في كتاب الغصب من فتح العزيز: أبو ثور وإن كان معدوداً في طبقات أصحاب الشافعي فله مذهب مستقل، ولا يعد تقريره وجهاً، هذا لفظه اهـ طبقات الشافعية لابن هداية الله ص ٢٢-٢٣.

وقال المزني: قال لي الشافعي: رأيت ببغداد شابا إذا قال: حدثنا قال الناس كلهم: صدق، قلت: ومن هو؟ قال: أحمد بن حنبل.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال الزعفراني: قال لي الشافعي: ما رأيت أعقل من أحمد وسلمان بن داود الهاشمي.

وعن ابن المديني، قال: أعز الله الدين بالصديق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة.

وقال ابن أبي حاتم: إذا رأيت من يجب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة.

وقال إسماعيل بن الخليل: لو كان أحمد بن حنبل في بني إسرائيل لكان آية.

وفي (إقناع المؤمنين) قال صالح بن أحمد: ربما اعتلتت فيأخذ أبي قدحا فيه ماء فيقرأ فيه، ثم يقول: اشرب منه، واغسل وجهك ويديك.

وفي (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي و(حلية الأولياء) لأبي نعيم: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فيضعها على فيه يقبلها، وأحسب أني رأيته يضعها على عينيه ويغمسها في الماء ويشربه يستشفى به، ورأيت أنه أخذ قصعة النبي صلى الله عليه وسلم، فغسلها في حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيت يشرب من ماء زمزم يستشفى به، ويمسح به يديه ووجهه، ثم قال الذهبي: أين المتنطع المنكر على أحمد؟ وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويمس الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأسا أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع اهـ. قوله حب الماء: بضم الحاء يعني الحرة قال في القاموس: الحب الحرة أو الضخمة منها.

وفي (صفة الصفوة) للحافظ ابن الجوزي، و(سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي: عن حنبل قال: أعطى بعض ولد الفضل بن الربيع أبا عبد الله أحمد بن حنبل وهو في الحبس ثلاث شعرات، فقال: هذا من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فأوصى الإمام أحمد عند موته أن يجعل على كل عين شعرة وشعرة على لسانه ففعل ذلك به بعد موته (١).

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين، في باب التبرك بشعره صلى الله عليه وسلم.

وذكرتُ في كتابي (إقناع المؤمنين) أيضا أن الإمام الشافعي كان يترك بقميص أحمد بن حنبل الذي يلي جلده، فقد ذكر ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) بسنده أن الربيع بن سليمان قال: إن الشافعي رضي الله عنه خرج إلى مصر فقال لي: يا ربيع خذ كتابي هذا فامض به، وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واثني بالجواب، قال الربيع: فدخلت بغداد ومعى الكتاب، فصادفت أحمد بن حنبل في صلاة الصبح، فلما انفتل من الخراب سلمت إليه الكتاب وقلت: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال لي أحمد: نظرت فيه؟ فقلت لا، فكسر الحتم فقرأ وتغرغرت عيناه، فقلت له إيش فيه أبا عبد الله؟ فقال: يذكر فيه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله فاقراً عليه السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم، فيرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت له: البشارة يا أبا عبد الله، فخلع أحد قميصه الذي يلي جلده، فأعطانيه، فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر، وسلمت إلى الشافعي فقال: أيش الذي أعطاك؟ فقلت: قميصه، فقال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بله وارفع إلي الماء لأتبرك به.

وفي (تهذيب تاريخ دمشق): مثل هذه العبارة باختلاف يسير في بعض الألفاظ، وقال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): روى البيهقي عن الربيع قال: بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر، فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ فقلت لا، فأخذه فقرأه فدمعت عيناه فقلت: يا أبا عبد الله وما فيه؟ فقال يذكر أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقراً عليه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم، يرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت: حلاوة البشارة، فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال: إني لست أفجعك فيه، ولكن بله بالماء وأعطني حتى أتبرك به.

وفي (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) لعلي قارئ: مثل ذلك باختصار، وقال فيه: غسل الشافعي قميص أحمد وشرب ماءه، وهذا من أجل مناقب الإمام أحمد اهـ.



وذكر ذلك أيضا الشعراي في (تنبيه المغترين) في الباب الثاني في جملة أخرى من الأخلاق فقال فيه: قد بلغنا أن الإمام الشافعي رضي الله عنه أرسل قاصده للإمام أحمد بن حنبل بأنه سيقع في محنة عظيمة ويخلص منها سالما، يعني مسألة خلق القرآن، فلما أخبره القاصد نزع الإمام أحمد له قميصه سرورا بقدوم رسول الشافعي، فلما رجع الرسول بالقميص وأخبر الشافعي به قال له: هل كان هذا القميص على جسده من غير حائل؟ قال: نعم، قال: فقبله الإمام الشافعي ووضعه على عينيه ثم صب عليه الماء في إناء وعركه فيه ثم عصره ووضع غسالته عنده في قارورة، فكان كل من مرض من أصحابه يرسل له شيئا من تلك الغسالة، فإذا مسح به جسده عوفي من مرضه لوقته (١) اهـ.

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة.

قال المروذي: كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليّ كل أمر الدنيا، إنها أيام قلائل.

وقال عبد الله بن أحمد: كان أبي ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو (٢). وفي (طبقات الحنابلة): أن الربيع بن سليمان قال: قال لنا الشافعي: أحمد إمام في ثمان خصال، إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة (٣).

### وَأَيَّاكَ وَالتَّلْفِيقَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ فَتَأْخُذَ مِنْ هَذَا وَهَذَا بِخُلْطَةٍ

أي احذر من التلفيق بين أقوال المذاهب بأن تأخذ من هذا وهذا في قضية واحدة فتكون أعمالك مركبة من مذهبين مختلفين في الصحة والبطلان، كأن تقلد الشافعي في مسح بعض الرأس ومالكا في طهارة الكلب في صلاة واحدة، أو تتوضأ فتقلد أبا حنيفة في مس الفرج والشافعي في الفصد فصلاتك حينئذ باطلة باتفاق الإمامين على بطلان طهارتك، فعند الشافعي بطلت بالمس وعند أبي حنيفة بالفصد.

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين في باب التبرك بثياب الصالحين وتراب نعالهم.

<sup>٢</sup> سير أعلام النبلاء، ترجمة الإمام أحمد بن حنبل.

<sup>٣</sup> طبقات الحنابلة، ج ١ ص ١١.

وقال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد الجويني في (مغيث الخلق في ترجيح القول الحق): فإن قيل: فهل يجوز للعامي أن ينتحل في بعض المسائل مذهب الشافعي وفي بعضها مذهب أبي حنيفة، وكذا مذهب عامة الأئمة على هذا المنهاج؟ فإن قلت يجوز ذلك فلا يجب على أحد اتباع صاحب مذهب بعينه.

فالجواب قلنا: لا يجوز للعامي ما قلتموه بل يجب عليه حتما أن يعين مذهبا من هذه المذاهب، إما مذهب الشافعي رضي الله عنه في جميع الوقائع والفروع، وإما مذهب مالك أو مذهب أبي حنيفة أو غيرهم رضوان الله عليهم، وليس له أن ينتحل مذهب الشافعي في بعض ما يهواه ومذهب أبي حنيفة في باقي ما يرضاه، لأننا لو جوزناه لأدّى ذلك إلى الخبط والخروج عن الضبط، وحاصله يرجع إلى نفي التكليف، إذ أن مذهب الشافعي إذا اقتضى تحريم شيء ومذهب أبي حنيفة اقتضى إباحة ذلك الشيء بعينه أو على عكسه فهو إن شاء مال إلى الحل وإن شاء مال إلى الحرمة فلا يتحقق الحل ولا التحريم، وفي هذا انعدام التكليف وإبطال فائدته وذلك باطل.

فإن قيل أليس في عهد الصحابة كان الواحد من الناس مخيرا بين أن يأخذ في بعض الوقائع بمذهب الصديق وفي البعض بمذهب الفاروق وكذا في حق عامة الصحابة في كافة الوقائع ولم يمنعه عن ذلك، فإذا جازت هذه فيما بين الصحابة فلم لا يجوز في زماننا؟.

والجواب قلنا إنما ذلك كان كذلك؛ لأن أصول الصحابة لم تكن كافية لعامة الوقائع، شاملة لكافة المسائل، مستغرقة لجميع التفاريع، مستوفية لكل التفاصيل؛ لأنهم أسسوا الأساس، وأصلوا الأصول، ومهدوا القواعد، ولم يتفرغوا إلى تفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل، فمذهب أبي بكر رضي الله عنه لم يكن كافيا لجميع الوقائع، وكذلك مذهب عامة الصحابة، فلأجل الضرورة أبيحت للمقلدين متابعة الصديق في بعض الوقائع، وفيما لم يجد على أصله متابعة الفاروق، وأما في زماننا هذا مذاهب الأئمة كافية مستغرقة للكل، فإنه ما من واقعة تقع إلا وتجدها في مذهب الشافعي أو في مذهب غيره إما نصا وإما تخريجا، فلا ضرورة إلى اتباع الإمامين جميعا، فلا يجوز له أن ينقض تقليده إذ لا يستقر للتكليف فائدة اهـ (١).

<sup>١</sup> مغيث الخلق في ترجيح القول الحق لإمام الحرمين، ص ١٣-١٦.

وقال الإمام النووي في المجموع: هل يجوز للعامي أن يتخير ويقلد أيّ مذهب شاء؟ قال الشيخ (١): ينظر إن كان منتسبا إلى مذهب بنيناه على وجهين حكاهما القاضي حسين في أن العامي هل له مذهب أم لا؟ أحدهما لا مذهب له؛ لأن المذهب لعارف الأدلة، فعلى هذا له أن يستفتي من شاء من حنفي وشافعي وغيرهما، والثاني وهو الأصح عند القفال له مذهب فلا يجوز له مخالفته، وإن لم يكن منتسبا بني على وجهين حكاهما ابن برهان في أن العامي هل يلزمه أن يتمذهب بمذهب معين يأخذ برخصه وعزائمه؟ أحدهما لا يلزمه كما لم يلزمه في العصر الأول أن يخص بتقليده عالما بعينه، فعلى هذا هل له أن يستفتي من شاء أم يجب عليه البحث عن أشد المذاهب وأصحها أصلا ليقلد أهله؟ فيه وجهان المذكوران كالوجهين السابقين في البحث عن الأعم والأوثق من المفتين، والثاني يلزمه وبه قطع أبو الحسن إلكيا، وهو جار في كل من لم يبلغ رتبة الاجتهاد من الفقهاء وأصحاب سائر العلوم، ووجهه أنه لو جاز اتباع أي مذهب شاء لأفضى إلى أن يلتقط رخص المذاهب متبعا هواه، ويتخير بين التحليل والتحريم، والوجوب والجواز، وذلك يؤدي إلى انحلال ربة التكليف، بخلاف العصر الأول فإنه لم تكن المذاهب الوافية بأحكام الحوادث مهذبة وعرفت، فعلى هذا يلزمه أن يجتهد في اختيار مذهب يقلده على التعيين، وليس له أن يتبع في ذلك مجرد التشهي والميل إلى ما وجد عليه آباءه، وليس له التمذهب بمذهب أحد من أئمة الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من الأولين وإن كانوا أعلم وأعلى درجة ممن بعدهم؛ لأنهم لم يتفرغوا لتدوين العلم وضبط أصوله وفروعه، فليس لأحد منهم مذهب مهذب محرر مقرر، وإنما قام بذلك من جاء بعدهم من الأئمة الناخلين لمذاهب الصحابة والتابعين القائمين بتمهيد أحكام الوقائع قبل وقوعها الناهضين بإيضاح أصولها وفروعها كمالك وأبي حنيفة وغيرهما.

ولما كان الشافعي قد تأخر عن هؤلاء الأئمة في العصر ونظر في مذاهبهم نحو نظرهم في مذاهب مَنْ قبلهم فسبرها وخبرها، وانتقدها واختار أرجحها، ووجد مَنْ قبله قد كفاه مؤنة التصوير والتأصيل، فتفرغ للاختيار والترجيح، والتكميل والتنقيح، مع كمال معرفته وبراعته في العلوم وترجحه في ذلك على من سبقه، ثم لم يوجد بعده من بلغ محله في ذلك

<sup>١</sup> يراد بالشيخ هنا الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين. تعليق على مقدمة المجموع والله أعلم.

كان مذهبه أولى المذاهب بالاتباع والتقليد، وهذا مع ما فيه من الانصاف والسلامة من القدح في أحد من الأئمة جلي واضح، إذا تأمله العامي قاده إلى اختيار مذهب الشافعي والتمذهب به (١).

وروى الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتابه آداب الشافعي ومناقبه بسنده عن أبي أيوب حميد بن أحمد الأنصاري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث، فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه قول الشافعي، وحجته أثبت شيء فيه، ثم قال: قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا؟ فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى، فنزع في ذلك حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو حديث نص (٢).

وفي سير أعلام النبلاء في ترجمة الإمام الشافعي قال أحمد بن حنبل: إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبراً قلت فيها بقول الشافعي؛ لأنه إمام قرشي، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: عالم قریش يملأ الأرض علماً (٣) اهـ.

#### تنبيه في بيان شروط التقليد

وفي (حاشية النفحات على شرح الورقات): يشترط في العمل بالتقليد شروط ستة، تسمى شروط التقليد، الأول: أن يكون مذهب المقلد به مدوناً ليتحصل العلم اليقيني بكون المسألة المقلد بها من هذه المذاهب، الثاني: حفظ المقلد شروطه في تلك المسألة، الثالث: أن لا يكون التقليد فيما يُنقض فيه قضاء القاضي بأن لا يكون خلاف نص الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الجلي، الرابع: أن لا يتتبع الرخص بأن يأخذ من كل مذهب بالأسهل لتتحل ربة التكليف عن عنقه، قال الشيخ ابن حجر: ومن ثم كان الأوجه أنه يفسق به، وقال الشيخ الرملي: الأوجه أنه لا يفسق وإن أئتم به، وهذا ليس شرطاً لصحة التقليد كما صرح به المتأخرون بل هو شرط لدرء الحكم كنهى الصلاة في الأرض المغصوبة، الخامس: أن لا يعمل بقول في مسألة ثم بضده في عينها كأن أخذ داراً بشفعة

<sup>١</sup> مقدمة المجموع ص ١٢٠-١٢١.

<sup>٢</sup> آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص ٦٤.

<sup>٣</sup> ونقل مثل هذا الشيخ عبد الغني عبد الخالق في تعليقه على كتاب آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وقال: أنظر مختصر المؤمل ص ٥-٦، ومناقب الفخر ص ١٣٦، والتوالي ص ٤٨.

الجوار تقليدا لأبي حنيفة ثم باعها، ثم اشتراها فاستحق أحد مثله بشفعة الجوار فأراد أن يقلد الشافعي ليدفعها فإنه لا يجوز؛ لأن كلا من الإمامين لا يقول به حينئذ، وفيه نظر؛ لأنه مبني على امتناع التقليد بعد العمل وإلا صح جوازه، فما نقل عن الآمدي وابن الحاجب من منع التقليد بعد العمل محمول على ما إذا بقي من آثار الأول ما يلزم عليه مع الثاني تركب حقيقة واحدة مركبة لا يقول بها كل من الإمامين، السادس: أن لا يلفق بين قولين تتولد منهما حقيقة واحدة مركبة لا يقول كل من الإمامين بها كتقليد الشافعي في مسح بعض الرأس ومالك في طهارة الكلب في صلاة واحدة كما قاله الشيخ ابن حجر، وقال ابن زياد في فتاويه ناقلا عن البلقيني: إن التركيب القادح في التقليد إنما يوجد إذا كان في قضية واحدة كما إذا توضعاً فقلد أبا حنيفة في مس الفرج والشافعي في الفصد فصلاته حينئذ باطلة باتفاق الإمامين على بطلان طهارته (١) اهـ.

### فوائد مهمة

قال السيد علوي بن أحمد السقاف في (مجموعة سبعة كتب مفيدة): لا بأس بتقليد غير من التزم مذهبه في أفراد المسائل سواء كان تقليده لأحد الأئمة الأربعة أو لغيرهم ممن حُفِظَ مذهبه في تلك المسئلة ودُوِّنَ حتى عرفت شروطه وسائر معتبراته، ولو كان ذلك الغير منتسبا لأحد الأئمة الأربعة كأصحاب الشافعي وأبي حنيفة مثلاً، فإن أحدهم قد يختار قولاً يخالف نص إمامه فيجوز تقليده فيه بشروطه، ويجوز أيضاً تقليد المختارين كالنووي وابن المنذر والسيوطي في اختياراتهم؛ لأنهم بالنسبة لتلك المسئلة مجتهدون، ويجوز الانتقال من مذهب إلى مذهب من المذاهب المدونة ولو بمجرد التشهي سواء انتقل دواما أو في بعض الحادثة وإن أفتى أو حكم أو عمل بخلافه ما لم يلزم منه التلفيق، وكذا يجوز الأخذ والعمل لنفسه بالأقوال والطرق والوجوه الضعيفة إلا بمقابل الصحيح فإن الغالب فيه أنه فاسد، ويجوز الإفتاء به للغير بمعنى الإرشاد اهـ من الفوائد المدنية والتذكرة ونشر الأعلام (٢).

<sup>١</sup> حاشية النحات على شرح الورقات ص ١٧٨-١٧٩، وللهيتمي كلام نفيس في التقليد ذكره في بعض كتبه كالفتاوي الحديثية وغيره.

<sup>٢</sup> سبعة الكتب المفيدة ص ٨٩.

**فائدة أخرى:** قال المليباري في (فتح المعين): في فتاوي شيخنا يعني ابن حجر: من قلد إماما في مسألة لزمه أن يجري على قضية مذهبه في تلك المسئلة وجميع ما يتعلق بها، فيلزم من انحراف عن عين الكعبة وصلى إلى جهتها مقلدا لأبي حنيفة مثلاً أن يمسح في وضوئه من الرأس قدر الناصية وأن لا يسيل من بدنه بعد الوضوء دم وما أشبه ذلك، وإلا كانت صلاته باطلة باتفاق المذهبين فليتفطن لذلك انتهى. ووافقه العلامة عبد الله أبو مخرمة العدني وزاد فقال: قد صرح بهذا الشرط الذي ذكرناه غير واحد من المحققين من أهل الأصول والفقه: منهم ابن دقيق العيد والسبكي ونقله الإسنوي في التمهيد عن العراقي. قلت: بل نقله الرافعي في العزيز عن القاضي حسين انتهى. وقال شيخنا المحقق ابن زياد رحمه الله في فتاويه: إن الذي فهمناه من أمثلتهم أن التركيب القادح إنما يمتنع إذا كان في قضية واحدة فمن أمثلتهم: إذا توضأ ولمس تقليدا لأبي حنيفة وافتصد تقليدا للشافعي ثم صلى فصلاته باطلة لاتفاق الإمامين على بطلان ذلك، وكذلك إذا توضأ ومس بلا شهوة تقليدا للإمام مالك ولم يدلك تقليدا للشافعي ثم صلى فصلاته باطلة لاتفاق الإمامين على بطلان طهارته، بخلاف ما إذا كان التركيب من قضيتين فالذي يظهر أن ذلك غير قادح في التقليد كما إذا توضأ ومسح بعض رأسه ثم صلى إلى الجهة تقليدا لأبي حنيفة فالذي يظهر صحة صلاته لأن الإمامين لم يتفقا على بطلان طهارته فإن الخلاف فيها بحاله لا يقال: اتفقا على بطلان صلاته لأننا نقول: هذا الاتفاق نشأ من التركيب في قضيتين والذي فهمناه أنه غير قادح في التقليد اهـ .

**فائدة أخرى:** في (فتح المعين): في الخادم عن بعض المحتاطين الأولى لمن ابتلي بالوسواس الأخذ بالأخف والرخص لئلا يزداد فيخرج عن الشرع، ولضده الأخذ بالأثقل لئلا يخرج إلى الإباحة.

### فائدة أخرى في مراتب العلماء

قال السيد علوي في (سبعة كبت مفيدة): قال في (مطلب الإيقاظ): مراتب العلماء ست، الأولى: مجتهد مستقل كالأربعة وأضرابهم، الثانية: مطلق منتسب كالمرني، الثالثة: أصحاب الوجوه كالقفال وأبي حامد، والرابعة: مجتهد الفتوى كالرافعي والنووي، الخامسة: نظار في ترجيح ما اختلف فيه الشيخان كالاسنوي وأضرابه، السادسة: حملة فقه

ومراتبهم مختلفة، فالأعلون يلتحقون بأهل المرتبة الخامسة، وقد نصوا على أن المراتب الأربع الأول يجوز تقليدهم، وأما الأخيرتان فالإجماع الفعلي من زمنهم إلى الآن الأخذ بقولهم وترجيحاتهم في المنقول حسب المعروف في كتبهم، ذكره في مطلب الايقاظ. وفي حواشي المحلى للقلوبي: إن قدر المجتهد على الترجيح دون الاستنباط فهو مجتهد الفتوى، وإن قدر على الاستنباط من قواعد إمامه فهو مجتهد المذهب، أو على الاستنباط من الكتاب والسنة فهو المطلق (١) اهـ.

### تنبيه في بيان أن المجتهد المستقل قد عدم من دهر طويل

قال العلامة النَّزِيلِي في حاشيته على متن الإرشاد: المفتي المستقل قد عدم من دهر طويل، وصارت الفتوى إلى المنتسبين إلى أئمة المذاهب المتبوعة (٢) اهـ.

وقد ذكر الإمام النووي في مقدمة المجموع أن المفتي المستقل قد عدم من دهر طويل، وذكر الإمام الغزالي في كتابه الإحياء أن المجتهد الذي يفتي برأيه ولا يقلد غيره مفقود في أهل عصره، فإذا كان معدوماً في عصر الغزالي قرن الخامس الهجري فكيف يطمع بوجدانه بعده، فإن كل قرن متأخر أدنى من الذي قبله في العلم ودقة الفهم وقوة القرينة وجودة الحفظ وعدم النسيان وفي العمل الصالح وخشية الله وإجلاله وتعظيمه، فقد قال الزبير بن عدي: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقي من الحجاج، فقال: اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري (٣).

وقال الهيثمي في (التحفة): قال ابن دقيق العيد: لا يخلو العصر عن مجتهد إلا إذا تداعى الزمان وقربت الساعة، وأما قول الغزالي كالقفال: إن العصر خلا عن المجتهد المستقل فالظاهر أن المراد مجتهد قائم بالقضاء لرغبة العلماء عنه، وكيف يمكن القضاء على الأعصار بخلوها عنه، والقفال نفسه كان يقول لسائله في مسائل الصبرة: تسألني عن مذهب الشافعي أم عما عندي؟ وقال هو وآخرون منهم تلميذه القاضي حسين: لسنا مقلدين للشافعي، بل وافق رأينا رأيه، وقال ابن الرفعة: ولا يختلف اثنان أن ابن عبد

<sup>١</sup> سبعة كتب مفيدة، للسيد علوي بن أحمد السقاف ص ٣٩.

<sup>٢</sup> حاشية النفحات على الورقات ص ١٦٨.

<sup>٣</sup> رياض الصالحين، باب المبادرة إلى الخيرات.

السلام وتلميذه ابن دقيق العيد بلغا رتبة الاجتهاد، وقال ابن الصلاح: إمام الحرمين والغزالي والشيرازي من الأئمة المجتهدين في المذهب اهـ . ووافقه الشيخان فأقاما كالغزالي احتمالات الإمام وجوها، وخالف في ذلك ابن الرفعة فقال في موضع من المطلب: احتمالات الإمام لا تعد وجوها، وفي موضع آخر منه: الغزالي ليس من أصحاب الوجوه بل ولا إمامه. والذي يتجه أن هؤلاء وإن ثبت لهم الاجتهاد فالمراد به التأهل له مطلقا أو في بعض المسائل؛ إذ الأصح جواز تجزيه، أما حقيقته بالفعل في سائر الأبواب فلم يحفظ ذلك من قريب عصر الشافعي إلى الآن، كيف وهو متوقف على تأسيس قواعد أصولية وحديثية وغيرهما يخرج عليها استنباطاته وتفريعاته، وهذا التأسيس هو الذي أعجز الناس عن بلوغ حقيقة مرتبة الاجتهاد المطلق ولا يغني عنه بلوغ الدرجة الوسطى، فإن أدون أصحابنا ومن بعدهم بلغ ذلك ولم يحصل درجة الاجتهاد المذهبي فضلا عن الاجتهاد النسبي فضلا عن الاجتهاد المطلق اهـ كلام التحفة بالحرف.

وقد ادعى في هذا العصر من هو باسم الجهل أجدر من وصف العلم بما تهواه نفسه واستروحت إليه مهجته حتى تفوّه بأنه مجتهد مستقل يعمل بالكتاب والسنة وأنه كالشافعي وأبي حنيفة وأضرابهم، فما ذا نقول فيمن يدعي في القرن الخامس عشر الهجري أنه بلغ رتبة لم يبلغ بها أئمة التفسير والحديث والفقه وأصوله، ولا حاموا حول حماها، مثل الإمام ابن جرير الطبري وإمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة وأبي داود والنسائي من أصحاب السنن، والبيهقي، وإمام الحرمين وتلميذه الغزالي وابن عبد السلام وتلميذه ابن دقيق العيد والنووي والسبكي وابن حجر العسقلاني والخطيب البغدادي وأبي سليمان الخطابي وأضرابهم، وهؤلاء من أتباع الإمام الشافعي ومقلدي مذهبه، ولم يدّع واحد منهم أنه كالشافعي، بل كانت نفوسهم مطمئنة باتباعه مرتاحة بتمسك مذهبه، وكذلك أتباع أبي حنيفة مثل صاحبيه أبي يوسف ومحمد الحسن، وأتباع الإمام مالك مثل القرطبي والقاضي عياض وابن عبد البر وأمثالهم، وأتباع الإمام أحمد مثل ابن الجوزي وابن قدامة.

ولا يخفى على من له أدنى إلمام ومعرفة بالعلم وأهله أن بين هؤلاء الأكابر أتباع الأئمة المجتهدين وبين المتعسفين مجتهدي هذا العصر مراحل طويلة ومسافات بعيدة أبعد بكثير مما بين السماء والأرض، بل لا يحسن تفضيل هؤلاء الأجلة على أمثال هؤلاء الأذلة، فقد قيل:



إذا أنت فضلت امراً ذا نباهة على ناقص كان المديح من النقص  
 ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف خير من العصي  
 فيا عجباً ممن جهل عن البديهيّات الواضحات، ثم يدعي أنه بلغ من العلم مرتبة لم يبلغها  
 أولئك الأكابر والسادة الأفاضل، ويتخيل أنه أعظم منهم قدراً وأكثر علماً:  
 ومن قال إن الشهب أكبرها السُّها (١) بغير دليل كذبتة الدلائل  
 السُّها (١)

فما أعظم جسارة من يرى نفسه في زماننا هذا أنه يجتهد كما اجتهد الأئمة المجتهدون  
 السابقون، وأنه يرشد الناس ويعلمهم أمر دينهم بما يستنبطه ويفهمه من كتاب رب  
 العالمين وسنة سيد المرسلين، هيهات كيف يُعلّم من لم يتعلم، ومتى كان فاقده الشيء  
 يعطيه، فليعلم أنه وإن تشمخ بأنفه وتكبر وتعظم فلن يعدو قدره، ولن يبلغ الجبال طولاً،  
 ولا يحاكي نسجه نسج المبتدئين من طلبة العلم، فضلاً عن العلماء الراسخين.

جمع النسج كل من حاك لكن ليس داود فيه كالعنكبوت  
 فمثل هؤلاء في زهوهم وتعاضمهم وتعجبهم بأنفسهم كمثل الكركي يقوم على رجل  
 واحدة مخافة أن تنخسف به الأرض لو وطئها، وخوفاً على إبادة ما على الأرض من  
 النبات لو قام على رجليه لما يتخيل في نفسه من العظم والثقل والقوة، وفي (ظفر الأمان)  
 قال أبو الفتح البستي المتوفى سنة ٤٠٠:

قيل للكركي إذا قا م على الرجل الوحيد  
 لم لا تعتمد الرجلين في الأرض الوطيدة  
 قال اشفاقاً على النا بت فيها أن أُبيده (2)

<sup>١</sup> السُّها بضم السين وهو كما في لسان العرب: كُويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس  
 يمتحنون به أبصارهم، وفي المثل: أُرِيها السُّها وتُرِيني العمر اهـ.

<sup>٢</sup> والأبيات من مجزوء الرمل، وفي القاموس: الكركي بضم الكاف طائر، جمعه كراكي، دماغه ومرارته مخلوطان  
 بدهن زنبق سعوطا للكثير النسيان عجيب وربما لا ينسى شيئاً بعده، ومرارته بماء السُّلق سعوطاً ثلاثة أيام تبرى من  
 اللقوة ألبنة، ومرارته تنفع الجرب والبرص طلاء اهـ.

وقال الدميري في (حياة الحيوان الكبرى): إن الكركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه ويعلق الأخرى، وإن وضعها وضعها خفيفا مخافة أن تحسف به الأرض (١) اهـ. وفي (كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات) ما نصه: قال الجاحظ: لا يضع الكركي رجليه مخافة أن تحسف به الأرض، وإذا مشى على وجه الأرض يمشي رويدا خائفا.

قلت: ولا يخفى انقطاع الاجتهاد على من له أدنى اطلاع وخبرة بِسِيرِ مَنْ ذكرناهم من كبار أتباع أئمة المذاهب الأربعة وأحوالهم واستفراغ جهودهم المباركة في التحرير والتنقيح والذب عن حمى الشريعة المطهرة عن عبث العابثين وتحريف الملحدّين وكيد الحاسدين، ولا شك أن ما يزعمه دعاة الاجتهاد المطلق في هذا العصر باطل لا مستند له، ووهم عجيب وتخبّط غريب، ولو كان هذا الباب (باب الاجتهاد) مفتوحا بعد القرن الثالث الهجري لوجدنا في أكابر المحدثين والفقهاء والمفسرين مَنْ تَحَرَّرَ بالكلية عن التقليد، وسار على نهج المجتهدين من العمل بالكتاب والسنة استقلالاً، لا اتباعاً وتقليداً لغيرهم. ولما ادعى الاجتهاد النسبي خاتمة الحفاظ الجلال السيوطي الشافعي رحمه الله اعترض عليه أشد الاعتراض بعض الأكابر من علماء عصره، وثاروا عليه حتى قالوا فيه مالا يليق بمنصبه ومقامه، فإذا انتقدوه مع سعة اطلاعه وتَفَوُّقه على أكثر أهل عصره وتَبَحُّره في كثير من فنون العلم كما في حسن المحاضرة، الملقب بشيخ الحديث وبابن الكتب، الذي زادت تأليفه خمسمائة مُصَنَّف في مختلف الفنون من تفسير وعلومه، والحديث رواية ودراية، والفقه وقواعده، والفتاوي المتنوعة، والنحو والبلاغة وغيرها، فما ظنك بمن أتى بعد مضي نحو خمسمائة سنة من وفاته، فمن رام في هذا العصر رتبة لم ينلها الجلال السيوطي، فكأنه رام محالاً، وطمع في غير مطمع، فالله يهدينا ويهديه إلى سواء السبيل.

### الخلاصة

اعلم أن منكري التقليد وإن ادعوا الاجتهاد فهم في الحقيقة مقلدون تقليداً بحتاً؛ لأن التقليد هو الأخذ بقول الغير، وهم إنما أخذوا في رفض المذاهب بقول غيرهم: (لامذهب ولا تقليد)، وبقبولهم قَوْلَهُ هَذَا قَلْدُوهُ واتبعوه كما قلّد غيرهم أئمة المذاهب، فهم

<sup>١</sup> حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ٢٧٤.

لامذهبيون بلسان مقالهم، مذهبيون بلسان حالهم وحقيقة أمرهم، تركوا المذاهب التي اتفق عليها المسلمون، وتمذهبوا بآراء فلان وفلان وأفكارهم التي سوّلت لهم أنفسهم، وليست لهم معرفة في العلم أصولاً وفروعاً، فهم كمن فرّ من بلل المطر إلى مصبّ الميزاب، أو من حرّ الرمضاء إلى حريق النار، وهم أيضاً في سخافة رأيهم وقصور فهمهم كمن قال فيهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم: هؤلاء حمقى أبوا الاسم ورضوا بالمعنى.

### التعصب المذهبي

قال ابن السبكي في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم): من العلماء من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب، ويركب الصعب والذلّول في العصبية، وهذا من أسوأ أخلاقه، ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره، ويا ويح هؤلاء، أين هم من الله تعالى! ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى حين لشددا النكير على هذه الطائفة (١) اهـ.

وقال الشعراي: مما من الله علىّ عدم التعصب لمذهبي، فلم أتذكر أيّ قلت عن شيء من مذهب المخالف هذا ضعيف أبداً، وقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول: ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن أصحابه تخيرنا. وكذلك يقول: ما جاءنا عن الأئمة المجتهدين تخيرنا اتباع من شئنا منهم، ثم إذا تخيرناه لازمنا العمل بكلامه ولا نفارقه إلا بالمت خوفنا من وقوعنا في صورة التلاعب بالدين، وإنما كنا نسلم للمخالف لإمامنا لأنه مجتهد، وقد قرر الشارع وجوب العمل على المجتهد بما فهمه من السنة، فكذلك من ألزم نفسه باتباع مجتهد يلزمه العمل بقوله. وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل من أنكر على عالم بفهمه فكأنه يدعي أنه أعلم من ذلك العالم، ولو أنه كان يعتقد في نفسه أنه دونه في العلم لسلم له قوله، وحفظ من الوقوع في الإنكار عليه (٢).

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {الذين هم في صلاتهم خاشعون}: إن بعض العلماء اختار الإمامة، فقليل له في ذلك، فقال: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني

<sup>١</sup> معيد النعم ومبيد النقم ص ٧٤.

<sup>٢</sup> المنن الكبرى للشعراي ص ٦٠-٦٣.

الشافعي وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت الإمامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف اهـ .

### التثبت لدى الفتاوى

**تَثَبَّتْ لَدَى الْفَتَوَى وَلَا تَعْجَلْنَ فَذَا خَطِيرٌ وَزَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامُ أُمَّةٍ**

أي تثبت عند الفتوى ولا تعجل فيها، فإن التسرع في الفتاوى خطير، والتأني فيها حميد، وقد زلت أقدام كثير من الناس لما أفتوا بدون تحقيق وتثبت، فليحذر من ذلك من يخاف الحساب والسؤال أمام ربه جل جلاله، قال الله تبارك وتعالى: {ستكتب شهادتهم ويسئلون} وقال تعالى: {ليسئل الصادقين عن صدقهم} وقال تعالى: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}.<sup>١</sup>

وكان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم يود أن صاحبه كفاه الفتوى. وقال الشيخ سليمان بن عمر الشهير بالجميل في (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين) في تفسير قوله تعالى: {وكننا نخوض مع الخائضين} أي كنا نشرع في الباطل مع الخائضين، ومن هذا يحذر الذين يبادرون بالجواب في كل ما يسئلون عنه من أنواع العلم من غير تثبت اهـ .

وقال السيوطي في تفسير قوله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام}: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام} إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: عسى رجل أن يقول: إن الله أمر بكذا ونهى عن كذا، فيقول الله عز وجل له: كذبت، ويقول: إن الله حرم كذا وأحل كذا، فيقول الله عز وجل له: كذبت (١) اهـ.

وعقد الحافظ أبوبكر الخطيب البغدادي في تَثَبَّتْ المفتي بابا في كتابه (الفقيه والمتفقه) فقال: باب الزجر عن التسرع في الفتوى مخافة الزلل، وروى بسنده عن البراء قال: لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر، ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى.

<sup>١</sup> الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١، ج ٥ ص ١٥٣.

وروى الخطيب بطريق آخر عن البراء بن عازب قال: رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما فيهم رجل إلا وهو يحب الكفاية في الفتوى .

وقال إسحاق بن راهوية: قال ابن عيينة: أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيها، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيها .

وقال الشافعي: ما رأيت أحدا جمع الله فيه من آلة الفتيا ما جمع في ابن عيينة أسكت عن الفتيا منه.

وقال الشيخ أبوبكر الحافظ البغدادي: قلّ من حرص على الفتوى وثابر عليها إلا قلّ توفيقه واضطرب في أمره.

وقال أيضا: قال أبو الصلت: حدثني شيخ بقرب المدينة قال: والله إن كان مالك إذا سئل عن مسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وقال أيضا: ويحق للمفتي أن يكون كذلك، وقد جعله السائل الحجة له عند الله وقلده فيما قال، وصار إلى فتواه من غير مطالبة برهان ولا مباحثة عن دليل، بل سلم له وانقاد إليه، إن هذا لمقام خطر وطريق وعر. وقال بشر بن الحارث: من أحب أن يسئل فليس بأهل أن يسئل.

وعن عطاء بن السائب قال: أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسئل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد.

وقال سفيان بن عيينة: يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنبا واحدا. وقال ربيعة: قال لي ابن حلزة وكان نعم القاضي: يا ربيعة أراك تفني الناس فإذا جاءك رجل يسألك فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص فيما سألك عنه.

وفي رواية أخرى: فلا تكن همتك أن تُخلّصه، ولكن لتكن همتك أن تُخلّص نفسك (١). وروى الخطيب بسنده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: قال عبد الرحمن بن مهدي: سأل رجل من أهل المغرب مالك بن أنس عن مسألة فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله تقول: لا أدري، قال: نعم، فبلغ من وراءك أي لا أدري .

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه، باب الزجر عن التسرع في الفتوى مخافة الزلل ج ٢ ص ١٦٥-١٦٩.

وسئل الشعبي عن شيء فقال: لا أدري، فقليل له: أما تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراقيين، قال: لكن الملائكة لم تستحي حين قالت: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

وقال ابن المقفع: من أنف من قول لا أدري تكلف الكذب.

وقال بعض الأوئل: لقد حسنت عندي لا أدري حتى أردت قولها فيما أدري (١).

وقال بعض العلماء: ليس معي من العلم إلا أني أعلم أني لست أعلم (٢).

وفي الإحياء: سئل الشافعي عن مسألة فسكت، فقليل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أم في جوابي (٣).

وقال النووي في مقدمة المجموع: عن الهيثم بن جميل شهدت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في ثنتين وثلاثين منها لا أدري.

وعن مالك أيضا أنه ربما كان يسئل عن خمسين مسألة فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: من أجاب في مسألة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف خلاصه ثم يجيب، وسئل عن مسألة فقال: لا أدري، فقليل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب فقال: ليس في العلم شيء خفيف.

وقال أبو حنيفة: لو لا الفرق (٤) من الله تعالى أن يضيع العلم ما أفتيت، يكون لهم المهنة وعلى الوزر.

وعن ابن مسعود وابن عباس: من أفى عن كل ما يسئل فهو مجنون.

وعن ابن عباس ومحمد بن عجلان: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتلة. وعن سفيان بن عيينة وسحنون: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما (٥) اهـ.

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه في باب ما جاء في الاحجام عن الجواب إذا خفي عن المسؤل وجه الصواب ج ٢ ص ١٧٤.

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم وفضله في فصل الإنصاف في العلم، ج ١ ص ١٥٩.

<sup>٣</sup> إحياء علوم الدين في مبحث العلم المحمود والمذموم ج ١ ص ٤٢.

<sup>٤</sup> أي الخوف من الله تعالى، وفي لسان العرب: الفرق بالتحريك الخوف، وفرق منه بالكسر فرقا جزع، وفرق عليه فرع وأشفق. وفي حديث بدء الوحي: فجئت منه فرقا هو بالتحريك الخوف والجزع اهـ.

<sup>٥</sup> مقدمة المجموع باب آدب الفتوى والمفتي والمستفتي.

وذكر الزمخشري في (ربيع الأبرار) أن عليا كرم الله وجهه سئل عن شيء وهو على المنبر فقال: لا أدري، فقل: كيف تقول لا أدري وأنت طلت (١) فوق المنبر؟ فقال رضي الله عنه: إنما طَلَعْتُ بقدر علمي ولو طَلَعْتُ بمقدار جهلي لبلغت السماء (٢) .

وَهَذَا زَمَانٌ قَلَّ فِي أَهْلِهِ التَّقَى وَأَفْتَى أَنَاسٌ دُونَ عِلْمٍ وَخَبَرَةٍ (٣)

أي إننا في زمان قل فيه التقوى والخشية من الله، وأفتى فيه كثير من الناس الفتاوي بدون علم وخبرة وفشا هذا البلاء في البلاد والقرى، وانتشر في مجتمعات الناس ومجالسهم، فترى كثيرا من الجهال لا يخافون من ربهم ولا يستحيون من العلماء فيفتون ارتجالا بما خطر على بالهم وتشتهيه أنفسهم أو وسوست في قلوبهم الشياطين، فحللوا الحرام وحرموا الحلال، وانقلب الناس بافتراءاتهم المصنوعة، ومزاعمهم الباطلة، وبضاعاتهم الكاسدة، فضلوا وأضلوا، وسعوا في الأرض الفساد، وعمّ شرهم البلاد، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي مقدمة المجموع و(كنز العمال) عن أبي حصين قال: إن أحدهم ليفتي في المسئلة، ولو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر، رواه ابن عساكر (٤). وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: يوشك أن تظهر الشياطين مما أوثق سليمان يفقهون الناس .

وروى بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوشك أن يظهر فيكم شياطين كان سليمان أوثقها في البحر، يصلون في مساجدكم ويقرأون معكم القرآن وإنهم لشياطين في صور الإنس.

وروى الخطيب أيضا بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أفتى بغير علم لعنته الملائكة .

<sup>١</sup> وفي لسان العرب: طَلَعَ الجبل بالكسر وطلَّعُهُ طلوعاً رقيه وعلاه .

<sup>٢</sup> مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب العلم، ج ١ ص ٣١٤ .

<sup>٣</sup> في القاموس: الخيرة والخير بكسرهما ويضمان العلم بالشيء فعطفهما على العلم من عطف المترادفين.

<sup>٤</sup> كنز العلماء في سنن الأقوال والأفعال ج ١٠ ص ١٣٣ . رقم الحديث ٢٩٤٩٣، وروى النووي هذا الأثر عن الشعبي والحسن وأبي حصين بفتح الحاء التابعين اهـ مقدمة المجموع .

وروى بسنده أيضا عن ابن عباس أنه قال: من أفق الناس بفتيا يعمي عنها فإنما إثمها عليه (١).

ووصف الإمام الشافعي رحمه الله المفتي فقال: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه وبمحكمه ومتشابهه وتأويله وتنزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن، ويكون بصيرا باللغة بصيرا بالشعر وبما يحتاج إليه للعلم والقرآن، ويستعمل مع هذا الإنصاف وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل لأبيه: ما تقول في الرجل يسئل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم بالفتيا؟ قال: ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عارفا بالسنن، عالما بوجوه القرآن، عالما بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في السنن، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها (٢).

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن الحسن بن إسماعيل قال: قيل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل وأنا أسمع: يا أبا عبد الله كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي، يكفيه مائة ألف حديث؟ قال: لا، قيل: مائتا ألف، قال: لا، قيل: ثلاثمائة ألف، قال: لا، قيل: أربع مائة ألف، قال: لا، قيل: خمسمائة ألف، قال: أرجو (٣).

وفي جامع بيان العلم وفضله: قال الإمام مالك بن أنس أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن عبد الرحمن فوجده يبكي وارتاع لبكائه، فقال له: ما يبكيك أمصيبة دخلت عليك؟

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه، ج ٢ ص ١٥٥.

<sup>٢</sup> الفقيه والمتفقه، ج ٢ ص ١٥٧.

<sup>٣</sup> الفقيه والمتفقه، ج ٢ ص ١٦٣.



فقال: لا، ولكن أُسْتُفْتِي مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ، وَظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ رِبِيعَةُ: وَلِبَعْضٍ مِنْ يَفِي هَهْنَا أَحَقُّ بِالسَّجْنِ مِنَ السَّرَاقِ (١) .

وَقَالَ مُحِبِّي السَّنَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَسْعُودِ الْبَغْوِيِّ فِي (مَقْدَمَةِ التَّهْذِيبِ): يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ وَرَعًا مَجْتَنِبًا عَنِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ، مُحْتَزًّا عَنِ الْحَرَامِ وَالْمَعَاصِي، فَإِنْ اسْتَمَاعَ إِلَى الْمُبْتَدِعِ حَرَامٍ، وَلَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِفَتْوَى الْفَاسِقِ وَإِنْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي الْعِلْمِ، فَإِذَا سَلَكَ الْعَالِمُ هَذَا الطَّرِيقَ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ نَافِعًا لَهُ وَلَمْ يَأْخُذْ عَنْهُ أَحَدٌ .

وَقَالَ الْخَلِيلُ: الرِّجَالُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي، فَهُوَ عَالِمٌ فَاتَّبِعُوهُ، وَرَجُلٌ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي، فَهُوَ نَائِمٌ فَأَيِّقُظُوهُ، وَرَجُلٌ لَا يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي، فَهُوَ مُسْتَرَشِدٌ فَأَرْشُدُوهُ، وَرَجُلٌ لَا يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي فَهُوَ شَيْطَانٌ فَاجْتَنِبُوهُ. وَقَالَ الْبَاجُورِيُّ فِي (تَحْفَةِ الْمُرِيدِ عَلَى جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ): الْجَهْلُ إِمَّا بَسِيطٌ وَإِمَّا مُرَكَّبٌ، فَالْأَوَّلُ: عَدَمُ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ عَمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْعِلْمِ، وَالثَّانِي: إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا سَمِيَ مُرَكَّبًا لِاسْتِزَامِهِ جَهْلَيْنِ، جَهْلُهُ بِالشَّيْءِ وَجَهْلُهُ بِأَنَّهُ جَاهِلٌ، وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

جَهِلْتُ وَمَا تَدْرِي بِأَنَّكَ جَاهِلٌ وَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

وَقَدْ قِيلَ قَبْلُ إِنَّ زَلَّةَ عَالِمٍ كَزَلَّةٍ مَنْ فِي الْكَوْنِ فَاحْذَرُ بِرَهْبَةٍ

أَيُّ قَدْ قِيلَ قَدِيمًا إِنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ بِكُسْرِ اللَّامِ كَزَلَّةِ الْعَالِمِ بِفَتْحِهَا، فَلْيَحْذَرِ الْمَفْتِي عَنْ الْإِفْتَاءِ بِمَا لَمْ يَحْقُقْ أَنَّهُ الصَّوَابُ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: احْذَرُوا زَلَّةَ الْعَالِمِ، فَإِنْ زَلَّتْهُ تَكْبِكُهُ فِي النَّارِ، رَوَاهُ الدِّيلَمِيُّ فِي مَسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَرَمَزَ لَهُ السِّيُوطِيُّ بِالضَّعْفِ كَمَا فِي الْفَيْضِ الْقَدِيرِ لِلْمَنَاوِيِّ وَالسَّرَاجِ الْمُنِيرِ لِلْعَزِيزِيِّ.

وَرَوَى الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي (الْفَقِيهِ وَالْمُتَّفَقِ) بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: قِيلَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ: يَا رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فِتْنَةً؟ قَالَ: زَلَّةُ الْعَالِمِ، إِذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بَزَلَّتْهُ عَالَمٌ كَثِيرٌ.

وَرَوَى بِسَنَدِهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَعْتَزِ قَالَ: زَلَّةُ الْعَالِمِ كَانْكَسَارِ السَّفِينَةِ، تَغْرَقُ وَيَغْرَقُ مَعَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ.

<sup>١</sup> جامع بيان العلم لا بن عبد البر، في باب إنكار أهل العلم ما يجدونه من الأهواء والبدع، ج ٢ ص ٢٤٦ .

وروى أيضا بسنده عن عبد الله بن عباس قال: ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذاك؟ قال: يقول العالمُ برأيه فيبلغه الشيء عن النبي عليه الصلاة والسلام خلافه فيرجع ويمضي الأتباع بما سمعوا .

وعن أبي يوسف قال: كان أبو حنيفة إذا عمل القول من أبواب الفقه راضه سنة لا يخرج به إلى أحد من أصحابه فإذا كان بعد سنة وأحكمه خرج إلى أصحابه.

وعن سفيان قال: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بدا من أن يفتوا .

وقال سفيان أيضا: أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادون المسائل، يكرهون أن يجيبوا فيها، فإذا أعفوا منها كان ذلك أحب إليهم. وقال أبو بكر الأثرم: قال: سمعت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- يقول: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم إلا أنه قد تجيء الضرورة.

وروى الخطيب بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى أيضا: لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحد منهم يحدث حديثا إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يسأل عن فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا.

وعن أبي حصين : قال: سألت إبراهيم عن شيء فقال: أما وجدت أحدا تسأله غيري. وعن عمير بن سعيد قال: سألت علقمة عن مسألة فقال: إئت عبيدة فسله، فأتيت عبيدة فقال: إئت علقمة فقلت: علقمة أرسلني إليك، فقال: ائت مسروقا فسله، فأتيت مسروقا، فقال: ائت علقمة فسله، فقلت: علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني إليك، قال: فأتيت عبد الرحمن بن أبي ليلى، فأتيت عبد الرحمن بن أبي ليلى فسألته فكرهه، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته قال: كان يقال: أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علما .

وروى الخطيب بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشد ما أتخوف على أمتي ثلاثة، زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم، فاتّهموها

على أنفسكم، قال أبو غسان: قال لي ابن أبي شيبة: لو رحل رجل في هذا الحديث إلى خراسان كان قليلاً (١).

وروى ابن عبد البر بسنده عن زياد بن جدير قال: قال عمر: ثلاث يهدمن الدين زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلّون. وقال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن (٢).

### حكم التساهل في الفتوى وعدم التثبت فيها

قال الإمام النووي رحمه الله في (مقدمة المجموع): يحرم التساهل في الفتوى، ومن عرف به حرم استفتاؤه، فمن التساهل أن لا يتثبت ويسرع بالفتوى قبل استيفاء حقها من النظر والفكر، فإن تقدمت معرفته بالمسؤول عنه فلا بأس بالمبادرة، وعلى هذا يحمل ما نقل عن الماضين من مبادرة، ومن التساهل أن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحرمة أو المكروهة والتمسك بالشبه طلباً للترخيص لمن يروم نفعه أو التغليظ على من يريد ضرره، وأما من صح قصده فاحتسب في طلب حيلة لا شبهة فيها لتخليص من ورطة يمين ونحوها فذلك حسن جميل، وعليه يحمل ما جاء عن بعض السلف من نحو هذا، كقول سفيان: إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة .

وقال أيضاً: لا يجوز أن يفتي في الأيمان والإقرار ونحوهما مما يتعلق بالألفاظ إلا أن يكون من أهل بلد اللفظ أو مُتَنَزِّلًا مِنْزَلَتَهُمْ في الخبرة بمرادهم من ألفاظهم وعرفهم فيها. وقال أيضاً: لا يجوز لمفت على مذهب الشافعي إذا اعتمد النقل أن يكتفي بمصنّف أو مصنّفين ونحوهما من كتب المتقدمين و أكثر المتأخرين لكثرة الاختلاف بينهم في الجزم والترحيح؛ لأن هذا المفتي المذكور إنما ينقل مذهب الشافعي ولا يحصل له وثوق بأن ما في المصنفين المذكورين ونحوهما هو مذهب الشافعي أو الراجح منه لما فيها من الاختلاف، وهذا مما لا يتشكك فيه من له أدنى أنس بالمذهب، بل قد يجزم نحو عشرة من المصنّفين بشيء وهو شاذ بالنسبة إلى الراجح في المذهب ومخالف لما عليه الجمهور، وربما خالف نص الشافعي أو نصوصاً له (٣) اهـ .

<sup>١</sup> الفقيه والمتفقه ج ٢ ص ١٤:

<sup>٢</sup> جامع بيان العلم وفضله، في باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع .

<sup>٣</sup> مقدمة المجموع، فصل في أحكام المفتين - فيه مسائل.

وقال ابن عبد البر في (جامع بيان العلم): قال ابن الماحشون: كانوا يقولون: لا يكون فقيها في الفقه من لم يكن إماما في القرآن والآثار، ولا يكون إماما في الآثار من لم يكن إماما في الفقه، وسئل ابن المبارك: متى يسع الرجل أن يفتي؟ قال: إذا كان عالما بالآثر بصيرا بالرأي (١).

### خاتمة في مسائل مهمة ذكرها النووي في مقدمة المجموع

الأولى: قال رحمه الله تعالى: الإفتاء فرض كفاية، فإذا استفتى وليس في الناحية غيره تعين عليه الجواب، فإن كان فيها غيره وحضرا فالجواب في حقهما فرض كفاية، وإن لم يحضر غيره فوجهان أصحهما لا يتعين، والثاني يتعين وهما كالوجهين في مثله في الشهادة، ولو سأل عامي عما لم يقع لم يجب جوابه.

الثانية: اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل؛ لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية لكنه معرض للخطأ.

الثالثة: قال أبو عمرو (يعني ابن الصلاح): المفتون قسمان، مستقل وغيره، فأما المفتي الذي يستقل فقد عدم من دهر طويل وصارت الفتوى إلى المنتسبين إلى أئمة المذاهب المتبوعة، وحكى بعض أصحاب الأصول ممّا أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل اهـ.

الرابعة: لا يجوز لمن كانت فتواه نقلا لمذهب إمام إذا اعتمد الكتب أن يعتمد إلا على كتاب موثوق بصحته وبأنه مذهب ذلك الإمام، فإن وثق بأن أصل التصنيف بهذه الصفة لكن لم تكن هذه النسخة معتمدة فليستظهر بنسخ منه متفقة، وقد تحصل له الثقة من نسخة غير موثوق بها في بعض المسائل إذا رأى الكلام منتظما وهو خبير فطن لا يخفى عليه لدُرَيْتِهِ (٢) موضع الإسقاط والتغيير، فإن لم يجده إلا في نسخة غير موثوق بها فقال أبو عمرو (يعني ابن الصلاح): إن لم يكن أهلا لتخريج مثله ليس له أن يفتي به وله أن

<sup>١</sup> جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ٥٨ في باب من يستحق أن يسمى فقيها أو عالما حقيقة لا مجازا ومن يجوز له الفتيا عند العلماء.

<sup>٢</sup> وفي لسان العرب: الدارب الحاذق بصناعته، وفيه أيضا الدربة التجربة، ودربته الشدائد حتى قوي ومَرِنَ عليها، وفيه أيضا وفي القاموس المدرب المحرب وكل ما في معناه مما جاء على بناء مُفْعَلْ فالكسر والفتح فيه جائز في عينه، كالجرب ونحوه إلا المدرب اهـ أي فإنه بالفتح فقط وهذه قاعدة مطردة اهـ شارح.

يذكره لا على سبيل الفتوى مفصحا بحاله، فيقول: وجدته في نسخة من الكتاب الفلاني ونحوه انتهى بحذف.

الخامسة: قال الصيمري: إذا رأى المفتي المصلحة أن يفتي العامي بما فيه تغليظ وهو مما لا يعتقد ظاهره وله فيه تأويل جاز ذلك زجرا له كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن توبة القاتل فقال: لا توبة له، وسأله آخر فقال: له توبة، ثم قال: أما الأول فرأيت في عينه إرادة القتل فمنعته، وأما الثاني فجاء مستكينا قد قتل فلم أقنطه، قال الصيمري: وكذا إن سأله رجل فقال: إن قتلت عبدي هل عليّ قصاص فواسع أن يقول: إن قتلت عبدك قتلناك، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قتل عبده قتلناه؛ ولأن القتل له معان، قال: ولو سئل عن سب الصحابي هل يوجب القتل فواسع أن يقول: روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من سب أصحابي فاقتلوه، فيفعل كل هذا زجرا للامة، ومن قلّ دينه ومروءته.

السادسة: قال الخطيب: ينبغي للإمام أن يتصفح أحوال المفتين فمن صلح للفتيا أقره، ومن لا يصلح منعه ونهاه أن يعود وتواعده بالعقوبة إن عاد. وطريق الإمام إلى معرفة من يصلح للفتوى أن يسأل علماء وقته ويعتمد أخبار الموثوق بهم، ثم روى الخطيب بإسناده عن مالك رحمه الله قال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أُنِي أهل لذلك. وفي رواية: ما أفتيت حتى سألت من هو أعلم مني هل يراني موضعا لذلك. قال مالك: ولا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه (١) اهـ.

<sup>١</sup> مقدمة المجموع فصل في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي ص ٤١-٥٠.

### غض الأبصار عن المحرمات

وَعُضُّوا عَنِ الْعَوْرَاتِ أَبْصَارَكُمْ فَمَنْ يَكُنْ نَاطِرًا فِيهَا يَخْضُ بَحْرَ فِتْنَةٍ  
وَيَقْسُو بِذَلِكَ قُلُوبَكُمْ وَيَغْـ تَلِيهَا سَوَادٌ ثُمَّ رَيْنٌ بِظُلْمَةٍ

أي غضوا أبصاركم عن نظر العورات، والعورة هي كل ما حرّم الله النظر إليه من الرجال والنساء، قال الله تعالى: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون} وقال تعالى: {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن}، فمن لم يمتثل بأمر ربه ونظر إلى العورات وقع في بحر فتنة، ويقسو قلبه ويغطيه سواد الذنب والرین، فيكون مظلما لا تدخله أنوار العلم وأنواع الخيرات، وقد ذكرنا حديث إذا عمل الرجل الذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ثم يعمل الذنب بعد ذلك فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم كذلك حتى يسود عليه .. الحديث. وأجاد القائل:

ليس الشديد الذي يحمي مطيته يوم النزال ونار الحرب تشتعل  
لكن فتى غض طرفا أو ثنى بصرا عن الحرام فذاك الفارس البطل ( ١ )  
وروى ابن الجوزي بسنده عن إبراهيم بن المهلب السائح قال: رأيت بين الثعلبية والخزيمية غلاما قائما يصلي، قد انقطع عن الناس، فانتظرت حتى قطع صلاته ثم قلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى، قلت: وأين هو؟ قال: أمامي ومعني وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي، فعلمت أن عنده معرفة، فقلت: أما معك زاد؟ قال: بلى، قلت: فأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل، والتوحيد له، والإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم، وإيمان صادق، وتوكل واثق، قلت: هل لك في مرافقتي؟ قال: الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين، قلت: أما تستوحش في هذه البرية وحدك؟ فقال: إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة، حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ولا استوحشت منها، قلت: فمن أين تاكل؟ فقال: الذي غذاني في ظلم الأرحام صغيرا قد تكفل برزقي كبيرا، قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟ قال: إذا رأيتني فلا تكلمني، ولا تعلم أحدا أنك تعرفني، قلت: لك ذاك، فهل حاجة غيرها؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟

قال: إن استطعت أن لا تنساني في دعائك عند الشدائد إذا نزلت بك فافعل، قلت: كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت أفضل مني خوفاً وتوكلًا؟ قال: لا تقل هذا، إنك قد صليت لله عز وجل قبلي، ولك حق الإسلام ومعرفة الإيمان، قلت: فإن لي أيضاً حاجة، قال: وما هي؟ قلت: ادع الله لي، فقال: حَجَبَ اللهُ طرفك عن كل معصية، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه، حتى لا يكون لك همٌ إلا هو، قلت: يا حبيبي متى ألقاك وأين أطلبك؟ فقال: أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بـلقائي فيها، وأما الآخرة فإنها مجمع المتقين، فإياك أن تخالف الله فيما أمرك وندبك إليه، فإن كنت تبغي لقائي فاطلبي مع الناظرين إلى الله عز وجل في زمرة هم، قلت: وكيف علمت ذلك؟ قال: بغضٍ طرفي له عن كل محرم، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه، ثم صاح وأقبل يسعى، حتى غاب عن بصري (١) .

وَأَيَّاكَ نَظَرَ الْأَجْنَبِيَّاتِ إِنَّهُ كَلَسَعَ الْأَفَاعِي<sup>(٢)</sup> أَوْ كَطَعَنَ الْأَسْنَةَ<sup>(٣)</sup>  
الأسنة<sup>(٤)</sup>

أي احذر عن نظر الأجنبات، فإنه كلسع الأفاعي أو كطعن الأسنة، ففي البيت التخصيص بعد التعميم، فإن النظر إليهن داخل فيما ذكرناه من عموم العورات، وإنما خُصَّ نظر الأجنبات لمزيد الابتلاء به، قال صلى الله عليه وسلم: ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء (٤).

وروى ابن الجوزي بسنده عن ابن عباس قال في قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ}: قال: الرجل يكون في القوم فتمرّ بهم المرأة، فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا إليه غض بصره، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه أنه يودّ أنه نظر إلى عورتها .

<sup>١</sup> ذم الهوى ص ١٥٨-١٥٩.

<sup>٢</sup> الأفاعي: جمع الأفعى وهي حية من شرار الحيات، رقصاء، دقيقة العنق، عريضة الرأس، قاتلة السم. اهـ المعجم الوسيط.

<sup>٣</sup> الأسنة: جمع سنان وهو نصل الرمح. اهـ المعجم الوسيط

<sup>٤</sup> قال السيوطي في الجامع الصغير: روى حديث ما تركت بعدي فتنة .. الحديث .. أحمد في مسنده والبحاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أسامة .

وقال سليمان لابنه: يا بني امش وراء الأسد والأسود (١)، ولا تمش وراء امرأة .

وقال الحسن: من أطلق طرفه طال أسفه (٢).

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟، قال: نعم، وذلك في حجة الوداع.

ورواه ابن الجوزي بسنده عن الفضل بن عباس قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم من جمع (٣) إلى مني، فبينما هو يسير إذ عرض له أعرابي مُرْدِفُ ابنة له جميلة، وكان يسايره، قال: فكنت أنظر إليها، فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلَّب وجهي عن وجهها، ثم أعدت النظر، فقلَّب وجهي عن وجهها، حتى فعل ذلك ثلاثا (٤).

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَشَلُّشِلُ (٥) دما فقال له: ما لك؟ قال: يا رسول الله مرت بي امرأة فنظرت إليها، فلم أزل أتبعها بصري، فاستقبلني جدار فضربني، فصنع بي ما ترى، فقال: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا.

وعن عمرو بن مرة قال: نظرت إلى امرأة فأعجبني، فكف بصري فأرجوا أن يكون ذلك جزائي .

وقال أبو عمرو بن عُلوّان يقول: خرجت يوما إلى سوق الرحبة في حاجة، فرأيت جنازة فتبعنها لأصلي عليها، ووقفت في جملة الناس حتى يدفن الميت، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمد، فلححت بالنظر واسترجعت واستغفرت الله وعدت إلى منزلي، فقالت لي عجوز: يا سيدي ما لي أرى وجهك أسود؟ فأخذت المرأة فنظرت فإذا وجهي

<sup>١</sup> الأسود الحية العظيمة.

<sup>٢</sup> ذم الهوى ص ١١٥-١١٦.

<sup>٣</sup> أي -مزدلفة.

<sup>٤</sup> ذم الهوى ص ١٠٧، وهذا الحديث بلفظه في مسند الإمام أحمد، رقم الحديث ١٨١٠.

<sup>٥</sup> أي يتقاطر دمه، وفي القاموس: ماء شَلْشَلٍ ومُتَشَلِّشِلٍ متتابع القطر.



أسود، فرجعت إلى سري أنظر من أين دُهِيت، فتذكرت النظرة، فانفردت في موضع أستغفر الله وأسأله الإقالة أربعين يوماً، فخطر في قلبي أن زُرَّ شيخك الجنيد، فانحدرت إلى بغداد، فلما جئت الحجرة التي هو فيها طرقت الباب، فقال لي: ادخل يا أبا عمرو، تذنب بالرحبة وتستغفر ربك ببغداد ! (١).

وعن سعيد بن المسيب قال: ما يؤس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قِبَلِ النساء . وقال سفيان الثوري: يقال: قال إبليس: سهمي الذي إذا رميت به لم أُخْطِئُ النساء (٢). وفي (الحلية) أن سفيان الثوري سئل عن قوله تعالى {وخلق الإنسان ضعيفا} ما ضعفه؟ قال: المرأة تُمُرُّ بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا هو ينتفع بها، فأى شيء أضعف من هذا؟ (٣).

وقال السيوطي في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) في تفسير قوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا}: أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاووس: {وخلق الإنسان ضعيفا}: قال: في أمر النساء ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء، قال وكيع: يذهب عقله عندهن.

وأخرج الخرائطي عن طاووس في قوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر.

وفي (مجمع الزوائد) عن خوات بن جبير قال: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران قال: فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني، فرجعت فاستخرجت عييتي فاستخرجت منها حلة فلبستها، وجئت فجلست معهن، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أبا عبد الله)، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هبته واختلطت، قلت: يا رسول الله جمل لي شرد وأنا أبتغي له قيدا، فمضى واتبعته فألقى إلى رداءه ودخل الأراك كأني أنظر إلى بياض مته في خضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ، وأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره، فقال: أبا عبد الله ما فعل شراد جملك؟ ثم ارتحلنا

<sup>١</sup> ذم الهوى ص ١٤٤-١٤٦.

<sup>٢</sup> ذم الهوى ص ١٧٩-١٨٠.

<sup>٣</sup> حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، ج ٧ ص ٦٨.

فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد ذلك الجمل؟ فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة، واجتنب المسجد ومجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد، فخرجت إلى المسجد وقمت أصلي، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض حجره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين وطولت رجاء أن يذهب ويدعني، فقال: طول أبا عبد الله ما شئت أن تطول، فلست قائما حتى تنصرف، فقلت في نفسي والله لأعتذرني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبرأ من صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انصرفت قال: السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد جملك، فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال: رحمك الله ثلاثا، ثم لم يعد لشيء مما كان، رواه الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد وهو ثقة (١) .

وفي المدايعي: رب نظرة قادت للقلب ألف حسرة.

وقال بعضهم:

كل الحوادث مبداها من النظر      ومعظم النار من مستوكد ( ٢ ) الشر  
والمرء ما دام ذا عين يقلبها      في أعين الغيد موقوف على الخطر  
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها      فعل السهام بلا قوس ولا وتر  
يسر مقلته ما ضر مهجته      لا مرحبا بسرور جاء بالضرر ( ٣ )

وفي (المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية) أن بعض العرب عشق امرأة وأنفق عليها أموالا كثيرة، حتى مكنته من نفسها، فلما جلس بين شُعبها وأراد الفعل ألهمه الله التوفيق ففكر، ثم أراد القيام عنها فقالت له ما شأنك؟ فقال: من يبيع جنة عرضها السموات والأرض بقدر فِترٍ (٤) لقليل الخبرة بالمساحة ثم تركها وذهب.

والأحاديث الواردة في فضائل غض الأبصار وفي وعيد نظر الأجنبية كثيرة منها: ما ذكره الهيثمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر) قال: روى أحمد: ما من مسلم ينظر

<sup>١</sup> مجمع الزوائد في كتاب المناقب ج٩ ص٤٩٥.

<sup>٢</sup> هذا ما رأيته في المدايعي، والذي في غيره: من مستصغر الشرر .

<sup>٣</sup> المدايعي حاشية فتح المبين شرح الأربعين النووية ص١٢٠.

<sup>٤</sup> وفي المصباح المنير ومختار الصحاح: الفتر بالكسر بوزن الفِطر ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة.

إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه، قال البيهقي: إنما أراد إن صح والله أعلم أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعا.

وروى الأصبهاني: كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في سبيل الله، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله .

وروى الطبراني: ثلاثة لا ترى أعينهم النار، عين حرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله.

وصح عند الحاكم واعترض بأن فيه انقطاعا: اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم.

وروى الطبراني: لتُغْضَنَ أبصاركم ولتُحْفَظَنَ فروجكم أو ليكشفن الله وجوهكم. وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ، والقلب يهوي ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

وفي رواية صحيحة: العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني. وروى الترمذي وقال: حسن غريب: يا علي إن لك كنزا في الجنة وإنك ذو قرنيها- أي مالك طرفيها السالك في جميع نواحيها تشبيها بذي القرنين، فإنه قيل: إنما سمي بذلك لقطعه الأرض وبلوغه قرني الشمس شرقا وغربا- فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة.

وروى الطبراني والحاكم وصححه واعترض بأن فيه واهيا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني عن ربه عز وجل: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه.

وروى مسلم وغيره عن جرير: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال: اصرف بصرك.

وصح (١): ما من صباح إلا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال (٢).

واعلم أن مس الأجنبية بشهوة أو غيرها حرام كالنظر إليها، بل هو أشد منه، فإن المسّ أبلغ في اللذة وأشد في إثارة الشهوة وأدعى إلى الزنا، وفي (الترغيب والترهيب) روي عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له، رواه الطبراني والبيهقي، ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح.

المخيط بكسر الميم، وفتح الياء: هو ما يخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهم. وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياك والخلوّة بالنساء، والذي نفس محمد بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين، أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له. حديث غريب، رواه الطبراني.

الحمأة بفتح الحاء المهملة وسكون الميم بعدها همزة وتاء تأنيث: هو الطين الأسود المنتن وفي (الدر المنثور) في تفسير {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم}: أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن العلاء بن زياد قال: كان يقال: لا تتبعن بصرك حسن رداء امرأة فإن النظر يجعل شبقا (٣) في القلب اهـ

<sup>١</sup> روى حديث ما من صباح إلا وملكان إلخ.. ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد كما في الترغيب والترهيب.

<sup>٢</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ٢ ص ٢-٣.

<sup>٣</sup> الشبق شدة الغلظة كما في المختار، وفي المصباح: شَبِقَ الرجل: هاج به شهوة النكاح، وبابه تعب .

## احترام ذي الشبهة المسلم وحامل القرآن وأهل العلم وغيرهم

وَإِكْرَامُ ذِي الشُّبْهَةِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا يَكُونُ بِهِ أَجْرٌ وَإِمْدَادُ رَحْمَةٍ

أي إن في إكرام ذي الشبهة المسلم أجرا وزيادة رحمة من الله تعالى، واعلم أن الصغير الذي يحترم الشيوخ الأكابر ويعرف لهم فضلهم ويؤدي لهم حقوقهم من الإكرام والتوقير يُقَيِّضُ الله له من يعامله عند كبره بمثل معاملته معهم، ومن لم يحترمهم ولم يستحي منهم فسوف يُجْزَى عند الشيخوخة بمثل وصفه، قال تعالى: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} وقال صلى الله عليه وسلم: كما تدين تدان (١). وأجاد القائل حيث قال:

إذا أنت لم تعرف لذي السن فضله عليك فلا تنكر عقوق الأصاغر (٢)

وروى الترمذي عن أنس مرفوعا حديث: ما أكرم شاب شيخا إلا قَيِّضَ الله له من يكرمه عند كبر سنه . وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن بيان .

وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، رواه الحميدي والترمذي وابن حبان في صحيحه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا (٣)، رواه الترمذي وأبو داود إلا أنه قال: ويعرف ويعرف حق كبيرنا.

<sup>١</sup> هذا بعض حديث، وكماله: البر لا ييلي، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعلم ما شئت كما تدين تدان. قال في الجامع الصغير: رواه عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلا.

<sup>٢</sup> البيت في جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٢٣٩.

<sup>٣</sup> قال المناوي في فيض القدير: قال الحافظ العراقي: ويؤخذ من قوله: شرف كبيرنا أنه إنما يستحق الكبير الإكرام إذا كان له شرف بعلم أو صلاح، ونَسَبُ زكي كالشرف. ويحتمل أن التعمير في الإسلام شرف لقوله صلى الله عليه وسلم: خير الناس من طال عمره وحسن عمله، نعم إن كان شيخا سيئ العمل فلا يستحق الإكرام لقوله في بقية الحديث: وشر الناس من طال عمره وساء عمله، لكن جاء في حديث: ما من شاب أكرم شيخا لسنه إلا قَيِّضَ الله له من يكرمه عند سنه، وظاهر هذا الحديث أنه يكرم الكبير لسنه بغير قيد. انتهى بتصرف.

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: البركة مع أكابركم، رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا، رواه أحمد بإسناد حسن والطبراني والحاكم إلا أنه قال: ليس منا (١) اهـ.

وفي صحيح مسلم أن عبد الله بن سهل ومُحَيِّصَةَ خرجا إلى خير من جهد أصابهم، فأتى محيصة، فأخبر أن عبد الله بن سهل قد قتل وطرح في عين أو فقير (٢)، فأتى يهود فقال: أنتم والله قتلتموه، قالوا: والله ما قتلناه، ثم أقبل حتى قدم على قومه فذكر لهم ذلك، ثم أقبل هو وأخوه حُوَيْصَةَ وهو أكبر منه وعبد الرحمن بن سهل، فذهب محيصة ليتكلم وهو الذي كان بخير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحيصة: كَبِّرْ كَبِّرْ، "يريد السن" (٣) فتكلم حويصة ثم تكلم محيصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إما أن يدوا صاحبكم وإما أن يُؤذِنُوا بحرب، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في ذلك، فكتبوا إنا والله ما قتلناه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحويصة ومحبيصة وعبد الرحمن: أتلحفون وتستحقون دم صاحبكم؟ قالوا: لا، قال: فتلحف لكم يهود، قالوا: ليسوا بمسلمين، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ناقة حتى أدخلت عليهم الدار، فقال سهل: فقد ركضتني منها ناقة حمراء (٤).

قال النووي في شرح مسلم: وفي هذا فضيلة السن عند التساوي في الفضائل، ولهذا نظائر فإنه يقدم بها في الإمامة وفي ولاية النكاح ندبا وغير ذلك اهـ.

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> الفقير هنا: البئر القريب القعر الواسعة الفم، وقيل: هو الحفيرة التي تكون حول النخل اهـ شرح مسلم للنوي.

<sup>٣</sup> قوله: يريد السن يعني كبيرهما لسنهما، أي ليتكلم أكبر منك، وفي رواية لمسلم: ليبدل الأكبر.

<sup>٤</sup> شرح صحيح مسلم، كتاب القسامة، ج ١١ ص ١٥١-١٥٢.

وفي (مجمع الزوائد) عن أبي أمية الجمحي أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال: من أشراطها ثلاث: إحداهن التماس العلم عند الأصاغر، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

وعن ابن مسعود: لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا، رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون (١) اهـ.

### وَحَامِلُ قُرْآنٍ كَهَذَا وَذَا إِذَا يُرَى غَيْرَ غَالٍ فِيهِ فَاسْمَعْ نَصِيحَتِي

أي إن حامل القرآن الشريف يكرم كما يكرم ذو الشبهة المسلم، لكن هذا إذا كان عاملا به غير غال فيه، روي عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط، رواه أبو داود (٢).

وسئل ابن حجر الهيتمي عن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: " وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه " فأجاب رحمه الله بقوله: المراد بالغالي فيه المتجاوز لما فيه من الحدود والأحكام الاعتقادية والعملية والآداب والأخلاق الظاهرة والباطنة وغير ذلك من سائر الكمالات التي حث القرآن عليها، فمن حفظ ألفاظه وتجاوز شيئا من هذه المذكورات كان غير مستحق للإكرام والتعظيم بحسب ما ارتكبه، بمعنى أنه يؤاخذ ويُذم عليه من حيث ارتكابه لذلك، وإن كان يستحق الإكرام والتعظيم من جهات أُخرى، لكونه مسلما أو حافظا للقرآن أو نحو ذلك، فليس المراد نفي التعظيم له مطلقا، بل بالاعتبار الذي ذكرته فتأمل.

والمراد بالجافي عنه من لا يخضع لما فيه من الآيات الباهرة والأدلة المتكاثرة، ولا يتأمل ما اشتمل عليه نظمه من بدائع المعاني وإحكام المباني، بل يمر به بلسانه مع قساوة قلبه وجفاوة لبه فهو كحمار الرحى وثور الحراثة والاستقاء، ولسنا متعبدين بمجرد حفظه،

<sup>١</sup> مجمع الزوائد، في باب أخذ كل علم من أهله من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم من كتاب العلم.

وإنما المقصود الأعظم بإنزاله والتَّعَبُّدِ بحفظه أَلْفَاظُهُ<sup>(١)</sup> هو هداية القلوب ورجوعها بالاستكانة والخضوع إلى علام الغيوب، وتنزهها عن كل خُلُقٍ ذميم، فمن ظفر بذلك مع حفظه فقد ظفر بالكُنْزِ الأعظم، ومن ظفر بالأول فقط فهو آخذ من الكمال بما يستحق بسببه أن يكرم ويعظم، ومن قنع بحفظ الألفاظ وخلا عن تلك المعاني بأن غلا أو تجافى فهو بعيد عن الكمال، غير مستحق أن يبلغ به مبالغ الكمل من الرجال، فهذا والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم هو المراد من هذا الحديث، ويؤيد ما ذكرته حديث أحمد وأبي يعلى والطبراني والبيهقي: اقرأوا القرآن واعملوا به، ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به<sup>(٢)</sup> اهـ.

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر ثم يقول: أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد، رواه البخاري<sup>(٣)</sup>.

وقال الغزالي في الإحياء قال سفيان الثوري: إذا قرأ الرجل القرآن قَبْلَ الملك بين عينيه. ومن احترام حامل القرآن القيام له على سبيل الاحترام والإكرام، لا للرياء والإعظام، كما يؤخذ مما ذكره الإمام النووي في كتابه (التيبان في آداب حملة القرآن) <sup>(٤)</sup> .

<sup>١</sup> كذا في الأصل، والظاهر: أن الصواب بحفظ ألفاظه، والله أعلم.

<sup>٢</sup> الفتاوي الحديثية لا بن حجر الهيتمي، مطلب المراد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن من إجلال الله إلخ.

<sup>٣</sup> الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهن وعدم المبالاة بهن من كتاب العلم.

<sup>٤</sup> عبارته في التبيان: إذا ورد على القارئ مَنْ فيه فضيلة من علم أو شرف أو سِنَّ مع صيانة أو له حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والإكرام لا للرياء والإعظام، بل ذلك مستحب، وقد ثبت القيام للإكرام من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه رضي الله عنهم بحضرته وبأمره، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين، وقد جمعت جزءاً في القيام وذكرت فيه الأحاديث الواردة باستحبابه وبالنهي عنه، وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح، والجواب عما يتوهم منه النهي وليس فيه نهْي، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى، فمن تشكك في شيء من أحاديثه فليطالعه يجد ما يزول به شكه إن شاء الله تعالى. التبيان في آداب حملة القرآن، فصل حكم القيام.



وَفِي حُبِّ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالتَّقَى وَخِدْمَتِهِمْ خَيْرٌ وَإِجْزَالُ نِعْمَةٍ

أي في حب هؤلاء الثلاثة وخدمتهم خير ونعمة جزيلة، فقد قيل: خدمة أهل الله تعظيم شعائر الله، وقال الله تعالى: {ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب} وقال تعالى: {ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه} .

وروى الخطيب عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: إنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل، ورواه ابن عساكر عن عائشة، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بالحسن.

قال المناوي في (فيض القدير): إنما يُعرف فضل العلم بالعلم، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى معرفته جهلوا فضله واسترذلوا أهله، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتنيات أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها، قال ابن المعتز: العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالماً؛ ولذلك انصرف الجهال عن العلم وأهله، فإن من جهل شيئاً عاداه، والناقص لعجزه عن بلوغ فضلهم يريد ردهم إلى درجة نقصه لعزته بنفسه اهـ.

فيتأكد على طالب العلم وغيره المحبة والاحترام بالصالحين من العلماء وجميع أهل الفضل والتقوى، قال ابن حجر الهيتمي: قال شاه بن شجاع الكرمانى: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله عز وجل (١) اهـ.

#### تنبيه في النهي عن إيذاء الفقهاء والمتفقيين وانتقاصهم

لقد ذكرنا هنا محبة الصالحين وخدمتهم، وذكرنا في مقدمة الكتاب فضائل العلماء وطلبة العلم المخلصين العاملين به، ونذكر في أواخره كلمات قليلة في التحذير والنهي عن إيذائهم وانتقاصهم. وقد عقد النووي في مقدمة المجموع فصلاً في الحث على إكرام الفقهاء والمتفقيين وتعظيم حرمتهم وفي النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص بهم. فمما قال فيه: روى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما قالاً: إن لم تكن الفقهاء أولياء لله فليس لله ولي، وفي كلام الشافعي: الفقهاء العاملون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من آذى فقيها فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله عز وجل. وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله عز وجل قال: من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وقال تعالى: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا}.

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله تعالى: اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}. وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا أخاف على أمي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم من الدنيا فيتحاسدوا، وأن يفتح لهم الكتاب يأخذ المؤمن يتغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب، وأن يروا ذا علم فيضيعونه ولا يبالون عليه، رواه الطبراني في الكبير (١) اهـ.

### إِذَا مَا أَتَى كَرِيمٌ قَوْمٍ إِلَيْكُمُ فَخُصُّوهُ بِالْإِكْرَامِ مَعَ حُسْنِ خِدْمَةٍ

أي إذا أتاكم يا طلبة العلم كريم قوم وزعيمهم فأكرموه، وخصوه من بين سائر الناس بالاحترام وحسن المعاملة والخدمة، تأليفا له ولأتباعه، فإنه إن صلح واستقام تبعه غالبا على ذلك أتباعه وأصحابه، وقد يكون بعد ذلك عوننا على نشر الدين وتطبيقه ودرء المفسد وردّ المظالم وإصلاح الأحوال العامة في رعيته وبلاده، فاللطف خير من العنف، وكثيرا ما يقبل الإنسان بالرفق واللطف ما لا يقبله باللوم والزجر، فقد قال الله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} قال القرطبي في تفسير هذه الآية: أمر تعالى نبيه أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي

<sup>١</sup> الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم من كتاب العلم.

أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة اهـ وفي حاشية الفتوحات الإلهية: في تفسير قوله تعالى والموعظة الحسنة: والمراد بالموعظة الحسنة مواعظه أو القول الرقيق الذي فيه رفق ولين اهـ وقال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام لما أرسلهما إلى فرعون: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} وروى مسلم عن عائشة وأبوداود في سننه عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تبارك وتعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف.

وعن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا عائشة ارفقي فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. وعن جرير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يحرم الرفق يحرم الخير كله (١) اهـ.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: مهلا يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في. وفي رواية عنها في هذا الحديث قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد قلت: وعليكم اهـ.

والإكرام يحمل على ذي المروءة العاقل الإقبال والأنس والثقة بمن أكرمه، وكريم القوم إن لم يكن أهلا للإكرام والاحترام باعتبار ذاته فإنه يكون أهلا لذلك باعتبار منصبه وأتباعه، فمن أكرمه فكأنما أكرم أتباعه، فالرجاء أن يكرم هو وأتباعه من أكرمهم ويقبلوا منه ما لم يقبلوه لو لا هذا الإكرام، فإن طبع الزعماء والرؤساء محبوب على حب التشريف والإكرام والتوقير، وعلى الأنفة وكراهية اللوم والتشديد وغلظ القول.

وقال أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني في (لطائف المنن): قد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام كان ينفر من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرة لله تبارك وتعالى، فأوحى الله إليه

<sup>١</sup> ذكره أبو داود في كتاب الأدب باب في الرفق .

تبارك وتعالى: يا داود المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج أنفت نفسك من مجالسته وتقويم عوجه، فلمَ أذا أرسلت. فتنبه داود عليه السلام لأمر كان عنه غافلا، وامثل أمر الله تبارك وتعالى، وصار يجالس عصاة بني إسرائيل ويحسن إليهم ويتخولهم بالموعظة الحسنة بشفقة ورحمة، فانقادوا له كلهم إلا من حقت عليه كلمة العذاب (١) اهـ .

واعلم أن من دأب بعض طلبة العلم ازدراء الجهال والعوام وإن كانوا زعماء قومهم وعرفاء قبائلهم ورؤساء بلادهم، وذلك لما يرون فيهم من الجهل والتخبط وقلة المبالاة والمعرفة بدينهم ومن تمسكهم بعادات وتقاليد قديمة ورثوها من أسلافهم، وكثير منها غير مشروع، ومع ذلك يترفعون على طلبة العلم ومن شاكلهم؛ لأنهم يرون أنفسهم أنهم الأمراء والقادة، وغيرهم الأتباع والرعية، فينبغي لطلاب العلم أن يتفكروا وينظروا عواقب الأمور والمآل، ويعلموا أن الازدراء لا يفيد لهم شيئا بل يضرهم غالبا، والصواب الحمد هو أن يصبروا على أذيتهم واحتقارهم، وينصحوا لهم سرا بالتلطف واللين والمدارة، فقد قال الله تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} وقال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه (٢).

وقال أيضا:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبي النصيحة في الجماعة  
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه  
وإن خالفتني وعصيت أمري فلا تجزع إذا لم تعط طاعه  
ويكون ذلك لأجل الله تعالى وقبول الحق والنصيحة لهم، لا للطمع بما في أيديهم والتصنع والمداينة، وقد ذكرت الفرق بين المدارة والمداينة وحكمهما نقلا عن ابن حجر الهيتمي، وأن يجتزعا عما يهيج الفتنة والعداوة، وقد أجاد القائل:  
ولم أر في الخطوب أشد وقعا وأصعب من معادة الرجال

<sup>١</sup> لطائف المنن للشعراني ص ٢٥٨ .

<sup>٢</sup> شرح مسلم للإمام النووي، في باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ومثله في حلية الأولياء لأبي نعيم، لكنه قال: وخانه بدل "شانه" .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم زعماء القبائل ورؤساءهم، فقد شَرَّفَ أبا سفيان بن حرب يوم فتح مكة بقوله عليه الصلاة والسلام: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وقال عليه الصلاة والسلام لقوم سعد بن معاذ رضي الله عنه: قوموا إلى سيدكم، وكان سعد رئيس قبيلة الأوس من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال): روي عن هند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُكرِّم كريم كل قوم، ويوليه عليهم (١).

وفي (الجامع الصغير) أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا، رواه ابن ماجه عن ابن عمر، والبخاري وابن خزيمة والطبراني وابن عدي والبيهقي عن جرير، والبخاري عن أبي هريرة، وابن عدي عن معاذ وأبي قتادة، والحاكم عن جابر، والطبراني عن ابن عباس، وعن عبد الله بن ضميرة، وابن عساكر عن أنس، وعن عدي بن حاتم الدولابي في الكنى، وابن عساكر عن أبي راشد عبد الرحمن بن عبد بلفظ: شريف قومه، ورمز له السيوطي بالصحة.

وروى مسلم والبخاري واللفظ له عن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة متى عهدتني فاحشاً، إنَّ شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره.

قال الحافظ في الفتح: قوله: تطلق بفتح الطاء المهملة وتشديد اللام أي أبدى طلاقاً وجهه. وفي رواية ابن عامر: بَشَّ في وجهه، قال الخطابي: جمع هذا الحديث علماً وأدباً اهـ. وقال الحافظ: قال ابن بطلال: إن هذا الرجل هو عيينة بن حصن الفزاري، وكان يقال له: الأحق المطاع. ورجا النبي صلى الله عليه وسلم تألفه لئسلم قومه؛ لأنه كان رئيسهم اهـ.

<sup>١</sup> كنز العمال، ج ٧ ص ٦٣، وهو في ضمن حديث طويل .

وليس هذا الانبساط والبشاشة وطلاقة الوجه لكون هذا الرجل أهلاً لذلك لذاته، قال النووي في شرح مسلم: قال القاضي: هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ وإن كان قد أظهر الإسلام، وإنما لأن له القول تألفاً له ولأمثاله على الإسلام اهـ — فعلى طلبة العلم أن يهتدوا بهديه صلى الله عليه وسلم ويقتدوا به في تكريمه وتشريفه للزعماء والرؤساء وفي مداراته مع من يُتَّقَى فحشُّه ويُخشى ضرُّه أو يُرجى رشده وقبوله للحق وإذعانه له.

وَوَقَّرَ وَعَظَّمَ هَؤُلَاءِ جَمِيعَهُمْ وَقَابَلَهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ بَبَشْرَةٍ (١)

يعني وقَّرَ وعَظَّمَ هَؤُلَاءِ المذكورين من ذي الشبهة المسلم ومن بعده، وقَابَلَهُمْ بطلاقة الوجه والبَشْرَةِ (٢) عند اللقاء بهم. نسأل الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا برحمته الواسعة عند لقائه، لقائه، ويغفر لنا زلاتنا وهفواتنا بفضله وكرمه .

<sup>١</sup> قوله: "بَشْرَةٍ" بوزن فعلة بكسر الفاء مصدر هيئة، أي قابلهم عند اللقاء بهيئة السرور وطلاقة الوجه والتبسم.

<sup>٢</sup> البشر بكسر الباء طلاقة الوجه، فعطفها على ما قبلها عطف تفسير، وفي لسان العرب: بَشَرَنِي فلانٌ بوجه حسنٍ أي لقيني وهو حسنُ البشرِ بالكسر أي طلقُ الوجه.

## تكملة في نبذ من آداب العالم

لما ذكرت جملا كثيرة من آداب طالب العلم أحببت أن ألحق ذلك أحرفا يسيرة وكلمات قليلة من آداب العالم؛ ليكون الكتاب شاملا بجمل من آداب طالب العلم ونبذة من آداب العالم؛ ولأن الطالب كما يحتاج إلى آداب التعلم كذلك يحتاج إلى آداب التعليم إذا ارتقى إلى درجة العلماء وصار معلما مرشدا .

واعلم أن الطالب تابع والعالم متبوع، وكما يلزم على التابع السمع والطاعة والانقياد كذلك على المتبوع حسن القيادة والشفقة والرحمة واللين وبذل الجهد في إصلاح اعوجاج الطالب، والصفح عن زلاته، وتربيته بالفعل والقول، والمبالغة في نصحه، والصبر على ذلك، قال الله تعالى: {واخفض جناحك لمن ابتعثك من المؤمنين} وقال تعالى: {ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم}.

وقد ذكرنا حديث لينوا لمن تعلمون، وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: علموا ويسروا ولا تعسروا، رواه أحمد بتمامه في الأدب، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

وعن أبي أمامة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم تكلم ثلاثا لكي يفهم عنه، رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.

وعن أم الدرداء قالت: كان أبو الدرداء لا يحدث حديثا إلا تبسم فيه، فقلت له: إني أخشى أن يحملك الناس، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحدث بحديث إلا تبسم فيه، رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه حبيب بن عمرو، قال الدارقطني: مجهول.

وعن أبي أمامة أن فتى من قريش أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم وزجروه، فقالوا: مه مه، فقال: أذنه، فدنا منه قريبا، فقال: أتجبه لأمك، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتجبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتجبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتجبه لخالتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك،

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء، رواه أحمد، والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح (١).

**قلت:** فانظر إلى هذه الحكمة البالغة، في حسن السياسة والتعليم، والإرشاد والتفهم، وإلى هذا الرفق واللفظ والشفقة وحسن المعاملة مع هذا الفتى الذي غلب عليه ثوران الشهوة حتى تفوه أمام سيد البشر صلى الله عليه وسلم وفي جمع من أصحابه الكرام بما يستحي منه صاحب المروءة، ففي هذا الهدي النبوي تعليم وإرشاد للمدرسين والمعلمين، وفيه تدريب ورياضة نفوسهم على إصلاح اعوجاج المتعلمين وتحمل سوء أخلاقهم، فهذا هو الوصف المطلوب من المرشد الناصح والمعلم الماهر.

وفي (معيد النعم ومبيد النقم): حق على المدرس أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهمه للناظرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه، ويخوض بهم عبايه الزاخر (٢).

وفيه: حكى عن عمرو بن العلاء أن طالبا قصده ليقراً عليه، فصادفه بكلاء (٣) البصرة، وهو مع العامة يتكلم بكلامهم، لا يُفرّق بينه وبينهم، فنقص من عينه، ثم لما نجز (٤) شغل أبي عمرو مما هو فيه تبعه الرجل إلى أن دخل الجامع، فأخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان، فعظم في عينه، وعلم أنه كلم كلّ طائفة بما يناسبها من الألفاظ، وهذا هو الصواب؛ فإن كل أحد يُكَلِّم على قدر فهمه، ومن اجتنب اللحن وارتكب العالي من اللغة والغريب منها وتكلم بذلك مع كل أحد عن قصد فهو ناقص العقل (٥).

<sup>١</sup> مجمع الزوائد في باب آداب العالم من كتاب العلم.

<sup>٢</sup> معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٥.

<sup>٣</sup> الكلاء ككتان مرفأ السفن وموضع بالبصرة. القاموس.

<sup>٤</sup> في القاموس: نجز كفرح ونصر: انقضى وفني، ونجز الكلام انقطع.

<sup>٥</sup> معيد النعم ومبيد النقم ص ٩١.



وعن صفوان بن عسال المرادي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضها حتى يبلغوا إلى السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب.

وقال النووي في مقدمة المجموع: يستحب للمعلم أن يرفق بالطالب ويحسن إليه ما أمكنه، فقد روى الترمذي بإسناده عن أبي هارون العبدى قال: كنا نأتي أباسعيد الخدرى رضي الله عنه، فيقول: مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا (١).

ففي هذين الحديثين ترحيب طالب العلم، فينبغي للعالم أن يرحبه تنشيطا وتشجيعا له على طلب العلم.

وفي مقدمة (المجموع): ينبغي أن لا يمتنع المعلم من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فإنه يرجى له حسن النية، وربما عسر في كثير من المبتدئين بالاشتغال تصحيح النية لضعف نفوسهم وقلة أنسهم. بموجبات تصحيح النية، والامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى ببركة العلم تصحيحها إذا أنس بالعلم، وقد قالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا الله، ومعناه كانت عاقبته أن صار لله (٢) اهـ.

وفي جامع بيان العلم: أن الخليل بن أحمد قال لجاهل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك

لكن جهلت مقالي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك (٣)

وفي جامع بيان العلم: قالوا: من تمام آلة العالم أن يكون مهيبا وقورا بطيء الالتفات قليل الإشارة، لا يصخب ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو (٤).

<sup>١</sup> مقدمة المجموع باب أقسام العلم الشرعي.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ٧٢.

<sup>٣</sup> جامع بيان العلم وفضله، ج ١ ص ١٧٤-١٧٥.

<sup>٤</sup> جامع بيان العلم ج ١ ص ١٧٧.

### ومن صفاته ترك الجدال والمراء

عن مسلم بن يسار أنه كان يقول: إياكم والمراء فإنّها ساعة جهل العالم وبها يتغى الشيطان زلته.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتا في الجنة. وعن الحسن قال: ما رأينا فقيها يماري .

وعن الحسن أيضا: المؤمن يداري ولا يماري، ينشر رحمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله.

وروي عن معاذ بن جبل أنه قال: إذا أحببت أخا فلا تماره ولا تشاره (١) ولا تمازحه. قال المصنف: وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفريق بعد الألفة، والوحشة بعد الأُنس.

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، فالمؤمن العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء (٢).

وقال بعضهم: الواجب على العالم أن لا يناظر جاهلا ولا لجوجا، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر (٣).

### ومن صفاته رقة القلب

قال عبد الأعلى التيمي: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتي علما ينفعه؛ لأن الله عز وجل نعت العلماء وقرأ: {قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا}

فانظر كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم!! (٤).

<sup>١</sup> أي لا تجار أخاك - أي لا تجر معه في المناظرة والجدال. وشاره: قال العلقمي من الشر أي لا تفعل الشر تحوجه أن يفعل بك مثله، ولا تماره: أي لا تخالفه أو لا تجادله ولا تغالبه فإن ذلك يورث غلا ووحشة بل استعمل معه الرفق والحلم اهـ العزيري شرح الجامع الصغير.

<sup>٢</sup> أخلاق العلماء .

<sup>٣</sup> نظم اللؤلؤ ص ١٧٧.

<sup>٤</sup> أخلاق العلماء ص ٥٥-٦١.

### ومن صفاته التقوى وكثرة الطاعة والعبادة

فإن ذلك يزيد بركة درسه وإرشاده للناس وقبول نصحه ووعظه، قال ابن عطاء الله في الحكم: كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز. وقد سمعت بعض مشايخنا يقول: إن خرجت الكلمة من قلب مستنير تدخل في قلب سامعها بنور. لهذا ترى بعضهم يتكلم بقليل من الموعظة فتتأثر بها النفوس وتخضع بها القلوب وتذرف بها العيون، وبعضهم يلقي خطبا بليغة ومواعظ عجيبة لا تتعظ بها النفوس ولا تتأثر بها، أو يقرأ دروسا تلتذ بمثلها المسامع لكنها لا تثبت في القلوب، بل تمر بها كالريح، وما سبب ذلك وهذا إلا ما في القلوب من الأنوار وخشية الله تعالى وضد ذلك، فيعلم المدرس والمرشد والواعظ أن الانتفاع بعلمه ووعظه على قدر تقواه وحسن أدبه مع ربه، وإنما يتقبل الله من المتقين.

### ومن آدابه رعاية المناسبة في نشر العلم وتوجيه الدعوة

اعلم أنه ينبغي رعاية المناسبات واستعمال الحكمة في تعليم العلم ونشر الدين وتبليغه للأمة والفتوى والوعظ وجميع أنواع الدعوة إلى الله تعالى، فقد تقتضي الحكمة في بعض الأحوال كتمان بعض العلوم لما يترتب على إظهارها من المفسدة العظيمة، وذلك يختلف باختلاف الأزمان والأماكن وأحوال الناس، فلا بد من رعاية ما تقتضيه المصلحة في ذلك، قال الله سبحانه وتعالى: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} وقال تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} ولا يخفى أن الموعظة لا تكون حسنة إذا أدت إلى الفتنة.

وقال الهيثمي في (الزواجر): إن كتم العلم قد يجب، والإظهار قد يجب وقد يندب، ففيما لا يحتمله عقل الطالب ويخشى عليه من إعلامه به فتنة يجب الكتم عنه، وفي غيره إن وقع وهو فرض عين أو في حكمه وجب الإعلام وإلا ندب ما لم يكن وسيلة لمحذور، والحاصل أن التعليم وسيلة إلى العلم، فيجب في الواجب عينا في العين وكفاية فيما هو على الكفاية، ويندب في المندوب كالعروض، ويحرم في الحرام كالسحر والشعبذة، قال بعض المفسرين: لا يجوز تعليم الكافر قرآنا ولا علما حتى يُسلم، ولا تعليم المبتدع الجدل والحجاج ليحاج به إلى الحق، ولا تعليم الخصم على خصمه حجة يقتطع بها ماله، ولا السلطان تأويلا

يتطرق به إلى إضرار الرعية، ولا نشر الرخص في السفهاء يتخذونها طريقا لارتكاب المحظورات، وترك الواجبات، قال صلى الله عليه وسلم: لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها، وقال صلى الله عليه وسلم: لا تُعَلِّقُوا الدُّرَّ في أعناق الخنازير، يريد تعليم الفقه من ليس من أهله اهـ. وما ذكره من الأحكام على الكافر بعيد من قواعدنا؛ لأن المرجو إسلامه يجوز تعليمه القرآن عندنا فأولى العلم، والحديثان اللذان ذكرهما واردان، وروى ابن ماجه وغيره: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ والذهب (١) اهـ.

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأما أحدهما فَبَثَّتُهُ، وأما الآخر فلو بَثَّتُهُ قُطِعَ هذا البُلْعوم. وقال الحافظ العسقلاني في الفتح: حمل العلماء الوعاء الذي لم يثبه على الأحاديث التي فيها تبين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمانهم، وقد كان أبو هريرة يكتفي عن بعضهم ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لأنها كانت سنة ستين من الهجرة (٢).

وقال الطيبي في شرحه على المشكاة في شرحه لهذا الحديث: قوله: وعائين شَبَّهَ نوعي العلم بالظرفين لاحتواء كل منهما ما لم يحتويه الآخر، ولعل المراد بالأول علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار، المختص بالعلماء بالله من أهل العرفان، وأنشد الشيخ أبو حامد الغزالي لزين العابدين في المنهاج:

يا رب جوهر علم لو أبوح به      لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا  
ولا استحل رجال مسلمون دمي      يرون أقبح ما يأتونه حسنا  
إني لأكتم من علمي جواهره      كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا  
وقد تقدم في هذا أبو حسن      إلى الحسين وأوصى قبله الحسن

وقال بعض العارفين: العلم المكنون والسر المصون علم هذه الطائفة، وهو نتيجة الخدمة وثمره الحكمة، لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات، ولا يسعد به إلا المصطفون

<sup>١</sup> الزواجر عن اقتراف الكبائر ج ١ ص ٨٥ - ٨٦. وذكرنا حديث ابن ماجه في باب فضل العلم.

<sup>٢</sup> فتح الباري في كتاب العلم في باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُرَ فَهْمُ بعض الناس عنه فيقعوا في أشد

بأنوار المشاهدات، إذ هو أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة، وأهل الغرة بالله لها منكرون، وعنهم مدبرون.

وقال شيخنا شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي قدس الله سره: قد اندرس كثير من دقيق علومهم.

وقال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه. وروى الشيخ أبو طالب المكي عنه أنه قال: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني وانقطع، ولكنه من حق بدا وإلى حق يعود (١) اهـ .

وروى الإمام البخاري في صحيحه أيضا عن الأسود (٢) قال: قال لي ابن الزبير (٣): كانت عائشة تُسرُّ إليك كثيرا فما حدثتك بالكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لو لا قومك حديثٌ عهدُهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضتُ الكعبة، فجعلت لها بايين باب يدخل الناس وباب يخرجون، ففعله ابن الزبير. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: يستفاد من هذا الحديث ترك المصلحة لأمن الوقوع (٤) في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولا ما لم يكن محرما.

وقال البدر العيني في (عمدة القاري شرح البخاري): قال ابن بطلال: فيه أنه قد يترك يسير من الأمر بالمعروف إذا خشى منه أن يكون سببا لفتنة قوم ينكرونه، وفيه أن النفوس تحب أن تساس كلها لما تأنس إليه في دين الله من غير الفرائض، وقال النووي: فيه أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدأ بالأهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام مصلحة ولكن يعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبا، لما كانوا يرون تغييرها

<sup>١</sup> شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكشاف عن حقائق السنن للإمام العلامة المحدث شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ج ٢ ص ٧١٥، وقد ذكرنا كلام الإمام الطيبي في مبحث أنواع العلم.

<sup>٢</sup> هو ابن يزيد النخعي. فتح الباري .

<sup>٣</sup> يعني عبد الله الصحابي المشهور. فتح الباري .

<sup>٤</sup> يعني ترك المصلحة لأجل أن يؤمن من الوقوع في المفسدة .

عظيما، فتركها النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه فكر ولي الأمر في مصالح رعيته واجتناب ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية (١) اهـ.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

قال الحافظ في الفتح: والمراد بقوله: بما يعرفون أي يفهمون، وزاد آدم بن أبي إياس في آخره: ودعوا ما ينكرون، أي يشتبه عليهم فهمه، وفي هذا الحديث دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثا قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، رواه مسلم، وممن كره التحديث ببعض دون بعض الإمام أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، والإمام مالك في أحاديث الصفات، و أبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وأن المراد ما يقع من الفتن، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين بأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. قال الحافظ: وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب (٢) اهـ.

وفي (المقاصد الحسنة) للحافظ السخاوي: روى عن ابن عباس رفعه: لا تحدثوا أمّتي من أحاديثي إلا ما تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم، فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلى أهل العلم.

وروى الديلمي في مسنده عن ابن عباس رفعه: يا ابن عباس لا تحدث قوما حديثا لا تحتمله عقولهم.

وروى أبو الشيخ عن ابن مسعود مرفوعا: خالط الناس بما يشتهون، ودينك فلا تكلّنه، ونحوه عن علي رفعه: خالط الفاجر مخالقة، وخالص المؤمن مخالصة، ودينك لا تسلمه لأحد (٣) اهـ .

<sup>١</sup> عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠٤ .

<sup>٢</sup> فتح الباري بشرح البخاري في باب من خص بالعلم قوما دون قوم من كتاب العلم ج ١ ص ٢٢٤-٢٢٥

<sup>٣</sup> المقاصد الحسنة ص ١٠٣ .

وقال السيوطي: لقد بلغني عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه سئل عن مسألة وكان بالاسكندرية، فقال: لا أجيب هذه المسئلة في هذه البلدة. وما ذاك إلا لدقة الجواب عن أفهام كثير من الناس (١).

ومن العلوم التي لا تُذكرُ إلا عند أهلها دقائق علم الكلام، فقد منع العلماء رحمهم الله تشويش العوام وتشكيكهم بما لا تحمله عقولهم من علم الكلام، وعدّ ذلك ابن حجر الهيثمي من الكبائر، فقال رحمه الله في كتابه: (الزواجر عن اقتراف الكبائر): ومن الكبائر حمل العوام ومن لم يمارس العلوم على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم، وهذا مضلة لهم، لأنهم يتشككون به في أصول الدين، بل ربما تخيلوا في الله تعالى ما هو متعال عنه فيصير به كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور، لغلبة حمقه وقلة عقله، وأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في نفسه، وأثبتهم عقلا أشدهم اتهامًا لنفسه وظنه، وأحرصهم على السؤال من العلماء العاملين والأئمة المهتدين اهـ. وألف الإمام الغزالي رحمه الله تعالى كتابا سماه: (إلجام العوام عن علم الكلام).

وفي مقدمة المجموع: قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله: ليس للشيخ إذا استفتي في شيء من المسائل الكلامية أن يفتي بالتفصيل، بل يمنع مستفتيه وسائر العامة من الخوض في ذلك أو في شيء منه وإن قلّ، ويأمرهم بأن يقتصروا فيها على الإيمان جملة من غير تفصيل، ويقولوا فيها وفي كل ما ورد من آيات الصفات وأخبارها المتشابهة: إن الثابت فيها في نفس الأمر ما هو اللائق فيها بجلال الله تبارك وتعالى وكماله وتقديسه المطلق، فيقول: هذا معتقدنا فيها وليس علينا تفصيله وتعيينه، وليس البحث عنه من شأننا، بل نكل علم تفصيله إلى الله تبارك وتعالى، ونصرف عن الخوض فيه قلوبنا وألسنتنا، فهذا ونحوه هو الصواب من أئمة الفتوى في ذلك، وهو سبيل سلف الأمة وأئمة المذاهب المعتمدة وأكابر العلماء والصالحين، وهو أصون وأسلم للعامة وأشباههم، ومن كان منهم اعتقد اعتقادا باطلا تفصيلا ففي هذا صرف له عن ذلك الاعتقاد الباطل بما هو أهون وأيسر وأسلم.

وإذا عزر ولي الأمر من حاد منهم عن هذه الطريقة فقد تأسى بعمر بن الخطاب في تعزيز صبيغ<sup>(١)</sup> بفتح الصاد المهملة الذي كان يسئل عن المتشابهات على ذلك. قال: والمتكلمون من أصحابنا معترفون بصحة هذه الطريقة وبأنها أسلم، وكان الغزالي منهم في آخر أمره شديد المبالغة في الدعاء إليها والبرهنة عليها، وذكر شيخه إمام الحرمين في كتابه (الغياثي) أن الإمام يحرض ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف في ذلك، واستُفتي الغزالي في كلام الله تبارك وتعالى فكان من جوابه: وأما الخوض في أن كلامه تعالى حرف وصوت أو ليس كذلك فهو بدعة، وكل من يدعو العوام إلى الخوض في هذا فليس من أئمة الدين، وإنما هو من المضلين، ومثاله: من يدعو الصبيان الذين لا يحسنون السباحة إلى خوض البحر، ومن يدعو الزمن المقعد إلى السفر في البراري من غير مركوب. وفي رسالة له: الصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين سلوك مسلك السلف في الإيمان المرسل والتصديق المحمل بكل ما أنزله الله تعالى وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير بحث وتفتيش، والاشتغال بالتقوى ففيه شغل شاغل (٢) اهـ .

وذكرت في إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين أن في علم الكلام مسائل كثيرة لا ينبغي أن تذكر في مجالس العوام وحضرتهم، والله در القائل:

ومن منح الجهال علما أضاعه      ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وكثيرا ما كان مشايخنا رحمهم الله يقولون لنا في الدرس: هذه المسئلة لا يجوز ذكرها إلا في حالة التعليم والتعلم.

وقد كثر في زماننا المجادلة في أسماء الله تعالى وصفاته أمام العوام، بل وفي الإذاعات وغيرها من وسائل الإعلام، وهذا فيه من الخطر ما لا يخفى، فاتقوا الله يا أولي الألباب، ولا تكونوا سببا إلى افتراق الأمة المحمدية، وانقسامها إلى طوائف مختلفة، يُضلل بعضها البعض، ويتعصب كل منها إلى آراء فرقته، فيتسارع حينئذ الفشل وذهاب القوة والهيبة، ثم يستفيد من ذلك عدو الملة الإسلامية، قال الله تعالى: **﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا**

<sup>١</sup> وفي القاموس ولسان العرب: الصبيغ كأمير ابن عُسَيْل كان يُعْتَت الناس بالغوامض وسؤالات في مشكل القرآن فأمر عمر بن الخطاب رضي الله بضره ونفاه إلى البصرة ونهى عن مجالسته اهـ.

<sup>٢</sup> مقدمة المجموع ص ١١٥-١١٦.



وتذهب ربحكم} أعاذنا الله مما يؤدي إلى تَشْتَّت شَمَلنا وتفرق جمعنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله الموفق .

قلت: ومثل ذلك شطحات الصوفية وأقوالهم وأفعالهم التي تخالف ظواهرها الشريعة، فإنها لا تذكر إلا عند من يفهم المراد منها، فقد سئل العلامة ابن حجر الهيتمي عن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي، فأجاب بقوله: إن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه ينبغي للإنسان أن يُعرض عنها بكل وجه أمكنه، فإنها مشتملة على حقائق يعسر فهمها إلا على العارفين المتضلعين من الكتاب والسنة، المطلعين على حقائق المعارف، فمن لم يصل لهذه المرتبة يخشى عليه منها مزية القدم، والوقوع في مهامه الحيرة والندم، كما شاهدناه في أناس جهال أدمنوا مطالعتها فخلعوا ربقة الإسلام والتكليفات الشرعية من أعناقهم، وأفضى بهم الحال إلى الوقوع في شَرَكِ الشرك الأكبر، فحسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، وأيضا ففي تلك الكتب مواضع عبر عنها بما لا يطابقه ظواهر عباراتها اتكالا على اصطلاح مقرر عند واضعها، فيفهم مطالعها ظواهرها الغير المرادة فيفضل ضلالا مبينا، وأيضا ففيها أمور كشفية وقعت حال غيبة واصطلاح، وهذا يحتاج إلى التأويل، وهو يتوقف على إتقان العلوم الظاهرة بل والباطنة، فمن نظر فيها وهو ليس كذلك فهم منها خلاف المراد فَضَلَّ وأضل، فعلم أن مجانبة مطالعتها رأسا أولى، فإن العارف لا يحتاج إليها إلا ليطابق بما فيها ما عنده، وغيره إن لم تضره ما نفعته، نعم له كتب في التريية الصرفة والحمل على الأخلاق والأحوال وغيرها مما يناسب السلوك، فهذه لا بأس من مطالعتها، فإنها ككتب الغزالي وأبي طالب المكي ونحوها من الكتب النافعة في الدنيا والآخرة.

وقد سئل الهيتمي أيضا عن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي وابن الفارض، فأجاب بقوله: إن مطالعة كتبهما جائزة بل مستحبة، فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد في غيرها، وعائدة لا تنقطع وعجبية من عجائب الأسرار الإلهية التي لا ينتهي مدد خيرها، وقد طالع هذه الكتب أقوام عوام جهلة طغام، فأدمنوا مطالعتها مع دقة معانيها، ورقة إشاراتها، وغموض مبانيها، وبنائها على اصطلاح القوم السالمين عن الخذور واللوم، وتَوَقَّفَ فَهْمُهَا بكمالها على إتقان العلوم الظاهرة، والتحلي بحقائق الأحوال

والأخلاق الباهرة، فلذلك ضعفت أفهامهم، وزلت أقدامهم، وفهموا منها خلاف المراد، واعتقدوه صوابا، فباءوا بخسار يوم التناد، والحدوا في الاعتقاد، وهوت بهم أفهامهم القاصرة إلى هوة الحلول والاتحاد، حتى لقد سمعت شيئا من هذه المفاصد القبيحة، والمكفرات الصريحة، من بعض من أدمن مطالعة تلك الكتب مع جهله بأساليبها.

وهذا هو الذي أوجب لكثير من الأئمة الخط عليها، والمبادرة بالانكار إليها، ولهم في ذلك نوع عذر لأن قصدهم فطم أولئك الجهلة عن تلك السموم القاتلة لهم، لا الإنكار على مؤلفها من حيث ذاته، وبعض المنكرين يغترون بظواهر الفاظها وإيهامها خلاف المقصود غفلة عن اصطلاحاتهم المقررة، وتحقيقاتهم المقررة، على القواعد الشرعية المحررة، والحقُّ عدم الإنكار والتسليم فيما برز عن أولئك الأئمة الأطهار مع التشديد على الجهلة بالقواعد والاصطلاحات في مطالعة تلك الكتب، فقد صرح الإمام ابن العربي بحرمة مطالعة كتبهم إلا لمن تحلى بأخلاقهم، وعلم معاني كلماتهم الموافقة لاصطلاحاتهم، ولا تجدد ذلك إلا فيمن جد وثمر، وجانبَ السوء وشد المتزر، وتضلّع من العلوم الظاهرة وتطهر من كل خلق دنيء، فهذا هو الذي يفهم الخطاب، ويؤذن له في الدخول إذا وقف على الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب اهـ.

فالحاصل من كلام الهيتمي جواز مطالعة كتبهم للعالم المتضلّع من علوم الكتاب والسنة، العالم بمعاني كلماتهم واصطلاحاتهم، بخلاف الجهال عن ذلك، فليس لهم مطالعتهم فإنه يخشى عليهم أن يغتروا بظواهر عباراتها ويأخذوا بمدلولات ألفاظها، فيقعوا في الورطات وما يؤدي إلى الحسرات وهم لا يشعرون بذلك، بل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم سالكون سبل الصالحين والأولياء(١).

<sup>١</sup> إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين.

### تنبيه في تأويل أفعال الأولياء وأقوالهم

ذكرت في كتابي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أنه ينبغي تأويل ما وقع من بعض علماء الصوفية مما يخالف ظاهره الشريعة وحمله بمحامل حسنة، فقد أُمِرْنَا بإقالة عثرات ذوي الهيئات، كما روى أبو نعيم في الحلية عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا من الحدود. وقال السيوطي في (الجامع الصغير): روى هذا الحديث أحمد في مسنده، والبخاري في (الأدب المفرد) وأبو داود عن عائشة، ورمز له بالحسن .

وقال الإمام النووي في (بستان العارفين): يجب تأويل أفعال أولياء الله تعالى، وقال: حكي عن إبراهيم الرقي قال: قصدت أبا الخير التيناتي مسلماً عليه فصلى صلاة المغرب فلم يقرأ الفاتحة مستويًا، فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي، فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدني السبع فعدتُ إليه وقلت: إن الأسد قصدي، فخرج وصاح على الأسد وقال: ألم أقل لك: لا تتعرض لضيفائي فتتحنى وتطهرت، فلما رجعت قال: اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد.

ثم قال النووي: قد يتوهم من يتشبه بالفقهاء ولا فقه عنده أن صلاة أبي الخير هذا كانت فاسدة لقوله لم يقرأ الفاتحة مستويًا، وهذه جهالة وغباء ممن يتوهم ذلك، وجسارة منه على إرسال الظنون في أولياء الرحمن، فليحذر العاقل من التعرض لشيء من ذلك، بل حقه إذا لم يفهم حكْمَهُمُ الاستفادة ولطائفهم المستجادة أن يتفهمها ممن يعرفها، وكل شيء رأيت من هذا النوع مما يتوهم من لا تحقيق عنده أنه مخالف ليس بمخالف .

وجواب هذا من ثلاثة أوجه: أحدها أنه جرى منه لحن لا يخل بالمعنى، ومثل هذا لا يفسد الصلاة بالاتفاق، الثاني: أنه مغلوب على ذلك بخلل في لسانه فتصح صلاته بالاتفاق، الثالث: أنه لو لم يكن له عذر فقراءة الفاتحة ليست بمتعينة عند أبي حنيفة وطائفة من العلماء، ولا يلزم هذا الولي أن يتقيد بمذهب من أوجبها. انتهى ما نقلته من (بستان العارفين).

وأول الحافظ الذهبي ما نُقِلَ عن أبي يزيد البسطامي فقال في سير أعلام النبلاء: جاء عن أبي يزيد أشياء مشككة، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والحو، فيطوى ولا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد، مثل سبحاني اهـ. فتراه لم يثبت ذلك عنده، وعلى تقدير ثبوته فقد أوله بأنه قالها في الغيبة والدهشة والحو، ولا يخفى أنه لا مؤاخذه في تلك الحالة لعدم التكليف فيها .

وسئل ابن حجر الهيتمي عن قول أبي يزيد : خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله، فقال: لم يصح هذا القول عنه وإن صح فمؤول، ثم ذكر بعض التأويلات التي استحسناها . وذكر ابن حجر الهيتمي ما يفيد أنه ينبغي تأويل شطحات الأولياء فقال في (الفتاوي الحديثية): للأئمة العلماء الذين من الله عليهم بالاعتقاد في أوليائه وحماهم من الانكار عليهم وبحمل ما صدر عنهم من الشطحات على أحسن المحامل وأقومها أجوبة مسكتة، وتحقيقات مبهتة، لا يهتدي إليها إلا الموفقون، ولا يعرض عنها إلا المخذولون، فاحذر أن تكون ممن يتحسّى كأس سم الانكار فيهلك لوقته، وبادر إلى السلامة من غضب الله ومحاربه ومقته، فقد قال تعالى في الحديث القدسي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، أي أعلمته أني محارب له، قال الأئمة: ولم ينصب الله تعالى المحاربة لأحد من العصاة إلا للمنكرين على أوليائه وآكلي الربا، ومن حاربه الله لا يفلح أبدا، ثم ذكر الهيتمي بعض الأجوبة فقال: إن تلك الشطحات وقعت منهم في حال الغيبة والسكر الناشئين عن الفناء في المحبة، ألا ترى أن بعض الهموم أو الواردات الدنيوية إذا وردت على القلب أذهلته وأذهبت تمييزه لشدة تمكنها منه واستغراقه في فكره، فإذا كان هذا في الأمور السافلة التي لا تقاوم جناح بعوضة فكيف بواردات الحق على القلوب ولواعج (١) المحبة المذهلة عن كل مطلوب ومرغوب، وذكر الهيتمي خمسة أجوبة أخرى .

وفي (الفتاوي الحديثية) للهيتمي أيضا أن فقيها أنكر على شيخ قراءته، فقال له: إن كنت لحت في قراءة القرآن فقد لحت أنت في الإيمان، وذلك أنه لما أنكر عليه وخرج قصده السبع فخشي منه لضعف إيمانه وقلة يقينه بالله. وقال النووي في (بستان العارفين): روي عن الإمام مالك رضي الله عنه: تلقى الرجل وما يلحن حرفا، وعمله لحن كله اهـ.

<sup>١</sup> جمع لاعج وهو الهوى المحرق، يقال: به لاعج الشوق ولواعجه، المعجم الوسيط.

ولا شك أن اللحن في العمل أشنع وأقبح بكثير من اللحن في اللسان، فإن أساس النجاة التقوى والعمل الصالح، وأما عدم اللحن اللساني فهو من الكماليات التي ينجو بدونها الإنسان، وقال الهلال بن العلاء:

سبيلي لسان كان يعرب لفظه فيا ليته من وقفة الحشر يسلم  
وما ينفع الإعراب إذ لم تكن تقى وما ضر ذا تقوى لسان معجم  
وذكر الحافظ السيوطي في (تأييد الحقيقة العلية) الاعتذار والتأويل فيما نسب إلى بعضهم فقال: إن حسن الظن بآحاد المسلمين واجب فضلا عما تواردت الألسنة بالشهادة له بالولاية، فإن ثناء الناس بذلك شاهد صدق كما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا (٢) اهـ.

### آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

قال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ينبغي لكل واحد من العالم والمتعلم أن لا يُخلَّ بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال ويستغنى بالعلم ولا يسئل أحدا تعنتا وتعجيزا، فالسائل تعنتا وتعجيزا لا يستحق جوابا، وفي الحديث النهي عن غُلُوطات المسائل (٣) وأن يعتني بتحصيل الكتب شراء واستعارة ولا يشتغل بنسخها إن حصلت بالشراء لأن الاشتغال أهمّ إلا أن يتعذر الشراء لعدم ثمنه أو لعدم الكتاب مع نفاسته فيستنسخه وإلا فلينسخه، ولا يهتم بتحسين الخط بل بتصحيحه، ولا يرتضى مع إمكان تحصيله ملكا، فإن استعاره لم يبطيء به لثلا يفوت الانتفاع به على صاحبه

<sup>١</sup> يعني قوله صلى الله عليه وسلم: من أثبتتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثبتتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، رواه الشيخان وأبو داود، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة اهـ من تعليق الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري على كتاب تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية.

<sup>٢</sup> تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص ٦١.

<sup>٣</sup> كذا في نسخة، وفي نسخة أخرى: أغلوطات بالهمز، وهما روايتان، والحديث في سنن أبي داود، وقال في لسان العرب أراد بالغلوطات المسائل التي يغالط فيها العلماء ليزلوا فيها فيهيح بذلك شر وفتنة اهـ.

ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولئلا يمتنع من إعارته غيره، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نثرا ونظما، ورويناها في كتاب الخطيب الجامع لأخلاق الراوي والسامع، منها عن الزهري إياك وغلول الكتب وهو حبسها عن أصحابها. وعن الفضيل: ليس من أفعال أهل الورع ولا من أفعال الحكماء أن يأخذ سماع رجل وكتابه فيحبسه عنه، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه. قال الخطيب: وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها، ثم روى في ذلك جملا عن السلف، وأنشد فيه أشياء كثيرة، والمختار استحباب الإعارة لمن لا ضرر عليه في ذلك لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل. وروينا عن وكيع أولُ بركة الحديثِ إعارةُ الكتب. وعن سفيان الثوري: من بخل بالعلم ابتلى بإحدى ثلاث أن ينساه أو يموت ولا ينتفع به أو تذهب كتبه. وقال رجل لأبي العتاهية: أعربي كتابك، قال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره فأعاره. ويستحب شكر المعير لإحسانه (١).

<sup>١</sup> مقدمة المجموع فصل في آداب يشترك فيها العالم والمتعلم ص ٣٩-٤٠.

### الخاتمة نسأل الله حسننها

وَهَذِي رِسَالَتِي إِلَى كُلِّ طَالِبٍ وَطَالِبَةٍ لِلْعِلْمِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ  
وَأَسْأَلُ رَبِّي ذَا الْعَطَايَا قَبُولَهَا بِإِحْسَانِهِ مِنِّي بِفَضْلٍ وَمِنَّةٍ

أي وهذه القصيدة المسماة بالنصائح المرسله هي رسالتي التي أرسلتها إلى كل طالب للعلم وطالبة له في جميع الأماكن من قرية ومدينة وبادية، وأنا أسأل ربي ذَا العطايا الكثيرة، والمواهب الجزيلة، قبولها مني بإحسانه وفضله ومَنِّه، وفي ذكر اسم الرب هنا التَّعَرُّضُ لإجابة الدعاء، فإنه يرجى لمن دعا به قبول دعائه فقد قال الإمام جعفر الصادق: من حزه أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه مما يخاف وأعطاه ما أراد، فقل: وكيف ذلك؟ فقال: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه} فقنا عذاب النار\* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار\* ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار\* ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد(١){

وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ رَبِّي وَسَيِّدِي لِمَنْ يَسْتَفِيدُ أَوْ يُفِيدُ بِهِمَّةٍ

أي إني أدعو الله لمن يستفيد من هذه الرسالة أو يفيد لغيره منها بهمة.

وَأَرْجُو الدُّعَا مِمَّنْ يُطَالِعُهَا وَيَجِبُ -تَنِي ثَمَرَةً فِيهَا بِعَزْمٍ وَرَغْبَةٍ

أي إني كما أدعو لمن يفيد أو يستفيد منها كذلك أرجو الدعاء ممن يطالعها ويقتطف من ثمارها اليانعة فيستفيد أو يفيد لغيره منها بعزم قوي ورغبة فيها.

وَوَفَّرَ وَأَعْطَى الْخَيْرَ عَبْدًا أَعَانِي إِلَهِي بِتَصْحِيحٍ وَنَشْرِ وَطَبَعَةٍ

في هذا البيت الدعاء لكل من أعانني على تصحيحها، والتصحيح من أهم الأمور وأصعبها، بل هو أهم ما يحتاج إليه بعد تأليف الكتاب وقبل طبعه ونشره، وفيه أيضا الدعاء لمن أعانني على طبعها أو نشرها بين الناس عموما، وبين طلبة العلم خصوصا، فإن المقصود من وضعها أصالة النصحية لهم وغيرهم تبع.

<sup>١</sup> حاشية الجمل على الجلالين.

وَكُتِّبَهَا وَشَارَحِيهَا وَمُنْشِدًا لَهَا حَافِظًا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ بِغِبْطَةٍ (١)

في هذا البيت الدعاء لكل من كتبها أو وضع عليها شرحا أو تقريرا أو تعليقا أو فعل جميلا غير ذلك من كل ما يعين على قراءتها ودرسها من تفسير غريبها وإعراب ألفاظها أو تنبيه على أخطاء فيها، وفيه أيضا الدعاء لمن أنشدها وحفظها بغبطة وسرور عن ظهر قلبه. وقد حفظها والحمد لله خلائق من الطلبة والطالبات، وطبع منها في مدة قصيرة ما يزيد على خمسة آلاف نسخة.

عَبِيدُكَ عُثْمَانُ الْمُسَيِّءُ أَتَاكَ يَرْ تَجِي يَا إِلَهِي الْعَفْوَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ

أي أتى باب رحمتك الواسعة يا إلهي عبيدك المسيء المذنب الحقير، المحتاج الفقير، عثمان بن الشيخ عمر وهو يرتجي العفو والغفران بمحض رحمة منك وإحسان، لا باستحقاق منه وتأهل لذلك، ولا بسبب آخر من عمل صالح أو قلب مخلص، فإنك تَمُنُّ على من تشاء من ألطافك ومواهبك.

فَجُدْ لِي الْمُنَا وَاعْفِرْ ذُنُوبِي كُلَّهَا وَأَحْسِنْ خِتَامِي عِنْدَ مَوْتِي وَرَحَلَتِي

في هذا البيت الدعاء والسؤال من الله تعالى بلوغ المني والمطلوب ومغفرة الذنوب وحسن الخاتمة، عند الوفاة والارتحال، من دار الفناء والعناء، إلى دار الحساب والجزاء.

وَهَبْ لِي وَلِلْأَحْبَابِ وَالْوَالِدَيْنِ وَالْمَشَايخِ مَعَ أَوْلَادِنَا كُلِّ نِعْمَةٍ

أي هب لي يا إلهي وللأحباب والوالدين والمشايع والأولاد كل نعمة، وادفع عنا وعنهم بفضلك كل بلية ونقمة.

<sup>١</sup> الغبطة: المسرة كما في القاموس واللسان.



وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ طَهَ شَفِيعَنَا      وَآلٍ وَأَصْحَابِ سُرَاةٍ ( ١ ) الْأُئِمَّةِ  
وَنَاشِرِ دِينِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ دَاعِيَا      إِلَى الْحَقِّ مَنْ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ  
وَطَالِبِ هَذَا الدِّينِ فِي نَيْلِ جَنَّةِ      بَجْدٍ وَإِخْلَاصٍ وَرُشْدٍ وَهِمَّةِ  
وَسَائِلِكَ نَهْجِ الصَّالِحِينَ ذَوِي التَّقَى      وَأَهْلِ الْهُدَى وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَجَلَّةِ  
وَمَنْ قَدْ أَعَانَ هَؤُلَاءِ أَوْ أَحَبَّهُمْ      وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِينٍ وَلَحْظَةٍ

في هذه الأبيات الخمسة الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى والسيد المجتبي الذي اختاره الله من جميع من أقلته الأرض وأظلمته السماء، وعلى آله وأصحابه الكرام سادات الأنام، وعلى ناشري دين الله في أرضه والدعاة للحق كل من يلقونه في أي بقعة من بقاع الأرض وأماكنها، وعلى طالبي العلم بجد وإخلاص، الراغبين فيه لرضاء ربهم والخلود في دار كرامته، وعلى جميع سالكي نهج الصالحين المقتفين آثارهم، وأهل الهدى والأولياء الأجلة، ذوي المقامات العلية، والمراتب السنية، وعلى من أعان هؤلاء المذكورين أو أحبهم.

مَتَى مَا يَقُومُ لِلتَّهَجُّدِ قَانَتْ      وَفَاضَتْ عَيُونُ الْخَاشِعِينَ بِدَمْعَةٍ  
أي صل عليهم مدة قيام القانتين للتهجد، وفيضان عيون الخاشعين وسيلانها بالدموع.  
والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الموفق.

<sup>١</sup> في لسان العرب: السَّرُّو المروءة والشرف، والسَّرِّي: المختار، وفي حديث أم زرع: فنكحت بعده سرياً أي نفيساً شريفاً، وقيل: سخيّاً ذا مروءة.

روينا إجازة عن الحبيب العلامة سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري حفظه الله قال: أخبرني صحيح مسلم السيد الجليل شيخ السادة بمكة المشرفة السيد محمد بن علوي السقاف عن والده العلامة الجليل السيد علوي بن أحمد السقاف عن شيخه العلامة السيد أحمد زيني دحلان عن العلامة عثمان بن حسن الدمياطي عن العلامة محمد بن محمد بن أحمد الأمير المالكي عن نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن علي السقاط عن ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم الفيومي عن الشيخ أحمد الفوقاوي المالكي عن الشيخ علي الأجهوري عن نور الدين علي العراقي عن الحافظ أبي الفضل جلال الدين السيوطي عن علم الدين الصالح بن عمر بن رسلان البلقيني عن الحافظ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي عن سليمان بن حمزة عن أبي الحسن علي بن نصر عن الحافظ عبد الرحمن بن منده عن الحافظ أبي بكر بن محمد بن عبد الله عن مكي بن عبد الله النيسابوري عن مؤلفه الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيْرٍ وزهير بن حرب وأبو كريب ومحمد طريف البجلي قالوا: حدثنا ابن فضيل عن عُمارة بن الققعاق عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

ورويانا أيضا إجازة عن الحبيب العلامة سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري حفظه الله قال: أخبرني صحيح البخاري السيد محمد بن علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة عن والده السيد علوي السقاف عن السيد أحمد زيني دحلان عن عثمان بن حسن الدمياطي عن محمد بن محمد بن أحمد الأمير المالكي عن نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن علي السقاط عن ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم الفيومي عن الشيخ أحمد الفوقاوي المالكي عن الشيخ علي الأجهوري عن نور الدين علي العراقي عن الحافظ أبي الفضل جلال الدين السيوطي عن علم الدين الصالح بن عمر بن رسلان البلقيني عن الحافظ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجار عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي عن أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد السرخسي عن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري

عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري قال: حدثنا أحمد بن إشكّابَ حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم(١).

وهذا آخر ما يسر الله لي كتابته في آداب طلبة العلم الشريف، وفيما ينبغي لهم أن يتخلقوا به ويدربوا عليه نفوسهم، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وأسأل الله العظيم المنان ذا الفضل والإحسان أن يتقبله مني بكرمه وجوده ومثته، وأن ينفع به كل من تلقاه بقلب سليم، بحاج نبيه الوسيم، ذي الجاه العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وشرّف ومجد وبارك على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين.

وقد تم تأليف هذا الكتاب بحمد الله تعالى وتيسيره في رجب الفرد سنة ألف وأربعمائة وثلاثين ببلدة عيل طير حرسها الله تعالى إلا أحرفاً قليلة ألحقتها بعد في نيروبي عاصمة كينيا أيام إقامتي فيها، وبالله التوفيق .

---

<sup>١</sup> إنما اخترت ختم الكتاب بهذا الحديث تأسيا واقتداء بالإمام البخاري حيث ختم كتابه الجامع الصحيح بهذا الحديث الشريف.

### قصيدة في آداب التعلم

قال الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: أحسن ما رأيت في آداب التعلم والتفقه من النظم ما ينسب إلى اللؤلؤ<sup>(١)</sup> من الرجز، وبعضهم ينسبه إلى المامون، وقد رأيت إيراد ما ذكر من ذلك لحسنه ولما أرجو من النفع به لمن طالع كتابي هذا، نفعا الله وإياه به، وهذه هي القصيدة:

واعلم	بأن	العلم	بالتعلم	والحفظ	والإتقان	والتفهم
والعلم	قد	يُرَزَّقُهُ	الصغير	في	سنه	ويحرم الكبير
فإنما	المرء	بأصغريه	ليس	برجليه	ولا	يديه
لسانه	وقلبه	المركب	في	صدره	وذاك	خلق عجب
والعلم	بالفهم	وبالمذاكرة	والدرس	والفكرة	والمناظرة	
فرب	إنسان	ينال	الحفظا	ويُورِدُ	النص	ويحكي اللفظا
وما	له	في	غيره	نصيب	مما	حواه العالم الأديب
ورب	ذي	حرص	شديد	الحب	للعلم	والذكر بليد القلب
معجز	في	الحفظ	والرواية	ليست	له	عما روى حكاية
وآخر	يعطى	بلا	اجتهاد	حفظا	لما	قد جاء في الإسناد
يهزه	بالقلب	لا	بناظره	ليس	بمضطرب	إلى قماطره
فالتمس	العلم	وأجمل	في	الطلب	والعلم	لا يحسن إلا بالأدب
والأدب	النافع	حسن	الصمت	وفي	كثير	القول بعض المقت
فكن	لحسن	الصمت	ما	حييتا	مقارفا	(٢) ) تحمد ما بقيتا
وإن	بدت	بين	أناس	مسأله	معروفة	في العلم أو مفتعله
فلا	تكن	إلى	الجواب	سابقا	حتى	ترى غيرك فيها ناطقا
فكم	رأيت	من	عجول	سابق	من	غير فهم بالخطاء ناطق
أزرى	به	ذلك	في	المجالس	عند	ذوي الألباب والتنافس

<sup>١</sup> كذا في الأصل ولعله اللؤلؤي بياء النسبة.

<sup>٢</sup> وفي نسخة: مقارنا .

والصمت فاعلم بك حقا أزين  
وقل إذا أعياك ذاك الأمر  
فذاك شطر العلم عند العلما  
إياك والعجب بفضل رأيكا  
كم من جواب أعقب الندامه  
العلم بحر منتهاه يبعد  
وليس كل العلم قد حويته  
وما بقي عليك منه أكثر  
فكن لما سمعته مستفهما  
القول قولان فقول تعقله  
وكل قول فله جواب  
وللكلام أول وآخر  
لا تدفع القول ولا ترده  
فربما أعيى ذوي الفضائل  
فيمسكوا بالصمت عن جوابه  
ولو يكون القول في القياس  
إذا كان الصمت من خير الذهب (١)

إن لم يكن عندك علم متقن  
ما لي بما تسأل عنه خُبر  
كذاك ما زالت تقول الحكما  
واحذر جواب القول من خطائكا  
فاغتتم الصمت مع السلامه  
ليس له حد إليه يقصد  
أجل ولا العشر ولو أحصيته  
مما علمت والجواد يعثر  
إن أنت لا تفهم منه الكلما  
وآخر تسمعه فتجهله  
يجمعه الباطل والصواب  
فافهمهما والذهن منك حاضر  
حتى يؤديك إلى ما بعده  
جواب ما يلقي من المسائل  
عند اعتراض الشك في صوابه  
من فضة بيضاء عند الناس  
فافهم هداك الله آداب الطلب (٢)

<sup>١</sup> وفي نسخة: عين الذهب .

<sup>٢</sup> بيان جامع العلم وفضله ج١ ص ١٧٧-١٧٩ .

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد: فهذه منظومة في آداب طلبه العلم والطالبات، ومشكاة للراغبين والراغبات، نظمناها في بلدة عَيْلٍ طَيْرٍ من بحر الطويل المقبوض عروضاً وضرباً .

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ نَظْمِي أَوَّلًا      وَحَمْدٍ وَشُكْرِ اللَّهِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ  
أُصَلِّي عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدٍ      وَآلِ وَصَحْبٍ مَعَ سِنِّي تَحِيَّةِ  
وَأَتَّبَعِهِمُ وَالْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِمْ      ذَوِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ أَنْصَارِ مِلَّةِ  
وَمَنْ عَلَّمَ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ وَطَالِبٍ      بِهِ عَامِلٍ بِالصَّدَقِ مَعَ حُسْنِ نِيَّةِ  
وَبَعْدُ فَذَا نَظْمٌ بَدِيعٌ لِنُصْحِ مَنْ      يَرُومُ تَعَلَّمَ الْعُلُومِ وَحِكْمَةِ  
عَسَى يَنْفَعُ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِمَنِّهِ      رِجَالًا ذَوِي فَهْمٍ وَفِكْرٍ وَفِطْنَةِ  
كَمَا أَنَّهُ وَعَظٌ لِنَفْسِي وَنُصْحُهَا      عَسَى أَنْ يَكُونَ لِي مِرْقَاةَ جَنَّةِ  
فِيَا طَالِبَ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ نَصِيحَتِي      إِلَيْكَ تَقَبَّلْهَا بِأَعْظَمِ رَغْبَةِ  
وَكُنْ سَالِكًا نَهْجَ الْأَكْلِ فِي تَعَلُّمٍ      فَهُمْ فِي طَرِيقِ الْإِهْتِدَاءِ خَيْرُ أُسُوةِ  
وَهُمْ سَادَةٌ غُرُّ الْجِبَاهِ أَيْمَةٌ      حُمَاةٌ لِهَذَا الدِّينِ مِنْ كُلِّ فِتْنَةِ  
وَمِنْ وَاجِبِ التَّلْمِيزِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ      وَيَقْفُو عَلَى آثَارِهِمْ بِالْمُودَةِ  
وَلَا بُدَّ لِلتَّلْمِيزِ مِنْ تَرْكِ مَا نَهَى الـ      لِإِلَهِ بَنَاتًا خَائِفًا كُلَّ لَحْظَةِ  
مَعَ الْإِمْتِنَالِ لِلْأَوَامِرِ عَامِلًا      بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ رَبِّي وَسُنَّةِ  
وَهَذَا أَسَاسٌ لِلتَّعَلُّمِ يَأْتِي      وَأَصْلٌ لِنَيْلِ كُلِّ خَيْرٍ وَبُعِيَّةِ  
وَلَا شَكَّ أَنَّ الذَّنْبَ دَاءٌ وَظُلْمَةٌ      يُعْطِي صَدَاهُ الْقَلْبَ عَنْ فَهْمِ حِكْمَةِ  
وَأَنَّ الْعُلُومَ النَّافِعَاتِ دَوَاؤُنَا      وَنُورٌ يُزِيلُ رَيْنَ قَلْبٍ وَقَسُوةِ  
وَمَا اجْتَمَعَ الضَّدَانِ فِي الْقَلْبِ مَرَّةً      فَإِنْ جَاءَ هَذَا غَابَ هَذَا بِسُرْعَةٍ  
كَذَاكَ ظَلَامُ اللَّيْلِ يَذْهَبُ إِنْ بَدَأَ الصُّـ      سَبَاحٌ وَحَلَّ النُّورُ مَوْضِعَ ظُلْمَةِ  
سَيَنْدُمُ مَنْ يَعْصِي بِعَمْدٍ إِلَهَهُ      إِذَا الْأَرْضُ رُجَّتْ وَالْحِجَارَةُ بُسَّتْ  
وَيَأْتِي كَثِيرًا بَاكِيًا فِي الْقِيَامَةِ      يَقُولُ أَيَا وَيْلِي كُنْتُ كَثْرَةَ  
وَيَصْرُخُ بِالثُّبُورِ حُزْنًا وَحَسْرَةً      يُنَادِي فَهَلْ لِي مِنْ رُجُوعٍ وَأَوْبَةٍ  
وَهَذَا إِذَا لَمْ يَعْفُ رَبِّي ذُنُوبَهُ      بِفَضْلِ وَيَسْمَحَ مَا جَنَاهُ بِمَنَّةِ

### فصل في إخلاص طالب العلم

وَكُنْ مُخْلِصًا يَا طَالِبَ الْعِلْمِ قَاصِدًا بِمَرْضَاةِ رَبِّي عَنْكَ بَعْدَ الْمَنِيَّةِ  
تَعَلَّمَ لِأَجْلِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا حُصُولَ الْأَمَانِ ثُمَّ فَوْزًا بِجَنَّةِ  
وَلَا يَخْطُرُنْ فِي الْقَلْبِ حُبُّ رِيَاسَةٍ وَجَاهٍ فَذَا أَصْلُ لِكُلِّ الرِّزِيَّةِ  
وَلَا تَطْلُبْنِ صَيْتًا وَمَدْحًا وَشُهْرَةً فَهَذَا سُقُوطُ صَاحٍ فِي قَعْرِ هَوَا  
وَمَنْ يَتَعَلَّمُ لِلْمَنَاصِبِ دِينَهُ فَقَدْ ضَاعَ عُمُرًا بِالْمَسَاوِي وَغَفَلَةً  
وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْقَوَادِحَ كُلَّهَا كَأَعْجَابِ نَفْسٍ وَالرِّيَاءِ وَسُمْعَةٍ  
وَيُفْسِدُ ذَا أَعْمَالِهِ فَتَوَابُهَا كَمِثْلِ سَرَابٍ أَوْ هَبَاءٍ وَرَغْوَةٍ  
وَلَا تَكْتَرِثْ بِالذَّمِّ وَالسَّبِّ وَاطْلُبْنِ مَرَاتِبَ عِزٍّ كُلِّ وَقْتٍ بِهِمَّةٍ  
وَلَا تَفْرَحَنَّ فِي مَدْحِهِمْ وَتَنَائِهِمْ فَذَلِكَ أَصْلُ لِلْعُرُورِ وَخِسَّةٍ

### فصل في التحذير من اتباع الهوى

وَإِيَّاكَ طَوَعَ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ وَلَا تَتَّفِقْ مَعَهَا بِصُلْحٍ وَهُدَنَةٍ  
وَلَا تُرَضَ لِاتِّمَانٍ بِهَا إِنْ كَيْدَهَا عَظِيمٌ يَزِيدُ كَيْدَ شَرِّ الْبَرِيَّةِ  
وَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ وَالشَّرِّ دَائِمًا فَحَازِرُ كَمَا تَخْشَى أَحْيَى فَتَكَ لَبْوَةٍ  
وَحَالَفَ هَوَاهَا وَأَقْمَعَنَ شَهَوَاتِهَا وَخَذَهَا بِقَهْرِ وَأَنْقِلَابٍ بَعْنَةٍ  
فَلَا أَحَدٌ مِمَّنْ هَوَاهُ اتَّبَعَ بَعِيٍّ رِ هَدْيٍ أَضَلُّ فَاخْشَ هَذِي الْبَلِيَّةِ  
فَمَنْ خَالَفَ الْهَوَى لَأَجْلِ إِلَهِهِ فَمَاوَاهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي وَسْطِ جَنَّةِ

### المبادرة إلى الخيرات

وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ فَالْعَجْزُ فِيهِ وَالتَّـ خَلْفُ وَالذُّلُّ وَحِرْمَانُ مُنِيَّةٍ  
وَلَا تُمَهِّلُوا لِلْغَدِ أَعْمَالَ يَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ لَهُ أَعْمَالُ بَرٍّ بِكَثْرَةٍ  
وَيُمْكِنُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِيكَ بَعْتَةً فَبَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْلَ الْمَنِيَّةِ  
وَشَمِّرْ وَخُضْ بِحَرَ الْعُلُومِ فَإِنَّمَا تَنَالُ الْمُنَى بِالْجِدِّ مَعَ تَرْكِ لَذَّةِ  
وَكُنْ بَادِلًا جُهْدًا كَبِيرًا كَمِثْلِ مَنْ يَعْوِضُ الْبَحَارَ كَيْ يَفُوزَ بِدُرَّةٍ

وَكُنْ صَابِرًا فِي كُلِّ عُسْرٍ وَشِدَّةٍ      تَلْ يَا أَخِي شَأَوَ الْعُلَا وَالْمَسَرَّةِ  
 إِذَا مَا تَسَابَقَتْ خِيُولُ ذَوِي التَّقَى      بِمَيَدَانِهَا عَجَلُ خَطَاكَ بِسُرْعَةٍ  
 وَلَا تَرْضَ أَنْ تَبْقَى وَرَاءَ جِيَادِهِمْ      وَحِيدًا بِلَا أُنْسٍ فَتَنْدَمَ بِحَسْرَةٍ  
 وَكُنْ مُكْثِرًا ذَكَرَ الْإِلَهَ بِخُلُوةٍ      وَجَمْعٍ وَلَيْلِ وَالْمَسَاءِ وَغُدُوةٍ  
 قِرَاءَةِ قُرْآنٍ مَجِيدٍ فَرْتَلَنَ      لِكَي تَرْتَدِي كِسُوءَ مَجْدٍ وَرِفْعَةٍ  
 وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الصُّبْحِ وَالْمَسَا      مَعَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ الْبَهِيَّةِ  
 وَصَلِّ الصَّلَاةَ بِالْجَمَاعَةِ دَائِمًا      رَوَاتِبَهَا احْفَظْ وَالضُّحَى كُلَّ ضَحْوَةٍ  
 كَذَا الْوُثْرُ وَأَنْوَ الْعِتْكَافَ بِمَسْجِدٍ      وَصَلِّ صَلَاةَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ  
 وَكُنْ فِي الصَّلَاةِ خَاشِعًا مُتَدَبِّرًا      قِرَاءَتَهَا يَا صَاحٍ مَعَ حُسْنِ هَيْئَةٍ  
 وَبَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَاطْلُبْ مَظْنَةً      لَهَا مِنْ جِهَاتِ الْكَوْنِ فِي كُلِّ طَرْفَةٍ  
 تَمَسِّكْ بِحُبِّ الْمُصْطَفَى سَيِّدِ الْوَرَى      وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِدِ إِخْوَتِي  
 إِذَا كُنْتَ مُشْتَقًا بُلُوغَ ذُرَى الْعُلَا      فَكُنْ تَابِعًا طَهَ بِاكْمَلِ قُدُوةٍ  
 بِأَقْوَالِهِ وَفِعْلِهِ بَلْ وَحَالِهِ      تَلْ كُلَّ خَيْرٍ بِالدَّوَامِ وَنِعْمَةٍ

### فصل في احترام المشايخ

وَأَدَابُ طُلَّابِ الْعُلُومِ كَثِيرَةٌ      كَصَحْبَةِ شَيْخِهِ بِتَعْظِيمِ حُرْمَةٍ  
 وَبَرٌّ لَهُ وَاللَّيْنُ فِي كُلِّ حَالَةٍ      دُعَاءُ لَهُ فِي الْجَهْرِ أَيْضًا وَخُفْيَةٍ  
 وَتَوْقِيرُهُ إِجْلَالُهُ وَمَحَبَّةٌ      حَقِيقِيَّةٌ وَبَشْرُهُ فِي التَّحِيَّةِ  
 وَمُقْتَرِشًا كُنْ فِي جُلُوسِكَ عِنْدَهُ      وَخَفْضُ لَدَيْهِ الصَّوْتِ مَعَ كُلِّ هَيْبَةٍ  
 وَمُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ كُنْ وَرَاضِيًا      بِهِ فَاحْذَرْنَ خِلَافَهُ قَدَرِ ذَرَّةٍ  
 وَسَلِّمْ لَهُ اخْتِيَارَ فَنٍ يُرِيدُهُ      فَإِنَّ لَهُ فِي ذَاكَ أَعْظَمَ خَبَرَةٍ

### الصبر على ضيق المعيشة

وَكُنْ بِالْيَسِيرِ قَانِعًا رَاضِيًا بِمَا      حَبَاكَ الْإِلَهُ مِنْ قَلِيلِ كَلِمَةٍ  
 فَكَمْ مِنْ إِمَامٍ طَبَّقَ الْأَرْضَ عِلْمُهُ      تَعَلَّمَ فِي جُوعٍ وَأَضْيَقِ عَيْشَةٍ  
 وَإِنْ أَنْتَ لَا تَرْضَى بِذَلِكَ فَارْتَسِبْ      وَكُنْ جَاهِلًا أَعْمَى يَعِيشُ بِذِلَّةٍ



## فصل في آداب متفرقة

تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ  
وَكُنْ مُشْفِقًا لِلْخَلْقِ وَارْحَمْ لِكُلِّ مَنْ  
وَكُنْ لَابِسًا بِيَضِ الثِّيَابِ وَعِمَّةً  
وَكُنْ هَيِّنًا وَلَيِّنًا مُتَوَاضِعًا  
وَكُنْ بَازِلًا جُهْدًا كَبِيرًا بِحِفْظِ مَا  
وَمُبْتَدئًا مِنْ كُلِّ فَنٍّ صِعَارَ كُتُبِ  
مُطَالَعَةِ الْكُتُبِ الَّتِي فِي فَضَائِلِهَا  
تَعَوَّدْ بِسُرْعَةِ الْكِتَابَةِ يَا فَتَى  
وَرَدِّدْ وَكَّرِرْ نَحْوَ عِشْرِينَ مَرَّةً  
وَأَمَّا إِذَا أَعَدْتَ يَا غَرُّ مَرَّةً  
مُطَالَعَةَ الْكُتُبِ الْمُفِيدَةِ لِأَزْمَنِ  
إِذَا مَا دَهَاكَ الْخُطْبُ وَالْعُسْرُ فَاسْتَعِنْ  
وَكُنْ ذَا مُرُوءَةٍ بَعِيدًا عَنِ الْخَنَا  
وَلَا تَكُ ثَرْتَارًا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ  
وَلَا تُكْثِرَنَّ الْإِلْتِفَاتَ فَإِنَّهُ

يَنَالُ الْفَتَى فِيهَا نِهَآيَةَ رُتْبَةٍ  
يُوحِّدُ رَبِّي مِنْ كَبِيرٍ وَصِيَّةٍ  
وَلَا زِمَ بِأَقْلَامٍ سِوَاكَ وَسُبْحَةِ  
حَلِيمًا زَكِيًّا عَنْ عُيُوبٍ وَحِسَّةً  
تَرَاهُ مُهِمًّا مِنْ عُلُومٍ وَحِكْمَةٍ  
بِهِ مِنْ مُتَوَنٍّ أَوْ شُرُوحٍ مُهِمَّةٍ  
عُلُومٍ فَدَاوِمَهَا لِإِنْهَاضِ هِمَّةٍ  
بِحَسَنِ خَطِّ مِثْلِ خَطِّ ابْنِ مُقْلَةٍ  
بِدَرْسِكَ كَيْ تَبْلُغَ مُنَاكَ بِسُرْعَةٍ  
وَتَتْرُكُهُ تَنْدَمَنَّ وَتَحْيَى بِذِلَّةٍ  
بِحَدِّ وَفَهْمٍ مَعَ كِتَابَةٍ نُكْتَةٍ  
بِصَبْرِ دُعَاءٍ وَالصَّلَاةِ بِخَشْيَةٍ  
وَلَا تَقِفَنَّ أَصْلًا مَوَاقِفَ تُهْمَةٍ  
بِقِيلٍ وَقَالَ وَالْمِزَاحِ وَسَمَرَةٍ  
أَمَارَةً نُقْصَانٍ وَطَيْشٍ وَخِفَّةٍ

## فصل في ترتيب الفنون وتقديم بعضها على بعض

وَتَقْدِيمُ فَنِّ الْفِقْهِ فَرَضٌ فَإِنَّمَا  
كَصُومِ صَلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَحُجَّةِ  
وَعِلْمِ أَصُولِ الدِّينِ يَتْلُوهُ فَالْتِمَسْ  
وَخُصْ بَعْدَ ذَيْنِ فِي بُحُورِ الْفُنُونِ مَعَ  
وَبَادِرْ إِلَى نَحْوِ وَصَرَفِ أَصُولِ فَقْ  
وَنَفْسِيرِ قُرْآنٍ بِشَتَّى عُلُومِهِ  
وَقَافِيَةٍ مَعَ الْعُرُوضِ وَمَنْطِقٍ

يَصِحُّ بِهِ كُلُّ الْفُرُوضِ وَسُنَّةِ  
بِهِ عِلْمُ أَرْكَانِ شُرُوطِ وَهَيْئَةِ  
بِحَدِّ صَحِيحِ الْإِعْتِقَادِ بِسُرْعَةٍ  
رِعَايَةِ تَرْتِيبِ بِإِمْعَانِ فِكْرَةٍ  
هِنَا وَالْحَدِيثِ ذِي الْعُلُومِ السَّنِيَّةِ  
بَيَانِ مَعَانِ وَالْبَدِيعِ بِجُمْلَةٍ  
كَذَا لُغَةٍ طَبُّ حِسَابٍ بِدَقَّةٍ

وَسِيرَةُ خَيْرِ الْخَلْقِ تُحْيِي الْقُلُوبَ وَالـ  
تَصَوُّفٌ يُصَفِّي الْقَلْبَ عَنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ  
تَوَارِيخُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالثَّقَى بِهَا الْإِدِّكَارُ وَاتِّعَاضُ بِعَبْرَةٍ

### التعلم في زمن الشباب والفراغ والصحة

وَمِنْ أَوَّلِ التَّمْيِيزِ فَابْدَأْ تَعَلَّمَ الـ عُلُومَ وَلَا تَتْرُكْ إِلَى يَوْمِ نُقْلَةٍ  
تَعَلَّمَ وَلَا تَكْسَلْ أَخِي فِي الشَّبَابِ وَالـ فَرَاحَ وَأَيَّامِ النَّشَاطِ وَصِحَّةِ  
فَإِنَّ فَاتَكَ التَّعْلِيمُ فِي هَذِهِ الْفُرْصِ تَكُنْ نَادِمًا مِنْ بَعْدِهَا دُونَ مَرِيَّةٍ  
وَقَدْ قِيلَ إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ فِي الصَّغَرِ يَكُنْ عِلْمُهُ صِدْقًا كَنَقْشٍ بِصَخْرَةٍ

### الرحلة لطلب العلم

وَسَافِرٌ مِنَ الْأَوْطَانِ لِلْعِلْمِ وَاتْرُكَنَّ أَهْلِيكَ وَالْأَحْبَابَ مَعَ كُلِّ إِخْوَةٍ  
فَفِي الْإِغْتِرَابِ رَاحَةٌ وَالْفَرَاحُ مِنْ شَوَاغِلِ أَصْحَابِ وَأَهْلِ وَرَفَقَةٍ  
وَيَكْفِي أَنْيسًا لِلتَّلَامِيذِ كُتُبُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ فِي الدَّرْسِ أَهْلُ الْمَوَدَّةِ  
وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْيَى إِذَا طَالَ مُدَّةُ الـ غِيَابِ وَهَاجَ الشَّوْقُ نَحْوَ الْأَحِبَّةِ  
وَلِلْعِلْمِ ذَوْقٌ لَيْسَ يَدْرِيهِ غَيْرُ أَهْلٍ لِهَ فَائِقٌ مِنْ طَعْمِ شَهْدٍ وَتَمَرَةٍ  
وَقَدْ أَخْبَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ بِأَنَّهُ يَفُوقُ يَقِينًا طَعْمُهُ كُلَّ لَذَّةٍ

### الصاحب في التعلم

وَصَاحِبٌ مِنَ الطُّلَّابِ مَنْ كَانَ عَزْمُهُ قَوِيًّا لَهُ جِدٌّ وَأَعْظَمُ هِمَّةٍ  
وَلَا تَصْحَبَنَّ مَنْ كَانَ أَهْلَ بَطَالَةٍ وَعَجْزٍ وَحِقْدٍ وَالْفَسَادِ وَحِدَّةٍ  
وَلَا تَقْرَبَنَّ مِنْ سَيِّئِ الطَّبَعِ وَاحْذَرَنَّ فَإِنَّ جَلِيسَ السُّوءِ يُفْضِي لِشِقْوَةٍ

### الصبر على طول مدة التعلم

تَعَلَّمَ مَدَى عُمْرِكَ إِنْ كُنْتَ تَبْتَغِي رُقِيَّ رَبِّي مَجْدٍ وَعِزٍّ وَرَفْعَةٍ  
وَكُنْ يَا أَخِي عَلَى الشَّدَائِدِ صَابِرًا فَتَحْظَى بِنَيْلِ مَا تَرُومُ وَبُغْيَةٍ  
وَإِيَّاكُمْ أُنَّ تَجَبُّنَا ثُمَّ تَنْكُصُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَوْرًا بِجَهْلٍ وَخَبِيَّةٍ

## حل المشكلات بالتدبر وسؤال المشايخ

تَدَبَّرْ وَفَكِّرْ فِي الدَّقَائِقِ وَاجْتَهِدْ بِحَلِّ جَمِيعِ الْمَشْكَلاتِ الْمُملَمَّةِ  
وَسَلْ مَا جَهِلْتَ مِنْ عَوِيصٍ وَمُعْضِلٍ شُيُوكَ تَظْفَرُ بِالْمُنَى وَالْمَسْرَةِ  
وَلَا يَمْنَعُكَ الْعُجْبُ وَالْكِبَرُ وَالْحَيَا سُؤَالَ الشُّيُوخِ أَهْلَ حَقٍّ وَنُصْحَةٍ

## المذاكرة بالعلم والمطارحة والمناظرة

مُذَاكَرَةُ بِالْعِلْمِ عَوْنُ لِطَالِبٍ زِيَادَةُ عِلْمٍ بَلْ وَفَهْمٍ وَفِطْنَةٍ  
مُطَارَحَةٌ بَيْنَ التَّلَامِيذِ وَالْمُبَا حَثَاتُ مَعَ الطُّلَّابِ مِنْ خَيْرِ خَصَلَةٍ  
مُنَازَرَةٌ مَعَ حَاذِقٍ مُنْصِفٍ لَهَا فَوَائِدُ جَمَّةٌ كَتَشْحِيدِ فِكْرَةٍ

## احترام كتب العلم والمصاحف

وَتَعْظِيمُ كُتُبِ الْعِلْمِ حَقٌّ مُؤَكَّدٌ عَلَيْكَ فَصْنُهَا عَنْ غُبَارٍ وَثُرْبَةٍ  
وَضَعُهَا مَكَانًا طَاهِرًا لِاتِّقَا بِهَا وَخُذَهَا بِحُبٍّ بِالْيَمِينِ لِحُرْمَةِ  
وَعَظْمِ مَصَاحِفِ الْقُرْآنِ وَقَبْلَنَ بِفِيكَ بِهَا وَقُمْ لَهَا بِالْمَحَبَّةِ

## التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة

وَكُنْ أَشْعَرِيًّا فِي الْعَقِيدَةِ يَا فَتَى أَوْ اتَّبِعْ أَبَا الْمَنْصُورِ تَسْعُدُ بِجَنَّةٍ  
فَإِنَّهُمَا قَدْ وَافَقَا دُونَ مَرِيَّةٍ بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَاعْلَمْ وَسُنَّةٍ  
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ تَفَرَّقُوا وَخَاضُوا حِيَارَى فِي ضَلَالَاتٍ بِدْعَةٍ

## التمسك بمذهب من المذاهب الأربعة

تَمَسَّكْ بِفِقْهِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَنُعْمَانَنَا وَأَحْمَدٍ خُذْ بِقُوَّةٍ  
وَسَاءَ صَنِيعُ مَنْ تَقَلَّدَ غَيْرَهُمْ وَقَدْ خَابَ سَعْيًا وَارْتَدَى ثَوْبَ حَسْرَةٍ  
وَأَيَّاكَ وَالتَّلَفِيقَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ فَتَأْخُذْ مِنْ هَذَا وَهَذَا بِخُلْطَةٍ

## التثبت لدى الفتاوى

تَثَبَّتْ لَدَى الْفَتَوَى وَلَا تَعْجَلَنَّ فَذَا خَطِيرٌ وَزَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامُ أُمَّةٍ

وَهَذَا زَمَانٌ قَلَّ فِي أَهْلِهِ التَّقَى وَأُفْتِيَ أَنَسُ دُونَ عِلْمٍ وَخَبَرَةٍ  
وَقَدْ قِيلَ قَبْلُ إِنَّ زَلَّةَ عَالِمٍ كَزَلَّةٍ مَنْ فِي الْكَوْنِ فَاحْذَرُ بَرَهْبَةَ

### غض الأبصار عن المحرمات

وَعُضُّوا عَنِ الْعَوْرَاتِ أَبْصَارَكُمْ فَمَنْ يَكُنْ نَاطِرًا فِيهَا يَخْضُ بَحْرَ فِتْنَةٍ  
وَيَقْسُو بِذَلِكَ قُلُوبَكُمْ وَيَعْبُدُ قُلُوبَكُمْ قُلُوبُكُمْ وَيَعْبُدُ قُلُوبَكُمْ قُلُوبُكُمْ  
وَأَيَّاكَ نَظَرَ الْأَجَنِّيَّاتِ إِنَّهُ كَلَسَعَ الْأَفَاعِي أَوْ كَطَعَنَ الْأَسِنَّةِ

### احترام ذي الشبهة المسلم وحامل القرآن وأهل العلم وغيرهم

وَإِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا يَكُونُ بِهِ أَجْرٌ وَإِمْدَادُ رَحْمَةٍ  
وَحَامِلُ قُرْآنٍ كَهَذَا وَذَا إِذَا يُرَى غَيْرَ غَالٍ فِيهِ فَاسْمَعْ نَصِيحَتِي  
وَفِي حُبِّ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالتَّقَى وَخِدْمَتِهِمْ خَيْرٌ وَإِجْزَالُ نِعْمَةٍ  
إِذَا مَا أَتَى كَرِيمٌ قَوْمٍ إِلَيْكُمْ فَخُصُّوهُ بِالْإِكْرَامِ مَعَ حُسْنِ خِدْمَةٍ  
وَوَقْرٍ وَعَظْمٍ هَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ وَقَابِلُهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ بَبْشَرَةٍ

### الخاتمة

وَهَذِي رِسَالَتِي إِلَى كُلِّ طَالِبٍ وَطَالِيَةٍ لِلْعِلْمِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ  
وَأَسْأَلُ رَبِّي ذَا الْعَطَايَا قَبُولَهَا بِإِحْسَانِهِ مِنِّي بِفَضْلٍ وَمِنَّةٍ  
وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ رَبِّي وَسَيِّدِي لِمَنْ يَسْتَفِيدُ أَوْ يُفِيدُ بِهِمَّةٍ  
وَأَرْجُو الدُّعَا مِنْ يُطَالِعُهَا وَيَجْزِيهَا ثَمَرَةً فِيهَا بَعْزٌ وَرَغْبَةٌ  
وَوَقْرٌ وَأَعْطِ الْخَيْرَ عَبْدًا أَعَانَنِي إِلَهِي بِتَصْحِيحٍ وَنَشْرِ وَطَبْعَةٍ  
وَكُتَابَتِهَا وَشَارِحِيهَا وَمُنْشِدًا لَهَا حَافِظًا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ بِغُبْطَةٍ  
عَبِيدُكَ عُثْمَانُ الْمُسَيِّءُ أَتَاكَ يَرِ تَجِي يَا إِلَهِي الْعَفْوُ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ  
فَجِدْ لِي الْمُنَا وَاعْفِرْ ذُنُوبِي كُلَّهَا وَأَحْسِنْ خِتَامِي عِنْدَ مَوْتِي وَرَحَلَتِي  
وَهَبْ لِي وَلِلْأَحْبَابِ وَالْوَالِدَيْنِ وَالْ— مَشَايِخِ مَعَ أَوْلَادِنَا كُلِّ نِعْمَةٍ  
وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ طَهْ شَفِيعِنَا وَآلِ وَأَصْحَابِ سُرَّةِ الْأَئِمَّةِ  
وَنَاشِرِ دِينِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ مَنْ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ

وَطَالِبِ هَذَا الدِّينِ فِي نَيْلِ جَنَّةٍ بِجِدِّ وَإِخْلَاصٍ وَرُشْدٍ وَهِمَّةٍ  
 وَسَلِّكَ نَهْجِ الصَّالِحِينَ ذَوِي التَّقَى وَأَهْلِ الْهُدَى وَالْأَوْلِيَاءِ الْأَجَلَةِ  
 وَمَنْ قَدْ أَعَانَ هَؤُلَاءِ أَوْ أَحَبَّهُمْ وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِينٍ وَلَحْظَةٍ  
 مَتَى مَا يَقُومُ لِلتَّهَجُّدِ قَانَتْ وَفَاضَتْ عَيْنُ الْخَاشِعِينَ بِدَمْعَةٍ

فرغت من تبييض هذه المنظومة ١٤٢٨/٣/٣٠ هجرية .

## أهم المراجع والمصادر

### التفسير وعلوم القرآن

رقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	الجامع لأحكام القرآن	للإمام القرطبي
٢	تفسير الفخر الرازي	للفخر الرازي
٣	تفسير القرآن العظيم	للحافظ ابن كثير
٤	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	للإمام السيوطي
٥	الإتقان في علوم القرآن	للإمام السيوطي
٦	النشر في القراءات العشر	لابن الجزري
٧	التبيان في آداب حملة القرآن	للإمام النووي

### الحديث وعلومه

رقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	صحيح البخاري	للإمام البخاري
٢	صحيح مسلم	للإمام مسلم بن الحجاج
٣	سنن أبي داود	لأبي داود
٤	سنن ابن ماجه	لابن ماجه
٥	الترغيب والترهيب	للحافظ المنذري
٦	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	لابن حجر الهيتمي
٧	كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال	للعامة علاء الدين المتقي الهندي
٨	الجامع الصغير	للسيوطي
٩	فتح الباري شرح صحيح البخاري	للحافظ العسقلاني
١٠	عمدة القاري شرح صحيح البخاري	للعيني
١١	إرشاد الساري شرح صحيح البخاري	للحافظ القسطلاني
١٢	التلخيص شرح الجامع الصحيح	للإمام النووي
١٣	المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج	للإمام النووي
١٤	فتح الملهم شرح صحيح مسلم	للشيخ شبير أحمد العثماني
١٥	الكاشف عن حقائق السن على المشكاة	للطبي
١٦	الفتوحات الربانية على الأذكار النووية	لابن علان الصديقي
١٧	مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح	لعلي بن سلطان القاري
١٨	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى	للقاضي عياض

رياض الصالحين	١٩	للإمام النووي
معجم الأوسط	٢٠	للطبراني
دليل الفالحين شرح رياض الصالحين	٢١	لابن علان الصديقي
جامع بيان العلم وفضله	٢٢	لابن عبد البر
السراج المنير شرح الجامع الصغير	٢٣	للغريزي
نسيم الرياض شرح الشفاء	٢٤	للخفاجي
فيض القدير شرح الجامع الصغير	٢٥	للمناوي
الفتح المبين شرح الأربعين	٢٦	لابن حجر الهيتمي
حاشية المدابغي على الأربعين	٢٧	للمدابغي
الباهر	٢٩	للسيوطي
الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية	٣٠	للجرداني
حاشية المواهب اللدنية على الشمائل	٣١	للبحوري
خلاصة الأحكام	٣٢	للإمام النووي
أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل	٣٣	لابن حجر الهيتمي
الفتاوي الحديثة	٣٤	لابن حجر الهيتمي
الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة	٣٥	للسيوطي
كشف الخفا	٣٦	للعجلوني
المقاصد الحسنة	٣٧	للسخاوي
تعقبات	٣٨	للسيوطي
حاشية الأجهوري على الزرقاني على البيقونية	٣٩	لعطية الأجهوري
تدريب الراوي شرح تقريب النووي	٤٠	للإمام السيوطي
فتح المغيث شرح ألفية الحديث	٤١	للسخاوي
شرح شرح نخبة الفكر	٤٢	لعلي بن سلطان محمد القاري

### العقائد

تحفة المريد على جوهر التوحيد	١	للبحوري
غاية البيان في تنزيه الله عن الجهة والمكان	٢	إعداد قسم الأبحاث والدراسات الإسلامية في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية

### الفقه وأصوله

المجموع شرح المذهب	١	للإمام النووي
روضة الطالبين	٢	للمناوي

٣	تحفة المحتاج شرح المنهاج	لابن حجر الهيتمي
٤	معني المحتاج بشرح المنهاج	للخطيب الشربيني
٥	فتح المعين شرح قرّة العين	للمليباري
٦	إعانة الطالبين شرح فتح المعين	للسيد بكر محمد شطا
٧	قواعد الأحكام في مصالح الأنام	لعز الدين بن عبد السلام
٨	سبعة كتب مفيدة	للسيد علوي بن أحمد السقاف
٩	جمع الجوامع	لتاج الدين عبد الوهاب السبكي
١٠	حاشية النفحات على شرح الورقات	للشيخ أحمد بن عبد اللطيف الخطيب

### التصوف والرفائق

١	إحياء علوم الدين	للإمام أبي حامد الغزالي
٢	إتحاف السادة المتقين	للمرتضى الزبيدي
٣	المنن الكبرى	للسعراي
٤	الرسالة القشيرية	للقشيري
٥	أحكام الدلالة على تحرير الرسالة	لزكريا الأنصاري
٦	سعادة الدارين	لنبيهاني
٧	الأربعين في أصول الدين	للغزالي
٨	تنبيه المغترين	للسعراي
٩	شرح الحكم	لابن عباد
١٠	كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء	للسيد بكر محمد شطا
١١	بستان العارفين	للإمام النووي
١٢	رسالة المسترشدين	للمحاسبي
١٣	تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية	للعافظ السيوطي

### السيرة النبوية

١	منتهى السؤل على وسائل الوصول	للحجي
٢	أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل	لابن حجر الهيتمي
٣	الشمائل	للمرمذي
٤	ألفية السيرة	للعراقي

### التاريخ والتراجم

١	تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي
٢	طبقات الشافعية الكبرى	لابن السبكي



للذهبي	٣	سير أعلام النبلاء
لابن كثير	٤	البداية والنهاية
لابن عماد الحنبلي	٥	شذرات الذهب في أخبار من ذهب
لابن كثير	٦	طبقات الفقهاء الشافعيين
للذهبي	٧	تذكرة الحفاظ
لابن الجوزي	٨	صفة الصفوة
لأبي نعيم	٩	حلية الأولياء
للزركلي	١٠	الأعلام
للقاضي ابن أبي يعلى الحنبلي	١١	طبقات الحنابلة
للسيوطي	١٢	تاريخ الخلفاء
للسخاوي	١٣	الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر
لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي	١٤	آداب الشافعي ومناقبه
للسيوطي	١٥	المنهاج السوي
لابن حجر الهيتمي	١٦	الخيرات الحسان
للإمام البيهقي	١٧	مناقب الشافعي

## اللغة

للفيروز آبادي	١	القاموس المحيط
لابن منظور	٢	لسان العرب
للمرتضى الزبيدي	٣	تاج العروس شرح القاموس
للجوهرى	٤	الصحاح
للزمخشري	٥	أساس البلاغة
للفيومى	٦	المصباح المنير
للإمام النووي	٧	تهذيب الأسماء واللغات
لابن الأثير	٨	النهاية في غريب الحديث

## فنون متنوعة

للخطيب البغدادي	١	الفقيه والمتفقه
للإمام الحرمين	٢	مغيث الخلق في ترجيح القول الحق
لابن الجوزي	٣	صيد الخاطر
لابن الجوزي	٤	ذم الهوى
لأبي غدة	٥	صفحات من صبر العلماء

٦	الاعتصام	لإبراهيم بن موسى الشاطبي
٧	إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين	للشيخ عثمان جدغ
٨	معيد النعم ومبيد النقم	لابن السبكي
٩	الموسوعة السياسية	عبد الوهاب الكيالي
١٠	الموسوعة اليوسفية	للدكتور يوسف خطار محمد
١١	ديوان الشافعي	للإمام الشافعي
١٢	تبيين كذب المفتري	لابن عساكر
١٣	كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع	لابن حجر الهيتمي
١٤	حياة الحيوانات الكبرى	للميرى
١٥	تذكرة السامع	لابن جماعة
١٦	المنح المكية في شرح الهمزية	لابن حجر الهيتمي
١٧	الزواج عن اقتراف الكبائر	لابن حجر الهيتمي
١٨	العمدة في شرح البردة	لابن حجر الهيتمي
١٩	الحاوي للفتاوي	للسيوطي
٢٠	تذكرة القرطبي	للقرطبي
٢١	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية	للزرقاني
٢٢	أثر الاختلاف في مسائل العلم والدين	لمحمد عوامه
٢٣	اللامذهبية أخطر بدعة	للبوطي
٢٤	قيمة الزمن	لأبي غدة
٢٥	النبذة اليقينية في معجزات خير البرية	للشيخ عبد الرحمن صوفي
٢٦	أخلاق العلماء	للآجري
٢٧	علو الهمة	لمحمد بن إسماعيل المقدم
٢٨	تعليم المتعلم	للزرنوجي الحنفي

### المنطق والبلاغة والعروض

١	السلم المنورق	للأخضري
٢	حاشية الباجوري على السلم	للأخضري
٣	شرح العطار على شرح زكريا الأنصاري	للعطار
٤	إرشاد الشافي	للسيد محمد الدمنهوري

## التقاريط

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلماء مصاييح الدجى، ومنارات الهدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المصطفى، والحبيب المجتبى، وعلى آله ذوي الطهر والصفاء ورضي الله عن أصحابه أولى الفضل والوفاء.

وبعد : فان الأمة الإسلامية أمة مباركة لا تخلو من خير، ولا ينضب معينها عن تزويد الأمة بالعذب النмир، ومن مظاهر البركة بقاء العلماء الربانيين، والمرشدين الكاملين، الذين يقومون بخدمة الدين عند فساد الزمان، ويرفعون راية الحق في معترك الطغيان، ولاشك في أنه لا يقوم بهذه المهمة إلا أفذاذ العلماء وكبار الأدلاء، جعلهم الله للإرشاد مدداً، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشداً، ومن هولاء المرشدين الربانيين الذين كان لهم الفضل في خدمة حقائق الدين والنصح لكافة المسلمين والذود عن حمى منهج أهل السنة والجماعة الأصيل، ضد هجمات أصحاب الفكر المتطرف الدخيل، فضيلة العلامة الشيخ عثمان الشيخ عمر الشيخ داؤود عُلُسَو عُبَيْدٌ عَلِي، الصومالي العَيْلُطَيْرِي المعروف بالشيخ عثمان حدغ، والشيخ غني عن التعريف فهو المفتي العام لعلماء أهل السنة والجماعة في الصومال وأحد كبار مراجع الشافعية فيه، كما أنه واحد من أبرز متكلمي السادة الأشاعرة أهل التنزيه لله والتوقير لأنبيائه وأوليائه، أما في السلوك والتربية فهو حامل لواء التصوف السني الصحيح القائم على الكتاب والسنة، وكيف لا وهو سليل السادة الأحمدية وزعيم الطريقة الإدريسية الجامعة لخلاصة تعاليم سائر طرق السادة الصوفية، ومن حسن الحظ أني تشرفت منذ عقد من الزمان بالعلاقة بالشيخ عبر مؤلفاته القيمة ومصنفاته الموضوعية الرائعة مما قادني إلى الإتصال المباشر به وتوطيد الصلة به متعنا الله بحياته ونفعنا ببركاته وعلومه.

وكان من آخر ما وصل إليّ من تأليفه كتاب (التيجان المكلفة) الذي شرح به منظومته الذائعة الصيت (نصيحة طلبة العلم).

أهدى المصنف إليّ نسخة منه للإطلاع عليه وإبداء الرأي حوله، فتصفحته فوجدته كتاباً قيماً عمدة في علم التربية فريداً في نصيحة عشاق المعارف وتوجيه رواد اللطائف

مرصعا بجواهر الأدلة في كل مناحيه مكسوا بحلل الروعة في مبانيه ومعانيه. ومن عجائب المصادفات أن وصول الكتاب تزامن مع اتمامي لثلاث سنوات من دراسة علم التربية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من معهد الخرطوم الدولي للغة العربية بالتعاون مع كلية سندباد العربية - فرع إثيوبيا .

وكنت تعرفت خلال تلك الدراسة على الخلل في تنظيم المنهج الدراسي وطريقة توجيه الطلبة في الحلقات العلمية التقليدية، فرأيت كتاب الشيخ خطوة نافعة وتقدما ملحوظا في سبيل تفادي ذلك الخلل القائم في الساحة كما أنه يحمل رسالة روحية تسمو بطلبة العلوم الشرعية من الغايات الرخيصة ليحلّقوا في سماء المعارف والأخلاق الفاضلة ويتحلّوا بالإخلاص والربانية ويقصدوا بعلمهم وجه الله وخدمة دينه وترقية الأمة الإسلامية ليصبحوا ورثة حقيقيين للأنبياء والمرسلين وحلقة سليمة في سلسلة العلماء الربانيين الذين خدموا للإسلام في مسيرته الطويلة.

فجزى الله جل جلاله الشيخ عنا خير جزاء وجعل عمله مشكورا، وأضافه الى ميزان حسناته مضاعفا موفورا، ونفعنا به وبسائر كتبه المباركة، وعلومه وبركاته وأبقاه الله للدين خادما وللمسلمين ناصحا، وصلى الله على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد وآله الأطهار ورضي الله عن صحابته الأخيار.

العبد الفقير محمد نذير السيد نور كَلْطَيْرِي

رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في الإقليم الصومالي - إثيوبيا (سابقا)

وعضو مجلس العلماء للإفتاء والدعوة في جمهورية إثيوبيا الفيدرالية (حاليا)

## فهرس الكتاب

الموضوع.....	صفحة
خطبة الكتاب .....	١
مقدمة في فضائل العلم وأهله .....	٥
تعريف العلم.....	٥
فضل العلم .....	٥
الآثار الواردة في فضائل العلم.....	٩
أنواع العلم.....	١٣
باب فضائل العالم .....	٢١
فضائل طالب العلم .....	٢٧
فضائل العالم والمتعلم .....	٣١
فصل: واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم .. إلخ .....	٣٦
خطبة القصيدة .....	٣٨
فصل في إخلاص طالب العلم .....	٥٠
تفسير الإخلاص .....	٥٠
أدلة الإخلاص .....	٥١
الإخلاص أساس الأعمال وأصعبها .....	٥٤
خاتمة: ذكر الشيخ زكريا الأنصاري درجات الإخلاص.....	٥٤
الصدق في الأعمال .....	٥٥
الآفات المكذرة للإخلاص أربعة .....	٥٨
قوله: كإعجاب نفس .....	٦٢
مهمة في عدم تأثير الرياء الوارد بعد تمام الأعمال غالبا .....	٦٩
فائدة في إطلاق الرياء على أمر مباح .....	٧٠
فائدة: ليس كل شوب من الرياء مفسدا للعمل .....	٧١
ما ورد في ذم السمعة .....	٧١
الهمة العالية أساس التقدم والنجاح .....	٧٣
فصل في التحذير من اتباع الهوى .....	٨١
تعريف الهوى .....	٨١
خاتمة في بعض ما ورد في ذم اتباع الهوى .....	٨٨

٩١	..... المبادرة إلى الخيرات
٩٥	..... الحرص على طلب العلم
١١٥	..... كثرة الأجور بتنويع النيات
١٢٣	..... نبذة فيمن اشتهر بمتابعته صلى الله عليه وسلم
١٢٥	..... فصل في احترام المشايخ
١٢٩	..... المداراة والتملق
١٣٦	..... خاتمة: اعلم أن مشايحك هم آباؤك في الدين
١٣٨	..... أهمية تلقي العلم من أفواه المشايخ
١٤٠	..... تنبيه في فضائل مجالسة العلماء والنظر إليهم
١٤١	..... فائدة في فضيلة التعلم في المساجد
١٤٢	..... الصبر على ضيق المعيشة
١٥٢	..... فصل في آداب متفرقة
١٦٦	..... خاتمة: لقد ذكرنا أن الركعتين بالسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك
١٦٧	..... تنبيه:كثر الكلام في السبحة هل لها أصل في السنة أم لا
١٧٦	..... تنمة: قد يلتبس على طالب العلم التواضع والحلم بغيرهما
١٧٨	..... ذكر عدد من العلماء المكثرين للحفظ
١٨٢	..... أهم أوقات الحفظ وأماكنه
١٨٤	..... فائدة في ذكر مقدار ما يحفظه المتعلم
١٨٦	..... معاملة النفس عند الفتور والملل
١٨٩	..... سرعة قراءة بعض العلماء
١٩٦	..... أماكن الدعاء وأوقاتها
٢٠١	..... التحذير من تضييع الأوقات والترغيب في حفظها
٢٠٤	..... فصل في ترتيب الفنون وتقديم بعضها على بعض
٢٠٧	..... أهمية الفقه وفضائله
٢٠٩	..... نكتة: ومما يدل على فضيلة الفقه والفقهاء قوله صلى الله عليه وسلم
٢١٠	..... تنبيه في أن المحدث لا يستغني عن الفقه أصلاً
٢٢٦	..... متى يكفي العالم بالحديث ومن هو المحدث والحافظ والحجة والحاكم
٢٢٧	..... جواز العمل بالحديث الضعيف
٢٢٩	..... كشف الغطاء عن المراد بقولهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي

٢٣٠	..... فرع: في مذاهب العلماء في حجامة الصائم
٢٤٣	..... فائدة: اعلم أن علوم العربية اثنا عشر علما
٢٤٩	..... تنبيه في حكم معرفة علم القلوب أي التصوف
٢٤٩	..... أولوية الجمع بالفقه والتصوف
٢٥١	..... احترام علماء علم الظاهر للصوفية
٢٥٥	..... الحث على تعلم طرف من كل فن من الفنون المحمودة
٢٥٧	..... التعلم في زمن الشباب والفراغ والصحة
٢٦٤	..... الرحلة لطلب العلم
٢٧٠	..... الصاحب في التعلم
٢٧٣	..... الصبر على طول مدة التعلم
٢٧٤	..... حل المشكلات بالتدبر وسؤال المشايخ
٢٧٦	..... المذاكرة بالعلم والمطارحة والمناظرة
٢٨٠	..... احترام كتب العلم والمصاحف
٢٨١	..... التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة
٢٨٣	..... نبذة من ترجمة أبي الحسن الأشعري
٢٨٥	..... ذكر أسماء بعض أعيان الأشاعرة
٢٨٨	..... نبذة من ترجمة الإمام أبي منصور الماتريدي
٢٩٤	..... فصل سلفيون جهال
٢٩٥	..... خاتمة: ذكرنا أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية
٢٩٦	..... التمسك بمذهب من المذاهب الأربعة
٣٠٩	..... فائدة في ذكر بعض قواعد الشافعية
٣١٦	..... نبذة من تراجم الأئمة الأربعة: الإمام أبو حنيفة:
٣١٨	..... الإمام مالك بن أنس
٣٢٠	..... الإمام الشافعي
٣٢٤	..... الإمام أحمد بن حنبل
٣٣٠	..... تنبيه في بيان شروط التقليد
٣٣١	..... فوائد مهمة
٣٣٣	..... تنبيه في بيان أن المجتهد المستقل قد عدم من دهر طويل
٣٣٦	..... الخلاصة: اعلم أن منكري التقليد وإن ادعوا الاجتهاد فهم في الحقيقة مقلدون .....

٣٣٧	..... التعصب المذهبي
٣٣٨	..... الثبت لدى الفتاوي
٣٤٥	..... حكم التساهل في الفتوى وعدم الثبت فيها
٣٤٦	..... خاتمة في مسائل مهمة ذكرها النووي في مقدمة المجموع
٣٤٨	..... غض الأبصار عن المحرمات
٣٥٥	..... احترام ذي الشبهة المسلم وحامل القرآن وأهل العلم وغيرهم
٣٥٩	..... تنبيه في النهي عن إيذاء الفقهاء والمتفقيين وانتقاصهم
٣٦٥	..... تكملة في نبذ من آداب العالم
٣٦٨	..... ومن صفاته ترك الجدال والمراء
٣٦٨	..... ومن صفاته رقة القلب
٣٦٩	..... ومن صفاته التقوى وكثرة الطاعة والعبادة
٣٦٩	..... ومن آدابه رعاية المناسبة في نشر العلم وتوجيه الدعوة
٣٧٧	..... تنبيه في تأويل أفعال الأولياء وأقوالهم
٣٧٩	..... آداب يشترك فيها العالم والمتعلم
٣٨١	..... الخاتمة نسأل الله حسننها
٣٨٦	..... أبيات في آداب التلعلم والتفقه
٣٨٨	..... متن قصيدة النصائح المرسله
٣٩٦	..... أهم المراجع والمصادر
٤٠١	..... التقاريط
٤٠٣	..... فهرس الكتاب



## مصنفات المؤلف

- (١) إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين
  - (٢) التيجان المكلفة في شرح النصائح المرسله، وهو الذي نحن بصدده
  - (٣) المنح الوهيبة في ذم القبليّة والعصبيّة
  - (٤) اللآلي السنيّة في مشروعية مولد خير البرية
  - (٥) التبيين في أدلة التلقين
  - (٦) التحفه في نشر محاسن البرده
  - (٧) أنيس الجليس في ترجمة السيد أحمد بن إدريس
  - (٨) التوضيح في شرح أذكار التسبيح
  - (٩) المنتخب في شرح أوراد مرحب
  - (١٠) البرهان في جواز الذكر بلفظ هو للملك الديان
  - (١١) ترجمة الشيخ ابن حجر الهيتمي
  - (١٢) المنهل في أدلة التوسل
  - (١٣) منية اللبيب في التبرك بآثار الحبيب صلى الله عليه وسلم
  - (١٤) النصائح المرسله إلى طلاب العلم لله والآخرة
  - (١٥) إرشاد الطالب إلى أحكام الشارب
  - (١٦) تنبيه الأكياس على مساوي الوسواس
  - (١٧) ديوان القصائد والمدائح النبوية
- وقد طبعت هذه الكتب كلها والله الحمد بدأ وختمها .
- (١٨) إعلام المؤمنين في مشروعية التبرك بقبور الصالحين تحت الطبع
- وله أيضا مصنفات أخرى لم تكمل بعد، ونرجو له من الله تعالى التيسير في إكمالها وطبعها،  
فإنه المستعان والموفق .